

عبد الكريم ناصيف

---

## الطريق إلى الشمس

- ثلاثية روائية -

---

3- الجوزاء

الحقوق كافة  
محمولة  
لاتحاد الكتاب العرب

E-mail : [unecriv@net.sy](mailto:unecriv@net.sy)

البريد الالكتروني:

[aru@net.sy](mailto:aru@net.sy)

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.com>

تصميم الغلاف للفنان : ريم الخطيب



[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

عبد الكريم ناصيف

# الطريق إلى الشمس

- ثلاثية روائية -

-3-

الجزء

من منشورات اتحاد الكتاب العرب  
2000

## نتويته

عن اتحاد الكتاب العرب، صدرت الثلاثية الروائية "الطريق إلى الشمس" بجزئياتها:

1 - تشريفة آل المر: عام 1993

2 - شرق / غرب: عام 1996.

وهذا هو الجزء الثالث والأخير، بعنوان: الجوزاء.

. واحد أحد!! الله أحد!!

بدأ صاحب البيدر يكيل الحنطة، مائلاً مكياله الخشبي واضعاً إياه في العدل.  
- اثنين، يا موفي الدين، تابع بصوت أعلى وهو يمسح المد الخشبي الذي  
ربما استخدمه أبوه وجده مكيالاً للحنطة والشعير، ثم أفرغه في فم العدل الجائع.  
- ثلاثة، يا مجير من الشماتة، نَعَم الفلاح بلهجة حورانية سرعان ما عادت  
بعزيزٍ وهو يتربّع بجانب صبة الحنطة، إلى أولئك الفتيان البداة الذين جاؤوا، ذات  
يوم من صباحه، بغاة طغاة يأمرون "املا العدول... املا...".

وحين رفض أن يملأ العدول انهالوا عليه بالخيزرانات طامعين في أن ينهبوا  
حتى الثوب الذي يلبسه: "افسخ الثوب... ملعون الوالدين... افسخ الثوب"، ثم لم  
ينقذه من براثن الموت إلا ظهور الفارس المثلث الذي تكشف فيما بعد عن شمس،  
حبييته...". إيه يا لتلك الأيام!! يا شهد العسل...!!".

وأطلق عزيز تنهيدة كادت تفضحه لولا أن كتّمها آخر لحظة، فالرجال  
المتحلّقون حول الصبة، بدافع الفضول من بعض والعمل من بعضهم الآخر كانوا  
لا يغفلون لحظة واحدة عن حركات التاجر الشامي، الذي يتكلم اللهجة البدوية  
مثلهم، ويتقن فن الأخذ والعطاء، ويأتيهم كل موسم لينقل حبوبهم إلى المدينة التي  
تلتهم كل شيء، ودائماً تلتهم كل شيء، سائلة: "هل من مزيد؟!"، اهراءات روما  
نفسها، سهول حوران، بكل غلالها لا تشبع المدينة، فأين تذهب بها يا ترى؟ في  
المواسم الخصبة وحين تجود السماء بالأمطار وتجود التربة بالغلل الوافرة يخشون  
أن تكسد غلالهم. لكن يأتي عزيز وأمثاله فلا يبقى منها شيء. عشرة جمال كانت  
تتيخ بجانب البيدر، تنتظر أن توضع على ظهورها الأحمال. عزيز يسمع بعضها

يرغي بشيء من قلق، وهي تلتفت يمناً ويسرة كأنها ملت الانتظار، لكن بعضها يرقب كيل الحنطة وإملاء العدول مجترأ مافي جوفه بصمت الخضوع وسكينة التسليم.

اثان من الفلاحين بدأ ينقلان العدل الذي امتلاً جانباً، الآخرون يشاركون بالكيل والعد، وكلهم مبتسمون متفائلون. على البيدر لا يجوز التشاؤم أو أصيب البيدر بالنحس وضريت الغلة. حسب الفلاحين التجار الذين يأتون من دمشق وليس في ذهنهم إلا أن يستغلوهم وبيتروهم". المد بعشرين قرشاً، يقول التاجر الذي لا يشيع وعلى الفلاح المسكين الذي قضى عاماً بطوله يفلح وييدر، يحصد ويرجد، يدرس ويذري، أن يرضى بالعشرين قرشاً، فيريح التاجر بالمد الواحد أضعاف ما أعطاه للفلاح.....

وحده عزيز الذي كانوا يعرفونه باسم "عزو" مختلف. هو لا يساوم ولا يريد أن يبتز، يقول لهم "المد بأربعين قرشاً" ... بخمسين" ... معنى ذلك أن سعره هكذا!!.. أربعون ... خمسون قرشاً في سوق الحبوب في دمشق. منذ سبع سنوات كان قد جاء برفقة صبري البديوي سليل تجار الحبوب في ذلك المحل الواسع من سوق الميدان. صبري قال لهم إن أصله من عرب الرولا وإن صداقة حميمة تربطه به. تلك الصداقة جعلته شريكاً له وجوالاً يتحرك باسمه هنا وهناك من قرى حوران. بعدئذ بدأ يأتي بمفرده فارضاً على الناس احترامه، محيطاً نفسه بهالة من غموض، كاسباً ثقتهم شيئاً فشيئاً حتى صار الأثير لديهم لا يبيعون حبوبهم إلا له" ... هذا العام المد بخمسين قرشاً" .. بشرهم حين جاء أول مرة، وأشرقت وجوههم، فنصف ليرة للمد تعني لهم الكثير.

- صب الشاي لعمك عزو ... صب الشاي ... صاح الكيال بابنه الذي جاء بإبريق الشاي الكبير وحشد من الكؤوس، فيما توقف شبه لاهث عن كيل القمح..  
. إن شا الله ماهو حلو؟ قال عزيز مبتسماً للولد الذي بدأ يصب الشاي.  
. شاي حوراني وماهو حلو؟ تدخل أحد الحاضرين ملوحاً برأسه، فيما انفجر الكل ضاحكين.

عزو يحبها "اكرع عجم" ثقيلة مرة، هكذا قال لهم منذ أول مرة، ومنذ أول مرة خاب أمله ومايزال: "ايه" يتأوه دون صوت، وهو يتذكر كأس "الأكرع عجم"، الذي شربه ذات مرة في القلمون فكاد ينعقد له لسانه... كانوا إذ ذاك يستريحون: فوزي القاوقجي، سعيد العاص، وبعض القياديين في أحد بساتين قارة، وقد أعدوا القوة اللازمة لقطع الطريق على الفرنسيين الذاهبين بمصفحاتهم إلى دمشق.. كانت

ثورة حماة قد وئدت في المهدي، وكان عزيز قد أوصل "شمساً"، إلى أهلها في البادية حيث كان الأولاد قد سبقوها ثم عاد فالتحق بقائده. شهرين ظلوا متمترسين بجبال القلمون ومعاصيها، يناوشون الفرنسيون ويهاجمون مخافره وجنوده. كان سعيد العاص هو قائد المنطقة هناك وكانت مهمته قطع الطريق على قوات المستعمر وعزل دمشق عن حمص، فوجد فوزي القاوقجي في القلمون المكان المناسب للانتقام من عدو أجهض ثورته الواعدة في حماة.

كان تكتيكهم "اضرب واهرب"... " تفرقوا إذا اجتمع العدو وتجمعوا إذا افتزق"... وكانت شعاب القلمون ووديانها، جرودها وصخورها، كفيلة بالتغطية والتمويه.

ضربات سريعة كانوا يضربون، هجمات مفاجئة وغارات من حيث لا يحتسب العدو، كانوا يغيرون، وكان لهب الثورة في جبل العرب يتراقص مضيئاً لهم حلقة الظلام. سلطان باشا في عرينه يكيل لهم الضربات، وثوار الغوطة يحيلون الغوطة إلى غابة للأسود.

"إيه!! حياك الله يا سعيد العاص، أيها القائد الفذ!!" رشف عزيز رشفة سريعة من كأس الشاي شديد الحلاوة خفيف النكهة، فعادت إلى ذاكرته نكهة ذلك الشاي الأكرك عجم الذي أوصى عليه سعيد العاص. هو أيضاً كان يحب ذلك النوع من الشاي: "يفتح المخ"، كان يقول: "يقبض على الأعصاب من جذورها، ثم يشدها فينبهها. "يومذاك كانوا بحاجة لكل ما فيهم من أعصاب وتنبه... كانوا يكمنون للقوة الفرنسية في ذلك البستان، وكان عليهم ألا يغفلوا لحظة واحدة، القوة قد تصل في أية لحظة... والمفاجأة يجب أن تكون كاملة... كأساً كبيرة، كأسين، ثلاثاً شرب سعيد العاص، فهو يخشى حتى الاسترخاء... عزيز شرب كأساً واحدة، وكانت كافية لأن يظل منتبهاً حتى مطلع الشمس. كان الشاي أكرك عجم حقيقياً. طعمه ما يزال تحت أضراسه حتى الليلة... حيث الناس غير الناس، والمكان غير المكان، والمناسبة غير المناسبة. عشرة عدول كان أبو دحدل قد ملأ، وكان لهاته قد بدأ يعلو ووتيرة عمله قد خفت فانبهر أخوه يريحه.

فك أبو دحدل إناخته الأشبه بإناخة الإبل القريبة منه، ونفض شيئاً من الغبار عن ركبتيه وثيابه، ثم زحف على عجزته باتجاه عزيز.

- أنا لم أتعب...ها!! خاطب أبو دحدل الجمع حوله وكأنما قرأ اتهاماً في أعينهم، هو الذي لا يرضاها واطئة أبداً. إذ رغم سنواته الخمسين كان الرجل يصير على أنه كالشباب قوة واقتداراً.

- البركة فيك أبا دحدل، خاطبه عزيز مرتباً كتفه، فالمختار الخمسيني، ذو النساء الثلاث والأولاد العشييرة الذين لا يعرف أسماء بعضهم، كان لطيف المعشر ودوداً، وكانت تربطهما علاقة حميمة عمرها سنوات..... ينزل عزيز في مضافته إذا جاء "الخربة"، ويستضيفه عزيز إذا جاء المختار دمشق.... أنت شباب دائم!! تابع بمسحة من هزل... فقد كان الرجل الخمسيني مايزال يلهث....

- غصباً عنك!! رد المختار بمسحة الهزل نفسها... فضحك الرجال المتعلقون وقد اعتادوا مزاح الصديقين... إي مالك علي يمين، شعرة واحدة ما تغيرت منذ عشرين سنة....

. وشواربك التي ابيضت مختار؟ ذقتك التي شابت؟ تدخل أحد الحضور ممن لم يكن يقل عن المختار ابيضاض شوارب وشيب ذقن....

- الشيب صباغ خارجي يا رجل.... المهم هنا.... وهنا أيضاً، رد المختار وهو يشير إلى صدره ثم إلى ماتحت سرته.

. إذا كان قولك صحيحاً لماذا بدأت نسوتك يتهامنن أنك قصرت؟

- خسنن... أبو دحدل مايقصر أبداً... أنا مثل ماقال أخي عزو شباب دائم... أشعر الآن وكأني أهجم على القطار... أتذكر أبا شدهان؟

- أنا الذي يذكر... رد أبو شدهان الأكثر ابيضاض شوارب وشيب ذقن... يومذاك أشهد الله وبالله... كنت زين الشباب... فحل الفحول... القصة يعرفها عزيز، فقد رواها له أبو دحدل عشرات المرات.... لكن أحد الفتیان ممن لم يكن يعرفها أثير فضوله فهب حاثاً المختار.

. صحيح... عمي أبا دحدل!! ماذا فعلتم يومذاك؟

- ه...ه...ه...ي... هوأ المختار ضاحكاً، ضارباً الهواء بيديه كلتيهما، نافخاً صدره وكأنه يريد عب ذلك الهواء كله... عينك ترانا ونحن نهجم على القطار... كأنه يوم الحشر... ياوليدي.. ألوف مؤلفة... بالعصي، بالمناجل، بأسياخ الحديد، بالحجارة، أوقفنا القطار، قتلنا جنود الفرنساوي... ذبحنا رئيس وزرائهم بطوله وعرضه، دعسنا وزراه بأرجلنا... قتلنا الضباط... معركة خربة غزالة... أشهر معركة بثورة حوران، ماسمعت بها ياوليدي؟... طبعاً، كان الوليد قد سمع بها لكنه، ربما، كان بحاجة لبعض التفاصيل التي تنعش نفسه بما تتفحها من عزة وكبرياء... فتلك الثورة حدثت حين كان هو نفسه في بطن أمه، ومذ ولد لم تر عينه سوى "الشيف" الفرنساوي و"الكابورال" السنغالي يجلدان أهل الخربة

فلا يرفع واحد منهم رأسه. "أين ذهب ذلك الزخم؟ أين وئدت تلك الحماسة التي ألهبت صدور الناس فانقضوا على قطار علاء الدين الدرويي يدمرون ويقتلون؟" ..  
- الناس نَعَجَت، قال أبو شدهان وكأنما أدرك ماكان يعتمل في ذهن الفتى  
... ماعاد أحد يحتد أو يثور ...

. كأنهم عَجَزَ هرمون، شباب هذا الجيل... تابع آخر من الجيل نفسه وهو  
ينظر باتجاه اثنين أو ثلاثة من الجيل الأصغر سناً، كأنه ماعاد فيه شباب.  
- لا، فيه شباب... احتج أحد أولئك الثلاثة، لكن مافيه أمل... هناك ياس  
كامل في قلوب الناس... في كل مكان اليأس...

- صحيح... أخي عزو... تدخل المختار شبه مقاطع، إيش يقولون بالشام  
عن هذا اليأس؟ أسبابه؟  
- القسوة، البطش... أجاب عزيز بعد إطراقة وآهة، فقد أثار كلام الفتى في  
نفسه شجوناً وشجوناً...  
. ماتعني عزو أفندي؟

ولم يملك عزو إلا أن ينكمش، فقد كان أكثر مايزعجه أن ينادوه بكلمة أفندي  
أو بيك... تلك الألقاب التي كان أهل الريف يطلقونها على كل من يجيئهم من  
المدينة... عشرات المرات توصل إليهم أن ينادوه باسمه مجرداً: "عزو"، "أبا العز"،  
"أبا الأخضر"، لكن عبثاً... يخرج له أحدهم على حين غرة ويفاجئه بهذا اللقب أو  
ذاك... بلع عزيز ريقه، بالعم معاً معه اللقب الذي وقف غصة في حلقه لحظات، ثم  
أجاب:

. تعلمون... ثورات عديدة قامت على فرنسا حين دخلت بلادنا... في جبال  
اللاذقية، في جبل الأربعين... في دير الزور، في حماة، هنا في حوران، في  
جبل العرب... الغوطة، دمشق كلها كانت ثورات ترفض الاستعمار والانتداب...  
تتادي بالحريّة والاستقلال... لكن كلها بطشت بها فرنسا، ضربتها بقسوة  
وجبروت... كم دمرت من أحياء!! حرقت من قرى، قتلت من أبرياء... نسيتم  
حملة غاملان؟ ثلاثون ألف جندي هاجموا الجبل... حرقوا الأخضر واليابس...  
هذا البطش هو الذي أخاف الناس، زرع في نفوسهم اليأس...

. يعني... الاستعمار باقٍ... لا أمل؟ سأل أحد الشبان.  
. يعني صخرة فرنسا على صدرنا ولن تتزحزح؟ سأل ثانٍ.  
- أموالنا يأخذونها... حيوينا باسم الميرة يصادرونها... أعراضنا

ينتهكونها.....

هدر شاب ثالث.

- لا... لا... صاح المختار محتجاً مقاطعاً، لا تقلبوها سياسة... ثم أردف بنبرة الهمس وهو يميل عليهم ميلاً التأمراً، هناك آذان صاغية تسترق السمع وأيدي... خطها حلو....

- ليسمعوا ما يسمعون.... وليكتبوا ما يكتبون.... لا يهمننا!!... قاطع الشاب الأول وقد ازداد حماسة. ليلطوا البحر...

. لا... يا وليدي!!... سيبلطوننا نحن!! أنا مختار وأعرف جيداً ما في أدمغة الدرك وبقوايدهم...

ثم أشار بيده إشارة الإطلاق، مطلقاً من بين شفتيه عدة أصوات مفاجئة:  
طخ...طخ...طخ...

وساد الصمت... هنيهة من الزمن لا يكسره سوى صوت القمح يعبأ في المكيال ثم يفرغ في العدل، ورغاء بعير أو بعيرين ربما سئماً القعود. كان القمر الذي ما يزال هلالاً قد غاب في الأفق الغربي وكانت سماء الصيف مرصعة بالنجوم لألاءة تجذب إليها الأبصار... بصر عزيز ينتقل بين بنات نعش والغرار... نجوم الميزان ودرب التبان المبيض كطريق من ثلج.....

"أهي السماء نفسها التي رأيتها ليلة تل عرار؟" ... ويمسح عزيز السماء من جنوبها إلى شمالها..

"وهذه النجوم، أهي النجوم ذاتها التي كنتُ أبتها شكواي، شكوى العاشق المحروم؟ أرسل مع أشعتها الرسائل إلى معشوقتي، شمس؟ لكن الصمت المهيم يعيده من جديد إلى الرجال من حوله يتأمل وجوههم... عيونهم... ثمة خوف... خوف يراه حيثما يذهب... في دمشق، حماة، أم العيون، ثمة خوف يصل حد الرعب من مستعمر طاغٍ باغٍ لا يعرف قلبه الرحمة... حسن الخراط الذي ذبحوه ومثلوا في جسده، أحمد مريود الذي حوَّصر في جباتنا ثم قتل ومن معه عن بكرة أبيهم، سلطان الأطرش الذي حُثِر في الزاوية بعد أن ذبح من ذبح من رجاله، وسيق من سيق إلى السجن، ولم يفلت هو نفسه من الأنتشوطة إلا بشق النفس.....

كل ذلك جعل الناس تستكين"... وكيف لا يحتج ذلك الشاب ويثور؟ لم لا تغلي الدماء في عروقه وتفور؟ ذلك من حقه... لكن هل من حقي أنا أن أطمئنه؟

هل من حقي أن أعلنها صريحة: لا تخف... الشعب لم ولن يستكين؟ أنا مثلاً لم أستكن... مازلت...".

فجأة ينقطع الصمت وتتقطع معه سلسلة أفكاره... أخو المختار يعلن إنهاء المهمة بصوت جهوري.

. ثلاثة وثلاثون!! البركة كلها يا حنون!!

. أعطاك الله العافية!! هب المختار هاتفاً بأخيه متحصلاً صبة الحنطة التي مسحت عن وجه الأرض حتى غدت أثراً بعد عين....

. سلمت يداك، أردف عزيز وهو ينهض من مكانه، متجهاً إلى حيث كانت تنتصب العدول بين صبة القمح التي اختفت والإبل التي كانت تجتر وترغي....

. ابدؤوا التحميل، قال المختار مخاطباً أصحاب الجمال الذين كانوا يسترخون بجانب جمالهم، هيا... .

. الكل هنا؟ تدخل عزيز وقد لفت نظره غياب أحدهم.

- عواد!!.. رد أحد الجمالين بشيء من غمز فيما شرع صحبه بتحميل جمالهم... .

"هذا العواد العاشق لا يأتي إلى الخربة إلا وينسل خلسة ليغيب ساعة أو ساعتين...".

.... وتبسم عزيز في سره وهو يشيح بناظره عن الجمالين، متطلعاً إلى القرية الملتفة بطيلسانها الأسود تاركة فتحة هنا، وفتحة هناك لمصاييح ذابلة شاحبة أشبه بحبابات تتبثق هنا وهناك...، في أي وكر حبابية، أنت يا عواد..؟ "كان عزيز قد حاول أكثر من مرة أن يسأل ذلك الفتى الذي لم يجتز سن المراهقة بعد عن الفتاة التي سحرت لبه إلى درجة تجعله يهرب إليها تحت جناح الظلام وفي كل فرصة تسنح له، لكن عبثاً... كان الفتى يخشى على محبوبته افتضاح السر فحرم على لسانه حتى ذكر اسمها "حسيبي أن أنتسم شميمةا".. كان يقول لعزيز كلما سأله عنها: "أهو شميم العرار في نجد؟" يسأله عزيز ويضحك فيتمتم الفتى: "بل هو الخزامى، هو النرجس، هو الياسمين"، ولا يملك عزيز إلا أن يبارك ذلك العشق الذي يسمو إلى مرتبة عبق الخزامى، وأريج الياسمين.

. الله لا كان جابك... أين كنت؟ قال أحدهم في الطرف القصي للجمال... .

التفت عزيز فرأى على قبس النجوم المتلألئة شبح عواد وهو ينسل مسرعاً إلى بعيره، مسكناً صاحبه بإشارة سريعة من يده وهمسة خافتة من شفثيه:

. اسكت... اسكت...

ومن جديد، تبسم عزيز وهو ينظر إلى الفتى الذي أسرع إلى أقرب عدل يحمله مع فتى آخر ربما كان يبحث عن شريك. هم عزيز بالتوجه نحوه، يمازحه ويسأله، لكن شبهاً آخر كان ما يزال بعيداً في الجهة الأخرى شده إليه. شبح نذب كان يعرفه جيداً... مشية الذئب تلك لا يخطئها... انطلاقة سريعة، بضع خطوات، ثم توقف وتفحص... تأكد من سلامة المكان، ثم اندفاعاً جديدة... "هو ذا البطحيش" قرر عزيز ثم شرع يتحرك صوبه.

عزيز لا يدرك ما اسمه الحقيقي، بل لا أحد يدري ما اسمه، الكل يعرفونه بلقبه "البطحيش"، تلك الكلمة التي ربما تجمع كلمتين: "بطح" و"طحش"، وكلتاهما تدل على القوة والقدرة والفتك... "البطحيش"، بالحقيقة، هو هذا كله، يبطح كل مستعمر يجده في طريقه ويطحش كل عدو يلتقيه... ليس علانية أو نهاراً بل خفية وتحت ستر الظلام.

ألم نقل الشاعرة الأندلسية: "فإني رأيت الليل أكرم للسر؟" هكذا يفعل البطحيش، ينتقل من قرية إلى قرية في حوران... ومن ضيعة إلى أخرى كي يهاجم دورية أو يغير على مخفر أو ينصب كميناً لعسكري فرنسي...  
. مرحباً، صديقي، بادره البطحيش وقد وصل إليه عزيز في الطرف القصي للبيدر....

. مرحباً يا بطحيش... ما الذي جاء بك؟ سأله عزيز وهو يختلس النظر إلى الورا، ربما خشية أن يكون قد لحظه أحد.  
. "الليوتتان" هناك... رد البطحيش بنبرة الهمس ذاتها، واختلاس النظر ذاته، مشيراً إلى جهة محددة في القرية.  
. والظروف؟

- كلها مؤاتية، أجاب البطحيش بنبرة المطمئن، درت حول البيت ثلاث مرات... معه سائقه فقط، ينام على مقود السيارة، وهو القدر الحقيير . في الداخل...

وكز عزيز على شفته: "لا شك أن الفتى كان يعنيه، ذلك "الليوتتان" القدر، حين قال: "ينتهكون أعراضنا".. تمتم عزيز دون إفصاح، وهو يتفكر مطرقاً في أمر "الليوتتان بورجيه" الذي ما فتئ يعهّر نساء القرية واحدة بعد الأخرى، و"دنيا" التي يسهر عندها الليلة إنما كانت زوجة هنية وفيية، لكن على وجهها

"الحسة لبن"، ولهذا السبب، ربما، لفتت نظر "الليوتتان"، فجاء بزوجها إلى الثكنة يشتغل في المطبخ نهاراً حيناً، وليلاً أكثر الأحيان، فيما هو يفرض نفسه على امرأته ويحتل فراشه...

- انتظرنى عند البئر... بعد ساعة... همس عزيز لصديقه ثم دار على عقبيه، متمشياً على مهل وكأنما هو عائد من قضاء حاجة.

"هيلا... هيلا.."

يا نشامى شيلوا الشيلة.."

كان الفتية، وهم يحملون الجمال عدول الحنطة، ينشدون بتناسق وتناغم جعلاً قدمي عزيز تتسمران وعينييه تتشددان إلى حشد النحل المتحرك بطنين موسيقي موقع. وعلى ضوء النجوم بدا المشهد لعزیز فاتناً يأسر القلوب.. "هؤلاء المساكين شبه الجياح، شبه الحفاة العراة يعملون بكل همة ونشاط، بل إنهم يغنون ويهزجون!! كم هو جبار، الإنسان!!.. من قلب البؤس يصنع السعادة، ومن فكي الحزن يستل الابتسامة!!"...

"والجمال غضبان هايح..... يا ويله اللي يقرب ويله..."

هيله... هيلة...

يا نشامى شيلوا الشيلة"....

كانت خلية النحل تصدر طنينها المموسق، حاملة العدول، رابطة واحدها إلى هذا الجانب أو ذاك من بعير يرغي احتجاجاً على حمل سيوقر ظهره، أو ينظر إلى الرجال مجترأً وقد أسلم أمره الله!! فيما المختار يغدو هنا، يروح هناك، يحمس الشبان، يبدي الملاحظات أو يلقي الأوامر، فخطأ واحد في التحميل قد يؤدي إلى سقوط عدل وإعاقة حركة القافلة كلها.

- هيا يا شباب... حيا الله الشباب!! بادره من جديد، وهو يقترب، حائلاً مشجعاً. فالقافلة يجب أن تتطلق بأسرع وقت. لكنه مع كلمة "شباب"، أحس بشيء كالوخزة في قلبه. كان قبل سنتين قد رأى أول شعرة بيضاء في مفرقه، حسب بطرفة عين سنوات عمره، فأدرك أنه بلغ الذروة، هناك حيث يتبدل خط الانحدار ويبدأ المرء بالهبوط بعد أن كان في صعود. حينذاك أحس بغصة...".  
"الأربعون...!! الله كيف مضت تلك الأربعون!!" ومرقت في ذهنه صور: اشتباكات، مغامرات، معارك!! ثم مرق عثمانيون وأبو شعيب، فرنسيون وغورو، ثورات وحروب، وهاهو ذا الآن يتحول إلى تاجر حبوب يجوب حوران وينقل

حنطتها وشعيرها إلى المدينة.. تجارته مريحة ولاشك، شراكته مع رئيسه القديم اليوزباشي صبري توفر له الراحة والطمأنينة، لكن أهذا ماكان يبتغيه عزيز؟.. كثيراً ماكان يسأل نفسه وكثيراً ماكان يرتد على عقبه. "ليس للتجارة خلق عزيز.... وليس بأعمال كهذه يجد نفسه عزيز...."، لكن ما إن التقى بالبطحيش حتى شعر أنه وجد نفسه.

هيله.... هيلة...

يا نشامى شيلوا الشيلة"....

جاءت النغمة مختلفة هذه المرة، فتنبه عزيز إلى الرجال وهم يشدون آخر العدول إلى جمال ثلاثة بينها جمل عواد، فيما عواد يشد باستغراق تام الحبل حول سنام جملة ثم ينزل به خلف قائمته الأماميتين وتحت بطنه. "كم هو نشيط هذا الفتى؟" جمجم عزيز وهو يرقب الفتى الطويل الناحل، جلدًا على عظم، "أهو الفقر وسوء التغذية، أم التعب والإجهاد؟" إذ ما إن تفتح المدرسة أبوابها في الأول من تشرين حتى يسارع عواد إليها، ينكب على كتبه ودفاتره يجد ويجتهد، ثمانية أشهر حتى يحصل على درجة متفوقة في سلم الناجحين.. هو في الصف الحادي عشر.... يحفظ الأشعار، يعرف التاريخ والجغرافية، الفلسفة والمنطق، الحساب والجبر... مثله مثل الأخضر... هما في صف واحد... يراه عزيز فيتذكر ابنه.... كلاهما يحب الدرس، يطمح لأن يكون شيئاً في عالم العلم والمعرفة، لكن ابنه لا يحتاج لأن يكد ويكدح طوال الصيف. الأخضر في غنى عن هذا كله... أبوه يعمل، يوفر له المال لكي يعيش ويدرس، لكن من يوفره لعواد؟ عواد يعلم ذلك، لهذا ما إن تغلق المدرسة أبوابها حتى يسعى في مناكبها... غلال حوران تنتقل إلى خارج حوران، والجمال واسطة النقل.

لدى عواد جمل فتى قوي... إذن لماذا لا يعمل؟ شهرين أو ثلاثة، يظل عواد يعمل جمالاً، راجداً الزرع من الحقول إلى البيادر، ثم ناقلاً الغلال من البيادر إلى دمشق.... منذ سنتين عرفه عزيز وهاهو ذا الموسم الثالث يبدأ معه... فتى ذكي نشيط صاحب دعابة.....شجاع، لطالما دخل قلب عزيز بقصصه ودعاباته.

- نمشي، عزو أفندي؟ فاجأه رئيس الجمالة، وقد جاء من خلف واللهاث مازال في فمه.

.توكلوا على الله، رد عزيز بنبرة من فرح وقد بات باستطاعته أن يبدأ العودة إلى دمشق.

. ه...ى!! ه...ى!! يا الله يا رجال!!

- هيب... يتج... هيب... يتج هيا... انهض... راحت أصوات الرجال تتعالى حاضرة جمالها على الهبوب من إناختها الطويلة والجمال يتلأأ بعضها وينهض بعضها الآخر لكنها كلها ترغي وتزيد وكأنها تحتج على ما حملوها من أقال.  
تعرفون الطريق، امضوا على بركة الله ولا تزعجوا الجمال/ تابع عزيز، وقد نهضت الجمال، معطياً تعليماته لرئيس القافلة، على مهل!! تصلون بإذن الله ظهر الغد!!

. ألن تأتي معنا؟! تساءل رئيس القافلة بشيء من استغراب..

. بل قد أسبقكم! ... قال عزيز، وهو يشعر أن عليه أن يفسر، حصاني في إسطبل المختار. رئيس القافلة يعلم أن حصانه في إسطبل المختار، لكنه لا يعلم أن هناك مهمة أخرى ورجلاً آخر في انتظاره ربما يؤخرانه بعض الحين.  
. هيا بنا!!... قال له أبو دحدل وهو يمسك بيده، متجهاً صوب القرية.

في المضافة، وجدوا طعام العشاء جاهزاً. أم دحدل تعلم أن سفرتها يجب أن تكون غبّ الطلب دائماً، يحضر الضيف، يقدم له الطعام في الحال، فكيف إذا كان الضيف قد حضر منذ العصر؟

لقيمات سريعة تناول عزيز، غسل يديه، دفع ثمن القمح، ثم ودع الرجال على عجل وامتنطى حصانه على عجل، عله يصل في موعده المحدد مع البطحيش.

قبل أربعة مواسم، وفي ليلة صيفية كليلته تلك، كان عزيز يسير بقافلة إبلة إلى دمشق. لم يكن هناك قمر، النجوم وحدها كانت تتلامع في قبة السماء، قيس من ذلك اللمعان كان يصل إلى الأرض، فتتسع أحداق البشر والبهايم لتصنع منه نوراً يضيء لها طريقها. عزيز يذكر كيف استطاع في تلك الليلة أن يرى على ضوء ذلك القيس جسداً ممدداً على الأرض، حسبه في البداية جثة هامدة. فهو بلا نامة، بلا حركة، لكنه ما إن انكب عليه يتفحصه حتى لفتحته أنفاسه الحارة ونبضات كانت ماتزال تروح وتجيء في سكة أفقرها الجذب وعلاها الرمل والغبار. "من أنت؟! ماذا بك؟!.. انهض يارجل!".. هتف به رجال قافلته يتحلقون حوله، لكن الرجل كان أشبه بجثة هامدة... تلمسوه، تفحصوه فإذا بالرجل جراح ودماء، ربما لم يبق في عروقه منها إلا الدماء.. حمله عزيز عن الأرض، وضعه على ظهر حصانه ثم أسرع به إلى أقرب قرية. في الشيخ مسكين كان له صاحب.

أوعز للقافلة أن تتابع مسيرها ومضى هو إلى صاحبه. هناك أسعفا الرجل. فحكيم القرية العربي كان يعلم كيف يعالج الجروح، يستخدم الكي والمراهم ويوقظ المغشي عليهم من غشيتهم، أراد عزيز أن يأخذه معه إلى دمشق لكن الجريح أبي.. رأسي مطلوب، وإن رأوني في الشارع عرفوني.. ومكث الرجل في "الشيخ مسكين"، يعالج من رصاصتين خرقتا جسده... الأولى في الكتف والثانية في الخصرة. ولم يكن عزيز بحاجة لأن يسأله".

كيف، أين، متى؟ "ففي بيت "الشيخ مسكين" عرف عزيز أن الرجل مشهور في حوران، يعرفه القاصي والداني، مقارنته للمستعمر حديث الناس جميعاً، روى له صاحبه من قبل الكثير عن قصصه تلك: هجوم على مخفر، كمين لدورية، اعتراض لقافلة عسكر، بل ذات مرة دخل البطحيش مخدع قائد المعسكر نفسه كما تدخل الأتباع. انتقله من بين ذراعي امرأته، واضعاً رأس الخنجر بين عينيه قائلاً له: "كي تعلم أن باستطاعتي أن أصل إليك أينما كنت، فكف عن ظلمك للناس، أوقف نذالاتك وسفالاتك أو ذبحتك بهذا الخنجر ذبح النعاج"... وكما دخل شبحاً، خرج شبحاً وعينا القائد الفرنسي جاحظتان، شفتاه راعشتان، أسنانه تصطك ولسانه منعقد لا يستطيع النطق، فيما امرأته تمثال من تلج لا يعرف الصراخ.

تلك القصة أثارت إعجاب عزيز أيما إثارة فانكب على الجريح يلثمه ويشد على يديه.....ومن بين اللثم والشد خرجت كلمات كانت ميثاق صداقة وحب، مهره كلاهما بخاتمه.

ثمانية وأربعين يوماً ظل البطحيش مختفياً في بيت "الشيخ مسكين"، إلى أن استعاد عافيته، قافلة الجمال تروح وتغدو، عزيز في ذهابه وإيابه يمر به، يقضي معه الساعتين أو الثلاث، يزوده بكل ما يحتاج، يستمع إلى قصصه، يروي له قصصه، لقد كان عزيز بأمس الحاجة لرجل كالبطحيش، خمس سنوات كانت قد مضت عليه لم يشم فيها رائحة بارود ولا دخان معركة.

كان البطش الشديد والخسائر الكبيرة في الممتلكات والأرواح قد بثا الرعب في القلوب إلى درجة خرست معها الألسن وثلت الأيدي، فلا عصيان، ولا تمرداً... بل لا رأساً يرفع ولا صوتاً يسمع... وكان ذلك يحز في نفس عزيز... هو مستكين... في محله في الميدان يعمل بصمت، في أزقة الميدان يسير وكل من حوله يهمس، "امش الحائط، الحائط، وقل يارب الستر"، لكن في أعماقه كان ثمة بركان... "هذا الخضوع، هذا الخنوع، إلام يستمر؟.. يجب أن تتحرك عزيز..، لكن كيف يتحرك والكل جمود؟ كيف يتحرك والأعين مصوبة عليه،

والآذان موجهة إليه، هو الغريب عن الميدان، الوافد من مكان غامض وزمان غامض؟

صبري البديوي يشكل غطاءه، يخرس عنه الألسنة... فكيف يثير عليه تلك الألسنة؟ هو هارب من الفرنسي. مبتعد عن حماة، عن أم العيون، بل حتى عن الشيخ نواف والبادية، فكيف ينبه عليه الفرنسي؟ اسمه غيره، ثوبه بدلّه، بل حتى صنعته، علاقاته جدها كلها وقد عقد العزم على أن يخفي ماضيه كله، فلا يأخذه الفرنسي بذلك الماضي.

لكن، ما إن عرف عزيز البطحيش وسمع قصصه وبطولاته حتى ثار في نفسه الحنين لأيام القمص والبطولات... عقد العزم على أن يعيد سيرته الأولى من جديد... "اسمع"، قال للبطحيش: "حين تسترد عافيتك، وتخطط لعمليتك الأولى، سأكون شريكك". وهو ما حدث بعد شهرين فقط.

- ه...يه... أخبارك؟ بادر عزيز صديقه البطحيش شبه هامس وقد وصل إليه في المكان المحدد والزمان المحدد....

. الأمن مستتب... رد البطحيش بنبرة الهمس نفسها وهو يشير إلى دار قريبة تقف أمامها سيارة جيب، لكنك تأخرت، تابع البطحيش همسه، خفت أن يذهب "الليوتان" قبل أن تجيء...

- حانت منيته فأين يذهب؟ رد عزيز ضاحكاً ضحك الهمس... لقد خطا للانتقام منذ زمن... لكن الفرصة لم تأت إلا الليلة. ظلمه، قسوته، ارتكابات، فظاعاته، كلها كانت قد انتشرت في المنطقة شائعات، وأقاويل، "لا يترك امرأة من شره"، "يريد أن يجعل من نساننا كلهن عاهرات"، "لا رجل يستطيع الوقوف في وجهه"...، "يستخدم كل وسيلة للوصول إلى المرأة التي يريد"، وكانت "دنيا" آخر النساء التي يريد...

. الخطة؟ سأل عزيز صاحبه وهو يربط حصانه إلى جذع شجرة يتيمة كانت قد نمت في غفلة من الزمان والشياخ والناس.

- نكمّ فم السائق أولاً... شرح البطحيش وهو يلطأ إلى جانبه وأعينهما الأرع على السيارة الجاثمة، بومة في خراب.

. ولماذا نكمّ فمه؟ نقله وننتهي منه؟

- وإذا كان مغربياً أو جزائرياً؟ لا، لا نريد أن نقتل عربياً مسلماً. البطحيش يحسب حساب كل شيء، وهو يميز... هذا حلال، هذا حرام، ذاك خير، ذلك

شر . وقتل سائق قد يكون مظلوماً بريئاً جيء به لخدمة الفرنسيين رغماً عن أنفه أمر لا يرضاه وجدانه. وجدان عزيز أيضاً لا يرضاه، لكن عزيزاً يخشى الفشل "ماذا إن قاوم السائق؟ ماذا إن افلح في تنبيه "الليوتتان"؟ التخوفات كثيرة، مع ذلك يفلح البطحيش دائماً في إقناع عزيز، فالمرء يجب أن يكون عادلاً منصفاً، فلا يأخذ امرءاً بجريرة آخر ولا عنزة بعرقوب أخرى.

على مهل بدأ الرجلان يتسللان.. وبحذر شرعاً يقتربان، الدار في الطرف الشمالي الغربي من القرية.. يحفها من كلا جانبيها دور وسكان، وأية نائمة قد توظف النائمين. أية حركة قد تنبه الساهرين.. ثمة كلب أو كلبان ينبحان وبقرة تخور وشياه تنعوث... غربي الدار، شرقيها. لكن الدار صامتة، لا كلب ينبح ولا بقرة تخور... زوج دنيا فقير... عاملاً بالميامة يعمل... ربما لا يملك بقرة ولا شاة.. أهذا ما أغرى "الليوتتان" بزوجته، دنيا التي تطمح لأن تملأ بطنها بما لذ وطاب؟

وتذكر عزيز ذلك الكابيتان الذي سال لعبابه على شمس.

نصب الشباك لها، رسم الخطط ودبر المكائد كي يلتهمها، وحين أعيته الحيل، كثر عن أنيابه ومخالبه علناً ثم انقض عليها جهاراً نهاراً. عزيز على ثقة أنه لولا ذلك الخنجر الذي كانت شمس قد خبأته في صدرها والشجاعة التي بقيت لها من ذلك الفارس المثلث، لذهبت لقمة سائغة بين فكيه. "اللجنة عليكم أيها المستعمرون!!..."

تحسبون الناس كلهم عبيداً، ونساءهم كلهن إماء، تفعلون بهم وبهن ما تشاؤون.. وأحس عزيز بدفقة حماسة تملأ جسده كله.

. السائق لك، و"الليوتتان لي" .. همس عزيز في إذن صديقه وقد صارا على مقربة من الدار...

. لم لا نعمل معاً؟.. رد البطحيش مستغرباً اقتراح صديقه الجديد...

. لا... لا.. ابق أنت في الخارج، تحرس الطريق وتحمي ظهري..

غُلُّه على الكابيتان جيران لم يكن قد شفي بعد، أحد عشر عاماً كانت قد مضت على تلك الحادثة، مع ذلك، يشعر عزيز بمرارة في فمه وغصة في حلقه، كأنما كانت بالأمس. "كيف يفكر ذلك النذل الخسيس بتمريغ شرفي في الوحل؟ كيف يخون الخبز والملح؟ كيف يغدر بصداقتي وينهش لحم امرأتي؟"... تلك الأسئلة كانت لا تنفك تطرق جدران دماغه، كلما استعاد تلك الذكرى.

وهي، ربما، ما ألهب فيه الحماسة حين سمع بقصة "الليوتان" الذي ما فتئ يعهر النساء.

على مقربة من السيارة، انفصل الصديقان، البطحيش توجه إلى السائق، وعزيز نحو باب الدار... نمسين ينسلان بخفة وحذر... بطرفة عين وصل الأول إلى هدفه، وقد تمدد في المقعد الخلفي مستغرقاً في سبات عميق. يد على فمه والأخرى على عنقه ثم شدة من هنا وشدة من هناك، وبدأت الروح تتحشرج، متذبذبة بين الصدر والفم.

. منشان الله... دخيل محمد، راحت كلمات منقطة تفلت من الفم المكموم، والعنق المضغوط...

. أنت مسلم إذن؟ همس البطحيش في أذنه سائلاً.

. الله أكبر!! أشهد أن لا إله إلا الله وأن... ..

- يكفي... قاطعه البطحيش شاداً الكمامة على فمه، اسكت تنج... وسكت السائق مسلماً نفسه بكليته للرجل قوي الذراعين عريض المنكبين الذي راح يشد الكمامة على شفثيه والوثاق على يديه..

في غضون ذلك، كان عزيز قد تسلق الحائط، ثم انقلب بهدوء وحذر على الجانب الآخر... الباب خطر... قد تصر مفاصله الخشبية العتيقة... مصدرة صوتها الصدى فينتبه "الليوتان" الغارق في بحر اللذة.

ببطء وثبات اجتاز فناء الدار... على مصطبة أمام الغرف، كان ثمة فراش أو فراشان، وكان أطفال ينامون. داخل الغرفة، كان ضوء مصباح، لطا بجانب الحائط يصيخ السمع، ثمة لهات وشهقات، اختلس النظر من شباك صغير... "الليوتان" آدم يعلو حواءه، ودنيا حواء تعانق آدمها، واللهاث يتسرب عبر الباب الموارب بلا مبالاة: صيحات مكتومة وشهقات معلومة". الويل لك أيها العريبد العاهر"، تتمم عزيز وهو يركز على شفثه السفلى، مشرعاً خنجره في يده واثباً إلى الباب وثبة نمر حدد مكان فريسته. وثبتان أو ثلاث ثم وقع على فريسته منشباً فيها أنياباه ومخالبه... الانتقاض صاعق، والإنشاب مباغت إلى درجة صعقت معها الفريسة فلم تجد قوة لمقاومة أو وقتاً لصراخ.

. ويلا... بدأت دنيا تحته الصراخ، وقد أربعا الانتقاض المفاجئ فيما كان خنجر يهبط ويعلو ودم حار ينبجس ويتدفق... لكن قبل أن تكمل صرختها أطبقت يد قوية أخرى على الفم وهمسة مرعبة هدرت في الأذن...

. اخرجسي أيتها الفذرة أو قتلتك...

وخرست دنيا، ليس بلسانها فحسب بل بكل ما فيها... صدرها، بطنها،  
فخذاها، كل شيء همد بعد نشاط وخرس بعد صخب... الرجل المثلث لا تبدو منه  
إلا عيناه... يده فقط تطعن وتطعن فيما "الليوتان" يسقط منكوماً على صدرها وقد  
شهق شهقة الموت...

تنتثر أشعة الشمس على الزجاج المعشق، لوحات فسيفساء ونثار قوس قزح. شمس تحب ذلك النثار وتلك اللوحات، تفتح عينيها عليها كل صباح فتشعر بأيد خفية تدغدغ أحاسيسها. هذا الفن الجديد الجميل الذي أبدعته دمشق كم هو متعة للعين وبهجة للناظرين!!...

في المضارب أيام زمان، لم يكن هناك زجاج معشق، ولم تكن الشمس تتكسر على بللور النوافذ، أقواس قزح، وفسيفساء ألوان. في أم العيون، في حماة نفسها، لم تكن شمس قد استمتعت بما أبدعته قرائح الفنانين المبدعين في دمشق. هنا، في هذا البيت الدمشقي العتيق وحده عرفت قيمة الفن والغاية من الفن: إبداع كل جميل ساحر وصنع كل ممتع مثير!! نساء دمشق يضعن الستائر على الزجاج المعشق، فيحجب انعكاسات الإبداع وارتساماته. شمس أبت منذ البدء إلا أن تعانق الشمس كل صباح عبر مهرجان الألوان ذاك. تفيق، ترخي العنان لخيالها هنيهة من الزمن، تظل في فراشها مسترخية فليس أفسى عليها من أن تهب من نومها على عجل... لحظات الاسترخاء تلك، الانتقال من النوم إلى اليقظة على مهل أروع متعها. الكل يحرصون على ألا يحرموها منها.

وضحة، عزيز، الأولاد كلهم يعرفون حبها للاستيقاظ على مهل والتلبث زماً في الفراش. وضحة تعلم ما عليها أن تفعله من تنظيف، كنس، مسح قبل أن تفيق عمتها، الشيخة ابنة الشيوخ التي رافقتها مذ كانت في حماة، هي ليست شيخة ولا سيدة بالنسبة إليها، بل هي عمة، أم.....حنانها، سعة صدرها، طيبة نفسها، كل ذلك جعل الحياة لدى "الشيخة" هينة لينة، وجعل وضحة تشعر كأنها في بيت أمها وأبيها، هي تطبخ، تنفخ، تربي الأولاد، وحسبها أن ترضى عليها العمة.

ابتسامة الرضى ترسم على شفتي شمس وهي تلتحم بعزير أكثر وأكثر فيما أمواج دفته تغمر رمال شاطئها المستكين... ليلة أمس!! آه ما أروعك يا ليلة أمس!!.. وشرعت تنقل ناظريها من فسيفساء الزجاج المعشق إلى مهرجان الجسد الدافئ رافعة عنه الغطاء الخفيف، متفحصة ذلك الجسد العبقري الذي يمنحها الارتواء بعد الظمأ، الراحة بعد التعب والاسترخاء بعد التشنج، فتنتشي غبطة وسعادة. بأطراف أناملها مرت على الكتف المصنوعة من عجين القمح، المشوية كالآجر على نار التتور... بعد الكتف مرت على العضد، لامست عضلته المفتولة ثم الزند فشعره الكث... هنا... بين هذا الزند وذاك العضد تنهصر شمس، تشعر بنفسها تذوب في الصدر تنسرب إلى القلب دفق دم حار يمتزج بدم عزيز ويمضيان معاً إلى مروج الربيع. بتعبد الوالهة تتأمل شمس الوجه الجميل، وهو يشع رضى وابتساماً فتتذكر رابعة العدوية وهي تنظر إلى السماء ثم تنشد: وليت الذي بيني وبينك عامراً.. وبينني وبين العالمين خراب. ثم بتعبد الوالهة تنشم شمس رائحة الجسد. أنفها يتعشق تلك الرائحة حيث عبق الرجولة يطغى على كل شيء... من قال إن للأبوثة وحدها عبقاً؟ للرجولة أيضاً عبق، لا يضاهيه في أنف شمس عبق الياسمين ولا النرجس. ليلة أمس تأخرت القافلة.. العاشرة، الحادية عشرة، منتصف الليل، وعزير لم يصل. لكن كيف تنام وعزير لم يصل؟.. هي على ثقة أنه سيأتي، فالموسم في نهايته وربما تلك هي آخر القوافل ثم هي مشوقة إليه.. في أحشائها لهب يتراقص. في كل خلية من خلاياها لهب يتراقص. لا تملك إلا أن تنتظر... أيام كانت قد مضت على غيابه، أرسل فيها قافلتين دون أن يجيء.. أحياناً يأتي مع كل قافلة وأحياناً لا يجيء...

هو موسم الحبوب وعليه أن يعمل... لقمة العيش مغمسة بالدم، والحياة صعبة شاقة، لا أحد فيها يطعمك بملعقة من ذهب... عليك أن تكافح لكي تعيش وعزير يكافح. طوال تموز وآب يظل يكافح.. يذهب ليعود ويعود ليذهب. طريقه في تجارة الحبوب شقها بقوة وجدارة، كما شق ذات يوم طريقه في تجارة الجبن والسمن.. شهرين كل موسم يذهب بالمال إلى حوران ليأتي بحبوب حوران، وهي تنتظره كلما غاب على أحر من الجمر.. "يا إلهي!! أما أن لهذا القلق أن يسكن!! لهذا اللهب أن ينطفئ!!".

هي تشعر بأن تلك اللحظة وذلك ينبوع، حيث كشف عزير اللثام عن وجهها يوم كانت فارساً ملثماً فتبين له أنها الشمس التي تحتجب خلف قناع. شمس تشعر وهي في فراشها أنها ما تزال بين يديه هناك، قرب ينبوع بكل ذلك

الدفء، بكل تلك الدهشة، تبوح له بسرها، سر الأنوثة التي كمنت طويلاً ثم تقجرت ينبوعاً من عطاء.

حماة، ارتماء العشاق عليها، محاولات خالد آغا امتلاكها، مناورات حسني لاختراقها، خطط الكابيتان جيرار للالتفاف عليها كل ذلك ذهب مع الريح ليظل ذكريات فقط. هي تذكر جيداً يوم مضت إلى البادية، تختبئ بين أهلها من ذئاب الفرنساوي وقد قتلت أشرس تلك الذئاب.. الخنجر الذي غرسته في قلب الكابيتان جيرار كان قد ختم تلك المرحلة العصيبة من عمرها. الدماء التي سالت من صدره على يدها كانت قد شفت غلها، أعادت لها الكرامة التي كادت تفقدها على يديه. في المنزل التقت بعزيز، فمضى بها عزيز زورقاً تعصف بشراعه الرياح.. خرجا من حماة تحت جناح الظلام أودعها حيث الأهل والأولاد، ثم عاد هو إلى الثورة والثوار، فوزي القاوقجي وسعيد العاص... سنتين ورياح الثورة تعصف به... لا يحط في مكان إلا ليرحل، ولا ينتهي من عملية حربية إلا ليبدأ أخرى، وهي تنتظره متنقلة مع أهلها الرحل بين "سماوة" العراق و"بلعاس" الشام، لكن ليس أبعد غرباً، فالدرك الفرنساوي في القرى، وجنده في المدن.. ومن يدري؟ ربما ما يزالون يبحثون عن الخنجر الذي مزق قلب جيرار..

حين جاءت رسالة عزيز بأن تلتحق به عند الشعلان لم تصدق أذنيها.. الأخبار قبل ذلك كانت فاجعة: الثورة أخفقت وسلطان باشا لاذ بوادي السرحان، هناك في بواطن الصحارى، حيث لا فرنساوي ولا إنكليزي، شمس ظنت أن عزيزاً معه هناك، يطارد حتى الموت... لكن الرسالة واضحة: "أنا لدى الأمير لورنس في دمشق.. عزيز يدهشها دائماً، يفاجئها بكل ما لا تتوقع، أتياً بكل غريب وعجيب.. ربما لتزداد إعجاباً وحباً له، لكننا ينقصها أن تحبه أكثر!!..."

فالثائر الذي قاتل المستعمر من حماه إلى السويداء، مروراً بالقلمون والغوطة يقيم الآن في دمشق؟ كيف؟ لم يكن باستطاعة الرسول أن يفسر... عشرته للبدو وصادقته لأمير الرولا كان طوق النجاة الذي ركبه عزيز إلى بر الأمان...

الأمان في البدء كان مضارب القبيلة، حيث الرولة تنتشر من أطراف عدرا قرب دمشق وحتى آخر بادية الشام... هي تتحرك أيضاً، حركتها تصل إلى هضبة نجد فلماذا يخاف عزيز؟..

مع الرولا، صار عزو، وصار فرداً من أفراد القبيلة، يعيش في كنف الأمير ضيفاً وصديقاً، ثم هدأ البركان وبدأ المفوض السامي الجديد كأنما يريد أن يطوي صفحة الماضي بأسودها وأبيضها كي يفتح صفحة جديدة..

الصفحة الجديدة جعلت عزيزاً يطمئن ثم يدخل مع الأمير الشعلان إلى دمشق حيث له دار واسعة شاسعة يمكن أن يعيش فيها عشرون عزيزاً دون أن يثيروا الانتباه. من تلك الدار الواسعة الشاسعة شرع عزيز يمتد وينتشر استطلاعات تتلمس طريقها بحذر وتعرش بحذر على جدار استناد مكين.. جدار استناده الثاني كان البيوزياشي صبري، صديقه الوفي الذي ما إن رآه حتى أخذته بالأحضان فاتحاً له بيته ومحلته.

لدى الشعلان كان يعيش، ضيفاً كصاحب المنزل، وصاحب منزل كالضيف، لكنه لدى يوزياشيه القديم بات يعمل.. كان والد صبري قد توفي، وكان الضابط القديم لا يحسن التجارة كثيراً وكان بأمس الحاجة لمن يثق به ويعتمد عليه ومن أجدر من شاويشه السابق بالثقة والاعتماد؟!...

داراً بجواره استأجر، مفاتيح المحل استلم... ولم يكن عليه إلا أن يأتي بزوجته وأولاده، يلم الشمل وتعود الحياة إلى مجاريها سعادة وهناء. ثماني سنوات مضت على لم الشمل، وثمان سنوات أمضت شمس في دارها الدمشقية... تفتح عينيها على الزجاج المعشق، تنعم بمياه الفسقية، وتسعد بليالي العلية القمراء، فبيوت دمشق لا تغفل لحظة من لحظات النهار والليل تريد من أصحابها أن ينعموا بأصباحها وأمسائها، نهاراتها ولياليها، فكيف لا تنعم شمس؟

ليلة أمس، كان يمضها الشوق للحبيب الذي تعبد، وكان موعد القافلة أن تجيء من حوران... أرقه مسهدة انتظرته... وشعور خفي يدغدغها... "عزيز آت الليلة... لا بد من أن يأتي الليلة... فكيف أنام؟".. كانت تدفع أطيايف النوم كلما اقتربت من أجفانها، وكانت تصم أذنيها عن شخير النيام، تغمض عينيها عن صورهم ووجوههم، عليها تقوى على الانتظار... ديك من مكن ما، ربما هو في آخر الميدان، أو آخر الشاغور، أطلق لقريحته العنان، لا تدري شمس أكان ذلك الديك كاذباً أم صادقاً، لكن مع صياحه سمعت أذناها صوت باب يفتح على مهل وخطوات حذرة تقترب. حينذاك فقط سكن القلق، انطفأ لهب الانتظار لتدب في أوصالها كلها رعشة الفرح، صانعة لها جناحين طارت بهما إلى عزيز، تلتقي به دون تمهل أو حذر.. "آه!! بالذاك اللقاء!! بالذاك العناق!! كم كنت دافئاً حاراً حتى صهرت كل خوف، أذبت كل جليد، نهراً من حمم يصهر في طريقه كل شيء!!"...

حركة في الخارج، جعلت الحاملة المسترخية تنتبه، وعلى مهل تودع الجسد الدافئ بنظرة والهة أخرى ثم تتسل خارجاً...

. صباح الخير، أمي، بادرها الأخضر وهو يترك البركة بعد أن غسل وجهه ويديه بمائها البارد.

. صباح النور، حشيشة قلبي، ردت الأم، وهي تطبع قبلة على خده، بلهجتها البدوية التي كانت تأبى أن تتخلى عنها مع زوجها وأولادها، والأخضر أقرب أولئك الأولاد إلى قلبها... أكثرهم تذكيراً لها بالماضي، بمضارب الخيام، بأصالة البادية التي تعشق. هه، أراك مستعجلاً؟...

. يجب أن أفتح المحل، عمي أبو فريد مشغول وأبي لم يأت...  
. بل جاء..

. حقاً؟ بفرح طفولي يهتف، أبي وصل؟

. أجل، لكن القافلة لم تكن قد وصلت بعد... ردت الأم التي كانت تنتظر كل قافلة على أحرم من الجمر...

. الحمد لله!! عشرون قافلة جاء بها هذا العام... أمي أريد أن أراه، قال وهو يتوجه إلى غرفة أبيه.

. لا..أخضر... دعه ينم... الليلة جاء متأخراً كثيراً، ومتعباً كثيراً، ولاشك أنه بحاجة إلى النوم...

- حسن... اذهب إلى القافلة إذن، واتجه الأخضر من جديد نحو الباب الخارجي، فيما انبثقت وضحة من باب المطبخ، تحمل بيدها "السفرطاس" الذي يحوي طعامه لذلك النهار. خطفه من يدها ومضى مسرعاً.

"الأخضر!!... ايه!!... أيها الفتى الرشيق الطويل يابن السابعة عشرة، كم أحبك!!..."

ولاحفته بناظرها إلى أن غاب... شمس تحبه حب الوله... لأنه بكرها والبكر حبيب أول؟ هي لا تدري...

لكن لشد ما يذكرها بأبيه حين عرفته أول مرة... صحيح أن الأب كان مفتول العضلات أكثر، عريض المنكبين أكثر، يوحى بالقوة والمقدرة أكثر، لكنه في كل ما عدا ذلك، كان الابن كالأب، والأب كالابن: لمعة العيون، ارتسامة الشاربين، وضاعة الابتسامة، لون البشرة، غرة الشعر... كل شيء، كل شيء... وكان الأب يعتمد على الابن... منذ الثالثة عشرة كان يأخذه إلى متجر الحبوب، يعرفه بأسرار المهنة، الأسعار، الزيائن، فلم يبلغ السابعة عشرة حتى بات بإمكان الشريكين الصديقين أن يلقياً قديراً كبيراً من المسؤولية على كاهله.

- صباح الخير عمتي، حيثها وضحة، فردت شمس بابتسامة مشرقة عرفت منها وضحة أن عمته سعيدة... أحضر لك القهوة؟ تابعت المرأة التي دخلت سن الكهولة ولم تعرف غير سيدتها شمس وخدمة شمس... سعادتها من سعادتها وشقاؤها من شقاؤها...

- لا.. اشربها مع عمك، ردت شمس مشيرة بيدها إلى غرفة نومها، وفي الوقت نفسه اتجهت إلى غرفة نوم الأولاد. سرير نواف فارغ، ابن السادسة عشرة، يحب الريف والبادية... يعشق الحياة هناك بعيداً عن الجدران العالية والأزقة الضيقة.. فلا يغادر بيت جده في أم العيون حتى يذهب إلى بيت جده في مضارب الخيام... في أم العيون، ينعم نواف بالطبيعة، بالأشجار، بأقنية المياه يسبح فيها، بطيور البط والأوز يصطادها... جده علي المر يفرح به.. علاقة عشق تربطهما الواحد بالآخر... يجلس معه في المضافة، يخرجان إلى الحقول ونواف يسأل.. يسأل دائماً والجد يجيب... مع جده الشيخ نواف هكذا.. يمتطي ظهر الفرس، يسير مع جده بين المضارب، يتدرب على إطلاق النار. كان السيف قد صار عملة باطلة... لم يعد أحد يستخدم السيوف وكان الشيخ نواف يروي لحفيده الذي أخذ اسمه كيف كانت أمه ذات يوم فارساً ملثماً، يبارز الرجال ويحضر الحروب ويشارك في الغزوات...

مناف ما يزال مستغرقاً في نومه.. وصلت إليه شمس، مسدت شعره السبط المائل إلى الشقرة...، "من أين جاءت هذه الشقرة؟" غالباً ماكانت تتساءل ولم تكن تصدق ما يرويه عزيز عن شعر أخيه عمران، ذلك الذي كان شديد الشقرة وهو صغير... لكنه لم يبلغ سن الرشد إلا وقد حولت الشمس الحارقة شعره إلى لون الكستناء. جلست شمس على حافة السرير تتأمل ذلك الوجه الرقيق الأبيض نبيل الملامح الذي بدأ زغب شاربيه يرتسم سواداً شاحباً على شفته العليا. كان مناف قد أكمل الرابعة عشرة وكان قد نجح إلى صف "البروفيه"..

بارع هذا الفتى شأنه شأن الأخضر، "مرقت فكرة في ذهنها وهي ماتزال تتأمل الوجه الرقيق نبيل الملامح وتمسد الشعر الذي يميل للشقرة.. كلاهما يحب العلم.. كلاهما يريد أن يصبح شيئاً... آه!! ما أسعدني أن يغدو واحدهما طبيباً... والآخر عالماً أو أديباً!!..."

سيقولون حينذاك... شمس... يا أم الطبيب... يا أم العالم أو الأديب!! آه!! كم سيسعدك ذلك!!.. كان الأخضر قد أصبح على أعتاب البكالوريا. وكان يدرس ويعمل... مثلاً للجد والنشاط، وحده نواف لم يكن يحب المدرسة، بصعوبة

تعلم القراءة والكتابة.. تشغله القرية والبادية، الطبيعة والناس.. مع ذلك شمس تحبه، بل هي فخورة به... فخورة أيضاً بدور ابنتها الوحيدة المدللة... التي تذهب هي الأخرى إلى المدرسة، ففي دمشق بدؤوا يبعثون البنات إلى المدرسة... يتعلمن شأن الصبيان... إذن لماذا لا تذهب بدور؟...

بدور ما تزال نائمة هي الأخرى، شمس تتأملها؟ صبية صغيرة ماتزال في الثانية عشرة... صورة طبق الأصل عن الأم بشعرها الأسود وبشرتها البيضاء، لكن دون تلويحة شمس... صدرها لما ينهد بعد لكن قامتها تشب... يوماً بعد الآخر تنهض وكأنها نخلة في سواد العراق تضرب جذورها في الماء ويمنحها الطمي ماتشاء من غذاء. في عطلة الصيف تأخذ بدور راحتها.. تنام حتى الظهر، تذهب إلى لداتها، يأتي إليها لداتها، تنمو وتتزعزع، نخلة في سواد العراق... الأخضر لا يعرف عطلة.. إن كانت هناك مدرسة ذهب إليها، إن لم يكن جعل محله مدرسته.. أخذ معه الكتب إلى هناك، يقرأ، يعجب المعلومات، يبحث عن المعارف... حتى صار مرجعاً... هي... أبوه... الكل يسألونه عن أي شيء، وهو يجيبهم عن أي شيء: كلام جميل يقوله الأخضر: "الشمس ثابتة في مكانها والأرض تدور"... "لكن كيف؟".. تسأله الأم فيشرح ويمثل الأرض بجمع يده كرة تدور حول محور في فضاء بالغ الاتساع، الأرض تدور حول الشمس والقمر يدور حول الأرض، ويكاد عقلها لا يصدق لكن الأخضر قوي الحجة، بارع الإقناع فيعاجلها بأية قرآنية: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون".. هو ذا الفلك إذن.. وهذه هي السباحة!! الشمس في مكانها والأرض تدور حولها.. إنه قانون الجاذبية، قال لها الأخضر ذات مرة مفسراً، فزاد الطين بلة... هي تعلم أن كلامه صحيح...، لكن أنى لها أن تستوعبه؟ أهو السن؟ شمس تعلم أنها اجتازت عتبة الكهولة، فكيف لعقل كهل أن يقلب مفاهيمه؟

حين أفاق عزيز كانت شمس قد أنهت جولتها على المنزل. اغتسلت، سرحت شعرها، وتكلمت أيضاً. متتائلاً خرج عزيز من الغرفة فبهره ضوء الشمس وقد صارت في راد الضحى. رشق وجهه رشقات سريعة بالماء فصحا تماماً... تعب الليل كان قد أخذ منه كل مأخذ ثم جاء الحب بلذائذه ليطرحه فراشاً حتى الضحى... احتج عزيز لدى ربة الحب التي طرحته فراشاً، فضحكت وهي تحببه تحية الصباح قبله على الفم تدعوه إلى إفطار من نوع آخر..

. تأخرت كثيراً... لا بد أن الجمالة قد وصلوا وعلي أن أسبقهم إلى المستودع.

بصعوبة جعلته يرتشف قهوته ويتناول لقمة سريعة، لكنه قبل أن يمضي أمسكته عند الباب.

. ماذا تريد أن تأكل اليوم؟

. من يدك كل طعام طيب، أجابها وهو يتملص مسرعاً.

المستودع في طرف الميدان، تنتسح الفسحة أمامه لعشرات الجمال، ينيخونها هناك " .. إخ ... إخ" ... يصيحون بها فتهبط من عليائها إلى الأرض ثم ينزلون أحمالها ليبتلعها المستودع.

لحسن الحظ كان شريكه قد سبقه، هو الذي يعلم أن القافلة قد تصل في أية لحظة، "تأخرت في الليل فباكرت المستودع في الصباح..." وصلت الجمال، فرغت الحمولات وبعث صبري من يأتي للشبان بأطباق الفول والحمص، طعاماً لا أذ ولا أشهى لفتيان حوران.

رئيس القافلة حرث طبق الفول حراثة، عواد غرس رأسه في طبق الحمص حتى كاد أن يستعصي على الإخراج... فحول البصل كانت قد كسرت وكانت رائحتها ملء الساحة والمستودع. شمها عزيز قبل خطوات، وحين وصل إلى الساحة، أسعده انكباب الرجال على طعام الإفطار، فالليل كان طويلاً والزاد ماجف ولايبس، إذن كيف لا ينكبون ذلك الانكباب؟؟

المستودع مليء حتى الحافة... حنطة، شعير، عدس، حمص. الموسم خصب والغلل وفيرة، والشريكان يريدان أن يعملوا... شهرين، ظل عزيز يجيء بقوافل الحبوب...

الموسم انتهى، والبيادر اختفت من واجهات القرى، وتلك آخر القوافل التي يأتي بها عزيز. مختار القرية ودعه بالأمس وداع صاحب الحبيب، رجال الخبرة أخذهم كلهم بالأحضان، ثم مضى إلى البطحيش يودعه... أكثر من شهر كان قد غاب عنه، حيطة وتسترًا، فاغتيال "الليوتتان بورجيه" كان قد أثار البلبله ليس في قرية دنيا وحسب، بل في حوران كلها...

أخباره وصلت حتى مسامع صبري في دمشق، بل بدت الدهشة تمسك بمجامعه كلها حين ختم القصة بالسؤال "من تراه ذلك المقدم الذي مايزال يتريص بالفرنساوي"... لم يستطع عزيز أن يجيب حينذاك وإن هم أكثر من مرة بذلك.. لقد كان بينه وبين البطحيش عهد قاطع:

أن يبقى السر بينهما لا يتجاوزهما إلى ثالث.

أنهى الجمالة إفطارهم وبدؤوا يعدون العدة للعودة، صبري أعد حسابهم بالمقابل... سلم كلاً منهم أجره قطعاً فضية رنانة وأوراقاً خضراء وحمراء أدخلها معه الفرنساوي شرطاً من شروط انتدابه على سورية.

. عائد للديرة الآن؟ سأل عزيز الفتى الناحل الطويل وهو يربت كتفه، مدركاً أنه سيفتقده حتى العام القادم..

- لا، بل اذهب إلى سوق الهال أحمل الخضار... رد عواد وعلى محياه سيما الحزن لفراق صاحبه الذي كان يرى فيه بعضاً من أب. تبسم عزيز وهو ينظر إلى الفتى الناحل الذي لا يضيع دقيقة من وقته... نملة في موسم البيادر تنقل الحنطة إلى وكرها ذاهبة آبية... عواد يأتي بالحنطة إلى دمشق ويعود بالخضار والفاكهة إلى حوران... منشار يأكل الخشب في الذهاب والإياب... الصيف لديه عمل، والشتاء دراسة، قميصه المهلهل، بنطاله المرقع، صندله ذو الإصبع... مظهره كله يدل على مقدار حاجته للمال... فلماذا لا يحمل صناديق الباذنجان والبنندورة، الفليفلة وتفتح الزيداني إلى أسواق درعا؟..

- بماذا أوصيك عواد؟ انتبه لدراستك.. قال عزيز وهو يشد على يد الفتى الناحل مودعاً، دراستك ولا شيء غير دراستك...

- بالتأكيد، همهم الفتى الناحل وهو يعرف قصد الرجل الأربعيني عريض المنكبين الذي بدا الشيب يخط فوديه.. ففي ذهابهما وإيابهما ذلك الصيف، اعترف له بقصة حبه، فتاة برشاقة الغزالة وعيون المها كانت قد سحرت لبه. والدها يبيع الحلاوة والتمر، وعواد يحب الحلاوة والتمر... يذهب إلى دكان الكهل كلما مر بخربة الغزالة". أتراهم سمو القرية باسم الفتاة أم سمو الفتاة باسم القرية؟.. "هو لا يدري، لكنه لم يكن يستطيع المرور بالخربة إن لم يمر بدكان الغزالة. هو محجه ولا بد للمرء من زيارة محجه... نظرة، فابتسامة فسلام، هكذا بدأت قصته مع الغزالة، ثم توقف هناك، لا هو قادر أن يبوح بما في صدره من كلام ليتبع ذلك موعد فلقاء ولا هي قادرة على ذلك أيضاً. وجنتاها كوجنتيه تحمران كشمندر مسلوقة حين يقترب منها، بل هو يشعر وكأن بخاراً ساخناً يخرج منها جميعاً، بخار شمندر أحمر.. يخرج من قدر... باستحياء تنظر إليه... باستحياء تسأل، وهو بعفوية واندفاع، يحدثها عن دراسته... عن البكالوريا التي يريد أن يأخذها، ثم الجامعة في دمشق والحياة الجميلة والمستقبل فيما هي تتابعه، توشك أن تطير فرحاً، "أريد أن أصبح محامياً أدافع عن الحق، أنصر الضعفاء والمظلومين"... قال لها آخر مرة فتوهجت وجنتاها شمندر أكثر احمراراً وجمراً أكثر توهجاً...

عزيز أصغى إلى قصته حتى النهاية... لكن دون أن يبدو على محياه السرور "لماذا؟" ... سأله الفتى الناحل الطويل. "لأنك فتى نابه أمامك دراسة ومطامح، وعليك أن تحققها..."، "لكأن الحب يعيق المطامح؟"، سأل الفتى سؤال المتعجب فأجاب الأربعيني الذي عاش الحب بأحلى صورته وعرف تماماً مايعني. "بالعكس، قد يكون الحب دافعاً عظيماً لتحقيق المطامح" ... ثم سرد له طرفاً من قصته مع شمس، الفارس المثلث الذي أنقذه ذات يوم من براثن الموت ثم تكشف له عن فتاة خلّبت لبه حبا "إذن، ينبغي أن تشجعني" .. استغل الفتى الناحل الفرصة ضارباً ضربته" ... لا.. في حالتك العكس هو الصحيح تماماً" ... "لماذا؟" ..

"ها... تسألني لماذا!.. لأن الحب يعني الزواج، والزواج هو المرساة التي توقف السفينة وتثبتها، أندري مايعني وقوف السفينة؟" .. عواد يدري، لكن الحب يمور موار دمه ويجيش جيشان أنفاسه فكيف يعطي أذنناً لناصح؟  
تفرغ لدراستك... الآن وقت الدراسة فقط، عاد عزيز يؤكد نصيحته، وكأنما يريد أن يربط بين حديثه اليوم وحديث الأمس...

- ا... ا... ان... شاء الله... أجاب الفتى الناحل الطويل بتلعثم علم عزيز منه أن لا علاقة له بالتنفيذ..

- بل تعدني.. قال وهو يشير بسبابته إشارة الأمر... لا تفكر بشيء آخر غير دراستك... بعدئذٍ تابع بنبرة مختلفة: المثل يقول: بطيختان لا تمسكان بيد واحدة..... والدراسة والحب بطيختان فأيهما تمسك؟  
الدراسة؟

. تعدني؟ تقسم على ذلك؟

. أجل.. أعدك... وأقسم على ذلك...

. على بركة الله.. ولا تنس... زرني إن جئت إلى دمشق..

- إن شاء الله، همهم الفتى وهو يعلم أنه لن يجيء إلى دمشق في الشتاء. بعدئذٍ شد على يد عزيز، ثم دار على عقبيه وأسرع إلى جملة. كان الصحب قد بدأوا بإنهاض جمالهم، وكانت الجمال تهدر وترغي، بعضها فك ركة وبعضها ركبتين، فيما هب بعضها الثالث واقفاً مرتفعاً بسنامه حتى موازاة حائط المستودع. "وداعاً أيها الصيف!!... وداعاً يا موسماً خصباً قد لا يعود!!"... فكر عزيز وهو يرى إلى الجمال تنسرب واحداً إثر الآخر وأيدي أصحابها تلوّح له تلويحة الوداع..

في الداخل، كان صبري مايزال يحسب جامعاً طارحاً وقد أدى لكل ذي حق حقه. دفتر كبير كان ينبسط بين يديه وأرقام كثيرة كانت ترتسم على صفحاته. - أتعلم مجموع ما اشتريناه هذا الموسم من حبوب؟ دفع الفضول عزيزاً لأن يسأل ..

- لم أجمعها بعد... رد صبري وهو يقلب الدفتر أمامه، ملتفتاً إلى أكداس الحنطة والشعير وراءه... لكنها هذا العام أكثر من كل عام...  
- إذن، ستكون أرباحنا أكثر...

- قل... نلبي حاجة الناس أكثر...

وتتهد عزيز راحة وطمأنينة، فرئيسه القديم لم يخيب أمله مرة واحدة... كان دائماً يفكر بالآخرين، لم يره يوماً يتحول إلى تاجر جشع يهمله تكديس المال وكنز الذهب والفضة...

صبري مؤمن أنه مامن غني محتكر ولا تاجر جشع يدخل الجنة حتى يدخل الجمل من خرم الإبرة، قلبه ينبض بحب الغير تماماً كما عرفه في ساحة الميدان....

هو دائماً أول من يضحى وآخر من يستفيد...! أينسى عزيز تلك الأيام...؟..

ه...يه...يه... أين شردت؟ سأله الرئيس القديم وقد رآه يطرق ساهماً..

من كان يظن ونحن نطفئ مستودع القدم ذلك اليوم السعيد أنه سيكون لنا مستودع في القدم؟

هي ذي الحياة دائماً، مفارقات ومفاجآت..

رد صبري، الضابط القديم الذي لم يكن قد وضع في حسابه يوماً، أنه سيعود تاجراً كأبيه يضرب ويحسب بين عدول الحنطة والشعير...

أجل... هي ذي الحياة... دولاب يدور وفصول تتغير... أتذكر يوم دخلنا دمشق؟.. كان يخيل إلينا أن الدنيا كلها ملك أيدينا...

- إيه!!... كم كانت أحلامنا كبيرة!! دولة عربية من جبال طوروس حتى بحر العرب!!

علم واحد، ملك واحد، جيش واحد... إيه!! رحمك الله يافصيل!!... كنت تقاثل الاستعمار لتأتي باستعمار أشد وأدهى؟!...

- تعلم أبا فريد؟ حتى اليوم أتساءل أحقاً كان مخدوعاً؟ أحقاً استطاعوا أن يغرروا به؟

- أجل... حقاً وصدقاً، أنا أعرف... رافقته منذ البدء... تائراً مخلصاً، يحلم بالحرية الحقّة والاستقلال الحق... لكنه، لم يكن يعلم أن كل من حوله ذئاب غادرة... لورنس، النبي، سايكس، بيكو، مكماهون... كلهم كانوا يتآمرون عليه...

- مايبثير عجبني أيضاً، كيف استطاعوا أن يضللوكم أنتم، يخدعوكم جميعاً... وأنتم ضباط متعلمون دارسون؟...

- البراءة... كنا أبرياء. وما أسهل أن تخدع بريئاً لم يعرف الخداع والمكيدة من قبل... نحن خارجون من قلب الصحراء... من قلب الطبيعة، من قلب البراءة، وهم ذوو باع طويل في التآمر والكيد، في خدع الاستعمار وأحابيله، فكيف لا يمكنهم أن يخدعونا؟..

هم عزيز بالكلام لكن الرئيس تابع وقد اشتعل حماسة ودفقاً:

- تعلم؟.. بالخدعة استعمروا العالم... بالتآمر والباطل هيمنوا على بحار الأرض... وقاراتها... يضربون هذا الشعب بذاك، هذه الطائفة بتلك ليقطفوا هم الثمار...

- صحيح... هذا مايبثير انتباهي... نحن هنا لم نقاتل الفرنسيين بل السنغالي والمغربي، الإفريقي والجزائري...

. وهذه فرنسا... أدنى درجة من بريطانيا في سلم الاستعمار...

- ربما... رد عزيز شبه مقاطع، ربما الإنكليز ألام وأخبث لكن هؤلاء الفرنسيين أكثر قسوة وطغياناً، يؤلمك أن واحدهم نزع أحرق... لا يحكم تصرفاته عقل أو منطق...

وتجهم عزيز وهو يتذكر الكابيتان كاربييه الذي عاقب مدينة بكاملها كالسويداء، من أجل قطة... حبس أهلها وفرض عليهم الغرامات انتقاماً لقطة... صبري نفسه يذكر ذلك، يذكر القسوة والظلم اللذين عوملت بهما دمشق والغوطة أيام الثورة وما بعد الثورة، يذكر البيوت التي قصفت، قذائف المدفعية وهي تصب كوابل المطر على حيه، الميدان، حي الشاغور، باب الجابية، المدينة القديمة كلها، وكأنهم يريدون مسحها عن وجه الأرض... لكن ذلك مضى

وانقضى... الناس منذ انطفأت نار الثورة رفعوا أيديهم ولووا أعناقهم.. هم يأكلون ويشربون، يبيعون ويشترون، وكأنما أسلموا أمرهم للأقدار. تقسيم البلاد تراجعت عنه فرنسا، الميرة خفت منها، الضرائب باتت تحسب ألف حساب قبل أن تفرضها، لكن الإنكليز!! الويل لهم أولئك الإنكليز ماتراهم يفعلون هناك حيث فرضوا أنفسهم دولة انتداب في فلسطين؟..

رأى البطحيش أنهم كانوا يسلمونها لليهود قرية قرية ومدينة مدينة، وذلك ماكان يشغله في لقائه الأخير بعزيز. لم يكن الرجل على "الحشيشة". حزيناً مقهوراً كان لا ينفك يزفر الزفرات الحرى، حين سأله عزيز "مابك؟" أجاب: "أنا حائر، بلدي هنا يدعوني كي أقاتل الفرنسيون وأناجزه، وبلدي هناك يدعوني أيضاً... فلسطين تدعوني يا عزو... الخطر داهم والمؤامرة عليها قائمة، فهل أذهب إليها أم أبقى؟ هل أقاتل مع الذين يقاثلون فيها عدوين لدودين: الإنكليز واليهود... أم أظل هنا أصارع الفرنسيون؟"...

كانت تلك الحيرة هي التي تقلقه ولم يكن باستطاعة عزيز نفسه أن يحسم الأمر وينهي تلك الحيرة، كلا البلدين كان يعاني وكلا البلدين كان بحاجة لمن يدافع عن حريته واستقلاله، لكن فلسطين مهددة في وجودها...

مئات الآلاف من المهاجرين اليهود كانوا يأتون كل عام، تحت هذا الغطاء، تحت ذلك، كان يهود أوروبا، قد غدوا أسراب قطا لا يروبوها إلا مياه نهر الأردن، بحيرة طبريا، والحولة.. وكان هتلر يسوطهم في ألمانيا بشواظ النار فيفرون كالحمر المستنقرة ولا يجدون أنفسهم إلا في أيدي الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية تسوقهم قطعاناً قطعاناً إلى مرج ابن عامر وسهول حيفا ويافا. لكنّها خطة مدبرة، سلسلة متكاملة الحلقات، تبدأ بهتلر وتنتهي بوايزمن....

ذهباً وفضة يحملون معهم... أموالاً طائلة ينفقون فيشترون هذه البيارة وذلك الحقل، تلك الأرض وهذا الحي... إلى درجة باتوا معها يشكلون خطراً حقيقياً... الناس في الشوارع باتوا يتعرضون للاغتيالات والقتل، ونساؤهم للتحرش والاعتصاب... كانت النار قد وصلت إلى ثيابهم... حينذاك فقط هبوا يصرخون "نريد سلاحاً، نريد مالاً، نريد تنظيمات ندافع بها عن أنفسنا"...

البطحيش همس في أذنه أنه يرسل لفلسطين أسلحة في القطار بين أكداس الفحم: في عربات الشحن، بل حتى في سلة سائق القطار، حيث يضع زوادته، يخبئ البطحيش المسدسات، وتذهب إلى سمخ، ومن هناك تنتقل غرباً وشرقاً،

شمالاً وجنوباً، "يجب طرد اليهود... ينبغي منعهم من تملك الأرض.... فلسطين لنا فلماذا تأتون باليهود إليها؟ لماذا تغرقون سهولها وجبالها بهم؟" ... كانت صيحات الناس تتعالى احتجاجاً في كل مكان، مما أزعج السادة الإنكليز فانقضوا على العبيد يلهبون ظهورهم سيّاطاً وصدورهم رصاصاً. الدم يجر الدم، والعرب يأتون من كل مكان لنصرة الشعب المظلوم، ومن غامض علم الله يظهر الشيخ عز الدين القسام ليقود ثورة على الإنكليز واليهود... هدفها إخراجهم معاً من فلسطين....

السؤال الذي كان يحير البطحيش بات يحير عزيزاً... هل ألتحق بالشيخ القسام أم لا؟! "... وأفضى عزيز لشريكه بالسرا فلم يتردد صبري لحظة واحدة.. ولم لا؟ نذهب فنقاتل مع الشيخ القسام؟  
حقاً؟!.. أتذهب؟..

. وما المانع؟ سعيد العاص ذهب... الشيخ القسام نفسه جاء من جبلة فلماذا لا نذهب نحن من الشام؟.. قال صبري وقد عاد إلى وجهه الإشراف الذي عرفه عزيز أيام كان يقود فصيله المتقدم في الجيش العربي الزاحف إلى الشام يحررها من نير الاستعمار العثماني...

تداول الرئيس القديم ومرؤوسه الأمر وقد عادا عشرين عاماً إلى الوراء، يحملان السلاح ويقاتلان... الرئيس أكثر حماسة من المرؤوس وأكثر حسماً أيضاً، فكل ما يهمه أن لا تضيع فلسطين.

. لكن دعنا نكلم شكري بيك علنا نأخذ متطوعين... اقترح الرئيس وهو يشتعل حماسة..

- بيدك حق.. شيء رائع أن تذهب على رأس كتيبة من المتطوعين إلى فلسطين!!...!

شطت بعزيز الحماسة وهو يتصور أن دمشق كلها ربما تلبى النداء إذا ما طرحا الفكرة على شكري بيك فيذهب مقاتلون أشداء يطردون الإنكليز من فلسطين ويظهرون ترابها من اليهود..

. ننهي هذه الحسابات ونمضي، اقترح صبري أخيراً.. وهو يشير إلى سجلات أمامه لم تكتمل حساباتها..

لكن حين أقفلا باب المستودع وتوجها إلى المدينة أدهشهما انقلاب المدينة حالاً على حال... شارع الميدان خاوٍ على عروشها، المحال مغلقة، بل حتى

متجرهما، متجر الحبوب مغلق، مرا به فلم يجدا لا أخضر ولا أصفر، سألا أحد الأصحاب...

. ه...ي...ه...ي...ي... رد الصاحب... ألم تسمعا؟

. لا.. ماذا هناك؟ سأل صبري باستغراب أشد..

. المدينة خربة... مظاهرات النساء ملء الشوارع..

وأسرع عزيز إلى بيته يبحث عن شمس وقد أحس في الحال بوخزة مسلة، لكن لم تكن هناك شمس.

- أين عمك؟ سأل بكثير من القلق وضحة التي كانت وحيدة في المنزل منهمة بإعداد الغداء.

. عمي خرجت..

. أين؟.. سأل بلهفة أشد وقلق أعظم..

. لم تقل لي... عمي.. لا أدري....

وأنى لوضحة أن تدري؟

في الصباح، بعد أن غادر عزيز المنزل، كانت شمس قد جاءت إليها في المطبخ تشاورها في شؤون الطعام "عمك يشتهي المحشي؟"، "إذن نطبخ له المحشي"، كوسا، فليفلة، باذنجان"، "عددت لها شمس" "على راسي عمي"، أجابت وضحة واضعة كفها على رأسها ثم خرجت إلى السوق تشتري الخضار واللحمة والفواكه، فيما مضت "العمة" إلى جانب البركة تشرب القهوة، وتستمع بنسيم الصباح العليل..

على جناحين من سعادة.. كانت تحوم شمس في فناء الدار، عيناها تيرقان سروراً وبهجة.. شعور عميق بالراحة يفرش أجنحته على كل مافي صدرها من مشاعر وأحاسيس، هو الشعور نفسه يطغى عليها كلما عاد إليها عزيز بعد غياب....

أهو شعور الاسترخاء بعد التوتر؟ الطمأنينة بعد القلق؟ هي لا تدري، لكنها تدري من تجارب السنين الطويلة أنها لا تعرف راحة إلا بعد أن يعود إليها، ولا تشعر بسعادة إلا وهي بين أحضانه: "آه!! ما أروع تلك الأحضان!! ما أشهى دفق الحب من شفتيك يا حبيبي". ورشفت شمس رشفة قهوة ساخنة. هي تحب قهوة الصباح على صوت العصافير وهي تزقزق، فسقية الماء، وهي تعزف أنغامها الراقصة، وطيوف الذكريات وهي تنسرب في خلاياها دافئة حميمة..

جلسة الصباح تلك كانت تحبها كثيراً، الدار كلها كانت تحبها كثيراً، أشجار النارنج، أحواض الأزهار والورود، بركة الماء، التي تتلألأ تحت أشعة الشمس وتلتمع على ضياء القمر، زجاجها المعشق، عليتها، شرفتها، "المشرفة" كما كانوا يسمونها.. تحفة رائعة كانت تلك الدار، تجد فيها شمس كل ماتحب وتشتهي... السنون الطويلة التي أمضتها فيها جعلتها تتعلق بها... هي تتذكر أحياناً دارها في حماة، كانت داراً واسعة أيضاً لكن لم يكن لها هذا التناسق والجمال، ذلك الفن والإبداع... ولم تكن قد حملت لها مشاكل وجراحاً، هوماً... وغموماً، كما فعلت دار حماة... هي تتذكر حسني أفندي، خالد آغا، الكابيتان جيرار والمخالب التي أرادوا أن ينشبوها فيها كلما حانت الفرصة... تتذكر المضافة التي حملت لها الكثير من المشاكل والمنغصات. هنا، لا مشاكل، ولا منغصات، لا خالد آغا، ولا كابيتان جيرار. مذ سكنت دمشق اختطت لنفسها خطة جديدة، تلتزم فيها بنقالييد الميدان وعاداته.

كانا ما يزالان في طور التخفي،... هي لا تريد أن يعرف بها أحد وعزيز لا يريد أن يفضي بحقيقته لأحد فاقترصر على القلة القليلة من الناس... جيرانهم الأقربون فقط يعرفونهم، آل صبري فقط أصدقاؤهم... لم يكن باستطاعة عزيز أن يفتح مضافة، ولم تكن الظروف تسمح لشمس أن تخرج سفوراً أو تستقبل الرجال أو تجالس الضيوف... هنا حرملك، سلمك... الحدود قائمة والحواجز عالية، البدو بعيدون عن الميدان... وأعراف البدو لا تسري على الميدان، تخرج شمس، تلبس الملاعة السوداء، شأنها شأن كل امرأة في الميدان، لا يتلصص عليها أحد، ولا يتحرش بها أحد. وحده بيت الشعلان كان متنفسها، فحين تذهب إلى ذلك البيت تعود بدوية آتية من مضارب الخيام. هي هناك شيخة ابنة شيخ، تحدث الأمير وتجالس الرجال وتسمع في المضافة عزف الرباب وقصائد الشعراء. لكن تعود إلى بيتها في الميدان فتعود الحرملك الذي لا يختلط بالسلمك...

أربع سنين ظلت شمس تعيش في أضييق دائرة من العلاقات، كان الخوف ما يزال يعيش في صدرها... يعرفون بها، يفتنون لقصتها، فتذهب هباء... لكن شيئاً فشيئاً بدأ الخوف يتلاشى... أهو اختلاف الليل والنهار ينسي؟ أهي الأحداث تمحو ماقبلها حتى تبهت ألوانه فلا تعود العين تبصره؟ شمس لا تدري. لكن قوانين الحياة وسنن الطبيعية هي التي تسود دائماً...

يتلاشى القديم ليظهر الجديد. حجر يسقط في بركة ماء فيصنع دائرة ثم دائرة. الدوائر تتسع بعدئذٍ وتتسع. دائرة شمس كانت تتسع... صحيح لم يكن في

دمشق المكيساتية أم عمر لكن ثمة حمامات سوق أيضاً وأم خالد وأم قعود....  
وفي دمشق جارات لطيفات ظريفات أيضاً يدفعهن الفضول لأن يتشمن رائحة  
هذه ويتسقطن أخبار تلك... شيئاً فشيئاً راحت شمس تتعرف إلى جارات وجارات  
فلم تنته السنون الثماني حتى كانت قد أصبحت معروفة جيداً في أوساط  
النساء... على صلة بسيدات المجتمع... وبأنشطة المجتمع...

كم سرت شمس حين اكتشفت أن في دمشق رابطة للنساء ونادياً يجتمعن فيه  
ويتحدثن، يناقشن قضايا المرأة وهموم النساء... هناك تعرفت شمس إلى عايدة  
بيهم، إلى ماري عجمي، وإلى نازك العابد... معهن صارت تلتقي، تحضر  
أمسيات، تشارك في لقاءات...

وكانت هموم الوطن محور تلك اللقاءات... من قال ان المرأة لا يشغلها  
سوى هموم المرأة؟

هي كالرجل يشغلها هم الوطن أيضاً، شمس تستمع إلى محاضرات في  
السياسة، تصغي لما يدور في العالم من أحداث... تطورات كثيرة حدثت مذ  
كانت في حماة... في دمشق لم تعد تشعل المصباح الكازي ولا الشموع...  
صار هناك شركة كهرياء... أسلاك الكهرياء مدت إلى البيوت... مصابيح  
الكهرياء أخذت تشع كالشموس... ومع الكهرياء جاء المذياع الذي ينقل لك  
أخبار العالم... هتلر، موسليني، ستالين، صار بإمكان شمس أن تعرف كل  
ما يدور في العالم... تعلم من المذياع أخبار الدول والأنظمة والجيوش... نازك  
مولعة بتلك الأخبار... في الصحف، في المجلات، في الإذاعة، نازك لا تترك  
خبيراً سياسياً يفوتها، تطوراً أو حدثاً يمر بها، ونازك صديقة حميمة... شمس  
معجبة بها... فتاة في أواخر ثلاثينياتها لكنها لا تفكر بالزواج، فاتها القطار لكن  
دون أن تبالي... همها الوحيد أن تنظم النساء من حولها، أن تعمل من أجل  
توعيتهن، حثهن على المطالبة بحقوقهن والدفاع عن وطنهن، كتلة من الحيوية  
والحماسة تلك الفتاة، يمر طيفها بذهن شمس وهي ترشف قهوتها بجانب البركة  
فلا تملك إلا أن تبسّم.

مع ابتسامتها جاء القرع على الباب... وشهقت شمس حين فتحت الباب  
وظهرت نازك.

. معقول؟!... بادرتها شمس وهي تسرع إليها حاضنة مقبلة، الآن فقط كنت  
أتذكرك...

. هذا ما يدعونه التخاطر... أسمعت به؟

- لا.. على كل حال اقعدى.. اشرحي لي ما هذا التخاطر .  
- لا... لا... ليس لدينا وقت... ولا أنا قادرة أن أقعد، ردت نازك الثلاثينية،  
العانس، رقيقة العظام، رقيقة الملامح، لامعة العينين، وهي في عجلة من  
أمرها...  
...  
خير ماذا هناك؟...  
مظاهرة... الرابطة قررت أن تخرج بمظاهرة نسائية...  
لماذا؟ ألم يعد هناك رجال؟ ردت شمس مازحة مستغربة أن تتظاهر النساء  
في الشوارع ويقعد الرجال في البيوت.  
بل هناك رجال... لكن المظاهرة النسائية أسلم... النساء لا يحملن سلاحاً  
ولا يقاتلن يعني... مظاهرة سلمية...  
رائعة! فكرة رائعة... هتفت شمس وقد أعجبتها الفكرة فجأة...  
أسرعي إذن... النساء بانتظارنا... فلا نتأخر عنهن...  
وأسرعت شمس، لبست ملاءتها السوداء على عجل، ثم خرجت شابكة يدها  
بيد نازك. ناسية حتى أنها ربة منزل.  
- لكن لم تقولي لي... لم هذه المظاهرة؟ قالت شمس وقد تذكرت أنها لم  
تعرف السبب...  
العراق وقع معاهدة مع بريطانيا يحصل فيها على مايشبه الاستقلال. مصر  
أيضاً حصلت على مايشبه الاستقلال... ونحن هنا قاعدون، لا فرنسا تفكر  
بإعطائنا استقلالنا ولا رجالنا يطالبون... فقلنا نطالب نحن!!...  
عظيم!! يعني نحن خارجون كي نطالب بالاستقلال!!  
وبالحرية!! بحقوقنا كشعب، كوطن!!  
الله!! هذا ماكنت أحلم بالعمل من أجله!!..

أمام الرابطة، كانت مئات النساء قد تجمعن... وكان الصخب عالياً، حتى  
بدا لشمس انه يصل إذن الجوزاء... لافتات كانت قد كتبت بخط أسود عريض:  
"الاستقلال... الاستقلال"، "الحرية"... "الحرية"...، لا استعمار ولا انتداب"، "نحن  
بدنا الحرية"، "سورية أرض الأحرار"...  
- متى فعلتن هذا؟ سألت شمس وهي تشير إلى اللافتات وفي نبرتها مسحة  
من عتاب.

- منذ ثلاثة أيام ونحن نستعد... وأسرعت نازك إلى المقدمة فقد كان هناك تملل الانتظار.

هو الرق الذي لا ريب فيه، أرادوه فسموه انتداباً. لعل صوت نازك حين وصلت إلى المقدمة فرددت مئات الأفواه في الحال: "يسقط الانتداب... يسقط الاستعمار... تسقط فرنسا". وخلال ثوان بدأت المظاهرات تشق طريقها في شوارع فغرت أفواهها تعجباً من مظاهره لم تشهدها من قبل. كانت الفكرة جديدة اعترضت عليها نساء من الرابطة وأيدتها أخريات... نازك كانت أشد المتحمسات، "ولم لا؟!!" قالت لهن. "قبل سبعة عشر عاماً خرجت نساء مصر يتظاهرن احتجاجاً على سياسة بريطانيا واضطهادها، ومناصرة لسعد زغلول، فلماذا لا نخرج نحن ونثبت أننا لا نقل عن نساء مصر شجاعة ووطنية؟.."

الحجة مقنعة فوافقت الأخريات "مظاهرة سلمية تطالب فرنسا بإنهاء انتدابها وخروجها من سورية"، لم تستأذن النسوة فرنسا كما لم يستأذن رجالهن. لأول مرة كن يردن أن يفاجئن فرنسا والرجال معاً، وبدت المفاجأة صاعقة حين انطلقت حشود متراصة من ملاءات الليل وقد أسفرت عن أعمار لا عد لها ولا حصر. الرجال أفواه فاغرة وعيون جاحظة...

شرطة فرنساوي وجنده مندهشون ذاهلون... ليس لديهم أوامر ولا يعرفون مايفعلون... من باب الجابية مروراً بسوق مدحت باشا إلى سوق الحميدية... كانت المظاهرة تسير، بتناسق وانتظام.. الأيدي تلوح عالياً، والأصوات تطلع... هن النسوة الخجولات الحبيبات يطلقن لأصواتهن العنان فتردد جدران مدحت باشا وسقف الحميدية الأصداء أصواتاً أنثوية لم تسمع مثيلاً لها من قبل.

كانت خطة المظاهرة أن تمر بأكبر قدر من شوارع دمشق، تغلق المحال، تشجع الرجال، تحث الشبان على المطالبة بحقوق لا يجوز السكوت عنها، بحرية تؤخذ عنوة ولا تعطى اختياراً. ثم تصل إلى المرجة حيث السراي والمندوب السامي فيوصلن له احتجاجهن ويسمعنه بأذنيه مطالبهن.

المندوب السامي وصله نبأ المظاهرة فانتفض غاضباً. "نحن نريد لهم الخير وهم يريدون بنا الشر... نأتي لهم بالحضارة والمدنية فيبعثون بنسائهم يتظاهرن ويشاغبن... حركوا الشرطة... ابعثوا الجند، فرقوهن... لا أريد مظاهرات، لا أريد احتجاجات..."، راح المندوب السامي يصرخ بكبار ضباطه وأعوانه... فانتشر الضباط والأعوان في الحال ناشرين معهم الجند والشرطة... صفوفاً

متراصة من هراوات وبنادق...

شمس في المقدمة، روح الفارس المثلث كانت قد بعثت. قوته، شجاعته، كلها كانت قد توهجت من جديد. جمرًا كشف عنه الرماد، ماذا؟ عشر سنين؟ إحدى عشرة سنة مرت على آخر توهج لذلك الجمر؟ ربما، شمس على ثقة أن مائة سنة لا تستطيع إطفاء ذلك الجمر... كل من حولها من نساء شمنن فيها رائحة تلك الشجاعة، لمسن روح ذلك الفارس فأسلمن لها القيادة ليعلو صوتها كهدير الرعد: "يا فرنسا اطلعي برا... من سوريا الأرض الحرة، لا انتداب، لا استعمار... سورية بلد الأحرار...".

مظاهرة سلمية تقوم بها النساء، لا سكين ولا خنجر، لا بندقية ولا مدفع، وفرنسا بلد الحضارة، تحترم الرأي الآخر، تؤمن بحقوق الإنسان، بحرية التعبير... المرأة لديها في أرفع المراتب، تقبل يدها، تحني لها الرؤوس، إذن لم لا تخرج نساء دمشق؟ لم لا يطالبن بحقوقهن؟

النساء يهتفن مطمئنات أن ضيراً لن يصيبهن فالسلم ينبغي أن يقابل بالسلم... شمس، وهي تهتف، ترى هراوات الشرطة وسياطهم، مسدساتهم وبنادقهم، لكنها لا تخاف... هي لا تحمل سلاحاً، النساء كلهن لا يحملن سلاحاً... سلاحهن أصواتهن فقط، يرفعن مطالبات بحق، فرنسا نفسها تعترف به، فلماذا تخاف شمس؟ كل ظنها أن الجند سيكتفون بدفع النسوة إلى الوراء أو تشكيل سد يمنع الزحف إلى المندوب السامي أو التقدم باتجاه السراي... لكن مرة ثانية يخيب ذلك الظن: إذ ما إن تصل النسوة إلى الهراوات حتى تنهال الهراوات على رؤوسهن. ويختلط الحابل بالنابل...

الشمس في مركز الدائرة، هالات حولها ومدارات، تسير عليها الكواكب وتدور الأقمار، تستمد منها الضوء، والحرارة، تأخذ الطاقة والحياة.... فماذا يحدث إن انطفأت تلك الشمس؟ ما ترى يجري للكواكب والأقمار؟.. فلك شمس كله اضطرب، مداراتها كلها تقاطعت وتصادمت، كواكبها وأقمارها تحيرت في أماكنها وارتبكت، وقد غرق الكون كله في الفوضى والظلام....

بدور أحست بذلك الظلام مذ فتحت عينيها. فليس أحب على قلبها من أن ترى وجه أمها أول ماترى تصطبج به شمساً مشرقة، تشع لها الدفاع وتمنح الحنان.... طفولتها الأولى قضتها هناك في البادية حيث الحل والترحال وحيث الأم هاربة، متخفية، وبدور شاغلها الوحيد... لم يكن هناك دار ولا حبيب: عزيز يقاتل في صفوف الثورة أو مختف هنا أو هناك، والدار بيت من شعر تقوم بخدمته وضحة فتكذب شمس على فراخها الذين لم ينبت زغبهم بعد، تزقهم، تحنو عليهم ونقرش جناحها رعاية وحماية.... لكن... الأخضر، نواف، مناف صبية، والصبية يخرجون إلى الفضاء الرحب، يلعبون، يلهون، يشتبكون مع الصبية الآخرين، ويغيبون، فيما بدور تظل مع أمها أنى ذهبت وكيفما توجهت، في حجرها، بين ذراعيها، على كتفيها، بدور دائماً مع شمس وشمس لا تستطيع فراق بدور.

حين انتقلوا إلى دمشق كانت بدور قد بلغت الخامسة... وفي أحشاء الحي العتيق، الميدان ذي الأزقة الضيقة والدور الكالحة والعليات المتلاصقة عاشت مع أمها غريبة من نوع جديد... لم يكن هناك أقرباء ولا أصدقاء... الأهلون في البادية وأم العيون ودمشق غريبة تامة... كل ما فيها ومن فيها جديد على الأم والبنات فاشتدت العلاقة بينهما حميمة وازدادت الوشائج وثوقاً. الأب يخرج والأخوة

يتفرقون لتبقى البنت لأمها دمية و سلوة... بيدها تطعمها، بيدها تسقيها. في الصباح توقظها بنفسها، تمسد براحتها الدافئة جبينها، تلاعب وجنتيها، تعبت بشعرها، ولا يسعد البنت كصحة الأم، فتفيض عليها دفناً و ألقاً.

أول مرة ذهبت إلى المدرسة بكت عليها الأم مر البكاء، كما بكت البنت وشهقت ... فهما ستفترقان... وللمرة الأولى تفترقان.. لكن كان يعزي البنت أنها ما إن تفتح الباب عائدة من المدرسة حتى تجد أحضان الأم مفتوحة لها تغمرها دفناً وحناناً... وفي الصباح توقظها أشعة الحب والحنو يطلقها وجه "الشمس المشرقة" فكيف لا تشعر بمثل ذلك وهي تستيقظ فلا تجد شمسها..؟

الظلام "يصاحبه القرس" والقرس بدأ يشوبه الرعب حين جاء الأب إلى المنزل فلم يجد الأم. "أين عمك؟" "لا أدري رجعت من السوق فلم أجدها" الصبية الصغيرة توجست شراً وهي ترى أباه يتسمر في مكانه مفاجئاً مذهولاً... جواب وضحة زاد سيماء اصفراراً وشفثيه ارتعاشاً. "هو إذن خائف عليها؟" ... فكرت الفتاة بعجب واستغراب... الأب، في عينيها فارس الفوارس، رجل الرجال... كيف إذن يصفر وجهه وترتعش شفثاه؟ "المدينة مقفلة والمظاهرات ملء الشوارع، مظاهرات نساء لا رجال"، قال لها مناف بعد أن خرج الأب مسرعاً، ربما يبحث عن ذرة طمأنينة... كان مناف قد خرج قبل ساعة وكانت أخباره مثيرة للرعب... "أمي في المظاهرة والاشتباكات على قدم وساق مع الفرنسيين". فزاد الطين بلة في عين بدور وفي قلبها، حيث القرس والرعب غابة من أشواك اشتعلت فيها النيران.

- دعنا نخرج.. نبحث عنها، اقترحت بدور على أخيها فرد مناف شبه مرتجف.

. نبحث عنها.. أين؟

. هناك في المظاهرة... بين النساء، ردت بحماسة شديدة، لكنه هز رأسه..

- الجندرمة في كل مكان من الشوارع يسدون الطرق ويسوطنون الناس بكرابيجهم... أنا نفسي نالني أحد كرابيجهم... قال مناف الرقيق، مرهف المشاعر، وهو يمد يده إلى ظهره يتلمس موضع السوط بأسى وقهر.

مناف، ابن الرابعة عشرة، طالب "البروفيه"، يكره العنف ولا يجد كثير وقت للتفكير بالشغب والمظاهرات... مشاغله تأخذ كل وقته... صحبه يمنعونه حتى من التواجد في الدار فتلهو معه بدور بعض الوقت.. هو يحب الهدوء والسلام وحيثما يكون صخب وضجيج لا يكون. صحيح إنه يشارك في مظاهرات المدرسة

لكن مشاركة من لا يصرخ ولا يصيح، لا يصعد على الأكتاف ولا يشتبك مع الجندرية... ومن يضمن له الآن ألا يشتبك مع الجندرية ان خرج؟.. ومع من؟ مع أخته، اليافعة التي بدأ جسدها يتكور، أنثى لا يعرف ما تجر عليه من ويلات...

. ماذا فعل إذن؟ نقعد؟ هلم مناف!! وحاولت بدور أن تسحبه من يده.

. لا... لا فائدة.. قال وهو يتملص، سنكون كمن يبحث عن إبرة في كومة قش... وشعرت بدور بالإحباط... مناف أكبر منها، والأكبر منك بيوم أعرف منك بسنة، وهو يحسب جيداً، قراراته حكيمة، كيف تخالفه؟ لكن كيف تتحمل كسوف الشمس؟ كيف تصبر على فقدان الحرارة والضياء؟ ألا تتحير في مكانها وترتعش؟ ألا يحل على دنياها كلها الظلام؟..

الظلام الذي بدأ خفيفاً شاحباً باهتاً بدأ يزداد قتاماً وقد عادت بعض النسوة من الحي ممن شاركن في المظاهرة ولم تعد شمس... سألتهن بدور فازدادت خوفاً.

. لم أرها النبتة، قالت إحداهن.

. رأيتها في الطليعة تهتف ثم غابت عني، قالت ثانية.

- لا تسألني... لا أحد يعرف شيئاً عن أحد... ردت ثالثة.. وهي ما تزال تلهث خوفاً من الجندرية الذين لا حقوها بهراواتهم حتى شارع الحميدية ولم تنج منهم إلا بشق النفس....

مع أذان العصر عاد الأخضر وهو يضحك، فخيل إليها أن أمواج الظلام والرعب والقرس كلها تتلاشى أمام ضحكته... الأخضر أخوها الأكبر ولا يمكن أن يضحك إلا لخبر مفرح سعيد..

. هـ..ى.. خبرنا... بادره مناف وقد أحس هو الآخر بزوال الخطر... علام تضحك؟..

. على عواد؟

. مابه عواد؟ تدخلت بدور بنوع من الصدمة وقد عاد توجسها للشر.

. ذهب يتسوق الخضار فتسوقه الفرنساوي..

وهز مناف رأسه ضيقاً واستككاراً:

. ماذا تقول؟. أخضر؟

حينذاك روى لهم الأخضر بروح دعابته نفسها كيف أغلق المحل حين سمع بالمظاهرة واتجه إلى المرجة.. لكن الزحام والشرطة والجند كل ذلك جرفه إلى سوق الهال وسوق العتيق.. هناك رأى الجمّالة الذين جاؤوا بأحمال الحنطة يحملون الخضار والفواكه وقد أناخوا جمالهم. صخب المظاهرات وأصوات الرصاص والاشتباكات جعلتهم يسرعون في تحميل جمالهم... وحده عواد كان قد دفعه الفضول لأن يذهب فيستطلع وظل جملة بلا أحمال... حاول الأخضر الاقتراب من المظاهرة لكن النساء أنفسهن كن يمنعن أي رجل من الاقتراب... بحث عن عواد هنا، هناك، لكن عبثاً... فالإبرة داخل كومة قش. أطراف المظاهرة كانت تمتد من سوق الحميدية في الأعلى إلى سوق الهال في الأسفل، أشبه بموج البحر تتقدم كارة على الشاطئ لتتسحب فارة إلى الداخل. حاول الأخضر اختراق أمواج البحر لكنه لم يستطع... كان يبحث عن عواد ولم يكن يعلم أن أمه هناك في طليعة الأمواج كارة... فارة... هم قالوا إن عواداً ذهب يتفرج... حميته لم تسمح له أن يسمع بمظاهرة ولا يشارك فيها... وإن لم يستطع فلينفجر عليها، وذلك أضعف الإيمان... لكن الأخضر اضطر لأن يوقف البحث حين ارتد عليه الموج في أحد انحساراته جياشاً طاغياً حتى كاد يلقيه أرضاً... أدرك الأخضر أن من العبث الاستمرار... فعاد أدراجه بلا عواد... لكن ما إن وصل إلى سوق الهال حتى وجده خالياً من رفاق عواد أيضاً فالجمالة الذين رأوا الخطر داهماً، وقد لعل صوت الرصاص قريباً منهم، أسرعوا إلى جمالهم، ينهضونها بأحمالها ويولون الأدبار....

جمل عواد وحده، كان قد ظل نائماً يجتر ويحرك عنقه الطويل ذات اليمين وذات الشمال... ووجد الأخضر نفسه في مأزق... إن ترك الجمل ربما خسره عواد إلى الأبد، وإن أخذه تورط في مأكله ومييته... كان سوق الهال قد أقفل وكانت المحال كلها قد أغلقت وأصحابها أطلقوا سيقانهم للريح، فمن يعلم، حين ينفجر البركان، أين تقع حممه؟..

حائراً، متردداً، ظل الأخضر هنيهة يقلب الأمر... في نفسه بعض الأمل أن يعود عواد، وفي قلبه الكثير من الخوف أن يصله بعض من شواظ الحمم... أخيراً حسم الأمر.. صاح بالجمل "ه... ي... تج... ه... ه... ي... تج"، كما سمعهم أكثر من مرة يصيحون بجمالهم.. فنهض الجمل دون أن يوقف اجتراره وحركة رأسه القلقة المضطربة، أمسك الأخضر بزمامه ثم أسرع به مبتعداً عن فوهة البركان فيما دوي انفجاراته وصخب حممه يندران بالويل والثبور...

طوال الطريق إلى المستودع ظل الأخضر يضحك... هو يصبح جمالاً والجمال يصبح متظاهراً يعارك الفرنسي ويقاتله... الأخضر على ثقة أن عواداً كان قد شارك في المظاهرة، وإلا أين هذا الغياب؟ بل ربما تقاوم الأمر سوءاً ووقع في أيدي الفرنسي...، "إذن... ذهبت في داهية يا عواد،" كان الأخضر لا يفتأ يفكر ويضحك..، و"الجمال... ماذا تفعل به يا أخضر؟"... كان يسأل نفسه ويضحك أيضاً... هي ورطة... أن ترى جملاً لا تعرف كيف ترعاه، ورطة مابعدا ورطة.. لكن ما عساه يفعل، وقد وجد الجملة وحيداً، لا جملة معه ولا جمال!!...

هز مناف رأسه وقد سمع قصة أخيه، لكن الأخضر اهتز كله وقد سمع بغياب الأم...

- أمي في المظاهرة؟ خرج وهو يدرك جيداً ما معنى اشتباك أمه مع الفرنسيين... ثم جاء الوالد مطرق الرأس متهدل المنكبين، وجهه غمامة من ظلام..

. ماذا هناك؟

. ماذا بك؟

. ما أخبار أمي؟

أسرع إليه الأولاد بالأسئلة وقد صدمهم جميعاً أن ينهد ذلك الطود الشامخ فيحني هامة لم تتحن من قبل.

- أمكم في السجن!! دون أن يرفع رأسه، غمغمت شفثاه الراعشتان، وكأنما تكرهان نطق تلك الأحرف..

كانت الشمس قد غابت وكانت أصوات المؤذنين ترتفع من المآذن القريبة مختلطة بالنبأ. القنبلة الذي فغرت له أفواه وجحظت عيون... وككل نبأ. قنبلة... لا يصدق الناس في البدء فيلجؤون إلى تكذيبه أملاً منهم أو خوفاً، وعاد مناف يسأل:

. أبي!! ماذا تقول؟

. أقول... أمكم اشتبكت مع الفرنسي... جرحت واعتقلت. النبأ الثقيل صار قنبلتين. وفغر الفم صار فجرين وجحوظ العينين صار جحوظين.  
. كيف؟

. متى؟

- من قال ذلك؟ راحت الأسئلة تتراعى رشاً ودراكاً، فالأبناء يفجعون بأعز مألديهم... يصابون في صميم القلب، جرحاً دامياً شديداً بالإيلام...

روى لهم عزيز ماسمعه عن حماسة الأم وهي تهتف، عن شجاعته، وهي تتقدم الصفوف، وكانوا في كل ذلك مزدهين تملأهم مشاعر الفخر والعزة، لكن ما إن بدأ يصف لهم كيف نزلت الهراوات على كتفي شمس، ظهرها، صدرها، رأسها، حتى زعقت بدور وقد تفتت قلبها إلى دموع ملء العينين ونحيب ملء الشفتين.. بدور يمكنها أن تتصور كل شيء إلا أن تضرب أمها، ربة العزة والدلال، وماذا؟ تضرب إلى أن تسقط أرضاً فاقدة الوعي؟

حين فتحت شمس عينيها من جديد، خيل إليها أن نور الشمس قد تلاشى وأن السماء قد استبدلت بزرقها السواد... طرفت بأجفانها المرة تلو الأخرى، لا تكاد تصدق: "ماذا حل؟ كيف تبدل كل شيء؟..؟" تلمست وجهها، صدرها، رجليها... كل شيء ما يزال في مكانه... تلمست الأرض تحتها... ليس هناك حجارة رصيف... بل إسمنت مصبوب... مدت يدها أبعد... ثمّة جدار... الجدار رطب بارد... رائحة عفنة... حدقت النظر جيداً، موسعة حدقتيها متفرسة في الظلمة. ليس ثمّة سماء... لا زرقاء ولا سوداء. بل سقف عفن رطب هو الآخر... وكوة هناك... كوة صغيرة مشبكة بقضبان يهرب منها بعض الضوء... "أنا في زنزانة"، وللتو عادت الذاكرة ترمح هائجة مضطربة، يختلط بعضها ببعض الآخر... "لكن كيف جئت؟ من حملني إلى هنا؟".. وخيل إليها أن طيفاً من ذكرى يعبر ذهنها حاملاً معه صورة غامضة ليد قوية من هنا ويد قوية من هناك تمسكنا بكنتا يديها وتجرانها على حجارة الرصيف... تلمست ثيابها... فأدهشتها مزق هنا ومزق هناك... تقوب وأوساخ في ملاءتها السوداء... غطاء رأسها ذهب مع الريح... لا بد أن الجند كانوا بمنتهى الرقة واللفظ وهم يجرونني على الأرض... وفجأة تملكها شعور بالرعب ثمّة شيء غير المزق والأوساخ... سائل!! هذا سائل متجمد... وتفحصته بأطراف أناملها، ثم براحة كفها.. السائل المتجمد، يمتد من أعلى الرأس، حيث خصلات الشعر قد تحولت إلى كتلة من خثارة... منحدرًا مع العنق.. صدر الملاءة فالذراعين فالكمين... "دم!!" كان من الواضح أن ثيابها كلها مضرجة بالدم... وكان الدم قد تخثر في كل مكان ماعداً أعلى الرأس... فهو ما يزال دافئاً لزجاً هناك، وكأنه ماء نبعثة صغيرة تنز من صخر...

- اي.. أنتم يا من هناك!!... بدأت تصيح وهي تنهض عن الإسمنت... ظهرها يؤلمها، يداها تؤلمانها... ووجع في عنقها، وجع في بطنها، رجليها... جسدها كله يوجعها... "ماذا فعلتم بي يا أبناء السفلة!؟... فشمس لم تكن تعلم أن وقع الهراوات على جسدها وجرها على الرصيف الطويل إلى أن وصلوا بها إلى سجن القلعة لم يكونا ليذهبا هباء...

بصعوبة وقفت على رجليها، بصعوبة خطت باتجاه الباب...، "أجل، هو ذا الباب... الكوة في الأعلى... وضوء مصباح كهربائي يأتي من هناك.. تلمست الحائط إلى جانبها... الباب في المنتصف حديدي ثقيل... نقرت عليه بظاهر أصابعها فرن... "الأوغاد يسجنون النساء!!؟"... وارتعش كل مافي جسدها "لم يعودوا يرعون حرمة ولا يخفرون ذمة!!"، مع ذلك كان عليها أن تعلم أين هي... أن تتواصل مع بشر... الزنزانة المحكمة الإغلاق، المعتمة الأفاق، الرطوبة الجدران توشك أن تقطع عليها الأنفاس... عنقها بين أصابع جبارة تضغط... تضغط... "أنت أيها الحارس.. افتح أيها الحارس..."، عادت تصيح وهي تدق الباب الحديدي وتوجه صياحها نحو الكوة لكن الدار قفراء نفراء... لا نائمة ولا حركة... "أهي زنزانة في صحراء؟"... وتحولت الرعشة في داخلها إلى رجة فرعدة... الدم الدافئ اللزج يرفض أن يتخثر، العتمة والبرد من حولها قاسيان، والوحدة وحش فاتك يفتح فكيه هاجماً عليها... "لا بد من أحد... لا يمكن أن أكون في صحراء"... ومن جديد راحت تصرخ وقد تملكها هاجس واحد: أن ترى بشراً... "الجدى الذي يبيع ترضعه أمه".. هكذا يقول المثل لكن بعاق شمس لم يأتها بثدي أم يرضعها بل بسطل ماء بارد اندلق عليها على حين غرة، بعد أن فتح الباب على حين غرة أيضاً..

هول المفاجأة وشدة الصدمة أوقعاها أرضاً وهي تشهق محاولة التقاط أنفاسها من جديد... الماء وسخ، عفن الرائحة، لا تدري من أين جاء به ذلك الحارس الرقيق المشاعر المرهف الأحاسيس...

على ضوء المصباح كانت قد لمحت، جندياً جهم الوجه قاتم الملابس، ضخم الجثة ظهر لحظة واحدة من الباب، سكب عليها سطل الماء البارد بدفقة هائلة القوة طرحتها أرضاً ثم عاد وأغلقه بصفقة هادرة كالرعد...

- يا أخ، أيها الحارس الطيب!! عادت تنادي بنبرة من لطف ومسحة من رجاء، أمله ألا تثير حفيظته، فيفتح لها الباب دون أن يفاجئها بسطل آخر من الماء..

مرتين، ثلاثاً، عشر مرات كررت شمس النداء، لكن: "لا حياة لمن تنادي"، فكرت أن تعاود الدق على الباب، أن ترفع صوتها بالنداء بل أن تصرخ وتهدد لكن سطل الماء وقف أمام عينيها، مهدداً متوعداً فتراجعت. من جديد أبت اللزوجة الدافئة في أعلى رأسها إلا أن تدفعها قدماً: أرجوك... أيها الحارس الطيب... يا أخ... أنا بحاجة للمساعدة... أسعفوني... دمائي تنزف...

. اخربي، أو فتحت عليك فوهة الجحيم!! جاءها صوت الحارس جهم الوجه ضخم الجثة من وراء الباب فلم تجد أمامها سوى أن تخرس... "سطل الماء وحده مرعب فكيف بفوهة الجحيم؟ لا... لا... لا... شمس... أيتها الحرة الأبية تماسكي.. لا تخبطي، طائر الحر إن وقع لا يخبط".. وعادت إلى ذهنها ذكريات صيد الحر... "سلت يدك يا شمس! كيف تذهبين مع شبان القبيلة، تتسلين باصطياد ذلك الطائر الجميل... تلقين له الحمامة. الطعم وعلى ظهرها شبكة إن أمسكت بالحر علقته فلم يستطع خلاصاً... ها أنت الآن حرة تقع في الشباك، وتهاتوت على الأرض، حزينه، يفتت قلبها الأسي. "الحرية!! كيف نستبيح لأنفسنا استلاب حرية الآخرين؟... كيف نضعهم في القيود والأقفاص؟"... وجاشت نفسها أسي: "ظلم.. ظلام... ظلم... العالم كله ظلم وظلام"... متهاوية جلست على أرض الزنزانة الرطبة تكاد الدموع تفر من عينيها. مرق في خيالها طيف نازك، وجه عزيز، عينا بدور فانفرجت بعض من أساريرها: "لا، ثمة نور، ثمة أمل، ثمة حب".. وبدا لها وهي تتفحص أرض الزنزانة، وجدارها القريب بأنها بأمس الحاجة إلى ذلك الأمل، إلى ذلك الحب، إلى ذلك النور. كانت الرعشة قد بدأت تسري في أوصالها... فماء السطل بلل ثيابها ورطوبة الزنزانة زادت البلل سوءاً، فيما رائحة العفن جعلت روحها أضيق من خرم الإبرة... أرادت أن توسع ذلك الخرم، أن تتلمص من تلك العفونة، ذلك البلل، لكن أين تذهب؟ الزنزانة متران بمترو.. يجب أن تكون خنفساء كي تتحرك بحرية.. البرد في أوصالها يشتد... يصل إلى أسنانها فتصطك: "أهو أشد من ذلك القرس الذي ألم ببذور؟..."

شمس لا تعلم أن ابنتها تشعر مثلها بالبرد وأن أوصالها ترتعش وأسنانها تصطك... هي تعلم فقط أنه لا يوجد في هذه الصحراء المقفرة سواها... حدودها ضيقة... متران بمترو. البرد قارس وفي شعرها مايزال سائل لزج يسيل... "لا تعرف خيره حتى تجرب غيره"... لمع في ذهنها المثل الشعبي وهي تتكوم على نفسها مقشعة البدن، مرتجفة الأوصال،... تذكرت الغرفة الواسعة الشاسعة حسنة الأثاث، التي أرسلها إليها الكابيتان جيران... كان يريدان أن تنتهياً له، بل ربما

تترزين وتتبرج حتى إذا ما عاد إليها آخر الليل وجدها ينبوع لذائذ دافئة ومتع شهية... الحارس يومذاك كان طوع بنانها، جاء لها بالطعام، بالشراب، بل لو أرادت النبيذ والويسكي لجاء بهما. "أين هو من هذا الحارس الجلف الوقح؟"، وفي قلب الظلمة رأت شمس وجه ذلك الحارس وهو يدخل غرفتها على وجل. لعله كان قد تلقى تعليمات محددة.. لعله كان يعرف الرحمة... يشفق على مصير امرأة لا يرضاه لأخته أو أمه. وارتعشت شمس من جديد... وهي تستعيد في ذهنها صورة الكابيتان جيرار يدخل غرفتها منتفخ الصدر منتبج الأوداج، طاووساً في عز زهوه. لكن هي الأخرى كانت في عز قوتها وحميتها... الخنجر في طيات ثوبها كان يمنحها شعوراً بالقوة ولا أعظم... الفارس الملتئم لم يكن بعد قد اكتهل أو شاخ... وكان الإنذار وكانت الطعنة القاتلة في الصدر... "لكن.. الآن من أقتل؟ من أواجه؟ وبماذا أواجه؟" هي عزلاء... لم يخطر ببالها أن تحمل خنجراً معها... "آه.. لماذا لم تحمليه؟"... شرعت تقرع نفسها، فلو كان معها خنجر لعاد إليها ذلك الشعور بالقوة، لكان باستطاعتها الدفاع عن نفسها... بل ربما قتلت صاحب الهراوة ذاك قبل أن يرميها أرضاً... لكن نازك، القيادة النسائية كلها كانت مصممة أن تخرج المظاهرة سلمية، دينها اللاعنف دين غاندي الهند، وسلاحها الكلمة واللسان، كما كان يوصي غاندي الهند.

يبرد الجسد فينكمش على نفسه وينقلص.. كأنما بتقلصه ذاك تضيق مساحة حرارته.. ويدخل بعضه في بعض كأنه بذلك الدخول يمنع وصول البرد إلى اللب فيه. أوصاله ترتجف وأسنانه تصطك وكأنه بتلك الحركة يولد حرارة من جديد تصد البرد عنه وتعيد له التوازن... شمس في زاويتها تمارس تلك الطقوس كلها... البلبل في ثيابها كلها، والقرس في عظامها، فماذا تملك سوى أن ترتجف أوصالاً وتصطك أسناناً؟ أمام عينيها يرتسم طيف... ذراعاه القويتان تضمانها، صدره الدافئ يحتويها، موجة من دفء تغمرها "آه!! عزيز!! حبيبي!! كم أنا بحاجة لذراعيك الآن!! كم أنا بحاجة لحضنك!! لذلك الحب الإلهي يشع علي بهجة ودفئاً!! آه!! حبيبي!! أين أنت الآن؟ ماذا حل بك؟ كم أنت مشغول البال، قلق حزين علي!! الأولاد... حبيبي... أولادنا!! مايفعلون الآن؟ كم يعانون!!"..  
واندفعت في عروقها دفقة من دم تلتها دفقة... الدم الحار لم يعد يخرج إلى السطح من رأسها، بل يسري عميقاً في عروقها، مائلاً الشرايين، الأوردة، الشعيرات. ثواني، دقائق ثم شعرت أن كل شيء فيها يتمدد، ينبسط، ان الدفء يملأ جنباتها فيفك انقباضها ويفرد جسدها من تكومه لتتبعث همتها من جديد

"لا..... لن أكون الضعيفة المستكينة، لن أذعن أو أستسلم... سأقاوم حتى النهاية... سأصمد حتى الرmq الأخير... من أجلكم... من أجلك، حبيبي، من أجلك، وطني!!"

لكن فمها كهف من رمل صحراء لم تعرف مطراً ولا ندى... لسانها، حلقها، كل مافي فمها عوسج وقتاد، كيفما حركته الريح ترك وخزاً وإيلاماً.... وتساءلت، "منذ متى لم أشرب؟" على بركة الماء، مع قهوة الصباح كانت قد رشفت بضع رشفات من ماء عين الفيحة الزلال.... ثم جاءت الأحداث تترى... العطش يفح من كل خلية من خلاياها أفعى تقدح عيناها شرراً.... ثمّة شيء آخر أيضاً... جوفها ذئاب تتناهش، عواؤها في أذنيها لكأنها في شتاء تكدست ثلوجه فقطعت عليها الرزق وسدت سبل الطعام...، "منذ متى لم أكل أيضاً؟" وتذكرت أنها لم تأكل طوال ذلك اليوم. "الأوغاد، حتى الماء والطعام يضمنون بهما علي.... يسجنون الناس ويميتونهم عطشاً وجوعاً؟" دفقة من حماس جعلتها تهم بالنهوض لكن جسمها خذلها... كانت حتى عظامها تنن ألماً وتشكو وجعاً، مع ذلك كان عليها أن تنهض، فالعطش والجوع لا يسمحان لها بالعود... على أربع زحفت حتى الباب... هناك تمسكت بضلع حديدي من أضلاعه، ثم نهضت "من حقي أن أكل واشرب فلماذا لا يعطونني بعض حقي؟" دفعها السؤال قدماً على طريق الشجاعة والاقدام لكن صورة الحارس الفظ الذي ينفض الناس من حوله رعباً وهلعاً جعلتها تنكمش من جديد مترددة ساحبة قبضة يدها بعد أن كادت تفرع الباب... ماذا لو رماني بسطل ماء آخر؟" هي بين الإقدام والإحجام ريشة في مهب ربح تلف بها ذات اليمين وذات الشمال.....الخوف شديد والحاجة للطعام والشراب شديدة.... والصراع بينهما أشد... تُقدّم أم تحجم؟ تلبّي حاجة الغريزة أم تستسلم للخوف؟ زمناً لا تدري مداه ظلت أمام الباب... ثمّة حركة في الخارج... ربما الحارس نفسه يروح ويجيء، عيناها تقدحان شرراً، ووجهه الجهم غليظ الملامح قبالة بابها يتوعدها شرراً..... "يجب أن أعيش..... من أجلهم يجب أن أعيش..... أن أصمد..... أن أقاوم.... وكيف أقاوم بغير طعام أو شراب؟ كيف أتحمل هذا الضغط الهائل أسفل بطني؟" فقد داهمتها فجأة حاجة لا مجال معها لإقدام أو إحجام، خوف أو تردد. ودون أن تشعر سمعت شمس يدها تطرق الباب. لم تكن طرقات قوية ولا صاخبة، بل طرقات خفيفة كأنما هي بقية من خوف أو تردد. لكن، يالدهشتها، ويد تسارع إلى المغلاق تفتحه!! ثم يفرج الباب الحديدي المصمت عن الكوة ذات القضبان. وجه أبيض

البشرة حليق الذقن والشاربين أطل من الكوة..

. أتريدين شيئاً؟ ألك حاجة؟

وفوجئت شمس بالنبرة اللطيفة، والسؤال البشري يدغدغ أذنيها...". إذن مايزال ثمة بشر... ليسوا جميعاً وحوشاً فائكة"... ونظرت إلى الوجه الأبيض البشرة، حليق الذقن والشاربين يحرق إليها بعينين سوداوين ملؤهما البراءة والطيبة..

- أنا بحاجة إلى كل شيء.. وبحركة لا إرادية انطوت على نفسها متشنجة عاصرة، رد فعل على تموجات أسفل البطن... فحاجتها للإفراغ كانت قد طغت على كل شيء بعد أن دهمتها على حين غرة...

فتح الحارس الباب وقد رأى الحركة فوجدت شمس نفسها في ممر طويل ضيق يفصل بين مجموعة من أبواب حديدية إلى اليمين وأبواب حديدية إلى اليسار... توقفت متحيرة متلفتة يمنة ويسرة، فأدرك الحارس أنها لا تعرف الطريق إلى المرحاض... بإشارة من يده وجهها ثم لحق بها وهي تغذ الخطى... حين اقتربت من طرف الممر كانت رائحة النشادر وأبخرة التعفن كافية لإرشادها إلى بقية الطريق... نظرت وراءها باستحياء، ثم أسرعت تدخل غابة النشادر والأبخرة تفرغ فيها أحمالاً أثقل من الجبال...

في طريق العودة وجدت نفسها خفيفة نشطة، وقد ارتفعت معنوياتها من جديد:

. أنتم هنا ما تطعمون ضيوفكم؟ ما تسقونهم؟...

سألت بنوع من الدعابة وبلهجة بدوية سرعان ما فوجئت هي نفسها بها، إذ كانت قد تخلت عن استخدامها خارج أسرتها عامدة متعمدة مذ دخلت دمشق.

- أنت بدوية؟ هامساً، متلفتة يمنة ويسرة رد على سؤالها بسؤال ربما كان دافعه الدهشة والفضول، هو الذي فوجئ بها: بدوية في زلزلة إثر مظاهرة نسائية في دمشق!!

- وابنة شيخ!! أجابته بنبرته نفسها، ربما يشجعها على البوح وجه الحارس السمع وعيناه السوداوان الطيبتان...

- حيا الله الشيخة بنت الشيخ... رد الحارس هذه المرة بلهجة بدوية مماثلة... وكى يقطع الطريق على التساؤل الحاد الذي لمع في عينيها، تابع: أنا أيضاً من عرب بني خالد... من لبنان.

. وما الذي جاء بك إلى هنا؟

- إي... هذه قصة أحكي لك إياها بعد... قولي الحين تريدان تاكلين؟  
تشرابين؟ ...  
. أموت جوعاً وعطشاً... منذ الأمس لم أذق طعاماً ولا شرباً... أرجوك...  
أنجديني...

وأسرع الحارس ينجدها بعد أن أثار لها مصباح الزنزانة الكهربائي وأغلق الباب على عجل... "لك الله أيتها الكهرباء!! تبديدين الظلمة كالشمس، تؤنسين كالحيب، تبعدين الأشباح والرعب كالأهل، فما أعظم من اكتشافك!!" كانت شمس مذ جاءت دمشق، ورأتهم يستبدلون بمصابيح الكاز مصابيح الكهرباء، معجبة بذلك الإنجاز. لم يكن العالم من قبل قد عرف شيئاً يدعى الكهرباء... فجأة بدأ الناس يتكلمون عن تيار يسري كتيار الهواء أو تيار الماء لكن دون أن تراه عين.. عبر أسلاك من نحاس يسري، يصل إلى البيوت فينيرها، إلى الآلات فيحركها... لم تعد المرأة بحاجة إلى مكواة الفحم... ثمّة مكواة تعمل بالكهرباء، مذياع يتلقى الأنباء من العالم بواسطة الكهرباء، بل حافلات في الطرق تسير على الكهرباء... الله، ما أروعك من اختراع أيتها الكهرباء!!..."

- آسف!! ليس لدي سوى هذه اللبنة وحبّات الزيتون!! بادرها الحارس الذي يمت لبني خالد وهو يضع أمامها صينية صغيرة عليها صحنان وزجاجة ماء سرعان ما وجدت يدها تمتد إليها، تضعها على شفيتها ثم تجرع وتجرجع حتى آخر قطرة...

. شكراً لك!! قالت وهي تعيد له الزجاجة، في عينيها أشد العرفان...

. عطشى إلى هذا الحد؟ تساءل وهو لا يصدق عينيّه ثم أسرع من جديد يملأ لها الزجاجة. حين عاد كانت قد أتت على صحن الزيتون واللبننة ورغيفي الخبز... كانت الذئب التي تعوي في داخلها قد التهمت كل شيء نظرت إليه وهو يحدق إلى الصينية الفارغة فاستحييت...

. لا تؤاخذني... الجوع كافر...

. بل أنت لا تؤاخذني... ما لدي سوى ذلك العشاء البسيط... ورفاقي كلهم

نيام...

. لا... الحمد لله... شبعت... وألف شكر لك...

. لكن ما هذا الذي على شعرك وثيابك؟ قال الحارس وهو يتأمل خثرات الدم

على شعرها وبقعه على ثيابها... حينذاك فقط تذكرت الدم الذي كان قد شغلها من قبل فمدت يدها إلى رأسها.

. الحمد لله قد توقف!!... قالت بفرح طاغ وهي تتلمس الخثرات المتجمدة على شعرها وقد صارت باردة...

. لكن... لا بد من دواء لك... من ضماد... ألم يسعفوك؟..

. أسعفوني؟! من؟ أصحابك... أبناء الحضارة والمدنية؟

وأسرع يغلق الباب خلفه دون أن يرد على أسئلتها الساخرة...

شاش، كحول، سائل أحمر... كان يحمل معه وهو يفتح الباب ويسرع إليها...

. لا بد من تطهير الجرح حتى لا يلتهب، قال وهو يفتح زجاجة المطهر فتغزو رائحته خيشومياً..

- كثر الله خيرك، ردت وهي تستجيب لإشارته، فتحنى رأسها لبيدأ غسل الجرح... وخزات إير اخترقت أعلى جمجمتها هابطة إلى اللب من دماغها.. كزت على شفتها كي تكتم صرخة ألم أحست أنها على وشك الإفلات..

. يؤلمك؟!.. سألتها وقد أحس بانكماشها على نفسها وتشنجها..

. كثيراً!!..

. لم تصرخي إذن؟

وعادت إلى ذاكرة شمس ذكرى مخاضها الأول... الطلق الذي كان يمزق أحشاءها هناك كان يفجر الدموع في عينيها ويرسل الصرخات حادة إلى شفتيها، لكنها كانت تكتمها كتم عزيز مقتدر... تطبق فكيتها الواحد على الآخر فلا تفلت صرخة، تكز على شفتيها حتى تسيل منهما الدماء... أظافرها كانت تنغرس في أذرع من حولها من نساء... تضغط، تشد، تتألم، تتوجع، ولا تطلق صرخة. كانت تحسب أنه لا يليق بفارس ملثم مثلها أن يصرخ... الصراخ ضعف وعجز فلماذا تصرخي؟.. لكن ما إن قالت لها القابلة "اصرخي، صيحي".. وأطلقت لحجرتها العنان، حتى شعرت بأصابعها تسترخي وتوترها يزول...، فلماذا لا أفعل مثل ذلك الآن؟"...

الخثرات المتجمدة على شعرها والجرح تحته لم يدعاها ترد على السؤال، إذ ما إن وصلت يد الحارس إلى هناك وتقرشت الخثرة السفلى حتى مزقت رأسها

موجة ألم أكثر حدة من أن تستطيع كتمها...

. آخ!!... انطلقت صرختها، فارتعشت يد الحارس بالقطن والمطهر...

. لحظة... لحظة واحدة... الجرح كبير وينبغي تنظيفه...

مع التنظيف، تتابعت الصرخات، وتعالق الآهات، لكن ما إن وضع المطهر حتى أطلقت شمس صيحة توجع شديد، كذلك التي أطلقتها والأخضر يشق طريقه إلى الخارج يوم ولادتها تلك.

وضع الحارس سائلاً أحمر ثم مسحواً أبيض أحست معه للتو بأنفاسها تعود إليها بعد أن كانت قد انسحبت منها حتى الشفتين... الشعور نفسه تتذكره حين أكمل الأخضر خروجه تاركاً إياها بلا ألم كأن لم يكن هناك شيء... "يا الله!!.. كيف يأتي الفرج بعد الشدة؟ الخلاص بعد الضيق!!" ثم تبسّمت وهي تنظر إلى الحارس الطيب يلف حول رأسها برعاية الأخ وحنانه شاشاً أبيض نظيفاً تصورت معه نفسها شيخاً يلفون حول رأسه لأول مرة عمامة المشيخة البيضاء...

- سلمت يداك!! قالت وهو ينهي لف العمامة، لا أدري ما كان سيحل بي

لولاك؟

. الخير... الخير... قال وهو يتعجل الخروج، كأنما خاف فجأة من شيء... .

أتريدين شيئاً الآن؟

. سلامتك.. أيها الخالدي الطيب؟

على عجل أغلق الباب وعلى عجل ابتعد... "صحيح، لا تخلو الدنيا، وإن خلت خربت...". لكن سلسلة تفكيرها توقفت وقد قطعها صوت يقول شيئاً ثم صوت الحارس يرد عليه...، "لا بد أن نوبته انتهت وهذا هو الحارس البديل...".

في الحال عادت إلى ذهنها صورة ذلك الحارس الفظ وسطل الماء البارد:

"لا... لا... لا تدعيه يشعر بوجودك... نامي شمس"...

كان فراشها بطانية مهترئة وسخة، ولحافها بطانية أخرى أشد اهتراءً ووسخاً، مع ذلك شعرت أن النوم سيكون راحتها الوحيدة. كانت قد قضت حاجتها الغريزية للإفراغ، أطفأت ظمأها، أسكتت جوعها، فيما بدأ الجرح يرقد بسلام وهدوء تحت مسحوقه وشاشه... فلم تشعر شمس إلا وهي تستغرق في سبات عميق... لكن أنى لعزیز أن يستغرق في سبات عميق أو يرقد له جفن؟ كان كالسمة في البحر يتلوى، يذهب، يجيء، فالفراش شوك موجع لا يمكن لجنبه أن يلمسه... الأخضر ومناف ناما... لكن عينه هو لم تنم... بدور تمام بعض الحين ثم ينطلق

صراخها فجأة... كابوس مرعب يمسك بخناقها فيسرع إليها يهدئها وبينهما من جديد.. مسكينة بدور لم يرقاً لها جفن طوال النهار... كانت تتشج وتتشج حتى لم يظل في صدرها أنفاس، ولا في عينيها عبرات... ثم ما إن رقدت حتى بدأت تتنايبها الكوابيس: "يما... يما"... أكثر من مرة انتفضت من رقادها صارخة، وفي كل مرة كانت تروي له كيف ترى أمها بين مخالب ذئب تمزق ثيابها، وتهشم وجهها الجميل.... وجه الشمس المشرقة...

. هو ذا عينه ما يعذبني، قال لها وقد عادت إلى ذاكرته صورة سوداء قاتمة: سجن حماة... صنوف التعذيب التي لقيها هناك، الكابورال، السرجان، الأجنان، الكابيتان، والحدق الذي صبوه جميعاً على رأسه. "أتراهم يصبون على رأسها مثل ذلك الحدق؟ أضعونها في الدولاب الآن؟ أيشبحونها من يديها ورجليها؟ أيلقونها بالسقف ورأسها مقلوب إلى الأسفل؟ أيعرونها من ثيابها؟ أيجلدونها بالسياط؟ أيعتصبونها؟" .. أسئلة كثيرة كانت تحرقه بشواظها وهو لا يملك لها جواباً. جبال من الهم تحط على كتفيه، براكين من القهر تعتمل في صدره فماذا يفعل؟ أسد يرى لبوته في قفص... أيعض القضبان بنواجذه؟ أيمزقها بمخالبه؟ عزيز يعلم أنه لا جدوى والقضبان حديد صلب لا تؤثر فيه نواجذ ولا مخالب.

كان الأمر كله قد فاجأه، هو الذي تحدث مع البطحيش عن الذهاب إلى فلسطين وتحدث مع صبري عن المشاركة في الثورة. لم يكن يتوقع أن يقف في طريقه ذلك الطارئ: مظاهرة تقوم بها النساء!!! شرك تقع في حباله شمس!!!! لا، ليس شمساً فحسب... بل سبع وعشرون امرأة... حركة عزيز هنا، هناك، سؤاله هذا، ذاك، بحثه، استقصاؤه كله أدى إلى نتيجة واحدة: النساء السبع والعشرون باقيات في السجن والفرنساوي لن يرحمهن...

"يوم الكابيتان جيرار خلصت شمس نفسها، لكن كيف نخلصها الآن؟" ظل عزيز طوال الليل يتساءل، هو الذي يعلم أن الأمر أخطر بكثير هذه المرة... في الماضي كان الكابيتان معتدياً اعتداءً شخصياً لا قانون وراءه ولا نظام.. اليوم، شمس هي المعتدية، هي المخالفة للقانون والنظام... تهاجم الدولة؟ تطالب بخروج فرنسا من البلاد، وعصبة الأمم نفسها انتدبتها على البلاد؟... "لا... لا القضية أشد خطورة الآن" ..

مع ذلك، لم تذر الغزاة قرنها في الأفق الشرقي حتى كان عزيز ينطلق ساعياً في مناكبها من جديد...

صبري يعاني القهر ذاته، الصدمة والإحباط ذاتهما، ولا يستطيع أن يتمالك

نفسه فيسبب ويشتم..

. الكلاب... الوحوش يعتقلون نساءنا؟.. يهتكون أعراضنا؟..

ويشعر عزيز أن قلبه بين جنبيه يعتصر... يتفتت دون أن يستطيع شتماً أو سباً.. كلاماً أو صراخاً... صامتاً يريد أن يتحرك، خفية يريد أن يعمل.. عله يخلص شمس من براثن الذئاب...

. وما جدوى الشتم والسب؟ سأل الرجل المفتت القلب وهو يزفر..

. صحيح... بيدك حق... الجدوى للعمل... للحركة..

. لكن: أين؟ كيف؟ من نرى؟ من نكلم؟ سأل عزيز رشاً..

. شكري بك، أجب صبري بسرعة واقتضاب، شأنه شأن أيام زمان، يوزياشياً يقود فصيل الطليعة في الجيش العربي ويتقدم لتحرير دمشق.....

مضى الصديقان إلى شكري بيك، لكن دون شكري بيك خرط القتاد... دوريات الجندرية في كل مكان، الجند بحرابهم المشرعة يعترضون كل عابر سبيل... في الساحات والميادين مصفحات ودبابات توجه مدافعها إلى البشر كلهم....

. ماذا هناك؟ لم كل هذه التعزيزات؟

سأل عزيز، لكن اليوزياشي السابق لم يكن بحاجة لإجابته... الشرر المتطاير من عيون الجند وهالات الرعب المنداحة من جنازير الدبابات ورشاشات المصفحات كلها كانت تجيبه وكلها جعلته يقود مرؤوسه السابق بعيداً عن الجندرية والجند.. كان يريد الوصول إلى شكري بيك، فاتخذ إليه أكثر الأزرقة ضيقاً وأكثرها تعرجاً وطولاً... لكن حتى شكري بيك لم يكن موجوداً... بل لا أحد في منزله يرد على قرع الباب أو رنات الجرس....

. هل اعتقلوه أيضاً؟ عاد عزيز يسأل وهو أكثر خوفاً وحيرة من قبل.

. من يدري؟ رد صبري وهو يرى في الطرف الثاني للشارع مصفحة تصوب رشاشاتها نحو البيت الذي قصده. لانسرع، لانسرع، تابع صبري، وقد أدرك أن ثمة خطراً يتهدهدهما... نسيب بيك، فارس بيك، جميل بيك، كلهم قصدهم الصديقان لكن دائماً لا أحد... فقط عند جميل بك وجدوا جنائياً عجوزاً يعمل في حديقة المنزل... وبخوف وحذر أسر لهما:

. قد تجدانه في دوما...

ولمعت في ذهن الیوزباشی فكرة.  
. لابد أنهم جميعاً مختفون...  
. مختفون؟. أين؟..  
. إن كان جمیل بك في دوما... فنسیب بك قد یكون في مزرعة في الغوطة  
الغربية وشكري بك في بالا في الغوطة الشرقية...  
. لنذهب إلى بالا...  
. نذهب لكن بعد أن نتأكد...  
وبدا لعزیز أن الیوزباشی العتیق مازال یحسب جيداً... فمن یدري؟ قد  
یتحملان مشقة الذهاب إلى بالا دون أن یجدا شكري بك هناك...  
. أنت علی حق... ینبغی التأكد...  
ولكي یتأكد صیري، كان علیه أن یتصل ببعض معارفه وأصحابه، ولم یكن  
ثمة حاجة لوجود عزیز...  
. اسبقني إلى المستودع... ألحق بك...  
وسبقه عزیز إلى المستودع، فتح الباب الخارجي للساحة ففوجئ... كان  
جمل عواد باركاً علی الأرض، ممدداً عنقه علی التراب، وكأنه یستریح من عناء  
صیف شاق طویل...  
- عواد!! أجل!! صاحبك أيضاً في السجن، تمتم للجمل الذي حرك رأسه  
رافعاً إياه ما إن رأى القادم الجدید، بعدئذٍ أرغى بشيء لم یستطع عزیز فهمه...  
كان الأخضر قد روى له قصة عواد الذي اختفى دونما أثر وبعبيره الذي تركه  
أصحاب عواد مولین عنه الأدبار. لكن من یذكر أمراً كهذا والكون كله عاصفة  
مزمجرة هادرة؟.. كان عزیز قد نسی قصة عواد وبعبيره عواد... لكن هاهو ذا  
یفاجأ بالحقیقة الواقعة أمامه... رغاء البعیر یعلو... وزیده یتطاير... لابد أنه  
بحاجة لشيء... دنا منه عزیز فلم یجد أمامه سوى التراب...  
. ألم یطعمك الأخضر أمس؟  
ولوح البعیر بعنقه الطویل یمنة وبسرة راغياً مزیداً من جدید وكأنما یحتج  
علی سؤاله ذاته...  
- یا إلهی!! کیف یدعك بلا طعام ولا شراب؟ سأله، لكن دون أن ینتظر  
جواباً، أسرع إلى المستودع، فتحه، أخرج عدلاً فیه بقیة من شعیر، وضعه أمام

البعير، ثم عاد إلى مضخة الساحة يملأ سطلًا بالماء ويسرع به إلى البعير الذي انكب عليه في الحال يعب ماءه عباً وبرمشة عين، ربما، لم تظل فيه نقطة ماء. الشعير في العدل، توجه إليه، تشممه قبل أن ينوشه بمشفره الغليظين ثم بدأ يلتقم حبات منه لكن بغير حماسة أو إقبال...

- ماذا؟! أأست جائعاً؟ ونظر إليه البعير نظرة شزراء، كأنه يستهجن سؤاله... لماذا لا تأكل إذن؟ لكن البعير لا يرد، بل هو يدنو من الشعير، يتلمس حباته، يقمق بعضها ويتردد يدخلها إلى ذلك التجويف الهائل لكن بحذر وخوف..

. لعلك هرم لم يبق في فمك أضراس... فكيف تطحن الشعير؟  
وكأنما فهم البعير كلامه، حرك أذنيه إلى الوراء والأمام، الأعلى والأسفل، ثم لوح بذنبه إلى اليمين والشمال، ربما مشجعاً إياه على متابعة معرفه...  
- أأنقعه لك؟ سأل البعير وهو يشير إلى الشعير... أجل... هم ينقعون لك علفك ثم يضعونه كتلاً كتلاً كالكمة للبشر... فتزرد واحدتها دون مشقة أو عناء... لكن كان من المستحيل على عزيز أن ينقع له شعيره ويصنع له كتل العلف تلك...

- كل شعيرك فليس لك من خيار سواه، قال له وهو يمضي إلى المستودع... فهمومه أكثر بكثير من أن يعطي وقته لبعير ومشاغله أكثر بكثير من أن يجد فراغاً لبعير... كانت شمس في مركز الدائرة منه وكان هو كوكباً يدور في فلكتها، كل ما فيه يجذب إليها، يفكر بها، يبحث عن خلاص لها لتعود فتمنحه الدفاء والضياء....

في المستودع، انتظر ساعات... لم يعد عليه أن ينقد الزوجة والحببية فحسب... بل ثمة عواد... ذلك الفتى الناحل الذي ذهب تحت الأرجل... ما شأنه وشأن مظاهره النساء؟ كيف تورط في ماليس يعنيه؟ كان عزيز يتساءل طوال الوقت... ربما من المنطق أن تذهب شمس إلى السجن، هي التي كانت في رأس المظاهرة تهتف وتصيح، لكن ما ذنب فتى كعواد، لا ناقة له ولا جمل؟.. وقرر عزيز أن يخرج به بأي شكل... مثله مثل شمس، أن يسعى من أجلهما معاً إلى أن يخلصهما من براثن الوحش....

ساعات ولم يأت صبري... نفذ صبر عزيز... فأسرع يملأ سطل الماء من جديد، يضعه أمام البعير ثم يمضي... ناره لم تعد تحمله وعليه أن يسعى قبل أن

تغيب الشمس... لكن عبثاً كان مسعاه، فقد غابت الشمس، ولم يستطع رؤية أحد. شكري بيك، نسيب بيك.. بل حتى اليوزباشي القديم ذهب ولم يعد... كانت المدينة كلها مضطربة منقلبة رأساً على عقب... الناس متجهمو الوجوه... المحال مغلقة... الحركة جامدة... فقط الدوريات تتحرك، والجند يشرعون حراهم استعداداً للانقضاء. ذهب عزيز هنا، ذهب هناك وكل همه أن يجد أحداً يشكو له همه... يحمل معه ذلك الهم، يسعى لإخراج شمس من جب الأموات... لكن مع غروب الشمس تسرب إلى نفسه اليأس، مع الأذان أحس بقدميه تقودانه إلى أقرب مسجد، فركعة بين يدي إلهه قد تحمل له الراحة والاطمئنان...

لحظات خشع بين يدي ربه ولحظات أحس بالراحة والاطمئنان، لكن ما إن غادر باب المسجد حتى عاوده الوسواس". شمس، عواد، يجب أن أسعى لإخراجهما..."، ... لم يقصد منزله، ففي منزله لن يجد سوى الوحشة والألم والعذاب.. منزل صبري أقرب فأسرع إليه. سأل عن صاحبه، لكنه لم يكن قد عاد... مع ذلك دخل إلى المنزل، استقبله فريد، سقاه القهوة، وجلسا يتحدثان وينتظران....

مع أذان العشاء جاء اليوزباشي القديم:

. تأخرت كثيراً!؟..

. لم يكن باستطاعتي غير ذلك.. ذهبت إلى بالالا...

. ورأيت شكري بك؟

. بالطبع...؟

. أوعدك خيراً؟ أسعى لإخراج شمس؟

. لم تعد القضية قضية شمس...

. قضية من إذن؟ سأل عزيز وقد فاجأه جواب رئيسه العتيق.

. قضية وطن!!

. ماذا؟ كيف؟ عاد عزيز يسأل وقد جحظت عيناه!!

. هناك عشرات النساء في السجون... مئات السجناء السياسيين في تدمر، المنفيين في أرواد والجزيرة... المسألة كما يرى شكري بك لم تعد خاصة... بل مسألة عامة ولا بد من حلها... حلاً جذرياً...

. أجل.. هو على حق... لا بد لها من حل جذري، ثنى عزيز وقد عاد يشغله

الهم العام... هم ناسه ووطنه...

- لهذا السبب... ثمة قرار خطير... قال صبري وهو يميل عليه شبه هامس..

. حقاً؟ رد عزيز بالنيرة نفسها وقد داخله شعور بالفرح، ماهو؟ أخبرني...

- إضراب عام، أجاب صبري بإشارات الشمول والتعميم من يديه كليهما، فسرت في أوصال عزيز رعشة لم يكن باستطاعته أن يحدد ماهيتها..

في الصباح التالي، بدت دمشق مدينة ميتة ألفت عليها الساحرة طلسمها فتجمدت الدماء في عروقها، مرت عليها بعصاها فتسمرت الدابة حيث هي، والبشر حيث هم تماثيل من حجارة لا نأمة لهم ولا حركة... أعوان الساحرة وحدهم يذهبون ويجيئون فاغري الأفواه جاحظي العيون... الجماد من حولهم يخيفهم وتماثيل الحجارة تبت في قلوبهم الرعب... هم يتوجسون شراً من كل ما تقع عليه أبصارهم... من وراء كل حجر قد يخرج لهم الموت، من بين الأشجار قد ينبثق الخطر... أشباح تترصدهم في كل مكان تراهم ولا يرونها فماذا يفعلون؟ حركة خافتة، همسة خفية تجعل إصبع واحد منهم تضغط على الزناد ويلعق الرصاص تر... تر... تر... تر... وتضحك تماثيل الحجر من السحر الذي انقلب على صاحبه فغدت آلة الرعب ترتعش من الرعب...

لحظت شمس ذلك الرعب على ملامح آلة الرعب... حاولت أن تعلم السبب لكنها لم تستطع... كان الحارس الطيب قد غاب عنها أياماً... "أتراهم عرفوا بتعاطفه معي؟ بمساعدته لي؟" لكن ظهوره من جديد أتلج صدرها... وأوقف سيل أسئلتها.. في الهزيع الأخير من الليل، وقد علا شخير السجينات اللواتي عرفت شمس بعض أسمائهن واستطاعت أن تتواصل مع القريبات منهن، فتح الحارس الطيب عليها باب الزنزانة ثم همس:

. إضراب عام شامل في المدينة...

. ماذا؟

. منذ عشرة أيام لا سوق، لا دكاكين، لا ورشات، لا عمل... إضراب تام لم يسبق له مثيل...

. لكن... لماذا؟ سألت وهي تريد أن تتأكد..

. يقولون: من أجلكن... ولن يتوقف الإضراب حتى يطلقوا سراحكن...

. حتى يطلقوا سراحنا؟ فقط؟...

. لا... ثمة مطالب أخرى: إعادة المنفيين، إطلاق سراح السجناء السياسيين، إعادة الجند إلى ثكناتهم.... وتوقف الحارس الطيب وهو يتلفت يمناً ويسرة وكأنما أحس بحركة قريبة...

. إي... وماذا بعد.. أيها الصديق الطيب!؟

. البدء بالمفاوضات من أجل إنهاء الانتداب...

. هذا عظيم... هذا وحده يحمل لقلبي الراحة والطمأنينة. ردت شمس بنبرة همس مزدهية... من أجل هذا خرجنا إلى الشوارع... يجب إنهاء الانتداب..... أو ذهبت تضحيتنا هباء.....

الكتلة الوطنية، حزب الشعب، المستقلون، كلهم كانوا قد اتفقوا على إنهاء مهزلة كانت قد كتبتها يدا سايكس وبيكو، وهما يشربان الوبسكي ويلهوان بالشقراوات...

مصر كانت حافزاً أولاً... مظاهراتها، إضراباتها، اشتباكات وطنيها مع قوات المستعمر ورجال الإنكليز كانت قد أرغمت هؤلاء على عقد معاهدة تعترف بحرية مصر واستقلالها... بعدئذ جاء العراق وهو يضغط ويقاقل، يهدد ويتوعد، ورضخ الإنكليز من جديد، "إذن لماذا لا نفعل كما فعلوا؟ لماذا لا نضرب ولا نتظاهر؟ لماذا نرضى بغير الحرية والاستقلال بدلاً؟" كان تساؤل القادة الوطنيين ثم البحث عن جواب. وكان الجواب قرار الإضراب العام الشامل الذي شل المدينة وأوقف الدم في عروق المندوب السامي، ومن حوله من أعوان..

. أطلقوا سراح السجناء، ممن لا يشكّلون خطراً على فرنسا... كان الأمر الأول الذي أصدره المندوب السامي، وخرج اثره عواد في الحال. هرول الفتى الطويل الذي ازداد نحولاً في السجن إلى مستودع عزيز... هناك استقبله الجمل مرغياً مزبداً تقدح عيناه شرراً. "تتركني هكذا، لا راع ولا صاحب؟".. ولم يملك عواد سوى الاعتذار. اعتذر لجمله كما اعتذر لعزيز، فالفضول وحده هو الذي دفعه للتفرج... ثم جاء السيل فجرفه مع من جرف: مشاركين ومتفرجين أبرياء ومدنبيين.

بعدئذٍ لم يصدق كيف امتطى بعيره وأطلق له العنان مخلفاً وراءه دمشق، بكل ما فيها من مظاهرات وإضرابات...

بعد خمسة عشر يوماً، كاد صواب المندوب السامي أن يطير جمع أركانه ثم

هدر:

. غير معقول... المدينة قفر يباب... لا أثر فيها لحياة... أين السكان يا ترى؟! أين الناس؟ الأسئلة كثيرة لكن أحداً لم يكن يملك جواباً... غمغم هذا، تمتم ذلك، أخذوا، أعطوا، لكن لم يكن ثمة جواب...  
. لنلبّ مطالب دمشق... اقترح أحدهم على حذر..  
. لا... هذا خضوع، احتج جنرال كثير النجوم، كثير الأوسمة... إن خضعنا مرة خضعنا كل مرة...  
. أجل... تثنى جنرال آخر لا يقل عنه أوسمة ونجوماً، أرجلنا فوق رقابهم ولن نرفعها حتى يصرخوا استغاثة واستسلاماً..  
لكن المندوب السامي كانت تصله ماتقوله إذاعات العالم وصحف العالم، يصله غمز أمريكا ولمز الاتحاد السوفييتي... سخرية هتلر وهزء موسوليني "فرنسا ضعيفة، عاجزة، قاسية لا ترحم، لا تعرف حقوق الإنسان ولا حقوق الشعوب"، فاقترح هذه المرة، لكن دون حذر، بل بحماسة واندفاع... لم يملك الجنرالات إزاءها إلا أن يوافقوا..  
. أطلقوا سراح النساء... هكذا جاء الأمر الثاني.  
وفتحت الزنانات لتخرج شمس طارفة بأجفانها منبهرة وقد بدت لعينيها شمس الحرية، لكن ما جعلها تطرف بأجفانها أكثر وتنبهر أكثر إنما هو المدينة التي كان قد حولها الغضب إلى مدينة مسحورة، كل ما فيها جدران مصمتة وتمائيل من حجر.....

هـ الله... هـ الله  
يا مفرج المصائب  
اضرب رصاص  
خلي رصاصك صايب

كان شباب متحمسون يرددون وهم يهزجون ويرقصون بلباسهم الفولكلوري الجميل والكل بانتظار زعيم الشام العائد من المنفى.... عزيز، صبري، أهل الميدان، الشاغور، كلهم زحفوا إلى القدم، جمهور غفير من سكان الشام . القلب، وجوهها، أعيانها، وطنيها، سياسيتها، كلهم جاؤوا منذ الظهيرة إلى الضاحية الجنوبية لدمشق، حيث تقول الأسطورة إن محمد بن عبد الله، وهو مايزال شاباً يحمل تجارة خديجة إلى بلاد الشام، أناخ جملة ثم أرسل بتجارته إلى المدينة، دون أن يذهب بنفسه. لماذا؟ لا أحد يدري، فالرسول لم تطأ قدمه دمشق بل وطأت صخرة في ذلك المكان من طرفها الجنوبي فارتسمت بأصابعها الخمس، بأخمصها، بكعبها على الصخرة، وظلت ماثلة هناك إلى أن قامت ضاحية سكنية سميت بالقدم... تبركاً بقدم الرسول..

ثمة دفوف تدق ومزامير تعزف وسيوف تلعب... والشبان ذوو السراويل السوداء بإلياتها المترهلة الواسعة كثيرة الطيات يقفزون بها عالياً يلوحون بها ذات اليمين وذات الشمال، طاقياتهم البيضاء، قمصانهم المخططة كحمر الوحش، كوفياتهم المرمية على الكتف، أو المعقودة على الرقاب، كل ذلك لوحة رسمها فنان مبدع لا يملك معها عزيز إلا أن ينتشي فرحاً وسروراً...

إشاعة سرت سريان النار في الهشيم منذ الصباح الباكر... صاحب دكان ينقلها لصاحب دكان آخر، عابر سبيل يوشوش بها لعابر سبيل آخر... ربة بيت تهمس بها لجارتها "عبد الرحمن الشهبندر.. عائد من مصر اليوم... الزعيم في

طريقه إلى دمشق الآن... الدكتور في عمان وسيصل بعد الظهر... الخ... ودون أن ينظم أحد شيئاً أو يقوم حزب بدعوة الناس، أو جند بسوق الرعية... راح الناس يتقاطرون فرادى وجماعات إلى القدم ينتظرون قدوم الزعيم المحبوب الذي كان ذات يوم وزيراً للخارجية دافع عن استقلال البلاد بنواجذه، قاتل من أجل حريتها، وكافح مستعمرها دبلوماسياً لا يشق له غبار وثائراً لا يشق له غبار..

كان عزيز قد التقى به وزيراً للخارجية يوم كان فيصل ملكاً على البلاد وكان قد رآه خطيباً مفوهاً يلهب الجماهير حماسة واندفاعاً، لكن حبه له وتعلقه به ترسخت حتى فاقا كل حد، يوم جمعتهم ثورة الغوطة والجبل... في بساتين الغوطة وبين أشجارها، عرف عزيز كم كان الدكتور الإنسان ثورياً صلباً ومقاتلاً عنيداً لا يعرف الخوف أو التخاذل. ثمانية عشر شهراً ظل مع الثوار يقاتلون الفرنسيين، يكرون ويفرون، يهزمون وينهزمون أمامه إلى أن قرر جنرالاته بكل وحشية وقسوة أن يدمروا كل قرية تخرج منها رصاصة، أن يحرقوا كل بستان يؤوي ثائراً فتحول أخضر الغوطة إلى يابس وعامر قراها إلى خراب...

حينذاك انسحب سلطان باشا الأطرش برجاله إلى بادية الأردن فوادي السرحان في جزيرة العرب... ومضى عبدالرحمن الشهبندر إلى مصر، وهو يعلم أنها قلب العروبة الحي، وملاذ كل طالب لملاذ...

عشر سنوات كانت قد مرت عليه هناك، يدبج المقالات، يكتب الكتب، يخطب الخطب ولا هم له فيها كلها إلا حرية بلاده واستقلال وطنه، فكيف لا تزحف الجماهير لاستقباله اليوم؟..

فجأة ران سكون... الدفوف تجمدت عليها أصابع الدقائق، المزمير خرست تحت أنامل العازفين فأشرأبت الأعناق... عنق عزيز نفسه اشترأب باتجاه الطريق القادم من الجنوب حيث جاء لأول مرة هدير سيارات عالية مكشوفة...، وصل الموكب!!... تعالت الأصوات من الأفواه ذات الأعناق المشرببة وطافت ابتسامات الفرح بشفاها...

ابتسامة عزيز كانت ترفرف بجناحين من فخار... "حقاً الكبير يظل كبيراً...، كالجبل مهما حنته عوامل الزمن يظل جبلاً". على بعد عشرين أو ثلاثين ذراعاً توقف الموكب... من السيارة الأولى نزل عبد الرحمن.. "إيه!! الشيب يخط فوديك وشاربيك أيها الزعيم!!!"... خاطبه عزيز دون كلام، فقد كانت صفوف من البشر تفصل بينه وبين الزعيم... وكانت همسات ووشوشات تتواهب هنا وهناك مختلطة مشوشة فلا يصل منها شيء إلى سمع الزعيم المشغول بشيء

آخر... إذ ما إن وطئت قدماه الأرض حتى ركع على ركبتيه، في شفثيه ارتعاشة  
وفي عينيه دموع... سجد على التراب، يبارك جبينه به، يتشمم أريجه، يتلمس  
ذراته لتختلط دموع حرى ذرفتها عيناه بذلك التراب... مرتين ثلاثاً أعاد الزعيم  
السجود مقبلاً التراب، لاثماً الحصى فيما نزل من معه يحاكيه في مايفعل...  
بعديّ نهض فاتحاً يديه رافعاً وجهه إلى السماء، هاتفاً:

- حمداً لك يارب، أن أريتني تراب وطني!! الفضل والشكر لك يا الله أن  
أعدتني إلى أهلي!!... بعد ذلك طغت أصوات هادرة من أنساق من البشر راحت  
تتقدم باتجاه الزعيم وهي تتشد:

طلع البدر علينا ..... من ثيات الوداع

وجب الشكر علينا ..... ما دعا لله داع

"أهي النغمة نفسها؟ الأبيات ذاتها التي استقبل بها أنصار المدينة ذات يوم  
موغل في التاريخ موكباً آخر؟ أجل عزيز سمع من حكايات التاريخ عن ذلك  
الموكب الذي كان يحمل رجلاً عظيماً صنع التاريخ، رجلاً حمل رسالة مقدسة  
وقاتل من أجلها..... مضحياً بالغالي والرخيص، قائلاً لعمه: "والله لو  
وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته!!"  
وتساءل عزيز من جديد: "أهي رسالة العزة والمجد نفسها، رسالة الحضارة والرقي،  
العلم والنور... أتراه يعيد التاريخ نفسه؟" .. عزيز ممتلئ حماسة، يحاول الوصول  
إلى الزعيم، عله يلمسه، يقبله، يهنئه بالسلامة، إلا أن الزحام يمنعه... مئات...  
آلاف الناس يريدون الوصول مثله، والزعيم يصافح هذا، يسلم على ذلك، يقبل  
ذلك، والحلقة تضيق حوله والصفوف يختلط حابلها بنابلها... لكن على حين غرة  
أيضاً، وكأنما بإيعاز من عصا ساحر، عادت الدفوف تدق والمزامير تعزف، فيما  
تشكلت من جديد فرقة الفلوكلور الشعبي، تلوح بالسيوف فينزاح الناس يميناً  
وشمالاً، وينفتح الطريق أمام الزعيم وصحبه يسرون نحو دمشق. وأصوات الفرقة  
تتعالى مغنية من جديد:

زينوا المرجة ..... والمرجة لنا

شامنا فرجة ..... وهي مزينة.

عزيز ردد... صبري إلى جانبه ردد... وجوه الميدان، الزعماء في  
المقدمة... الكل يصفقون بأيديهم إيقاع النغمة الساحرة ليعود مرة ثانية قائد

الجوقة يهدر بصوته مغنياً:

رحبوا بالزعيم ..... زعيمنا الأكبر

دكتورنا الشهير ..... فخر رجائنا

وبصوت هادر يشق عنان السماء، راحت الحشود تردد:

دكتورنا الشهير ..... فخر رجائنا

بخطى واسعة متعجلة، ربما مدفوعة بالإيقاع الحماسي والنعمة اللاهبة سار الموكب إلى دمشق... عزيز يمسك بيد صبري وصبري يمسك بيد الحواط، ربما كي يشكلوا صفاً متماسكاً لا يخترقه أحد. الموكب كله صار صفوفاً متماسكة يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص... الزعيم في المقدمة تحيط به هالة من قادة الكتلة الوطنية، حزب الشعب الذي أسسه ذات يوم وصفوة طبقات المدينة... خطى الزعيم متعجلة واسعة، كأنما تدفعه الלהفة للوصول إلى المدينة، يلقي بنفسه بين أحضانها، عاشقاً يلتقي بمعشوقته بعد أن أضناه الهجر والبعاد....

الطريق مفتوح، لا جند، لا مصفحات، لا درك، لا سنغال... "أين ذهب الفرنسي؟" ... تساءل صبري وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال... لم يكن هناك أثر لجندي أو مستعمر. "أتراهم آثروا الغياب؟ أتراهم يخشون صداماً؟ أم تعلموا الدرس جيداً منذ ذلك الإضراب؟" يتساءل وهو يستعيد في ذاكرته صورة الفرنسيين الذين كانوا يتخبطون كالمجانين وهم يرون إلى دمشق تتحول أيام الإضراب العام إلى مدينة مسحورة ماتت فيها كل حياة... جندهم في أسواقها لكن أسواقها مغلقة مصممة لا باب فيها ولا نافذة، مصفحاتهم في ساحاتها لكن ساحاتها خاوية على عروشها كأنها لم تعرف يوماً حشوداً ولا زحاماً، خيالهم في أزقتها لكن أزقتها خواء وفراغ، فماذا يفعلون؟ أيقاثلون الحجارة؟ أيسوطون الأرصفة؟.. ستين يوماً ظلت المدينة مسحورة، مدينة من تماثيل وحجارة تتمزق لها الأفئدة وتبكي العيون... عيون الصحافة في أوروبا بكت، أصوات الإذاعات لعلت، اللواويل من هنا وهناك في العالم كله تعالت عاصفة هادرة احتجاجاً على حال دمشق، مدينة بولس الرسول، مدينة القدم والتاريخ... فلم تر باريس بدأً من أن تتحني أمام العاصفة..

وصدر الأمر الثالث "ليأت وفد إلى باريس". في باريس، المفاوضات استمرت أشهراً... كانت مطالب الوفد فيها صريحة حاسمة: لا نرضى بغير إنهاء

الانتداب.... نريد الحرية والاستقلال... لكن كان من الصعب على الجنرالات  
التخلي عن حلمهم التاريخي... القديم قدم الصليبيين: "السيطرة على بلاد الشام"  
فكيف يتخلون عن حلمهم؟

راح الجنرالات يلفون ويدورون، يهددون ويتوعدون لكن باريس تدعي  
الحضارة، والحضارة عقل ومنطق... ووقعت باريس أول معاهدة تعترف فيها بحق  
سورية في الحرية والاستقلال...

المكاسب التي نتجت عن ذلك الاعتراف:

إعادة الوحدة بين أشلاء البلاد الممزقة، إلغاء الحكم العسكري المباشر، إعادة  
دفة الحكم لرجال البلاد... السماح للمنفيين بالعودة إلى الوطن، والدكتور  
الشهبندر منفي، فكيف لا يعود؟

يا أهلاً وسهلاً .... ومليون سلاماً

رجع لنا بالكرامة ..... زين ابطاننا

كانت الأغنية تتردد وقد وصل الحشد أطراف الميدان، هناك كانت حشود  
أخرى قد اجتمعت لتتطلق حناجرها كلها معاً..

يا أهلاً وسهلاً .... ومليون سلاماً

فيما انطلقت الزغاريد من الشرفات وقد غصت بنساء يذرفن دموع الفرح  
ويزغردن زغردات النصر... كانت دمشق قد خرجت كلها لاستقبال بطل من  
أبطالها غاب عشر سنوات عنها، لكنه لم يغيب لحظة واحدة عن ساحات النضال  
من أجلها. كانت دمشق برجالها ونسائها وأطفالها تعيش عرساً للفرح وعيداً للنصر  
ربما لم تعشه مذ دخلتها طلائع جيش التحرير العربي تخلصها من براثن استعمار  
عثماني بغيض...

شمس نفسها كانت بين النساء المزغردات، أمانة زوجة صبري، أولاد هذه،  
أولاد تلك، فالكل كانوا يريدون رؤية الزعيم... لكن حين وصل الزعيم، كانت  
المآذن كلها تدوي بنداء قديم قديم "حي على الصلاة"، وكان الخيط الأبيض قد  
اختلط بالخيط الأسود فلم تستطع عينا شمس تمييز وجه الزعيم ولا رؤية عزيز..

سار الموكب بالزعيم حتى منزله، رافق عزيز الموكب وكل ما يشغله أن  
يسلم على صاحبه، أن يأخذه بالأحضان، أن يقبله على وجنتيه، لكن فأله خاب،  
فألزحام الشديد، لم يسمح له بأي اقتراب أكثر من خمس أذرع وحين عاد إلى

المنزل كان يشوب فرحه أثر من حزن...

. لا تحزن يا عزيزي... قالت شمس ضاحكة، وقد شكا لها سبب حزنه، تراه غداً أو بعد غد... لكن بعد أيام فقط استطاع صبري وعزيز أن يريا الدكتور العائد من المنفى. كان ذلك مساء وكانت داره العربية تنم عن أصله الطيب ورقة حال أهله... لكنها ككل دار عربية كانت تحوي فسقية الماء، ولم يكن ثمة أعذب من الجلوس حول فسقية ونيسان ينسرب بدفته في عروق الشجر والورد، الطبيعة والناس... كان اللقاء حميماً، أخذهما الدكتور سريع البديهة، حسن الذاكرة بالأحضان.

-أوه!! يوزياشي صبري!! شاويش عزيزا! ما أسعدني برويتكما!! بتلك الطيبة المتأصلة في نفسه استقبلهما، بتلك الحميمية شدهما إلى صدره، رفيقين من رفاق الثورة... ثمة زوار آخرون جلسوا جميعاً حول الفسقية تداعبهم أنسام الربيع، يناغشهم رذاذ الماء ويدغدغ أبصارهم ضياء القمر!! "إيه!! يا للأمسية الساحرة!!" كان لا يفتأ عزيز يبدي إعجابه، يعبر عن فرحه وهو يصغي للزعيم الواثق من نفسه، المتحمس لأفكاره والمليء بالحكمة حتى الحافيتين...

**إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر**

**ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر**

ردد الزعيم بحماسته وفصاحته قول شاعر لم يكن عزيز قد سمع به من قبل.. اسمه الشابي.. من تونس.. مات قبل بضع سنوات، لكنه عرف قيمة الشعب وغنى للشعب وآمن بالشعب فلم لا نؤمن به مثله؟ بيتهج عزيز كل الابتهاج وهو يسمع ذلك التغني بالشعب.. "حقاً.. الشعب هو صانع الحياة، هو صاحب القوة الحقيقية، هو الخلود المتجدد الذي لا يفنى، ولا يزول". لكن الدكتور لم يترك له المجال للشروء أكثر.. كانت الحكمة تفيض من شفثيه درراً تخلب الأبواب ولم يكن باستطاعة عزيز إلا أن يصغي.

-المجد الشرقي التليد هو مثل النسب الشريف الذي يتغنى به العظاميون لا يجلب لأصحابه منفعة ولا يدفع عنهم ضرراً مالم يتعهدوه بأسباب الحياة ويغذوه بالعناصر التي تتميه وتبعث فيه روح الارتقاء من جديد...

-لكن ذلك المجد التليد سيدي، رد اليوزياشي العتيق، هو الأساس الذي ننطلق منه لبناء مجد طارف جديد.

-شريطة أن ننطلق، تابع الزعيم فرحاً بتدخل اليوزياشي، أما أن نتغنى فقط،

أن نقلد، أن نظل في مكاننا، وكأننا خلقنا للتقليد والتغني فقط، فهذه هي الكارثة.. وللأسف، نحن لا نعرف غير التقليد.. التقليد يظهر في عوائدنا، في زراعتنا، في صناعتنا، في تجارتنا، في كل شيء.. أذكر لكم قصة رواها لي أحد الأجانب؟ وتعالنا الأصوات من كل جانب: نعم.. نعم..

-قال لي ذلك الأجنبي وهو يضرب لي مثلاً عن التقليد في المشرق.. إنه رأى بعينه أحد الفلاحين يحمل البطيخ على دابته فيضعه في أحد جانبي الشريحة ويضع في الجانب الآخر حجراً للموازنة، وحين قال له: أن يقسم البطيخ إلى قسمين ويضعهما في الجانبين بدلاً من حمل الحجر لأنه يتعب الدابة بلا فائدة، شكره على نصيحته، لكنه لم يعمل بها، لأن التقليد احتوى عليه فصدته عن الطاعة، والجهالة استحوذت عليه فصرفتته عن الرشد، فحين مر في اليوم الثاني كان قد عاود سيرته الأولى وإذ سأله الأجنبي لماذا لم تعمل بالنصيحة؟ قال "هيك عاش أبي وجدي".

ضحك الحضور، لكن ضحك المرارة، فالكل يعلم ما في العادات المتوارثة من قصور وغباء، ضحالة وجهالة كما يعلم ما في التقاليد البالية من أذى وضرر ولكن من يستطيع تغييرها؟.

الدكتور يريد تغييرها، يشن هجوماً صاعقاً على كل بالٍ عتيق، على كل حاجز يعيق تقدم الأمة وحضارتها، وكيف؟ بالشباب.

-الشباب هو سر الأمة والجمعة التي تحوي الميراث من الآباء والأجداد، يتابع الزعيم حديثه الشيق، وهذه الجمعة هي أمانة في أعناقنا، ورأس مال لنا تظهر ميزتنا به وتتجلى مواهبنا على قدر ما نحسن استخدامه والتصرف فيه. كلام جميل كان يقوله الشهيد، ولا يملك عزيز إلا أن يتابعه مفتوناً بأفكاره، مفتوناً بحماسة.. "مثل هذا الرجل هو الجدير، بقيادة البلاد، القادر على إيصال سفينتها إلى بر الأمان..". وانقطعت سلسلة أفكاره على الشهيد وهو يرد على أحد الأسئلة.

-أقول لك: لماذا الشباب؟ لأن تقدم البلاد وتقدم الشعوب سياسياً وعلمياً وأدبياً إنما يحتاج إلى شجاعة واندفاع وتضحية قلما تكون في غير الشباب، لا شك أن نظرات الكهول والشيوخ الصائبة وآراءهم الناضجة لها في نجاح الأعمال العامة تأثير أي تأثير، لكن الأعمال الوطنية الكبيرة لا تقوم على غير سواعد الشباب لأن التضحية من مستلزمات هذه الأعمال والتضحية لا يقوم بها إلا

الشباب ...

صفق الحضور استحساناً وكل كهل فيهم يتمنى أن يعود إلى الشباب لكن الدكتور المتحمس للفكرة تابع:

-أتعلمون من صنع الوحدة الألمانية؟ إنهم الشباب، الطلاب الذين ألفوا فيما بينهم اتحاداً ضم جميع الطلاب في الجامعات الألمانية أطلقوا عليه اسم "بورشن شافت"، وكان الأساس العملي والروحي الذي قامت عليه الوحدة الألمانية والثقافة الجرمانية فيما بعد ...

بعد ذلك تحدث الزعيم العائد من مصر عن حياته في مصر، عن اتصالاته، علاقاته، كتاباته في مجلتي الهلال والمقتطف إلى أن سأله أحدهم عن المعاهدة الأخيرة مع الفرنسيين.

-لا يغرنكم حبر على ورق، رد وزير الخارجية العتيق، الاستعمار لا يعترف بمعاهدة ولا يحترم اتفاقاً إلا إذا كان مرغماً إرغاماً أو يخدم مصلحته.

-لماذا وقعوا إذن؟ عاد الرجل يسأل:

-هم خائفون .. هتلر الآن في أوروبا قوة صاعدة كالشهاب لا يعلم أحد أين يصل ... هو يبني قوة عسكرية هائلة، ينادي بألمانيا فوق الجميع، وهل تدرون ما معنى "ألمانيا فوق الجميع؟".

لم يجب أحد وكأنما أرادوا أن يشرح لهم فشرح: هذا يعني هيمنة ألمانيا على أوروبا كلها وربما على العالم.. هتلر يتوسع، في العام الماضي فرش جناحه على النمسا، اليوم على تشيكوسلوفاكيا. إنه يتوسع. يلتهم ما حوله لقمة لقمة فما تراها لقمته القادمة؟.

-هو الخوف إذن!! قال صبري شبه مغمغم، لكن الوزير السابق الراسخ القدمين في السياسة، أحابيلها وكواليسها، استأنف:

-لاشك أن لإضراب الستين يوماً وصلابة شعبنا وتماسكه دوراً هاماً في فرض المعاهدة، لكن وراء هذا كله الخطر الدايم الذي يمثله هتلر في ألمانيا، موسوليني في إيطاليا والمستقبل الغامض الذي ينتظر أوروبا ويجبر الفرنسيين على كسب ود الشعوب المستعمرة حتى إذا ما قامت الحرب لم ينقلب هؤلاء عليهم أو يتحالفوا مع أعدائهم.

-إذن، علينا أن نستفيد من الفرصة الآن فنشدد عليهم النكير علنا نبلغ الاستقلال، تدخل عزيز وقد بلغت الحماسة منه أشدها.

- هذا ما ينبغي أن نبحث فيه مستقبلاً، لكن دون أن ننسى أبداً أن الاستعمار ذئب نهاش غادر لا يفوت فرصة للنهش إلا واستغلها..

بحراً من المعرفة كان الرجل، محيطاً واسعاً من الفهم والثقافة، أنى نقرته يرن... وكان عزيز متعطشاً للمعرفة والثقافة فنهل منها إلى درجة ظل أياماً يفكر "لماذا نهمل شيئاً كالثقافة؟! الثقافة هي الأداة التي تصقل عقل الإنسان، فلماذا نغفل تلك الأداة؟" "أنت رجل سيف، لا رجل قلم" رد في داخله لسان آخر كان عزيز يعلم أن الحياة الطويلة التي عاشها للكفاح والصراع، للضرب والحرب لم تتح له أن يتفرغ يوماً لقراءة أو كتابة، فكيف يجد المرء ثقافته دون قراءة أو كتاب؟ حياة القرية، الجيش العربي، الخدمة العسكرية في حماة. العمل في الثورة، الهرب من المستعمر والتخفي بعيداً عن مطال يده، كل ذلك لم يدع لتعزيز فرصة يقرأ فيها أو يتتقف.. عمله في التجارة كان يعيقه عن ذلك، إذ كيف يمكن لتاجر يمضي حياته في الحل والترحال أن يجد فراغاً لقراءة أو ثقافة؟ بل حتى عملياته السرية مع البطحيش كانت تشكل عائقاً... شهراً أو شهرين يظل يفكر، يستقصي، يخطط لمثل تلك العملية، وبعد التنفيذ يظل أيضاً شهراً أو شهرين منهزماً من عواقبها.

آخر مرة كاد ينشكف أمره.. خطط مع البطحيش للعملية، كمن لدورية الجندرمة قرب شلالات مزيريب، وحين وجدا أن الدورية دركيان لا ثلاثة استتبشرا خيراً، فقد سد كل منهما بندقيته على دركي ثم أطلقا النار وهوى الدركيان صريعين لكن سرعان ما نيق ثلاثة آخرون من وراء التلة،... رأوا مصدر النار فترجلوا عن جيادهم لتبدأ معركة لم ينقذهما منها إلا الوادي العميق الذي رميا نفسيهما فيه تخفيهما شجيرات الأحراج وظلمة الليل. "رغم كل شيء يجب أن أقرأ، الثقافة أرقى حاجات الإنسان". وأسرع إلى الأخضر... ابنه يحب القراءة، يأتي بالكتب، إذن، لم لا يفيد منه؟.

- أي خبر سعيد هذا يا أبي؟ أنت تريد كتاباً؟

- أجل.. في المحل التجاري يعذبني الفراغ أحياناً فلم لا أملأه قراءة؟

رد الأب على الابن وهو يتفحص معه كتب مكتبته الصغيرة التي بناها لبنة لبنة...

-العقد الفريد.. ما رأيك تقرأه؟

-أقرأه، أجب الوالد وهو يأخذ الكتاب الكبير المجلد تجليداً مذهباً جميلاً..

-ماذا؟ تقرأ؟ سألته شمس باندهاش شديد وهي تراه يدخل بالكتاب المجلد المذهب إلى غرفة النوم، فعهدا به لا يدخل إلى غرفتهما سوى جريدة يقرأ فيها أخبار السياسة أو مجلة يتابع فيها طرفة أو نادرة.

-تعلمين؟ مع الشهبندر تشعرين أنك بأمس الحاجة للمعرفة والثقافة...

-بارك الله بالشهبندر، دافعاً يدفعنا للمعرفة والثقافة.

-تريدين الحقيقة؟ بودي أن أراه كل يوم...

-ونحن لا نراه أبداً؟! كأنما حرام علينا أن ننهل من ينبوع معرفته..

-ولماذا لا ترينه؟

-كيف؟ أين؟ والرجال يملؤون وقته كله؟

-اسمعي.. منذ ثلاثة أيام بدأ يذهب إلى النوادي، يحاضر في الجمعيات،

لماذا لا تدعوه رابطتكم النسائية؟

-رابطتنا النسائية.. أجل، هو ذا المخرج.. قالت شمس فرحة وقد أمسكت

برأس الخيط..

في اليوم التالي ذهبت إلى الرابطة، رأيت عابدة الجزائري، نازك العابد، وعدداً

من قيادات الرابطة، طرحت الأمر عليهن، ناقشناه بسرعة وبسرعة اتخذن القرار.

نازك كلفت بمهمة الدعوة، فثمة صلة قرابة ومعرفة وثيقة، وأفلحت نازك في

تحديد موعد.

لكن حظ شمس خذلها هذه المرة، فقبل الموعد بثلاثة أيام فقط جاء نواف من

القرية... كانت قد مضت عليه أشهر لم يأت إلى دمشق وكانت مشوقة له حتى

الموت... هذا الابن المتوسط القامة المتين البنية الجميل المحيا يسرحها.. هو

صورة طبق الأصل عن أبيها نواف!! مذ صار الصبي يافعاً بدا أنه يكره الجدران،

يبغض الأرزقة والشوارع، يحب الفلاة والبرية... "أنت بري"، صارت تقول له كلما

اقترح عليها أن يذهب إلى البرية والمضارب. "خير من أن أكون مدجناً" يجيبها

مازحاً. ولكي لا يكون مدجناً، عافت نفسه المدينة والمدرسة فبدأ يغادرها إلى

القرية حيناً وإلى المضارب حيناً آخر... عند جده، علي المر، فينة وعنده جده

الشيخ نواف فينة أخرى... وامسكي به يا شمس إن كنت

تستطيعين...

كانت كل مرة ترسل له الأخبار، الرسل، لكنه يأبى أن يأتي... وإن جاء

فلكي يظل أياماً ويعود.. لكنه هذه المرة جاء دون أن ترسل له أحداً.

-خير؟ سألته أمه باستغراب.

-افرشي لي بيت العنكبوت لأحط رأسي وأموت، رد نواف وهو يتظاهر بالضعف والضعف والضعف.

-بعيد الشر يا بني... اطلب وتمن.. بوجدك بنت الوزير؟ بنت القاضي؟.. بنت السلطان؟. تابعت مازحة وقد تذكرت الحكاية القديمة التي طالما روتها لها جدتها عن الشاطر حسن الذي يضنيه العشق فيأتي طالباً من أهله أن يخطبوا له البنت التي وقع في هواها.

-بل بنت عمي.. قال نواف الذي نفض عنه فجأة غبار الصمت وشد بذراعه كتف أمه التي لا تحب منه أكثر من حركته تلك..

لم تفاجأ شمس، ربما كانت، هناك في أعماق اللاوعي، تتوقع مثل ذلك.. مقدمات نواف كلها توصل إلى تلك النتيجة..

-دملجة؟ سألته وهي مازالت تتفرد في وجهه...

لم يجب، لكنه أوماً برأسه إيجاباً.. آخر مرة زارت فيها القرية مع أبيه رأت دملجة تحوم حول نواف، بل رأت بنات القرية كلهن يحمن حوله... لكنها أحست بحدس الأنثى أن المغناطيس الذي يشد نوافاً إلى دملجة أشد قوة وتأثيراً.. سألت عن ابنها.. في القرية، في المضارب، فسررها أن يكون الجواب "نواف قبلة أنظار البنات.. حلم العذارى كلهن". "ولم لا يكون كذلك؟" تساءلت حينذاك وهو الفتى الجميل، القوي الشجاع، ابن الحسب والنسب، وما عساها تريد الفتاة غير فتى مثله؟ بمن تحلم ان لم تحلم بنواف؟. شمس تعلم أن الفتاة تدخل سن النضج ونصب عينيها هدف واحد: تأمين الزوج، فلماذا لا تسعى دملجة وغير دملجة لأن يكون زوجها نواف؟.

-وأنت؟ تحبها؟ سألته من جديد، لكن هذه المرة بلهجتها البدوية التي تعود إليها من حين لآخر وفي أشد لحظاتها الحميمية...

بشيء من حمرة في الخدين، وإطرافه في العينين، راح نواف يهز رأسه إلى الأعلى و الأسفل، تبسمت الأم لكن بمسحة من مرارة. لم تسأله إن كانت هي تحبه، فحين رأتهما معاً أحست بأن دملجة لا تحبه وحسب، بل تراهن عليه بعمرها كله، ترمي بكل ما في جعبتها من سهام الأثوثة والجادبية لتصرعه أرضاً.. لكن حينذاك لم يكن قد صرع أرضاً، ففي المضارب كان ثمة زهور، ابنة أخيها

سلطان، وكانت هي الأخرى ترمي بشباكها لنواف.. كلتاها جميلة وكلتاها تستحق أن يحبها نواف ونواف حائر متردد: يأخذ ابنة الخال، ابنة البادية والخيام والترحال؟ أم ابنة العم: بنت القرية والاستقرار؟ لم يكن الصراع قد حسم بعد...

إذ ذلك تمننت شمس في سرها أن تنتصر ابنة الخال... لا تدري لماذا؟ لكنها تمنته.. أهي العصبية؟ أهي الجذور التي تضرب راسخة في أعماق تربتها؟ أهي الرغبة في تعويض خسارة أنزلتها يوماً بالقبيلة؟ لا تستطيع شمس الجواب، لكنها شجعت ابنها من طرف خفي أن يحسم الصراع لصالح البدوية الصافية كماء الغدير، الحرة كالطيور الجوارح في ذرى الجبال، لكن هاهو ذا يحسمه لصالح ابنة العم... ولا تملك إلا أن تخالط ابتسامتها مرارة راحت تقطر من الشفتين...

شمس لا تنسى أبداً أن دملجة هي ابنة عليا... وعليها، مذ وقعت عليها عينها أول مرة، قرع في داخلها جرس إنذار.. في زيارتها لبيت عزيز، وهي فارس ملثم، في لقاءاتهما على بيدر، في حقل، على طريق، كانت كل منهما تحدد الأخرى بنظرات الريبة والحذر.. بعدئذ تطورت الريبة إلى نفور والحذر إلى كراهية ثم إلى تهجمات واتهامات حين عرفت عليا حقيقة الفارس الملثم. كانت عليا قد رأت فيها منافستها بل ضررتها. وكان من الطبيعي أن تحمل لها الحقد والكراهية وهماهي ذي الأيام تدور ليقع ابنها في حب ابنتها... ويعيد الحب شبك ما مزقته الكراهية وجمع ما كان قد افترق منذ تلك الأيام.."

"يا لسخرية الأقدار!!" وتهدت شمس تنهدة طويلة أثارت للتو خوف نواف..

-ماذا.. أمي؟ أنت غير راضية؟ لا توافقين؟

-ليس المهم أن أَرْضَى أنا وأوافق.. المهم أنت؟ أحبها؟ تحبك؟

-حب العبادة.. أجاوب هذه المرة بحماسة واندفاع قاطعاً عليها الطريق.. منذ أن بدأت الذهاب إلى القرية، كنت أشعر أن دملجة تهتم بي، تظل قربي، ترعاني.. وكنت أنا أفرح برعايتها، أسر بقربها.. حتى جاء هذا الشتاء وبتنا لا نستطيع افتراقاً...

"أجل.. هو ذا الحب الذي يربط بين قلبين فلا يستطيعان بعده افتراقاً" شردت شمس مع أفكارها فيما كان نواف يتابع حديثه عن دملجة، ابنة العم التي اكتشف منذ أشهر فقط أنه يحبها حب العشق وأنها تحبه حب العبادة... شمس تستعيد إلى ذاكرتها لحظة اكتشاف أخرى "عزيز يكشف عن وجهها اللثام وهما بجانب قناة الماء... هي لا تزال ترى بعين مخيلتها عينيه الجاحظتين وفمه الفاجر

دهشة، تسمع بأذنها صيحته التي لا تزال تتردد عبر الزمان "الفارس المثلث بنت؟". بعدئذ اكتشفت أن الصداقة التي كانت تربط بينهما كشاب من أم العيون وفارس مثلث من البادية إنما كانت تخفي حباً كامناً في الأعماق يضحك عليهما معاً وهو يمهّد لهما الطريق وييسر الأسباب إلى أن تأتي اللحظة المناسبة فيقول لهما "كفاكما تمثيلاً، أنتما ذكر وأنثى لا يجمع بينكما سوى الحب".

نواف الآن يعترف أنه يحبها، وهي تحبه، فهل تستطيع الا أن توافق؟.. هي شمس التي تدين بدين الحب مذ عرفت الأنوثة، شمس التي تخلت عن كل شيء من أجل الحب.. لا.. حيث يكون الحب، تكون شمس "أدين بدين الحب حيث توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني" حسمت شمس أمرها وهي تنظر إلى ابنها العاشق من جديد، وقد سكت، شاعراً، ربما، بأنها ساهمة عنه لا تسمعه..

-وعدتها بشيء؟ سألته بلهجتها البدوية نفسها، علامة الحميمية والقرب..

-إي.. أمي.. قلت لها أروح للشام أجلب أهلي.. رد نواف باللهجة نفسها..

-ولأيش العجلة يا وليدي؟

-ابن الحمود يريد يخطبها إن تأخرت..

"آه.. القصة نفسها دائماً، لكن التاريخ لا يملك إلا أن يعيد نفسه". وتبسمت من جديد لذكريات بدأت تنسرب إلى ذهنها طافية إلى السطح بعد طول هجوع.. معجون ابن عمها يضغط عليها، على أهلها، على أخيها سلطان، يريد أن يستغل الفرقة، عزيز غائب لا يعرف له أحد مكاناً، لم يبعث خبراً، إذن لم لا يُقدم؟ لم لا يطلب يد شمس؟ سلطان مع ابن عمه، وعده بتقديم يد العون له ويوشك أن يرغم أخته على الزواج منه، لكن شمساً وضعت شرطاً: "أتزوجه شريطة أن نتبارز بالسيف، إن غلبني قبلت به". وذات فجر راحت الروابي تردد صوت براز، محممة خيل وصليل سيوف، ورجل قاتم البشرة قبيح الوجه يرتعد مذعوراً أمام ضربات سيفها وهي توشك أن تلقيه أرضاً..

-هه.. ايش قلت أمي؟ عاد نواف يقطع عليها شرودها فلم تملك إلا أن

تبسم:

-زين، أنا أكلم والدك..

-الليلة!! وغداً نسافر!!

-غداً.. لا أظن ذلك صعب.. سيد نواف، قالت أخيراً وهي تربت كتفه ثم

تتهض فقد كان الباب الخارجي يقرع...

وكانت جارتها أم روضة

-أين أنت يا أختي؟ أي والله والله... مشتاق لك من صميم قلبي، بادرتها أم روضة وهما تدخلان غرفة الاستقبال التي فرشتها شمس على الطريقة الشامية، أرائك ومقاعد وثيرة وستائر تتسدل حتى الأرض مانعة كل أثر للشمس.. "إن كنت في قوم فاشرب في إنائهم"، وشمس في قوم نساؤهم لا يسمحن للشمس أن ترى وجوههن...

فلم لا تفعل مثلهن؟

-القلوب عند بعضها أختي أم روضة، ردت شمس على الجارة التي باتت منذ سنة وأكثر تتودد لها تودداً غير عادي.. "لماذا؟" سألت نفسها مذ لحظت ذلك التودد: هي تذكر دائماً قوله سبحانه "وجعلنا لكل شيء سبباً". إذن، لا بد أن وراء ذلك التودد سبباً، ففي دمشق، مدينة الياسمين والفل، لا يفسحون مجالاً كبيراً للعواطف والأحاسيس، كل شيء لديهم بحساب، وكل علاقة لغاية.. في دمشق، المدينة الجميلة التي تحبها شمس، تصول المصلحة وتجول، وحدها المنفعة سيده الموقف، وحدها تحدد العلاقات والروابط وانطلاقاً منها تبنى جسور وتهدم جسور" ترى، ما الجسر الذي تريد إقامته أم روضة؟" بعد زيارتين أو ثلاث فقط استطاعت شمس أن تجد الجواب: كانت الجارة أمًا لخمس بنات، صغراهن في الثانية عشرة، وشمس أمًا لثلاثة شبان، أصغرهم في الخامسة عشرة، فكيف لا تبحث لدى شمس عن الود والحب؟ في القرية، الفتاة تبحث عن عريسها كما في المضارب تماماً: الحياة حرة مفتوحة، الفتيان يرون الفتيات، يلتقون على طريق الورد، في حقول الشغل، مشاعب الحطب، يفرحون معاً يحزنون معاً، يداً بيد وكتفاً بكتف يدبكون معاً، لكن أين يلتقي فتيان الميدان بفتياتها؟ هنا أيديهن مغلولة، حركتهن محظورة، الحجاب ضرب عليهن، الأبواب مغلقة في وجوههن، الحرملك لا يلتقي بالملك إلا في الحلال.. لكن كيف يجيء هذا الحلال؟

-سمعت الأخبار؟ بدأت أم روضة بنبرة الهمس الحريمية وقد مالت على شمس. غامزة ضاحكة هزت شمس رأسها علامة النفي، فجعبتها منذ يومين خالية من القيل والقال، ومن وشوشات الحريم التي تتناقل الإشاعات عن فلان وعلان، هذا الجار أو تلك الجارة..

-جارنا أبو مرتضى غائب منذ عشرين يوماً.

-لماذا؟ أين؟ تساءلت شمس وقد ساورها خوف أن يكون شر ما قد نزل بذلك

الجار الكهل الذي يصلي كثيراً ويصوم كثيراً ويحج إلى بيت الله كثيراً.. سجنه الفرنسي؟ تابعت شمس تساؤلها.

-أي فرنساوي؟ ردت أم روضة ضاحكة: يقولون انه في حيفا..

-إذن، يشارك في قتال العصابات اليهودية..؟ تابعت تساؤلها وقد ازداد خوفها، كانت القوات البريطانية والعصابات اليهودية قد استطاعت إخماد ثورة الشيخ عز الدين القسام، بعد قتل أبرز القياديين هناك وعلى رأسهم سعيد العاص، ذاك القائد العسكري الذي حزن عليه عزيز كثيراً..

-بل هو يشارك في إغناء الغواني اليهوديات.. تابعت أم روضة ضاحكة مقهققة..

-الغواني اليهوديات؟

-أجل، يقولون انه وقع منذ زمن في غرام يهودية شقراء... وتجارته، كما تعلمين، هناك في حيفا، يذهب بين الحين والحين لتستقبله بالأحضان صاحبته، يعيش معها، ينفق عليها... ربما هو قد تزوجها... من يدري؟ ألفت أم روضة سؤالها الأخير وهي تبرم شفتها، بمعنى: "يا مؤمنة على الرجال، يا مؤمنة على الماء في الغريال"..

الجارة، في هذا، على حق.. ففي دمشق، مدينة التجارة والتجار منذ إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، التجار يذهبون بتجارتهم إلى فلسطين، مصر، اليمن، العراق... وهناك تطول رحلتهم.. المسافات بعيدة والجمال لا تسير بالمحركات النفاثة، كما أن الرجل يحتاج إلى المرأة.. وكيف يلتقي الرجل بالمرأة إن كان مؤمناً ومؤمنة إلا بالحلال؟ التاجر الدمشقي مؤمن ولهذا السبب، ربما يتزوج.. بل ربما منهم من يتزوج امرأة في القاهرة وأخرى في صنعاء وثالثة في بغداد حتى إذا ذهب إلى أي مكان منها وجد بيته وحلاله، طعامه وشرابه. شمس تعلم ذلك وتعلم أنه معقول، لكن أن يتزوج أبو مرتضى غانية يهودية، فهذا هو غير المعقول..

-لكنه حاج نقي ورع يصلي كثيراً.. بدأت شمس معربة عن استغرابها.

-لا، أختي شمس، لا... قاطعتها أم روضة ما إن بدأت، لا تخافي إلا من النهر الهادي... المثل يقول: ياما تحت السواهي دواهي...

أجل، شمس التي عرفوها بالميدان أول ما جاءت باسم شمس وظلوا ينادونها به حتى اليوم تعلم أن تحت السواهي دواهي وأن النهر الهادي هو النهر

العميق الغور الذي يمسك بتلابيب من لا يعرف السباحة فيغرقه...  
بعدئذ، عادت أم روضة تفصل قصة التاجر الدمشقي الذي يذهب إلى حيفا  
يعبث ويلهو مع صاحبتة اليهودية فتحلبه حلباً، ثم ختمتها قائلة:  
-وليس هو وحده من يفعل ذلك.. بل هناك الكثير من الرجال من دمشق  
وحلب، حمص وطرابلس. كذلك الرجال الفلسطينيين أنفسهم، تبتز اليهوديات  
أموالهم، يسلبنهم أراضيهم حتى إذا أبقينهم عظماً بلا لحم ألقينهم للكلاب...  
-تفضلي اشربي قهوتك!! قالت شمس للجارة بعد أن جاءت وضحة بالقهوة  
والماء... فأسرعت ترشف أول رشفة من فنجانها..  
-أجل.. أنا أحب قهوتك.. خاصة العصرية..  
-عال إذن.. أريدك أن تبصري لي.. أنت بصارة شاطرة، لو كنت مكانك  
لاتخذت منها مهنة..  
-لا، أنا أبصر فقط إذا كنت رائقة المزاج!.. ثم أبو روضة لا يسمح لي..  
يقول.. هي خزعبلات..  
-اية خزعبلات أم روضة؟ أنت لا تقولين إلا ما ترين..

-إذن.. اسمعي.. بدأت أم روضة تبصيرها وهي تدقق في الفئجان متفرسة  
متفحصة... فأصاحت شمس سمعها بكثير من التصنع المازح: عندك طريق  
وعلى الله التوفيق... فارس بيتك يبحث عن فرس مثلك... هي قريبة منك. بابها  
على بابك.. حمراء بيضاء.. كحلاء جيداء تحت الايد مثل جبل الوريد الرزق  
بمزودة هذه الفرس جيبها قبل ما يأخذها العسس. مرج أخضر الدنيا قدامك  
افتحي على المرج الأخضر بابك.. وشردت شمس "كم ينطبق كلامها على  
الواقع!! أتراها سمعت ما جاء من أجله نواف؟ أم هو الغيب ينكشف لها فتقرأ ما  
دار بينها وبينه؟".

شيء عندك كان ضايح.. تابعت أم روضة الشاردة من شرودها، واليوم  
لاقيته.. طويل، عريض، أخته تعشقه، بعد اليوم لا تقلتيه... "إذن، لم تكن تقصد  
نواهاً في كلامها السابق بل تقصد الأخضر". ولم تملك شمس إلا أن تبتسم في  
سرهما. كانت أم روضة قد لمحت أكثر من مرة أنه لا يناسب روضة كالأخضر.  
فرس وخيالها.

بالمزاح، بالمداعبة، كانت تقول "الجار للجار والأقربون أولى بالمعروف" أو  
"أختي شمس، لماذا لا نضع جبناتنا على خبزاتك ونقول يا الله؟". إذن، الآن

تضع عينها الثانية على نواف، تريده لابنتها الثانية صبحية.. تبصيرتها هذه كلها لتلك الغاية، "مسكينة، أنت أم روضة... لا تدرين أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن..". لم تكن شمس تسمع ما تهذي به الجارة، فقد انكشفت اللعبة وماذا يعينها ان تدخل تلك اللعبة؟ "نواف لصبحية؟ حسن.. نواف عاشق متيم يريد البناء بمعشوقته.. الأخضر لروضة؟ لا، ما حزرت، جارتني أم روضة. الأخضر لا يفكر بأية فتاة.. ربما حياء وخجلاً، وربما همأً وانشغالاً. وكانت شفتاها تقتران عن ابتسامة ملأى بالألغاز وهي تودع جارتها أم روضة...

نواف يتسكع في شوارع دمشق وساحاتها. هو، منذ أربعة أشهر، لم يأتيها... الشوق في صدره يدفعه للتسكع فيها... يتجول هنا وهناك، يرى ماذا تغير بعده، ماذا استجد... باب الجابية، الحميدية، الحجاز، كلها كانت كما هي، زحام وباعة، عمال في الساحات وتجار في المحلات والسوق الذي يحجب سقفه المعدني أشعة الشمس مليء بالغادين والآتين، الحواة والمحتالين، بسطات على الأرض، بضائع على الحبال، سلع معروضة هنا وهناك، والكل ينادون بأصوات تختلط حتى لا يميز المرء واحدها من الآخر.. ضجيج وعجيج، وعازف ناي يعزف أنغاماً ساحرة تضيع في قلب الزحام فلا يسمعها أحد....

على ضفة بردى وجد نواف نفسه.. هناك لم يكن عجيج ولا ضجيج... بل صخب نهر تصطفق مياهه وهي تلمطم جنباته.. كان أذار في أواخره، وكان قد جاء دافئاً كربيع الهند ساكناً كبقر بوذا.. لم تتحرك عواصفه ولم تهدر رعوده... شمسه بلا غمام تهيء شواظها لصيف قاس وتذيب في الآن نفسه ثلوجاً تراكمت على ذرى الجبال... مياه بردى عكرة... تكاد تصل حافة الضفة.. في سنين كثيرة يطوف النهر... ذوبان الثلوج يأتي بمياه فوق طاقة النهر الصغير فقفيض على كلا الجانبين.

وحيداً راح نواف يتأمل النهر المتدفق، سارحاً بخياله إلى غدران وقنوات، سواق ومستقعات.. هناك في أم العيون حيث الحبيبة، ربما، تنتقل "الله!! ما أحلى تلك المربع!! ما أجمل العيش في أحضان الطبيعة!!" وتبسم نواف وهو يستعيد في ذهنه آخر مشوار ضمتها فيه أحضان الطبيعة... "الله أبدع الطبيعة.. وصنع المدينة الإنسان، وشتان بين ما يبدع الله وما يصنع الإنسان!!" وأعجبته الفكرة. هو لا يدري كيف جاءت أو من أين لكنها أعجبتة. "سأعمل على العودة غداً" تتمم بكثير من التصميم "إذن.. اذهب إلى أبيك... لا تعتمد على أمك فقط، بل فاتحه هو نفسه بالأمر" وقفل نواف عائداً للتو.

كانا يغلقان المحل، الأب وابنه البكر، فهشا للقادم الجديد وبشا... بالأحضان  
أخذهما فيما تناول هو يد أبيه مقبلاً.

-كم أنا مشتاق إليك!! قال للأب الذي ضمه بين ذراعيه طويلاً... ثم علق  
معاتباً:

-لو كان ذلك صحيحاً، لما كنت تغيب عنا الشهور...

-أنا أكره المدينة، أنت تعلم يا أبي!!

الأب يعلم، بل هو نفسه يكره المدينة.. هذه المسارات المحددة، هذه الأزقة  
الضيقة، تلك الجدران التي تنتصب أمامك حيثما نظرت. كم يكرهها!! كم يريد  
التحرر منها!! كم يحلم بالانفلات في برارٍ واسعة لا حدود لها يجري على ظهر  
حصان فيشعر أنه على بساط ريح!! لكن ماذا يفعل؟ الظروف لا ترحم، الحياة  
تدفعك في هذا المجرى أو ذاك كما يدفع النهر بمياهه دون أن تملك من أمرها  
شيئاً.

دونما إبطاء، بدأ يسأله عن القرية، الأهل، الأصحاب، الأحباب، وهم  
يسيرون في طريقهم إلى المنزل، الأب وأبنائه، هذا من جانب وذاك من جانب  
فخيل للأب لحظة من الزمن أنه نسر بجناحين يحلق بهما عالياً فوق الأزقة  
والجدران... فوق السابلة والزحام... "من مثلي؟ جناحان قويان يحملانني حيثما  
شئت، بعيداً عالياً كيفما أردت".

في المنزل، تستقبله شمس وماؤها الساخن كالعادة.. هو يستحم كل يوم، ولم  
لا؟ دمشق بأنها السبعة غزيرة المياه وافرة العيون فلماذا لا تستفيد شمس من  
مياهها تلك نظافة واستحماماً؟ كل عصر، كانت تحمي الحمام.. هنا، ليس كما  
في المضارب أو أم العيون تغلي الماء على الموقد.. لا.. الحمام جاهز يكفي  
إعطائه عود كبريت، ثمّة زيت كاز، مازوت، حطب وكلها سريعة الاشتعال تعطي  
ناراً لاهية تحول الماء إلى متعة ودفء. لم تعد شمس بحاجة إلى حمام سوق كما  
كانت في حماة ولا إلى أم عمر تدلك لها ظهرها... هنا... الحمام عند الطلب،  
وضحة تحضره بطرفة عين فتستحم شمس ويستحم عزيز. شمس تستمتع أن  
تحممه بيديها، طفلاً بين يدي أمه، معشوقاً بين ذراعي معشوقته، بل ليس هناك  
أمتع من أن تفرك جسده بالليفة والصابون، تسكب عليه الماء، تتلمس بشرته،  
تتخلل بأناملها شعره، وتحتوي بكل ما فيها من حواس ذكورته الهاجعة حيناً،  
المتيقظة حيناً، تلك التي باتت منذ ما يقرب العشرين عاماً قطب رحاها...

-الشغل زين؟  
-الحمد لله. من قنع عاش..  
-لكنك اليوم فرح لا قانع..  
-نواف أفرحني.. كنت بحاجة إلى رؤيته.  
-إلى رؤيته أم إلى أخبار القرية؟ سألت ضاحكة وهي تعلم تعلقه بالقرية.  
-الله!! قال عزيز متتهماً متجاهلاً السؤال، كم شعرت بالفرح وأنا أسير بينه  
وبين الأخضر كأنني نسر ألق عاليًا وهما جناحي...  
-صحيح.. العيال كبرت.. قالت شمس وهي تنوي أن تستغله مدخلاً إلى  
القضية الجديدة..  
-فقط، العيال؟ قال مبتسماً وهو يدور على كرسيه الخشبي الواطئ طارفاً  
بأجفانه من بين قطرات الماء المنسكبة على رأسه.  
-ماذا إذن؟ أتعني أي أنا كبرت؟ ردت ممزحة وهي تجلس القرفصاء أمامه  
لتغدو عيناها في عينيه وشفاتها قرب شفثيه، وضعاً طالما انتقلا منه إلى عناق  
سريع محموم.  
-لا.. لا.. لا.. معاذ الله.. أنت لا يمر عليك زمان، ولا يعرفك حدثان.  
-أجل.. معك ألغي الزمان.. أشعر كأنني أسبح في الهواء عالياً عالياً وهو  
تحتي على الأرض، يمد يده فلا يطولني، يقفز إلي فلا يصل.. أنا معك أظل  
الصبية الفتية التي لا تكبر، الشباب الدائم الذي لا يشيخ..  
-كم أنا محظوظ إذن!! فليس أبغض إلى قلبي من تجاعيد الوجوه وتقوس  
الظهور!!  
-لا.. اطمئن.. معك، وبحبك، أظل الفتية النضرة الغضة البضة..  
-وأنا أموت في الفتية النضرة، الغضة البضة، قاطعها وهو يضمها بين  
ذراعيه فتندلق على صدره مهلبية بيضاء رجراجة..  
-يا إلهي! ما ألدك وأمتعك!! غمغم عزيز، فيما بدأت شمس تنملص منه  
متلقتة متممة:  
-العيال يسمعوننا.. هم.. بانتظارنا..  
-أندرين شمس؟ تابع الرجل وهو يشتعل شوقاً للمرأة التي ما انفكت توجج فيه  
النار. كل يوم أجد فيك سحراً جديداً، متعة جديدة.. قلبي ما السر؟

-الحب.. ردت وهي تكاد تذوب شوقاً للجسد المحموم الذي تملصت منه  
للتو، حيث يوجد الحب يوجد السحر، التجدد، المتعة.. يوجد كل ما يشتهي  
الإنسان...

-وأنت، مازال لديك ذلك الحب؟

-متأججاً كعهديك به.. بل تدري عزيز؟ أحياناً.. أشعر كأنني مازلت وإياك  
بجانب الغدير هناك، في حميا الصبا وجذوة الحب...

-إذن يحيا الحب!! قال شبه هاتف وهو يأخذ طاسة ماء ساخن يسكبها على  
رأسه...

-هو حي باق.. متجدد إن لم يكن فينا ففي أبنائنا..

-ماذا تعنين؟

وللتو روت له قصة نواف، من جاء بدافع الحب وكله رجاء أن يمدا له يد  
العون...

-نمد له يد العون.. قال عزيز وقد أبهجه أن يكون نواف امتداداً له في دوحة  
الحب...

-تخطبها له؟

-أخطبها...

-وتذهب إلى القرية؟

-أذهب...

-غداً؟

-غداً.. ولم تملك شمس إلا أن تفغر فاهها عجباً من سرعة موافقة عزيز.

ملء عزيز إحساس طاغ بأن التاريخ يعيد نفسه. هو في السيارة إلى القرية  
مثلما كان قبل عشرين عاماً يقطع الطريق ذاته لكن على صهوة فرسه الشقراء..  
يدفعه شوق عارم للوصول إلى الحبيبة، شمس المشرقة وبرفته فصيل عسكر،  
إيفاء لوعده كان قد قطعه للشيخ نواف..

"أهكذا نواف ياترى؟" وهز رأسه بالإيجاب.. عزيز على قناعة الآن أن  
التاريخ لا يملك إلا أن يعيد نفسه... الإنسان واحد، في شرق الأرض، في غربها،  
في قديم الزمان، في حديثه. المشاعر ذاتها تتملك الإنسان، العواطف نفسها تدفع  
به، الغرائز، الأفكار لم يتغير ولن يتغير شيء... ذلك الحب الذي دفعه إلى

شمس ذات يوم يدفع نوافاً الآن إلى دملجة...

التوق، الشوق، الانجذاب، كل ما جعله يطير إلى حبيبته ذات يوم، يجعل ابنه يطير إلى حبيبته اليوم، فماذا تغير؟ ماذا هناك من جديد؟ النسخة نفسها تتكرر، الإنسان ذاته يعود، ترى أليس هذا هو الخلود الذي يبحث عنه الإنسان؟ يجد نفسه في أبنائه، يتجدد في ذريته.. فيرضي في داخله توفاً أبدياً للخلود...

بالأمس أراد أن يسبر ابنه، يسير عواطفه وأحاسيسه، وهم يتحلّقون حول مائدة العشاء. مازحه، سأله الكثير من الأسئلة وكان في كل جواب من أجوبته يجد نفسه، هو عزيز المر يعود فتى نضر العود غص الإهاب يشعله لهب الحب وتحرقه نار العشق فلا يملك إلا أن يبحث عن الماء الذي يطفئها...

"أنت متأكد من حبك لها؟" سأله فتلمل نواف محمر الوجنتين خجلاً من الكلام عن سر دفين غال ربما يكره أن يعرضه للأنظار...؟ ألم يكن هذا هو شأني نفسي، يوم اكتشفت الأنثى في الفارس الملمم، واكتشفت حبي لها!! ألم ألزم الصمت أياماً وشهوراً لا أبوح بما في نفسي ولا أريد لأحد أن يعرف ما في صدري حتى جاءت على حسانها الأدهم تطلب إلي أن أخطبها؟" تساءل في سره ثم تابع مبتسماً!! "وهي؟ أتحبك؟" "حتى الجنون" أجاب هذه المرة بمزيج من الفخار والحماسة "لكنها ابنة عمك، ألا تشعر بها أختاً لك؟" بل أشعر بها نصفي الآخر الذي لا يمكنني العيش بغيره. "وأعجبه جواب نواف" النصف الآخر، أجل، ذاك الذي يشعر المرء بحاجته الشديدة إليه حتى يجده، فإذا وجده أراد التوحد معه، الانصهار فيه. أهو نصف الدارة الآخر، لا يسري فيه تيار كهربائي إذا لم يكن موجوداً؟" هو، عزيز، كان يملكه ذلك الإحساس، وهو يناجي النجوم، يخوض المعارك، يقطع الفلوات، كان يشعر أن هناك نصفه الآخر، بعيداً، في مكان ما من البادية. وأن حياته كلها تتوقف على استعادة ذلك النصف، على الالتحام به حتى يسري تيار الكهرباء في دارته وتكتمل دائرته من جديد. "وجدك.. علي المر؟" أهو موافق؟" "جدي كاد يطير فرحاً، بل قال لي (سأستعيد بك أباك الذي فقدت).. أجابه الفتى العاشق، فشرد الأب. "إيه يا أباً أعبد!! كم كان بودي أن نعيش معاً!!" نحمل معاً أعباء هذه الحياة، نعالج معاً سراءها وضراءها.. لكنها الرياح تشتت الغيوم لتتطاير أشلاء هنا وهناك، وربما لا تلتقي أبداً."

"وأبوها يونس؟ أمها عليا؟" سأله عزيز وهما مازالا على مائدة العشاء. لكن هذه المرة أجابت شمس سابقة ابنها، هازة رأسها "عليا؟! كان حلمها أن تتزوج أباه كيف لا يكون حلمها الآن أن يتزوج ابنه ابنتها؟" ولم يملك عزيز إلا أن يبتسم..

شعور الضرة مازال يعتمل في داخلها حتى اليوم.. رغم الزمان والمسافات، ظلت شمس تتشعر أن عليا هي الغريمة التي كرهت والمنافسة التي أبغضت. "لا تخف، أبي!! عمي يونس يحبني، امرأة عمي عليا تعبدني.. البيض المقلي لي، الزبدة لي، فخذ الفروج لي.. أنا المدلل لديها بلا منافس فكيف لا توافق؟" "حسن.. دعني أفكر يومين.. ثلاثة" قال أخيراً بنوع من سبر غوره. وانتفض نواف للتو "لا، أبي، أرجوك.. وعدتها أن أعود بكم في الحال" وأحس عزيز بحميا الشباب وحرارة الحب تفتح وجهه "إيه!! هو ذا الشباب: دفق من حماسة واندفاع، هو ذا الحب: لهيب من توهج واشتعال" ولم يستطع عزيز الإفلات فقد سارعت الأم تتناصر ابنها، "لا ينشغل بالك نواف.. أبوك وافق أن نذهب غداً" ..

وتقرس عزيز في وجه شمس، هي متحمسة أكثر مما تصور لمشروع يجمع بين ابنها وابنة المرأة الغريمة والضرة.. "أهي مشاعر الحب تتقمصها من جديد؟". هو نفسه كان يتقمص تلك المشاعر وهو ينهب الطريق نهياً إلى أم العيون.. كأنه لا يصدق متى يصل "أجل الشباب.. حماسة واندفاع. الحب حرارة ولهيب... ليس كحب الكهولة أناة وهدوءاً، تروياً وتفكيراً يضرب جذوره عميقاً في التربة كسنديانة موعلة في الزمان".

كانت السيارة تدرج بهم وهم في طريقهم إلى القرية وكان نواف فرحاً، ساعات ويصل... لم يعد هناك مسافات. كانت الحضارة قد ألغت المسافات... والطريق إلى أم العيون لم يعد يحتاج إلى أيام وليالٍ... عند الضحى ساروا... قبل المغيب سيكونون هناك "الله!! ما أروع الحضارة!! ما أعظم عقل الإنسان بيدع كل ما يوفر الراحة للإنسان، يخترع كل ما يسعد الإنسان!!".

كان الطريق حتى حمص معبداً.. لا حجراً ولا حصاة.. حملة الطرق التي شنّها الفرنسيون إنما كانت لغاية في نفس يعقوب، عزيز يعلم ذلك، هم يريدون ربط المدن، القرى، الدساكر، الضياع كلها ببعضها بعضاً، شبكة تسهل الحركة لسيارات الجيش ومصفحات الجند، مع ذلك الطريق حضارة، فيها فائدة للناس جميعاً، عزيز لا ينكر ذلك. الإسفلت يجعل السيارة تجري أسرع من فرسه الشقراء، تلك التي حزن عليها كثيراً حين ماتت... لكن الطريق الترابي من حمص حتى أم العيون، لم يكن يسمح بمثل ذلك الجري، الغبار، المطبات، الحفر كلها كانت تعيق حركة السيارة، تبطئ من سرعتها حتى ليغدو السير على ظهور الجمال أرحم بكثير...

صدم عزيز وهو ينظر إلى السهول حوله.. أين الخضرة؟ الزروع؟ الأعشاب؟

الزهور؟ الورود؟ في المدينة ينسى المرء الطبيعة، تغيب عنه ويغيب عنها فلا يفكر بها... كل ما كان يفكر فيه عزيز وهو في دمشق أن آذار خذل الناس ذلك العام فلم يأت ماطراً هادراً كعهد الناس به بل جاء هيناً ليناً، دافئاً ساكناً وكأنه لم يعرف الزمجرة والهدر يوماً. عزيز يحب ربيع أم العيون.. حين تتحول الدنيا كلها إلى مروج من سندس أخضر تزينها أزهار من كل صنف وتطرزها ورود من كل لون. هنا وشاح من أقحوان، هناك شريط من نرجس، هنالك الخزامى، شقائق النعمان ومتع عينيك على مد البصر مهرجان من ألوان... لكن ها هوذا ربيع أم العيون بلا مروج ولا سندس، بلا مهرجان ولا ألوان.. وجرى عزيز بريقه متسائلاً بعينيه، فرد الابن:

- كان المطر عزيزاً هذا الشتاء، أبي!! ثم جاء آذار ليزيد الطين بلة.. قطرة مطر واحدة لم تسقط فيه، فامحى العشب وذوت الزروع ظمأ لقطرة ماء.  
ونظر عزيز إلى شمس بحرقة وحسرة:

- أتذكرين ربيع أم العيون؟

- أنا التي تذكر... وتتهدى كلاهما وهما يسرحان، ربما في المروج الخضراء التي كانا يتبارزان فيها بالسيف ويتسابقان على الخيل ولا يشبع واحد منهما من الآخر دون أن يعرفا سبباً لذلك..

لكن خلافاً لجفاف الطبيعة كان ثمة خصب في عواطف الأهل: علي المر، يونس، حفيظة، عليا... الدار التي باتت تغص بالغرف والسكان فاعت كلها تستقبل القادمين بالأحضان.. الكل يقبل ويلثم، عليا تزغرد، وقد طغى فرحها على جميع القيود.. ولم يملك عزيز إلا أن يشعر بغصة في الحلق.. وحدها أم يونس كانت قد افتقدتها الدار. وحدها أم يونس كان قد خطفها الموت.

في الغرفة العتيقة، أول غرفة بناها علي المر، جلسوا ذلك المساء، أحاديث شتى وأسئلة وأجوبة لا تنتهي. كانت الغرفة تزدهم بآل المر، صغارهم وكبارهم، حتى فاضت إلى الغرف الأخرى.. فيونس، بزوجتيه الاثنتين، كان قد ملأ الدار أطفالاً.. دزينة أنجبته عليا وستة عشر أنجبته حفيظة ولولا منجل الموت الذي حصد بعض هؤلاء وبعض أولئك لكان من الصعب أن تحويهم دار واحدة..

اللقاء حميم والشوق عظيم، شؤون كبيرة وشجون كثيرة وعزيزة يريد وصل ما انقطع. هو يجلس بجانب أبيه، ينظر إليه ولا يشبع.. علي المر الذي جاء إلى أم العيون في مطلع الكهولة قوي البنية شديد العزم كبير المطامح، غزا الشيب

شاربيه، لحيته، رأسه حتى غدا كتلة من ثلج ناصع. حفيظة نفسها، انطبعت أقدام إوز تحت عينيها وحول شفثيها، كما حفر الحبل والزمن أخاديد عميقة في جبينها.. يونس أيضاً. كان الشيب يخط فوديه "آه منك أيها الزمان يدور دولابك ساكناً صامتاً فلا يشعر المرء، إلا وقد صار في الأسفل.. حيث القاع والتراب!!".

-إذن.. فحظ هذا العام؟! سأل عزيز أباه أخيراً.

-أجل، للأسف، أجاب الشيخ الذي صار رأسه كتلة من ثلج، لكن دون أن يكون قد خف سمعه أو ضعف بصره... بل دون حتى أن تكون قد ذبلت الحمرة في وجنتيه وشفثيه. منذ البداية كان المطر عزيزاً من حين إلى حين كان يهطل لكن خفيفاً عابراً، إلى أن جاء آذار بضرته القاضية

-المثل قديماً قال، تدخلت عليا وهي تزفر، إن أمحلت وراءها آذار، وإن أخصبت وراءها آذار..

-تعني، ليس هناك أمل؟ سأل عزيز أباه من جديد.

-ربما، إن جاءت مطرة الربيع أحييت بعض الموسم...

وأضاء قيس من أمل صدر عزيز... فالربيع من نيسان كثيراً ما يأتي بالمطر لأنه من ثوابت الطبيعة... هو يذكر، كم يعقدون من آمال على مثل هذه الثوابت: العجائز، السابع عشر من آذار، الربيع من نيسان كلها مواقيت تحمل للناس المطر، وإن خابت مرة فإنها نادراً ما تخيب..

-والمساحة؟ أقصد... زرعت كثيراً؟

-أوه.. كثيراً.. كثيراً.. رد هذه المرة يونس الذي كان قد أصبح مزارعاً خبيراً وملاكاً كبيراً، فعلي المر لم يفوت فرصة في وضع يده على هذه الأرض وتلك من سهول خاوية وأراض بور.. وكل ما حول أم العيون سهول خاوية وأراض بور: "قليب الثور، تل الأحناش، أم الرجوم كلها كانت سهولاً بلا أصحاب وأراضي لم يستغلها أحد، إذن، لم لا يستصلحونها، هم الذين جاؤوا من الريحانة هرباً من ظلم العصلمي وقلة الأرض وضيق ذات اليد؟

في اليوم التالي، تجول عزيز ورأى بأمر عينه كيف نمت القرية وترعرعت، سكاناً وعمراناً... السكان الجدد الذين رفدوها، اللاحقون بهم من هنا وهناك، البدو الذين بدؤوا يتوضعون فيها رعاة لأغنامها، كلهم كانوا قد أسهموا في نموها وازدهارها... كانت السنوات الخصيبة قد تتالت عشرراً أو تزيد، وكانت الغلال الوافرة قد فتحت باب الوفرة والثروة، وكان علي المر قد ترجم ذلك كله أغناماً

وأبقاراً وخيولاً.. قطيع أغنامه يتطلب راعيين، أبقاره تملأ الدار خواراً والخيول تحمم وتصهل.. بيت عز صار بيت علي المر.. عزيز يتجول فيه ويذكر الشاة الأولى التي جاء بها إلى تلك الدار.. يذكر الراعي العنزوي الذي التهم الجبس التهاماً، هتافه مازال في أذنيه "حروش!! يابا.. ما أطيبه الحروش!!".

يصل إلى المطبخ.. خمسة مواقد متجاورة هناك.. قدران يفوران على النار.. ورائحة الدهن واللحم تغزو أنفه.

-مشتاق للمغسولة؟ تبادره عليا مذكرة إياه بأمر رؤوم خطفها الموت باكراً، يهز رأسه بالإيجاب.. في الحال... سأحضر لك رغيفاً في الحال... تتابع، طابعة قبلة هنا وقبلة هناك على وجنتيه أختاً حنوناً لا أكثر... ويضحك عزيز...  
لذكريات صباه!؟ أم لسرعة فهم عليا!؟ أم لرغيف المغسولة الذي يتراقص بخاره أمام عينيه؟

عليا منهكة، مشغولة، ذاهبة آتية، أليست أم عروس؟ ويتساءل عزيز "أين عليا تلك التي كانت تضج شوقاً للرجل وشهوة لامتلاكه؟ تلك التي حاصرته في المغارة تريد افتراسي؟ غزنتي في فراشي والناس من حولنا رقود قد توقظهم أقل نأمة؟" وأحس بغصة في حلقه... كان الزمن قد أوغل في البعد، وكان كل ذلك قد مضى بعيداً، ربما دون أن يترك أثراً لأقدام.. دملجة زهرة متفتحة، عطرة نضرة كأمها أيام زمان. كلها حيوية ونشاط. عيناها تشعان حباً لنواف كلما نظرت إليه.. "الولد صاحب ذوق.. الفتاة تستاهل" فكر عزيز وهو يحضر نفسه لطلب يد الفتاة.

-البنيت ابنتك، رد يونس على الطلب ثم حسم علي المر الأمر.

-هاتوا الشيخ رجب الحمود يقرأ الفاتحة...

أنهى رجب الحمود قراءة الفاتحة فانطلقت الزغاريد تملأ أرجاء أم العيون... لا زغاريد عليا وحسب.. بل حفيظة، نرجس، وحتى شمس التي لم تكن تتقن فن الزغاريد.

-بعد ثلاثة أيام، العرس... حدد علي المر الموعد، إذ كان عليهم أن يعدوا العدة له، يدعوا المعازيم، يأتوا بالشيخ نواف وقبيلته من الغرب حيث بارزت شمس ذات يوم ابن عمها معجون، وبين هذا وذاك أن ينزلوا إلى حماة، يأتوا بالحلي والملابس، بالذهب والعمود جهازاً للعروس.. أياماً ثلاثة لم يعرف فيها عزيز رأسه من رجليه، في حماة كان عليه أن يرى الأصدقاء القدامى، حسني الدباغ الذي ترهل كثيراً.. امتلاً كرشه شحماً ولحمياً حتى لم يعد يستطيع حمله.. الدكتور

نورس، صابر، المحامي إبراهيم، كلهم رأهم، وشمس وعلياً تجهزان العروس!..  
لكن حين بدأ العرس: قرع طبل وعزف مزار، كان عزيز على رأس الدابكين،  
بمسك بيد شمس ويلوح بمنديله فرحاً حتى الحافة، سعيداً حتى اللانهاية، يدق  
الأرض بقوة وعزم وملؤه شعور طاغ بأنه يجدد الحياة مرة ثانية، يعود للشباب من  
جديد...  
www.alkottob.com

-أمي، أمي، الفرنسي.. الفرنسي، دخلت بدور هاتفة بأمها  
وقد أفاقت للتو من قيلولتها...

-الفرنساوي؟ ردت الأم وهي تجلس في سريرها، أعوذ بالله من الشيطان  
الرجيم... هل فعل أبوك شيئاً؟ هل يسأل عنه؟  
-لا... أمي، بل هو يسأل عنك.. أنت..

-أنا؟ وماذا يريد مني الفرنسي؟

-لا أدري، أمي.. لكنه ذلك الضابط الكبير الذي زارنا من قبل.

-القومندان رينو!! قالت وهي تنزل من سريرها إلى الأرض، بعجالة  
واضطراب تبحث عن ثيابها، أريد أن يكون جيرار آخر؟ تمتمت دون إيضاح ثم  
اتجهت إلى ابنتها تدفعها دفعا، اذهبي إلى وضحة... دعيتها تدخله إلى غرفة  
الضيوف..

وكما دخلت بسرعة خرجت بدور بسرعة، فيما تابعت شمس بسرعة أكبر  
ارتداء لباس يمكنها به أن تقابل ذلك الضابط الكبير الذي عرفته أول ما عرفته  
وهي معتقلة مع النساء السبع والعشرين.. ثلاث مرات ساقوها من زنازنتها الرطبة  
المعتمة ذات الرائحة النتنة إلى مكتبه فاخر الفرش واسع المدى عالي السقف  
كأنما بني ليكون مخدعاً للملكة المغناج ماري أنطوانيت، لكن القومندان الذي كان  
يشارف الأربعين حوله إلى مكتب للتحقيق. كل مرة كان يسألها الأسئلة نفسها: من  
أنت؟ ما دورك في المظاهرة؟ ما علاقتك بالتنظيم النسائي؟... وكانت كل مرة  
تجيبه الأجوبة نفسها؟ أجوبة عامة عائمة لكنها صحيحة صادقة لا أثر فيها  
لكذب.

في المرة الثالثة دعاها للجلوس، طلب لها فنجان قهوة فانكشمت خائفة "أعيد سيرة جيرار؟" لكنه لم يعد سيرة ذلك الكابيتان الذئب الذي أراد أن يفترس ليلي. بل كان معنياً بأن يعرف المزيد عن شخصيتها، هويتها، ماهيتها. وخيل إلى شمس أنها تسمع جرساً يقرع منذراً بالخطر، وللتو تحولت إلى سلحفاة تحتمي بقوقعتها من الخطر. "لا تخافي.. بل اعتبريني صديقاً لا محققاً.. وحدثيني عن نفسك". لكن كيف تحدثه عن نفسها وهي مذ جاءت إلى دمشق لا تعمل إلا لإخفاء نفسها؟ كيف تعتبره صديقاً وهو فرنسي مستعمر لم تر من أمثاله إلا الشر والويل؟ كيف لا تعتبره محققاً وهي مجرد سجينه يؤتى بها وتتخذ رهينة الأوامر والنزوات؟ ولم يستطع القومندان الآتي من باريس، الحامل لشهادات عالية من معاهد وكليات باريس المدنية والعسكرية أن يستجر السلحفاة من قوقعتها.. كانت شمس قد كزت على شفتها السفلى توجساً من شر قادم، وخوفاً من معركة ضارية تلوح نذرها في الأفق، لكن القومندان الأشقر الرشيق المائل للطول لم يأت شراً ولم يفرض معركة... العكس كان الصحيح، فقد أكد لها أنه لا يكن لها إلا كل احترام، فهي أولاً وأخيراً امرأة تؤمن باستقلال وطنها وحرية، تكافح من أجل استقلاله وحرية. فتحت عينيها إذ ذلك استغراباً لكنه أزال كل استغراب حين شرح لها أن التحقيق ليس مهمته، لكنه لكي يساعد النساء اللواتي زججن في السجن، طلب أن يحقق بنفسه معهن، وأنه لا يريد إلا التخفيف عنهن ومساعدتهن، بل هو سيطلب إخلاء سبيلهن.. "مكره أنت لا بطل"، خاطبته في سرها حينذاك، فدمشق كما أخبرها الحارس الطيب كانت مضرية إضراباً كاملاً، وفي رأس مطالبها لفك الإضراب إخلاء سبيل النسوة المعتقلات.. لكن القومندان عاد فأكد لها أن الإضراب عمل وطني هام وأنه هو نفسه مع كل عمل وطني بل هو ضد المندوب السامي وتصرفاته، هو الذي يرفض حبس النساء وقمع الحريات، ويبدل ما في وسعه لإطلاق سراحهن، كلام جميل لم تستطع شمس معه إلا أن تغفر فاها دهشة. لكن حين جاء الأمر بإطلاق سراحها، دهشت أكثر إذ أشرف القومندان بنفسه على إخراجها من السجن وإرسالها معززة مكرمة إلى منزلها، طالباً إليها فقط أن تسمح له بزيارتها، ولم تستطع شمس أن ترفض... مرتين متباعدتين زارها بعد ذلك تعرف فيهما إلى زوجها، حدثهما عن نفسه، سألهما عن نفسيهما طلب إليهما أن يزوراه، لكنهما لم يفعلوا، فلم يزورهما مرة ثالثة؟

-مرحباً بك، سيادة القومندان.. رحبت به شمس وليس في ذهنها سوى ذلك السؤال.

-مرحباً بك... مدام.. شمس.. رد القومندان بلكنته الأجنبية التي سرعان ما  
ذكرتها بالكابيتان جيران... فكرت، من لا يأتي معك تعال معه... وكادت شمس  
تضحك من العين التي استعصت على القومندان فخرجت همزة.. لكن فكرة أخرى  
كتمت ضحكتها لينطق لسانها دون سابق تصميم:  
-أرأيت؟ العين تلفظها همزة... والحاء هاء...  
-وماذا أفعل.. أحاول لكن.. لا... أستطيع...  
-كي تعلم أن العربية تستعصي على كل أجنبي فكيف تريدوننا أن نسلم لكم  
قيادنا؟

-ومن قال لكم أسلموا قيادكم؟

-حقاً؟ أنت لا تريد ذلك...؟

-أبداً... بل لا يعجبني فيكم أنتم العرب سوى هذا الإيذاء، عزة النفس...  
"ايه يا عزة النفس!! يا للإيذاء!! هل ترك الدهر لنا شيئاً منهما!!؟ مئات السنين  
من القهر، الاستعمار، الظلم، الطغيان.. هل أبقيت شيئاً من الإيذاء وعزة النفس  
للعرب؟" شردت شمس مع أفكارها حزينة متفكرة فيما كان الكولونيل يتحدث عن  
إيمانه بأن العرب أمة عريقة بنت حضارة وتستحق أن تفتح لها أبواب الحضارة...  
شعب من الأحرار، يستحق أن يعطى كل أسباب الحرية.

-تدري؟ أنا لا أصدق أذني؟ قالت شمس ساحبة نفسها من شرودها سحياً  
وقد أثارها أن يتكلم الرجل عن الأمة العريقة والشعب الحر...

-لا.. صدقي... مدام.. أنا مذ كنت في السويداء، كنت مع الشعب ضد  
الكابيتان كاريبيه... رد القومندان بلكنته الأجنبية المكسرة وعينه التي تخرج همزة،  
بل أقول لك شيئاً.. حين وقعت حادثة القطة..

-وما حادثة القطة؟ من هو كاريبيه؟ قاطعته شمس بفضول شديد هي التي  
لم تسمع بمثل تلك الحادثة...

-الكابيتان كاريبيه كان الحاكم العسكري لجبل العرب وكنت أنا معاونه. كان  
الرجل متسلطاً مغروراً لديه ما يشبه جنون العظمة وأنا أكره التسلط والغرور فكيف  
بجنون العظمة..؟ سنين وهو يمارس على الناس ممارسات كريهة يرفضها العقل:  
يضرب، يقتل، يسجن، يفعل ما يشاء دون أن يحسب حساباً لوجدان أو أخلاق...  
ذات مرة ضاعت قطته فماذا فعل؟

-ماذا؟ ردت شمس السؤال بسؤال آخر.

فتش بيوت السويداء بيتاً بيتاً ثم فرض حظر التجول على المدينة كلها إلى أن يأتي أهلها بالقطعة وحين لم يأتوا بها، حبس مختارها، اعتقل عشرين من وجهائها وألزم السويداء بدفع خمس وعشرين ليرة ذهبية.

-يا له من جبار طاغية؟! لم تملك شمس نفسها فهتفت وهي تتصور المعاناة التي يمكن لحاكم ظالم أن ينزلها بالشعب!!

-لهذا وقفت في وجهه، حاولت دائماً الحد من ظلمه... وحين سافر في إجازة إلى باريس حرصت الناس على التظاهر ضده مطالبين بعدم إعادته!!

-أنت؟!

-بالطبع.. وتلك هي المظاهرات التي مهدت للثورة!! بل كانت الشرارة التي أشعلت الثورة..

-غريب!! أنت رجل غريب صدقني، وأنا أستغرب ما أسمع!!

-لا.. مدام.. لا تستغري أم أنت تحسبين أن كل من في فرنسا يحب الاستعمار؟ ظلم الناس؟ قتل الناس؟

-هذا ما أحسب...

-خطأ مدام.. هناك في فرنسا أناس يكرهون الاستعمار مثلكم.. أناس يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية نفسها، حرية، عدالة، مساواة... وبالتالي هم يؤمنون بالمساواة بين الشعوب، بحرية الشعوب، بحقها في الاستقلال..

-كم يسعدني أن أسمع ذلك.. قومندان!! قالت شمس وهي تتفحصه مدققة النظر، كأنما تريد أن تتغلغل إلى أعماقه فتأكد أنه صادق أم كاذب؟ في نفسه غاية أم لا؟

-وكم يسعدني أن تصدقي ذلك فتعامليني على أساسه!! مرة أو مرتين فتحت شمس فمها لتقول له "ذات مرة صدقت كايبتاناً" قبلك فعاملته معاملة النذ للند والصديق للصديق لكن تبين بعد ذلك أنه مجرد ذئب يريد نهشي"، ومرة أو مرتين عادت فأغلقت فمها وهي ترتعد خوفاً من أن تتبش قصة قديمة من قبر لن تخرج منه إلا أنتن الروائح.

-أ.. أ.. نا.. أ.. صدق.. أفلحت أخيراً في النطق وهي تتلعثم وتتأتى، فتبسم القومندان وكأنه يعرف أسباب التلعثم والتأتأة.

-أنا أدري أن من الصعب عليك تصديقي، قال بحذر وتمهل، لكن كوني

على يقين أنني معكم، مع نضالكم من أجل الحرية، ولهذا السبب أعجبت بكن وأنتن في السجن.. ولهذا السبب طلبت أن نوطد التعارف أكثر، أن نصبح أصدقاء أكثر...

وعادت صورة الكابيتان جيرار من جديد.. صديقاً يأكل مناسف الأرز والفريكة في بيتها وحين تلوح له الفرصة يغرز أنيابه ومخالبه في لحمها..  
-يشرفنا.. قومندان.. ردت بتلعثمها السابق وتأتأتها، يشرفنا أنا وزوجي أن تكون صديقاً لنا!!

-صحيح.. أين عزو؟ سأل وهو يتلفت حوله كأنما يبحث عنه.  
-للأسف.. كومندان.. عزو في حوران.. هو كما تعلم يتاجر بالحبوب وهذا موسم الحبوب..

-آ.. صحيح.. مدام.. وهو تاجر ناجح.. مثلما كان في الماضي عسكري..  
ناجح... قال بتردد ونبرة من سرية أرفقها بابتسامة ونظرة ذات مغزى.  
ولتو أحست شمس بشيء في داخلها يتقلص وينكمش.. بركة مائها الساكنة تضطرب وقد سقط فيها أول حجر.

-ع.. ع.. سكري.. ناجح؟! رددت متسائلة.. ما.. ماذا تقول؟

-تدرين، مدام؟ مذ رأيتك هناك في مكتبي أثرت في نفسي الكثير من الفضول وفي ذهني الكثير من التساؤلات.. قلت في سري يجب أن أعرفك أكثر..  
أعرفك عن قرب.. أنت ورجلك وأهلك.. وعرفت.. قال بعد توقف وبنبرة الواثق من نفسه المتيقن من كل حرف ينطق به.

-وماذا عرفت؟ سألت شمس وهي تتصنع الشجاعة، فقد كانت في داخلها ترتعد ارتعاده فأرة فوجئت بقط. وكيف؟ وممن؟ تابعت تساؤلها وكلها إحساس أن القومندان رجل خطير وأن وراء زيارته أهدافاً أكثر خطورة.

-لا، لا يهم ما عرفت، وكيف أو ممن؟.. المهم عرفت شيئاً مما أريد وربما سأعرف الباقي... سأعرف كل ما أريد.. قال بعد أن تفحصها لحظة من الزمن وهو يؤكد كل كلمة من كلماته...

واشدت الارتعاده في داخلها.. نظرتة كانت تعني الكثير.. "يا إلهي!! ماذا إن عرف أنني قاتلة جيرار؟! إذن سيعدمونني!! الفرنسي لا يسامح.. أقتل ضابطاً من ضباطه، إذن لن أفلت من عقابه!! وما العقاب؟ المقصلة؟ يا إلهي!! الموت بالمقصلة فظيع!! لا.. لا أريد الموت بالمقصلة!!".

- ما.. ماذا مدام؟ أيزعجك حديثي؟ قال وهو يبتسم ابتسامة سكب فيها كل ما تعلمه في باريس من لطف ورقة تعامل بهما النساء.

-تفضل.. سيدي القومندان.. قهوتك، قالت وهي تسرع إلى وضحة، تأخذ منها صينية القهوة وتقدمها له، متجاهلة سؤاله.

-ميرسي.. مدام.. قال القومندان وهو يقف ملء طوله، وبكل أدب يأخذ فنجان القهوة.. محاولاً هو الآخر أن يتجاهل سؤاله.

"آه!! ليته هنا!! عزيز يمكنه أن يوفر علي التجربة!! يريحني من الجلوس معه وحيدين.. عيناه تتغلغلان عبر مسامي!! تبحثان عن ماضي!! عن أسراري!! أترأه يريد ابتزازي؟ يعرف الحقيقة ثم يطلب ثمن السكوت عنها!! يا إلهي!! أين عزيز؟ في المرتين الماضيتين لم أشعر بالخوف منه!! كان هنا عزيز، درعاً تقيني!! أما الآن.. فأنا دريئة مكشوفة.. معرضة لكل ما في جعبته من سهام.."

-أنت تشردين كثيراً مدام!! هل هناك ما يشغلك؟ قال بنبرة خاصة وهو يرشف أول رشفة من قهوته.

-لا.. لا.. فقط.. مشاغل الزوجة وقد غاب عنها زوجها، الأم وقد بدأ يتعد عنها أبناؤها.

-بالمناسبة.. مبروك زواج نواف!!

-كيف عرفت؟ من قال لك؟ سألته وقد زاد خوفها، فالكومندان يعلم عنها أكثر مما تتصور.

-أهو سر، مدام؟

-لا.. لا.. نواف تزوج جهازاً نهاراً... عرسه كعرس ابن السلطان..

-عظيم!! وقد وصلتنا أخبار عرسه!! عرس ابن السلطان!!

"إذن هو يلاحقني؟ راحت تتساعل وهي تستمع إليه يحدثها عما سمع من أنباء العرس ناظرة إليه بمزيج من تعجب ودهشة". جيران آخر؟ يريد أن يدخل عالمي؟ يعرف أسراري؟ يا إلهي!! أية مصيبة!! لكن توقفه المفاجئ عن الحديث جعلها تسارع إلى كسر الصمت.

-كان عرساً رائعاً لبيتك شرفتنا بحضوره.. سبعة أيام بسبع ليال لا أحد يأكل أو يشرب إلا من عرس نواف.. عندكم هناك، قالت وهي تشير بيدها إلى البعيد، لم تعودوا تقيمون مثل هذه الأعراس؟..

-عندنا.. هناك.. رد مبتسماً يشير الإشارة نفسها، لم يعد أحد يؤمن بمثل هذه العادات!! أعراس!! أياماً وليالي لماذا؟ الفتى عندنا يضع يده بيد الفتاة ويذهبان إلى الكنيسة أو السجل المدني، يسجلان زواجهما وينتهي الأمر...  
"هو ذا الفرق بيننا، شرق وغرب..". كادت تقول له كما قالت ذات يوم للكابيتان جيرار "والشرق والغرب لا يلتقيان".

-أليس هذا أسهل، أكثر راحة، تابع القومندان حديثه دون أن يعير شرودها انتباهاً.

-بالتأكيد.. أسهل.. وأكثر راحة.. لكن أعود فأسألك: كيف؟ من أين عرفت؟  
-لا.. مدام.. أنت أذكى من أن تسألني سؤالاً كهذا..  
"أذكى؟! ليتني كنت كذلك". بدأت تفكيرها الصامت لكنها لم تكمل فقد لاح في ساحة الدار ابنها الأخضر وهو يتجه إلى الغرفة الأخرى..

-الأخضر!! يا لأخضر!! هبت مسرعة إلى الباب وهي تناديه وقد شعرت أن باباً للفرج قد فتح لها.. هي لا تريد أن تجلس وحيدة مع القومندان. لم تعد تحب الجلوس وحيدة مع الرجال..

-مساء الخير، قال الأخضر وهو يدخل فرحاً ببناء أمه، لكن سرعان ما تسمر في مكانه وهو يرى القومندان.

-ابني الأخضر.. أريد أن أعرفك إليه سيادة القومندان.

-بون سوار.. مسيو أخضر!! أنت طالب المدرسة؟! قال بكثير من العفوية والتبسط وهو يمد يده للفتى النسخة طبق الأصل عن عزيز.. بطوله الفارع وبنيته المتينة وعينييه السوداوين بنظراتهما الحادة كنظرات الصقر..

-بون سوار، مون قومندان!! رد ابن الثامنة عشرة وقد استعاد رباطة جأشه ماداً يده مصافحاً..

-بيان، تري بيان!! أنت تتكلم الفرنسية!؟

-مي.. وي... مون قومندان.. أنا تقدمت لامتحان البكالوريا هذا العام..

-حقاً؟ أنت فتى ذكي إذن!؟

-دائماً الأول في صفه.. تدخلت الأم وفي ذهنها أن تغير الجو كله وتزهو بابنها البارع المتفوق على أقرانه دائماً..

-إذن.. يجب أن تدرس في الجامعة!! تتابع دراستك بعد البكالوريا!!

-أكيد!! قال الفتى فتابعت الأم:

-سيدرس الطب.

-الطب!! لكن.. أين؟ سأل القومندان بشيء غير قليل من الدهشة.

-هذا ما لم نعرفه بعد.. قالت الأم فاكتفى القومندان بهز رأسه وكأنما كان يفكر، أخيراً قال وهو يربت كتف الفتى:

-إن كنت جاداً في دراسة الطب.. أخبرني.. ربما أستطيع مساعدتك!!! ثم نهض مودعاً الأم وابنها قبل أن يتاح لهما أن يسألاه كيف...

الأخضر، مذ دخل المدرسة، لم يكن يتصور نفسه إلا طبيباً يلبس المريلة البيضاء، ويضع السماعة على أذنيه، يمر بيده على المجنوم فيشفى وعلى الكسيح فيقوم، وكان ذلك الحلم يحضه على أن يبرز في صفه... "السرنيكا" نالها بتفوق، "البروفيه" حاز عليها بامتياز و"البكالوريا" قدمها قبل أسبوعين وكله أمل أن يكون المتفوق كعادته... في الصيف. هو يعمل مع أبيه، يساعده في تجارة الحبوب، يبيع، يشتري، لكنه في الشتاء طالب وحسب. لا يذهب، لا يأتي، همه الدرس والتحصيل، يسهر حتى مطلع الفجر، يفيق باكراً ولا يعرف غير درسه ومدرسته...

شمس تحب الأخضر كثيراً، تعجب بدأبه ومثابرتة، بفهمه ومعرفته... مذ هربوا من حماة إلى القرية والبادية كانت تبدو عليه مخايل الذكاء. جده، علي المر، وضعه عند الشيخ الخطيب يحفظ القرآن، ويعلمه الكتابة والهندي... عند الخطيب برز الأخضر شديد الذكاء، سريع الحافظة.. رفاقه كانوا ما يزالون في جزء "عم يتساءلون" عندما كان هو يقفز قفزات أرنب حافظاً السور القرآنية واحدة تلو الأخرى مرتلاً آياتها بفصاحة الخطيب نفسه... وحين حفظ سورة البقرة أقام له الجد الفخور بحفيده حفلاً لم تشهد أم العيون له مثيلاً... أولاد القرية كلهم تجمعوا في دار الخطيب.. وضع الشيخ المصحف على رأس التلميذ النجيب الذي ختم المصحف بستة أشهر، ربط يديه كلتيهما فوق المصحف ثم جاءت الصبايا بدفوف يدقن عليها ويغنين. مر الموكب بأزقة القرية كلها، وكلما مر بباب خرج أهل الدار يرشونه بالزهور والأرز، بالملبس والساكر، فيفرح الأولاد ويزدادون هزجاً ووثباً والفتيات دقاً للدفوف وغناء، منحنين جميعاً على الأرض يلتقطون الملبس والساكر. وحده الأخضر لم يكن يستطيع التقاط شيء، فيداه مثبتتان فوق رأسه والمصحف تحتها يفرض عليه أن يظل الوقور المهيب الذي لا يرف له جفن. في ساحة القرية توقف الموكب، فك الخطيب وثاق الصبي الصغير ثم قدم

له ورقة، فانطلق خطيباً في أهل القرية، يتحدث عن فضائل العلم والمعرفة، عن الفوارق بين العالم والجاهل فيما أهل القرية كلهم إعجاب بالصبي الذي مازال يلبغ... لسانه رغم قدرته على القراءة، لم يستقم بعد.. أحرف عدة لا تخرج منه سليمة تماماً... مع ذلك لم يثر ضحكهم بل إعجابهم... جده علي المر صفق له بحرارة وحماسة. أهل القرية كلهم صفقوا له بحرارة وحماسة، وحين انتهى احتضنوه جميعاً، بالدور احتضنوه، مقبلين لاثمين بل بعضهم رفعه بين يديه ثم قذفه إلى الأعلى كرة تطير في السماء...

سنتين بعد ذلك ظلوا في القرية، وسنتين ظل الأخضر عند الخطيب يقرأ ويكتب، يتعلم الهندي والخط حتى صار خطه يضاهي خط الخطيب نفسه جودة وإتقاناً. مقدرته على الجمع والطرح، الضرب والتقسيم لا تفوقها قدرة.. لكن ذلك كان السقف، ففي القرية لم تكن ثمة مدرسة، لا صفوف ولا شهادات... لهذا ما إن جاء عزيز ينقلهم إلى دمشق حتى كانت فرحة الأخضر لا تضاهيها فرحة في دمشق مدارس وبإحدى تلك المدارس التحق الأخضر يشق طريقه بسرعة النيزك.

ألهذا السبب كانت تحبه شمس؟ قلبها متعلق به تعلق العشق والهيام؟ لا... لا.. أبوه يقول: "ثمة سبب آخر"، ماهو؟ "تسأله فيجيب ضاحكاً" أليس هو نسخة عني أنا الحبيب الأول؟ "صحيح. شمس تعلم أن الأخضر نسخة عن عزيز وأن الحب للحبيب الأول فقط.. مهما نقل المرء فواده.

شأنه شأن المنازل، مهما غير فيها وبدل... حنينه يظل لأول منزل. كما يقول أبو تمام: شمس ترعى الأخضر، تحنو عليه كما لا ترعى أحداً أو تحنو.. طعامه خاص، تود دائماً أن تطعمه بيدها، تسقيه بيدها..

... تشفق عليه وهي تراه منكباً على كتبه، يقرأ، يدون، يستذكر، ... في بعض الليالي يسهر حتى تصيح الديكة ويرتفع الأذان في المآذن فتسرع إليه "وليدي... أشفق على نفسك... نم قليلاً.. خذ قسطاً من الراحة". وكالطفل الصغير تغمره بحنانها وقبلها ثم تطفئ النور لينام...

في قرارة نفسها، كانت أحياناً تكره جده الشديد ودأبه المتواصل.. تريده أن يرتاح، أن يرى نفسه، يعيش حياته.. هي ترى بنات الحارة يحمن حوله، سرب قطا حول غدير: روضة، فريدة، ميسر، حنان... كلهن يأتين لزيارة العمه شمس.. زيارة بدور.. بهذه الحجة أو تلك يأتين وهي على يقين أنهن لا يأتين إلا لرؤية الأخضر، لاستراق نظرة منه، لاختلاس كلمة، لكنه دائماً يخيب أمهين. روضة تحاول لفت نظره: تحية من هنا، سؤال من هناك وترغمه على رد التحية والإجابة

على السؤال، بل هي يوم استقبال الدكتور الشهبندر، استطاعت أن تحشر نفسها بجانبه وتتبادل معه بعض العبارات.. روضة تحبه، شمس ترى ذلك في عينيها، في تلميحات أمها، في كلامها عنه وعنهما... لكن ماذا عنه، هو المشغول أبداً، المنكب على كتبه دائماً؟

حين جاء نواف يقول لأمه "مدي لي فراش العنكبوت لأحط رأسي وأموت" كان احتجاج الأب المداعب أن الزواج من حق الابن البكر.. فكيف يتعدى عليه ويأخذ دوره نواف؟ لكن الابن البكر تنازل راضياً عن دوره وبارك لأخيه الزواج. الابن البكر همه الوحيد أن يتعلم. أن يصبح طبيباً...

حين خرج الأخضر من امتحان البكالوريا.. كان على ثقة أنه سينجح بتفوق، لكن كيف سيحقق حلمه الكبير؟ أين يدرس الطب؟ ذلك كان شاغله فكيف لا يفرح وقد وعده القومندان بالمساعدة؟

-حقاً، أمي.. أيساعدني القومندان؟ أظنينه صادقاً؟ راح يسأل أمه المرة تلو المرة قلقاً وتلهفاً.. ومرة تلو المرة كانت الأم تهز رأسها حيث أشياء أخرى كان قد أثارها القومندان.

-لا أدري... ربما والدك يملك الجواب.. انتظر إلى أن يعود أبوك.. كانت تجيبه كلما سألها..

لكن الأب لا يعود.. هو منذ عشرين يوماً ونيف في الجنوب، يشتري الحنطة والشعير.. يحملها على ظهور الجمال قوافل قوافل.. تأتي إلى مستودع الميدان، تفرغ حمولتها وتعود، وهو هناك متربص مقيم. الأخضر يسألهم عنه فيجيبون "الموسم خفيف هذا العام.. وأبوك لا يريد أن ينعكس ذلك عليه.. هو يتحرك هنا... هناك كي يسبق الآخرين، يدفع سلفاً للفلاحين فلا يبيعون للآخرين".

قبل أن يطلع الموسم، كان الشريكان قد تنبها للأمر. "السنة محل، والغلال ستكون ضئيلة وعلينا أن نؤمن حاجتنا مسبقاً" وأعجب عزيز بالفكرة فتحرك في الحال إلى أبي دحدل وأبي شدهان.. شرقي حوران، غريبه يمد يد العون لهذا الفلاح المحتاج أو ذاك المعتاز، ويدفع سلفاً ثمن غلالهم. "السلف" طريقة في البيع يعرفها الفلاح ويضطر لممارستها على الدوام. فهو الفقير دائماً، الذي يجد نفسه رهن العوز والحاجة دائماً لا يملك إلا أن يبيع غلاله قبل جنيها.. الشعير يكون ما يزال زرعاً أخضر في الأرض، الحنطة لم تسيل بعد، مع ذلك يبيعها صاحبها مراناً على أنها ستعطي سنابل في كل سنبله مائة حبة.. بثلاثي الثمن يبيعها الفلاح أحياناً وبنصفه أحياناً أخرى، التجار يستغلون حاجته فيفرضون عليه

السعر الذي يشاؤون لكن عزيزاً لا يفعل ذلك... صبري نفسه لا يوافق على استغلالهم، "تعطيهم الآن ثم نحاسبهم بسعر الموسم" كان يقول لعزيز وكان عزيز يمضي بوجدان راض وضمير مرتاح إلى أصحابه في حوران يقدم لهم السلفة وينتظر الموسم تاجراً أثيراً وصديقاً صدوقاً.

في الخربة، الطيبة، أم الميادن، نوى، داعل، كان الصديق الصدوق يجد أصحابه وقد هيووا له غلالهم، وكان يعبئ العدول لتحملها الجمال إلى الشام.. قافلته نفسها، جماله ذاتها، جمالوه ذاتهم يعملون معه كل عام، فعزيز لا يتخلى عن عمله معه. وحده عواد لم يستطع العمل هذا الموسم.. فالفتى الطويل النحيل كان يقدم البكالوريا.. لكن سوء حظه، أو ربما شدة فقره جعلته يقع صريع المرض.. أهى سوء التغذية؟ فقر الدم؟

عواد لا يدري.. ما يدره هو أنه قدم ثلاث مواد وكل شيء على ما يرام، لكن ما إن جاءت المادة الرابعة حتى أحس بدوار في رأسه ثم خلل في توازنه... أفاق بعده فإذا هو في الغرفة الطينية البائسة التي استأجرها في درعا كي يقدم امتحانه...

أسبوعاً كاملاً ظل عواد طريح الفراش.. صريع الحمى...  
وزائرتي كأن بها حياء... فليس تزور إلا في الظلام.

هو في النهار واهن ضعيف، ناعس يغالب النوم، بارد الجسم بارد الأطراف لكن ما أن يجيء الليل حتى تأتي الحمى لاهية تتج أجاً فيئج معها جسمه أجاً...  
"يضيق الجلد عن نفسي وعنهما... فتوسعه بأنواع السقام"

وهكذا ظلت، تغيب في النهار لتعود في الليل.. سبعة أيام بسبع ليالٍ، ثم ما أن ولت حتى كان امتحان البكالوريا نفسه قد ولى. لكن نظام الامتحانات الفرنسي رحيم... لعلهم هناك في فرنسا كانوا يعلمون مسبقاً أن عواد بن عايد العوايدة سيمرض في الامتحان ويتعذر عليه إكماله.. فخرجوا بفكرة "الإكمال". يرسب الطالب بمادتين أو ثلاث في فحص الصيف فيقدمها في فحص الخريف. فكرة جميلة أحس بها عواد، كأنما هي المن والسلوى نزلت على قلبه وآلى على نفسه أن يتفرغ للدرس لا يعمل في نقل الحنطة أو الشعير، جمالاً أو عتالاً إلى أن يؤمن نجاحه.

عزيز زاره أكثر من مرة في منزله، ربت كتفه مباركاً، حاشراً بعض النقود في جيبه صديقاً مساعداً يشفق أكثر ما يشفق على الفتى المكافح الذي توفي أبوه وهو

ما يزال في اللفائف فأبّت أمه إلا أن تنشئه خير تنشئة حتى لو كدحت ليل نهار،  
تفّح أرضها وتزرعها كالرجال، تحصد وترجد كالرجال لتثبت كل يوم أنها أخت  
الرجال.

عزيز فرح بقراره، بتفرغه للدراسة، هو يريد له النجاح كما يريد للأخضر...  
"لكن المسكين حظه عاثر!!" كانت أمه لا تنفك تردد" لم تأت الحمى إلا يوم  
الفحص، "وكان عزيز حزينا على حظه العاثر، كما كان يفقده، مثلما يفقد  
البطحيش...

البطحيش يفقده أهل درعا، حوران، بل الحاكم الفرنسي، قائد الجندرية،  
الجندرية أنفسهم يفقدونه... فالمنطقة مذ غاب، قبل عشرة أشهر ونيف، لم تسمع  
بغارة مفاجئة على مخفر، لم تشهد قتل ضابط أو إطلاق نار أو تفجير قنبلة،  
وكانما في الأرض السلام وفي الناس المحبة... بعضهم قال انها المعاهدة أتت  
أكلها، اقتنع الناس بها وقبلوا بنودها.. بعضهم الآخر كان يؤكد أنه هدوء الانتظار  
والتريص... يرقب الناس سلوك الفرنسي أهو جاد حقاً في إعطاء البلد استقلاله  
أم هو ثعلب مراوغ؟" ويانتظار الجواب كانت قد توقفت العمليات... لكن القلة  
منهم كانت تعرف الحقيقة... عزيز من هذه القلة، هو الذي بات يداً وحيدة.. واليد  
الوحيدة لا تصفق، يده الثانية البطحيش والبطحيش كان قد ذهب إلى فلسطين.

كان العرب يسمعون من هناك نداء الاستغاثة وكان بعضهم يلبي، فيما  
بعضهم يصم الأذان... من جبلة انطلق شيخ أسمر البشرة أبيض اللحية، أسود  
الجبّة ومعه كوكبة من فرسان مدججين بالبنادق والرصاص.. اتخذ من يافا موقعاً  
له، جمع حوله الرجال، شيباً وشباناً وكلهم يشتعلون حماساً للوقوف في وجه  
يأجوج ومأجوج ذلك الذي جاء من الغرب ولم يجيء من الشرق... جند صفر  
الوجوه، سود القلوب كانوا يتحركون مع يأجوج ومأجوج، يلتهمون الأرض، يلتهمون  
البيارات، يلتهمون الثروات... سماسرة يغرون ويبيتزون، نساء يغرين ويغوين،  
عصابات تهدد وتقتل ولا يملك رجال فلسطين إلا أن يخضعوا للتهديد والابتزاز،  
للإغراء والإغواء. شيخ جبلة، أسمر البشرة، أبيض اللحية، أسود الجبّة، حث  
الرجال، شحذ الهمم، شحذ معاولهم، يريدهم أن يبنوا سداً في وجه يأجوج  
ومأجوج... فأرغى الريح الأصفر وأزيد "لا أحد يقف في وجهي... أنا الريح  
الأصفر أمر على الأخضر فييبس، اليباس فيحترق.. أنا الطوفان يكتسح أمامه  
كل شيء.."

في قلب ذلك السد كان البطحيش، صخرة صوان لا يحتها سيل ولا يخرقها

رصاص.. أشهراً ظل يقاتل.. عصابات، إرهابيين، شتيرن، أراغون... يهوداً، انكليزاً، كلهم أعداء كانوا وكان البطحيش يعرف كيف يقاتل الأعداء.

في الليل يمكن أن تمر دورية جند فيرسل لها قنابله حجارة من سجيل تجعلها كعصف مأكول... في النهار يقنص.. بندقيته ألمانية حديثة، يده ثابتة لا تهتز.. وتل أبيب جارة يافا، تمر عصابة فيصوب إلى الرأس ويجندل الرأس، حواجز طائرة يرفعها في وجه المعتدين فيصفي المعتدين.. السماسرة يهاجمهم، تجار الأرض يباغتهم، عاهرات يهودا يرعبهن فالمعركة معركة حياة أو موت ولا رحمة لمن يهددك بالموت....

المعركة واضحة، الأهداف واضحة والشيخ أسمر الوجه أبيض اللحية أسود الجبة يحددها بدقة: طرد يأجوج ومأجوج، منع الجراد من أن يغرز في التراب... يبيض ويفقس في الأرض.. المؤامرة كبيرة، هو يعلم ذلك، ويحدث رجاله بذلك... لكنه يقول بكل ثقة وإيمان "لا يموت حق وراءه مطالب.. فكيف إذا كان وراءه مقاتل؟" وكان الرجال كلهم يتحولون إلى مقاتلين... بل لقد رأى البطحيش، بأمر عينه، النساء يتحولن إلى مقاتلات... نساء يافا، حيفا، القدس.. كن يقفن جنباً إلى جنب مع الرجال، يزودنهم بالطعام، يحملن الذخيرة، يضممن جراحهم، ويزغردن.. يهتفن ويزغردن كلما حقق رجالهن نصراً...

"لن ندعمهم يغتصبون أرضنا"، كانت النسوة يرددن وراء الشيخ أبيض اللحية، "نروي ترابنا بدمنا ولا نفرط بذرة منه". وحين بدأ الجند صفر الوجوه أتباع يأجوج ومأجوج بالتساقط، دبر بعضهم مكيدة "ترسل لجنة"، "فيك الخصام وأنت الخصم والحكم"، رد الشيخ أبيض اللحية.. "لا.. اللورد ببيل رجل نزيه محايد"، وضحك الشيخ المهيب "لو يد جورج يفاوض لو يد جورج، هكذا قال سعد زغلول ذات يوم" وتابع الشيخ القتال... يده تقترب من رأس الأفعى، تشد على العنق، تكاد الأفعى تلفظ الأنفاس.. لكنها تفح صارخة، تستيغث، فيشدد رجال ببيل النكير على الشيخ، يضربونه بقوة على اليد التي تشد على عنق الأفعى... وببيل يلوح برباية المهادنة والصلح "تقسيم البلاد إلى ثلاثة أقسام" قسم ليأجوج ومأجوج وقسم لكم وقسم يظل تحت حمايتنا.. وتتعالى الصرخات من جديد رفضاً لحل أشبه بالكارثة... واحتجاجاً على مكيدة تكاد تتفد.. رأس الأفعى يفح فرحاً وقد اقتنص الاعتراف الأول بدولة يأجوج...

"ترفضون اقتراحنا؟! تعصون أوامرنا؟ خذوا إذن"، عريد زبانية بلفور، الرجل الذي أعطى مالا يملك.. فانهمرت عريدتهم على الراضين رصاصاً وقنابل راحت

تمزقهم إرباً إرباً.. إحدى تلك الرصاصات أصابت عظم الفخذ من البطحيش فألقته أرضاً يروي دمه التراب...

أحد رفاقه حمله نازفاً حتى الثمالة، وضع له الأعشاب التي تقطع النزيف، سقاه الدواء الذي يحفظ اللحم ما بين الروح والجسد فأبّت روحه أن تفارق جسده...

بعدئذ، نقل إلى أقرب قرية، أسعفه المجبر، عالجه الحكيم العربي وهناك ظل شهوراً طريح الفراش... ثم ما إن بات باستطاعته أن يسير على رجليه حتى كان كل شيء قد انتهى: السود كلها انهارت، وبأجوج ومأجوج يعيثان فساداً في فلسطين.

-البطحيش يريدك، همس فتى يافع في أذنه دون أن يعلم كيف، أو من أين جاء.

-وهل عاد؟ صرخ صرخة فرح كادت تفشي السر. فعلى البيدر، حوله، كان بضعة رجال وفتيان.. وكانت القافلة على أهبة الاستعداد محملة بالحنطة والشعير... الليلة صيفية قمرء، بدرها يحتضن أشعة الشمس فينسكب فضة على الأرض ويشع ألماً ساحراً للأبصار آخذاً بالألباب.

-أجل... هو حيث تلتقيان عادة... قال الفتى ثم أسرع بالانسحاب. كان عزيز يريد مرافقة القافلة، فقد انتهى الموسم وأخذ عزيز ما يريد من حبوب.. لكنه البطحيش... الرفيق الغائب فكيف لا يطير إليه؟..

الكرك حي متشابك البيوت، ضيق الأزقة، متصل الأسطح، حتى ليشكل كتلة واحدة في وجهك يذكرك بقلعة الكرك ذاتها، تلك التي ظلت تتوسط الفيافي قروناً وقروناً مشرفة من عل، شامخة أبيّة، لا يجروء أحد على الاقتراب منها.. في عمق الأعماق من تلك القلعة وفي أبعد زاوية من أحشائها كان البطحيش يتمدد على حصيرة عتيقة، عكازه إلى جانبه، فالفخذ لم يعد كما كان.. والرحلة مضنية من القرية المطلّة على البحر إلى هضاب العدو، من جبال السامرة إلى وادي الأردن.. بحيرة طبريا عبرها بزورق صياد، اصطاد له سمك المشط ثم شواه على رمل الشاطئ الشرقي.. "آه يا لطبرية الرائعة!! يا لمياها الدافئة!!! يا لسمكها الشهي اللذيذ!!" كان البطحيش يسري في الليل ويسير في النهار.. قبل طبريا كان الإنكليز، حماة اليهود وصنائعهم، وبعد طبريا كان الفرنسيون وحلفاء الإنكليز وأنصارهم... فكيف يظهر البطحيش؟ هو يعلم أن الفرنسيين يترصده. غيابه تلك الفترة لا يعني نسيانهم له... هم أرباب الحقد والانتقام، أينسون حقدهم عليه

وحبهم للانتقام منه؟ مع وادي اليرموك سار.. أتان صبور حملته على أوعر الطرق واجتازت أضيق المسالك... وتحت جناح الظلام، حين يتحول الكرك إلى بعب يخيف الفرنسي فلا يقربه جند ولا درك، تسلل البطحيش إلى عمق الأعماق ذلك، إلى عش النسر تلك الزاوية القصية من أحشاء الكرك...

عزيز يعرف مسالك الكرك، يعرف دورب عش النسر. جاءت الهمة فأمر القافلة بالمسير ومثلما انسل البطحيش انسللاً فعل عزيز ذلك إلى أن وصل إلى العش. بالأحضان استقبله البطحيش، وبالقبل أغرقه عزيز.

-حمداً لله على سلامتكم!! أي فراغ تركت!! أي خوف عليك خفت!! وانساباً جنباً إلى جنب نهريين من شوق. صاحت ديكة الليل وسكتت شهرزاد عن كلامها المباح ولم تصح ديكتها ولا سكتا عن الكلام، مباحاً وغير مباح.

كان عزيز يشتعل قلقاً لمعرفة ما جرى وما يجري على أرض فلسطين... الغموض يلف كل شيء... لكن البطحيش بات قادراً على كشف ذلك الغموض: الانتداب البريطاني على فلسطين جاء لغاية واحدة: تقديم فلسطين على طبق من فضة لأبناء يعقوب... بريطانيا وضعت خطاً سرياً محكمة وحكامها اليهود ينفذون تلك الخطة: اضطهاد اليهود في أوروبا.. طرد هتلر لهم من ألمانيا إنما كله لهدف وحيد: دفعهم للهجرة إلى فلسطين... ولكي يحققوا ذلك ببسر وسهولة يزرعون في أذهانهم أن الرب يهوه يفتح لهم الباب على مصراعيه لتحقيق حلمهم بالعودة إلى أرض الميعاد... أليسوا شعباً بلا أرض؟ إذن ليذهبوا إلى أرض بلا شعب...

-لكن، ثمة أناس في فلسطين، فأين يذهبون؟ سأله عزيز وهو يتنهد حسرة.  
-في نظرهم، هؤلاء مجرد غوييم... أجاب البطحيش الذي بات يعرف الكثير عن اليهود وفلسطين

-غو.. ماذا؟ قال بتعجب وقد فاجأته الكلمة.  
-غوييم... أي... بهائم.. قطعان من السائمة ليست من البشر في شيء... وكادت عينا عزيز تخرجان من محجريهما...

-كيف إذن يسكتون عليهم؟ لم لا يفجرون بهم الأرض والسماء؟  
-هم يحاولون.. وإلا ما الذي فعله الشيخ القسام؟ رجال الثورة؟ الكل هناك يعلن أن البلاد كلها، الشعب كله، على مفترق طرق، إما النصر والحياة وإما الهزيمة والموت...

-إذن، لم توقفت الثورة؟ لم لم يستمر القتال؟

-حين ينتهي وقود النار هل تسأل لماذا انطفأت؟. بدأ البطحيش بنبرة من أسي، بعدئذ شرح لعزیز كيف تكالبت قوى جبارة على الثورة الوليدة: عصابات اليهود من جانب وجنود الاحتلال من جانب آخر، لا مبالاة الحكام العرب من جهة وسكوت العالم من جهة أخرى، حتى سقط رجال الثورة واحداً تلو الآخر وانهارت قواها شيئاً فشيئاً. بعدئذ جاءت الضربة القاضية: الكتاب الأبيض الذي أصدره البريطانيون وليس له من غاية سوى خداع العرب وإسكاتهم إلى حين.

-كم كان بودي أن أكون معك فأقاتل بجانبك، قال عزیز وهو يتنهد متحسراً على فوات فرصة من فرص العمر.

-عزیز، الاستعمار واحد، في سورية، في فلسطين.. الاستعمار واحد، نقاتله هنا فكأننا نقاتله هناك...

هز عزیز رأسه مثنياً على الفكرة، ثم اعترف لصديقه أنه طوال غيابه لم يستطع إطلاق رصاصه واحدة، شاكياً له فتور همة الناس وتسليمهم بالأمر الواقع، على أمل أن تعطيمهم فرنسا حريتهم واستقلالهم...

-الحرية تؤخذ ولا تعطى، قال البطحيش بحرقة وألم... والاستقلال لا ينال إلا على جسر من التضحيات..

-نعاود معركتنا إذن؟ سأل عزیز بفرح شديد، وكأن انقطاعه عن مقارعة الاستعمار كان غمه الأكبر..

-بالتأكيد... سورية يجب أن تتحرر.. البلدان العربية كلها يجب أن تتحرر... الآن أنا على قناعة تامة أن فلسطين ستضيع لأننا ضعفاء، مجزؤون، مستعمرون.

بعد ذلك، تشعب الحديث شعباً شتى ثم لم يتوقف حتى بانث الخيوط الأولى للفجر، لكن قبل أن ترقد أجفانهما كانا قد تعهدا أن يتابعها سيرتهما الأولى: مقارعة للاستعمار لا تهدأ.

عاد عزیز إلى دمشق فتبين له للثو أن عليه أن يقارع الاستعمار، ليس في ساحات القتال وميادينه السرية فحسب، بل في بيته ذاته.

-أطلت الغياب وأنا بأمس الحاجة إليك، بادرتة شمس هامسة وقد خلا لهما الليل والفرش..

-أنا أيضاً بأمس الحاجة إليك.. بأحر الشوق إليك، رد عزیز وهو يأخذها

بين ذراعيه شاداً ضاماً، لاثماً مقبلاً وكل ما خطر بباله أنها حاجة الجسد وشوق الحب.

-لا، لا ما هذا قصدت، غمغمت شمس وهي تتلمص من بين يديه. انكمش عزيز متشنجاً وكله استغراب أن لا تكون شمس متحرقة شوقاً للقياء، أن لا ترمي بنفسها بين ذراعيه لتذوب توقاً ورغبة.. "إيه!! أهو السن أطفأ نار الحر!؟ أهو الزمان ولى برغائب الجسد ولهب الروح".. كانت عيناه تخاطبان الحبيبة بهمس خفي لا تسمعه الأذان بل تقرأه العيون عاتبة لائمة.. فالحب في قلب عزيز كان ما يزال راسخ الأركان، ضارباً جذوره عميقاً في تربته البكر.. فكيف لشمس أن لا تستجيب؟ كيف لحبها أن لا ينفجر حمماً وقد التقيا بعد غياب؟ هو يذكر أن أجمل ساعاتهما تلك التي يلتقيان فيها بعد غياب... أحلى أيامهما أيام لم الشمل... لكأن الفرقة تضرم نار الحب، البعاد يدفعك للالتحام فتعمل على محو المسافات، على الانصهار في بوتقة الحب من جديد...

-ماذا؟ زعلت؟ سألته وقد رأته انكماشه وتشنجه.. وحين لم يجب متفحصاً إياها متفكراً، تابعت.. أرجوك، عزيز، حبيبي، لا تؤاخذني.. ثمة أمر خطير يشغلني..

-أمر خطير؟! يشغلك؟ ردد وقد استنفر شيء في داخله فجأة.  
-أجل.. القومندان رينو!! بدأت لكن دون أن تكمل، كأنها لا تدري كيف تتقل له الخبر.

-ماله القومندان رينو؟  
-جاء لزيارتنا في غيابك... أجابت، كأنما سهّل سؤاله عليها الجواب..  
-كاييتان جيران آخر؟!  
-هذا ما فكرت فيه، لكن يبدو أن الأمر أخطر من ذلك أيضاً.  
-كيف عرفت؟ ماذا قال؟ بدأ أسئلته لكنها قطعت عليه الطريق مشيرة بيدها أن:

مهلاً.  
كلمة بكلمة ولحظة بلحظة، نقلت شمس لعزيز زيارة القومندان فارتسمت على محياه سيما الخوف.

-هكذا إذن؟! عرف أنني كنت عسكرياً؟

-بل عرف كل شيء عن عرس نواف، عن القرية.

-وحماة؟

-لم يأت على ذكرها، لكن الأمر واضح: زيارته ليست لوجه الله، بل تقربه كله منا ليس لوجه الله.

-عزيز يعلم أن مخاوف شمس في محلها، فالسر الذي حرصا على إخفائه طوال اثني عشر عاماً مهدد بالإفشاء الآن.. هو يعلم أنه ما من أحد يعرفه، لكن إن أمسك القومندان برأس الخيط، تقصى ويحث، ألا يصل إلى نهاية الخيط؟ لكن... من أعطاه رأس الخيط؟ صبري؟ مستحيل... لورنس؟ أجل... ربما، فالكولونيل صديقه ولعله استدرجه فزلق لسانه بما يكشف شيئاً عن ماضيه. لكن كيف له أن يكشف السر نفسه وهو لا يعرفه؟ اطمأنت نفس عزيز قليلاً، وبنوع من المكابرة، استجمع شجاعته، وبصوت أجش قال:

-لا، لا تخافي.. سرنا في بير عميق لا يمكن أن يصل إليه أحد..

-ما عدا هذا القومندان.. ردت شمس وهي تزفر زفرة حرى، انه ثعلب مراوغ لا تدري كيف يحفر الأنفاق للتحرك تحت الأرض هنا، هناك، فلا يراه أحد... عزيز... يجب أن نعرف من حديثه عنا.

-ما أحسبه إلا لورنس.

-إذن، يجب أن نتأكد من لورنس...

في الأيام التالية، صار ديدن عزيز أن يذهب إلى لورنس، لكن الأمير غائب... ولا أحد يدري أين؟ ربما هو في البادية، ربما كان في نجد، في بيروت، فالأمير واسع العلاقات، كثير الارتباطات، سندباد رحلات.. لا يحط في مكان إلا ليرحل... يحب الحياة، يحب الجديد، يحب التغيير.. تستهويه الحضارة، تجذبه الكهرياء، أنوار باريس، لندن، لكأنما تعاف نفسه كئيبان الرمال ومضارب العريان، داره الواسعة في الحي الذي سمي باسم عائلته تعج بالناس.. عبيد سود، بدو سمر، رجال بيض، خدم، حشم، ضيوف، أقارب، لكن دون أن ينقصهم شيء: الطعام، الشراب، المال، كل شيء يظل متوفراً لهم وكأن الأمير على سدة عرشه.

-هو في القاهرة، أسر له أحد عبيده الأقربين، وعجب عزيز. لكن عجبه ازداد أكثر حين عرف السبب. أسمهان تغني هناك وهو يحب أسمهان.

-أمن أجل أسمهان يذهب إلى القاهرة؟ لم يملك عزيز إلا أن يتساءل، فقد بدا له الأمر مثيراً للاستغراب. هو يحب الطرب، يستمتع بالغناء لكن أن يتحمل

مشقة السفر إلى القاهرة كي يسمع غناء بدا له أكثر من مثير للاستغراب...  
لورنس يخالفه الرأي، هو يتباهى بحبه لأسمهان وتحمله مشاق السفر إلى  
القاهرة لسماع صوتها الرخيم الذي، كما يرى، لم يعرف العالم مثيلاً له.  
-آه!! صرح الأمير لصاحبه: ذاك الذي ظل ينتظره أكثر من عشرة أيام!! لو  
سمعتها وهي تغني:  
"أهوى..."

يا من يقل لي أهوى  
أسقيه بايدي القهوة.."

إذن لحقت في السماء طرباً ونشوة.. هز عزيز رأسه موافقاً على كلام  
الأمير، وكل ما يشغل باله أن ينتهي من أخبار الطرب ورحلته إلى أسمهان كي  
يتفرغ لحديثه عن رينو وما تحدثا عنه هو ورينو.  
لورنس لا يتذكر تماماً ما تحدثا عنه.. طلب إليه عزيز أن يتذكر، عصر  
لورنس دماغه عصراً لكنه لم يخرج إلا بصورة مشوشة غامضة:  
-هو يعلم أنك لست من الرولا.. ثم أراد التأكد مني...  
-وأكدت له؟ سأله عزيز بدهشة...

-كان الحديث عرضياً و.. بدأ الأمير ثم جلس بعد اتكاءة وكأنما تذكر..  
أجل.. أجل... هو حلفني إن كنت من الرولا أصلاً أم لا.. ولم أستطع أن  
أكذب.. لكن لماذا تسأل عزو؟ ألحق الأمير سؤاله إلحاقاً فتلجلج عزيز  
واضطرب..

-لا.. لا.. لا شيء.. رد عزيز باقتضاب مؤثراً الصمت على أن يزلق لسانه  
بكلمة.. لكن حين خرج كان على يقين أن القومندان ينقصى عنه هو وشمس..  
ليس من الآن بل من قبل وأن استقصاءاته دافعها الشك والريبة.  
-دعنا نرحل، اقترحت شمس وقد عاد عزيز بجواب لورنس المشوش  
الغامض.

-ماذا؟ سأل عزيز فاتحاً عينيه على سعتهما.

-نرحل، نترك دمشق إلى حيث لا يجد لنا القومندان أثراً...

-وبيتنا؟ أرزاقنا؟ تجارتنا؟.

-حياتنا أئمن، عزيز.. وهي مهددة بالخطر!!

- إلى هذه الدرجة خائفة؟

- وأكثر عزيز.. أنت تعلم، ميتهم لا يموت.. واستقصاءات القومندان ليست عبثاً.. لا بد أن لها غاية: مقتل جيرار. هو ولا شك لغز محير مازالوا يعملون على حله حتى اليوم... وإذا حلوه هلكننا.. أنا وأنت هلكننا. وبدت شمس خائفة أكثر من أي وقت مضى.

- يا حيف!! الفارس المثلث يخاف إلى هذا الحد؟ عقب عزيز بنبرة فيها مزيج من معاتبة وتشجيع.

- فارس مثلث!! إيه.. سقى الله تلك الأيام!! حين كان الفارس المثلث قلباً كالصوان وزنداً كالفولاذ!! بمفرده، يملك الشجاعة لأن يواجه جيشاً.. هو الذي لا يخاف على نفسه أبداً. لكنه اليوم يخاف على الزوج والحبیب.. الأبناء والبنات.. وحده الفرحة أنساها الخوف، أنساها الخطر، أنساها القومندان رينو... فقد طلعت الصحف في الصباح التالي بأسماء الناجحين في شهادة البكالوريا وكان اسم الأخضر في رأس القائمة...

وللتو لعلت الزغاريد في أرجاء الدار..

ثلاثة أيام بثلاث ليالٍ ظلت الدار تعج بالمهنيين والمهنيات. الحلويات توزع، المشروبات تقدم، القهوة تصب والفرحة ملء الدنيا.. شمس تود لو كانوا في المضارب.. عند الشيخ نواف، إذن لذبحت لنجاح الأخضر خرافاً وخرافاً.. لكن في المدينة!! الجدران تسد الأفاق، البيوت تتزاحم، الأزقة تضيق بالناس ويكتفي عزيز بجوقة الفرحة، تأتي في المساء، يلعب فتيانها بالسيوف، يرقصون ويهزجون، ومع رقصهم وهزجهم يرقص عزيز، ترقص شمس، تطلق بأجنحة الفرحة.. نساء الحارة كلهن يحلقن معها فرحاً فليس في كل يوم ينال أبناء الحارة شهادة البكالوريا. الكتاب هو غاية المنى، المدارس تعد على أصابع اليد الواحدة في البلاد كلها، الأمية منقشية، فكيف لا تفرح شمس وابنها ينال البكالوريا؟.

- ابني.. حبيبي.. رفعت لي رأسي!! كانت تردد كلما رأته عبر الزحام وبعد الزحام، وكان يرد فرحاً وزهواً.

- وسأرفع رأسك أكثر!! سأجعلك أم الطبيب!!

- أجل.. أريد أن أكون أم الطبيب!! وتغزو رأسها نشوة لم تغزها من قبل كما ترى في عيني روضة فرحاً لا يضاهيه فرح.. ينكمت كلما سمعت بكلمة طبيب... عزيز يكاد يطير فرحاً هو الآخر.. يشعر أنه هو الذي نجح، هو الذي

سيصبح طبيبياً. شعور لم يعرفه قط!! "أهذا هو الامتداد؟ التجدد؟ الاستمرار؟". هو يشعر أن ابنه يحقق ما كان هو نفسه يحلم بتحقيقه.. يشعر أن الأخضر هو امتداده عبر الزمان، امتداده عبر المكان فكيف لا يفرح؟ بوده لو كان في القرية أيضاً، إذن لأقام الأعراس ولجاء بالطبول والزمور، ولذبح الخراف والجديان!! "آه!! يا للقرية، أمداء واسعة وآفاق شاسعة!! تتواثب فيها وتتقافز، تهتف وتفرح فيردد العالم كله أصداء فرحك!!".

مع الفرحة عاد السؤال يدور في المنزل "كيف يصبح الأخضر طبيباً؟ أين يدرس؟" كانت جامعة دمشق ما تزال وليدة كلية الطب فيها ما تزال تحبو، فكيف يحقق الفتى حلمه؟

سألت شمس صديقتهما نازك فأجابت:

-في القاهرة.. يمكنه أن يذهب إلى مصر، يدرس الطب هناك. لكن حسبة بسيطة أجراها عزيز وشمس جعلتهما ينكمشان خوفاً، القاهرة بعيدة وهي بحاجة إلى نفقات ربما لا يستطيع عزيز تحملها، ومضى الأب بفرحه وهمه إلى الدكتور الشهيندر.

-عظيم!! هتف الزعيم فرحاً بالنبأ!! ألف مبروك!!

-بارك الله فيك ياسيدي!! رد عزيز يشيله جناحان من الزهو والفرح، لكن المشكلة أنه يريد أن يدرس الطب!!

-وأين المشكلة؟ سأل الرجل المستنير الذي يجد حلاً لكل مشكلة، في بيروت جامعة أمريكية تدرّس الطب. أنا نفسي درست فيها، وهذه هي بيروت.. رمية حجر!!

وبدا لعزيز أن الحل معقول.. كلية دمشق لم ينصحه أحد بها، لكن بيروت قريبة فعلاً والجامعة فيها أمريكية، جهاز التدريس، الإدارة، كل ما فيها كأنك في نيويورك، هكذا قال الدكتور الخبير الذي درس فيها قبل ثلاثين سنة ما يريد الأخضر أن يدرسه اليوم.

-والنفقات؟

-بيروت رخيصة!! يعيش كأنه هنا.. ثم يمكنني أن أركيه هناك فيساعده!! قال الطبيب وهو يتذكر كيف درس هو نفسه بمساعدة الآخرين دون أن يكلف أهله أي عبء.. أهذه هي الحياة؟ يساعدك الناس لتساعد الناس؟ إنها السنة التي لا يملك أحد لها تديلاً، وخرج عزيز وهو يكاد يطير فرحاً. لقد وجد الحل...

لكن ما إن وصل إلى المنزل حتى وجد في انتظاره حلاً آخر . كان القومندان رينو يتصدر غرفة الضيوف، وكان معه الأخضر، فيما سارعت شمس لاستقباله قرب الباب الخارجي.

-لقد عاد.. عزيز... أنا خائفة.. الرجل لن يتركنا سيعكر فرحنا.. فماذا نفعل؟

-دعينا أولاً نر ما يريد.

هدأ عزيز الزوجة التي عاودها الخوف من رجل ربما يستغل المناسبة كي يبحث ويتقصى لكن بكل لطف ودماثة بدأ الرجل الحديث.. مباركاً.. مهنتاً، فرحاً سعيداً حتى بدا وكأنه أكثر فرحاً وسعادة منهما، بعد ذلك توجه إلى الفتى، وبفرنسية رفيقة ناعمة بدت أشبه بنغمات أوتار، راح يحدثه ثم يسأله.. الأخضر يجيب والقومندان فرح بإجاباته. أخيراً توجه إلى شمس.

-مدام، لقد وعدتك بمساعدته وأنا عند وعدي.. قال مخاطباً الأم التي كانت طوال ذلك الحديث تنقل ناظريها بين ابنها والقومندان انتقال مشاعرها بين الفرح والخوف. "معقول!؟" تردد السؤال في جمجمتها وهي تفتح عينيها دهشة وتعجباً... كان خوفها من القومندان قد أنساها وعده بالمساعدة فلم تأت على ذكره لعزيز، وكان تفكيرها بالسر الذي يبحث عنه القومندان قد غيَّب عن ذاكرتها كل ما عداه.. لكن ها هوذا يأتي مهنتاً مباركاً وقبل هذا وذاك يؤكد التزامه بالوفاء بالعهد.

-أية مساعدة، سيادة القومندان؟ سارع عزيز للتدخل وقد فاجأه قول لم يسمع به من قبل...

-هذا الطالب النجيب سيدرس الطب على حساب الحكومة.. أجاب الرجل وهو يربت ظهر الفتى الذي بدا وكأنه على وشك الطيران.

-يدرس الطب على حساب الحكومة؟ هتف الأب والأم هتاف التعجب والفرح.

هز القومندان رأسه هز التأكيد، مخرجاً من جيبه ورقة ختمت بخاتم الحكومة وكتبت بلغة لا يستطيع فك حروفها عزيز أو شمس...

-أجل... قال، وهو يسلم الورقة للطالب النجيب، وهذه منحة باسمه يدرس بموجبها الطب في باريس...

"يا إلهي!! أي اختراع رائع هذا الذي يسمونه البريد!!" كانت شمس لا تفتأ تكرر منذ جاءت أول رسالة من الأخضر تطمئننا على وصوله بالسلامة إلى باريس. وكلما أبدت إعجابها بذلك الاختراع الرائع كان عزيز يزداد ضحكاً. "البريد موجود منذ القدم وليس هو اختراعاً جديداً.. أيام الخلفاء الأمويين، العباسيين، كان هناك بريد وموظفو بريد!!" "صحيح، لكنهم كانوا ينقلون مراسلات الدولة بين الولايات والعاصمة، الأطراف والمركز... وليس كهذا البريد الذي ينقل رسائل الناس كلهم إلى الناس كلهم وبسرعة لا نقل عن سرعة الحمام الزاجل" "هه!! أمسكتك!! الحمام الزاجل!! بعظمة لسانك قلت هذا!! بسرعة الحمام الزاجل، وماذا كان يفعل الحمام الزاجل؟". على هذا النحو كان الزوجان يتناقشان. عزيز يصبر على أنه ليس هناك من جديد بل كله قديم يتطور شيئاً فشيئاً وشمس مفتونة باختراعات جديدة تفرزها الحضارة كل يوم: بدءاً من البريد وحتى الطائرة، السيارة، الهاتف، الحاكي، الإذاعة، الكهرباء، والقائمة تطول وتطول.

"من يصدق؟ هذه الرسالة خطتها يد الأخضر قبل خمسة عشر يوماً؟ خلال نصف شهر فقط قطعت تلك المسافات الطويلة.. عبرت بلدان أوروبا كلها لتصل إلينا هنا في دمشق!!".

شمس مفتونة بما يتفوق عنه العقل البشري، عن ابتكارات كان يحلم بها الإنسان... بساط الريح، المرآة السحرية، افتح يا سمسم، كلها أحلام كانت تراود الإنسان منذ عرف الأحلام، ثم هاهي ذي كلها تتحقق.. بهذا الشكل أو ذاك تتحقق. شمس تسمع الأخبار، الأحاديث، الأغاني من مذياع لا يزيد حجمه عن سحارة بندوق... حسبها أن تدير قرصاً صغيراً ليأتيها صوت المذياع الذي يتكلم من لندن "هنا، هيئة الإذاعة البريطانية ثم ينقل أخبار العالم" تشامبرلين طار إلى

باريس ليلتقي بنظيره الفرنسي.. هتلر يستعرض قواته العسكرية الهائلة.. وإذا أرادت أن تشف أذنيها بصوت سيد درويش أو عبده الحمولي وضعت أسطوانة على الحاكي ثم أدارت إبرة.. "إبرة تخرج صوتاً رخيماً وموسيقا عذبة، كيف؟ يا إلهي!! فقط لو أعرف كيف؟" ولم يكن باستطاعة عزيز أن يشرح لها كيف.. نازك، صديقتها حاولت، لكن وقفت في النهاية عاجزة إزاء استفساراتها الكثيرة فاكثفت بأن زجرتها ضاحكة "تريدين العنب أم قتل الناطور؟" هي تريد العنب، صحيح لكن الإنسان خلق وكله فضول وحب استطلاع... حين ركبوا لها الهاتف في المنزل، بلغ فضولها أشده. وطوال أيام ظلت ولا شاغل لها إلا أن تدير مقبضه، ترفع السماعه ليأتي صوت السنترال "نعم.. من تريدين!!؟ أي رقم تطلبين؟" وتطلب أم فريد، جارتها أم قعود، زوجها في المحل.. متعجبة، مندهشة، تتحدث وكأنها لا تصدق أنها تتحدث، لا تصدق أنها تسمع. وحين باحت بعجبتها ودهشتها تلك، تنطع عزيز للشرح "افرضي عندنا قط، رأسه في البيت وذيله في المحل، إن دعست أنا على ذنبه ماذا يحصل؟" "يموء، يصرخ"، ردت شمس "عليك نور"، تابع عزيز شبه هاتف "يطلق صوتاً، وهكذا الهاتف: قط يدعسون على ذنبه هناك فتسمعين صوته هنا" "لو أسمع صوت الأخضر فقط!! لو يحدثني من فرنسا!!" راحت شمس تتمنى "لا، أنت طماعه، شمس" رد عزيز مداعباً "حسبك أن رسائله تأتيك بانتظام فتعلمين كل شاردة وواردة". شمس تعلم أنها طماعه، أحلامها كبيرة.. دائماً، لا تفتأ تنتقل من حلم إلى حلم، وكأنها تجسد البشرية التي ما فتئت مذ وجدت تحلم، تطلق لعنانها الخيال، فتتخيل الأفضل، تحلم بالأحسن ليعمل العقل بعد ذلك على تحقيق الأفضل والأحسن...

- ما هذه خالتي؟ سألت روضة الخالة شمساً وهي تجلس إلى جانبها، قرب المدفأة.

-رسالة الأخضر الجديدة، تدخلت بدور ابنة الرابعة عشرة غامرة ضاحكة...  
تقرأها ولا تشبع منها أبداً، مثل بعض الناس...

-أذهبي.. أذهبي.. هاتي لنا إبريق شاي... زجرتها أمها بنبرة المداعبة، فقد كانت نار المدفأة تغري بشرب الشاي. خرجت بدور دون تردد "عطشان الشاي يرويك.. بردان الشاي يدفيك" كان الكل يقول ذلك، مردداً الدعاية في الإذاعة البريطانية، وكان شباط البارد يدفع المرء للبحث عما يدفئه.

-ماذا يقول؟ ما أخباره؟ سألت روضة على استحياء وهي تشير بإصبعها إلى الرسالة، وكأنها لا تعرف عنها شيئاً..

-بخير .. صحته جيدة.. دراسته ممتازة يقول انه أنهى دورة اللغة.. صار يتقن الفرنسية مثل الفرنسيين.. بدأت شمس بزهو يبرق في عينيها، ويد تحرك الرسالة يمنة ويسرة متشممة رائحتها كلما اقتربت من وجهها.. فيما كانت عينا روضة تلاحقان الرسالة وكأنما هما مشدودتان إليها بخيط سري..

-يخلي لك إياه خالة... الأخضر شاطر.. ذكي.. علفت الفتاة بنبرة الهمس وكأنما تخجل أن ترفع صوتها..

-طوال عمره هكذا.. في الشهر العاشر بدأ يتكلم وفي الثاني عشر كان يمشي.. عند الكتاب كان أبرع التلاميذ وحين أدخلناه المدرسة هنا أدخلوه مباشرة في الصف الثالث.

-أعلم.. خالة.. هو حكى لي ذلك..

-صحيح؟! كان يحكي لك؟ سألتها شمس وقد داخلها استغراب مفاجئ.

-أحياناً، عندما كنا صغيرين.. كنا نلتقي.. وكنا نلعب معاً..

شمس تتذكر أن روضة كانت تأتي كثيراً إلى المنزل.. بدور أصغر منها بسنتين والأخضر أكبر منها بثلاث، بين بدور والأخضر، كانت روضة تجد ضالتها من لعب ولهو، تسلية وتفريج. أخواتها في المنزل يصبنها بالضجر، كلهن بنات، لا يعرفن غير الزعيق والصراخ.. وأمهن لا تتفك تلاحقهن "دعي هذا" "افعلي ذاك"، "أذهبي هناك" "تعال هنا" فلماذا لا تهرب؟ في منزل الخالة شمس لا أحد يلاحقها، لا أحد يأمرها، بل الكل لطيفون دمثون، يعاملونها بكياسة.. الأخضر أكثرهم لطفاً وكياسة.. هو يجيب على أسئلتها، يلبي رغباتها، فيما بدور تعطيها كل ما لديها من ألعاب، تلعبان معاً كلما وجدتا الفرصة. في الصيف ينضم إليهما الأخضر، يلاعبهما الاستغماية، تختبئان عليه في بيت المؤونة، تصعدان إلى العلية لكنه سرعان ما يكتشف مكانهما، يمسك بهما ليأتي دوره هو في الاختباء. ذات مرة كانت تختبئ في خزانة الثياب وكانت تحسب أنها في مأمن، تستند على باب الخزانة وتصيح السمع. لم يكن هناك صوت، لكن فجأة فتح باب الخزانة ووجدت نفسها تهوي في أثره.. زعقت لكن سرعان ما انكتمت زعقتها وقد صار فمها على صدر الأخضر ورأسها بين يديه، ثم انقلبا معاً على الأرض وقد احتضن كل منهما الآخر، أهو خوف عليه؟ أم رغبة في الالتصاق به؟ روضة لا تتذكر، كل ما تتذكر أنها كانت لحظة عجيبة، أحست فيها أنها تمتلك الدنيا كلها بيديها وهي تحتضن الأخضر، تحس بدفء جسده لصق جسدها، بدفء أنفاسه قرب وجهها، فيما لمعت أمنية خفية في رأسها "ليتنا نظل

هكذا فلا نفترق أبداً"، لكن بمثل تلك السهولة، هيهات أن تتحقق الأماني. بدور بالمرصاد جاءت فنهضا عن الأرض ينفضان ثيابهما ويضحكان. لكن منذ تلك اللحظة صار الأخضر بالنسبة لها ينبوع الدفء الذي لا تريد أن تنهل إلا منه. كانت في العاشرة يومذاك، ومنذ العاشرة صار الأخضر حلمها الجميل يرفرف معها في فضاء غرفتها كلما همت بالنوم، وتفتح أجفانها على طيفه كلما استيقظت.. معاً ترعرعا، هي والطيف، معاً كبرا هي والحلم... متباعدين حيناً متقاربين حيناً آخر... كانا ينموان.. طفلين، فمراهقين.. ثم ما إن خط الشعر شاربيه حتى جاء السفر..

على حين غرة جاء.. هو طموح.. يريد أن يصبح طبيباً، حدثها مذ كان صغيراً عن حلمه ذاك، لكنها لم تكن تظنه سوى حلم.. إذ كيف يمكن لفتى رقيق، ناحل العود، غض الإهاب، أزغب الشاربين أن يصبح طبيباً؟ كانت كثيراً ما تتساءل "الطبيب ينبغي أن يكون رجلاً قوى البنية عريض المنكبين، جهم الوجه، مقطب الجبين، كث الشاربين، أبيض الشعر، وأنى للأخضر مثل هذه الصفات؟".

لهذا ربما، كانت مطمئنة أن حلمه لن يتحقق أبداً وأن الأحلام غالباً ما تظل أحلاماً... ولهذا ربما، لم تكن تعترض على أحلامه، بل لم تكن تناقشها.. فذات يوم سيجد نفسه أمامها، هي روضة الحلوة المحبة، ولن يجد له خياراً سواها. لكن هاهو ذا الحلم تحقق.. على حين غرة، خرج عفريت من قمقم، وقال لعلاء الدين "شبيك ليبيك، عبدك بين يديك.. اطلب وتمنّ، وتمنى علاء الدين أن يذهب إلى فرنسا يدرس فيها الطب، فحمله العفريت إلى هناك أمام سمعها وبصرها وهي لا تملك إلا أن تقف مذهولة تكاد لا تصدق ما ترى.

-ضعي حطباً، بدور.. قالت الأم لابنتها وقد أحست بالنار تهمد.. كانت الفتاة قد جاءت بالابريق، وضعته على مدفأة الحطب ثم دارت على عقبيها، هامة بالخروج.

-تأمرين.. يماً.. ردت البننت بلهجة أمها البدوية التي كانت تداعبها بها أحياناً، ثم عادت تقرص إلى جانب المدفأة تلقمها قطعاً حطبية عبر فوهة لا تشيع.

-قرأتها لك بدور، أليس كذلك، سألت الأم روضة التي كانت تنتطلع إلى الرسالة وتشرذ حيث لا تدري شمس.

-ثلاث مرات، أسرع بدور للرد ضاحكة وهي تغادر الغرفة من جديد.

-لا تصدقها، خالة، مرة واحدة قرأتها لي.. ردت روضة بنبرة التملص..  
-وماذا في ذلك؟ مرة.. مرتين، ثلاثاً.. أنا أعلم أنه ابن حارتك ورفيق  
طفولتك.. وهو غال عليك.. فماذا إن كنت تهتمين بأخباره؟

"رفيق طفولة فقط؟ غال علي وحسب؟ آه يا خالة لو تعلمين ما أكن له في  
قلبي!؟" بدأت أفكار تعبر دماغها، لكن سرعان ما نفضت رأسها وهي ترى إلى  
الخالة تتأملها..

-لا شيء.. أكيد.. هو ابن حارتي.. ولم تستطع أن تكمل. كانت عينا شمس  
تحدقان إليها متغلغلتين في العمق وعلى نحو بدا لها كأنها تحاول أن تكشف  
الغطاء عن كل ما تخبئه هناك في العمق.

فجأة تذكرت شمس يوم رأتهما معاً متجاذبين متقاربين يكاد واحدهما يحشر  
نفسه في الآخر...

-هو ابن حارتك فقط؟ عقبته شمس مبتسمة وقد خطر لها أن تدخل معها  
في لعبة استعمائية، فتقلب الأدوار...

وأطرقت الفتاة أرضاً فيما تحولت وجنتاها إلى بركتي دم "ماذا أقول؟ كيف  
يمكن للساني البوح بما في نفسي؟". شمس تعرف معنى هذه الإطراقة، تعرف  
معنى ذلك الاحمرار، تتذكر يوم خلعت ثياب الفارس الملمث وعادت فتاة إلى جناح  
الحريم.. كانت وجنتاها تحمران كلما فكرت بعزير أو تحدثت عن عزيز!! "ايه  
فوز!! أتذكرين يوم كنت تسأليني عن حبي له فلا أدري ما أقول!!؟ أنا الفارس  
الملمث الذي خاض المعارك وواجه الرجال وبارز الفرسان كنت أتعثر وأتلجج كلما  
أردت ذكره أو هممت بالبوح بما في النفس!؟".

-الشاي، خالة، هتقت الفتاة فجأة، وقد فار الإبريق على النار..

أسرعت شمس تبعد الإبريق عن المدفأة.. وهي تضحك.

-هذه المدفأة كالتور!! سرعان ما يغلي عليها الشاي.. إلى جانب المدفأة  
راحت تصب الشاي، وهي تتذكر مواقد النار التي كانوا يشعلونها هناك في  
المضارب.. حيث الحطب أعواد سرعان ما تشتعل وسرعان ما تتطفئ، ليتحول  
الموقد إلى رماد. هنا.. الحطب من أشجار الغوطة، يقطعونها قطعاً متساوية  
جميلة، وفي المدفأة تنوهج ناراً وجمراً، هو خير علاج لبرد الشتاء.

-لكن خالة، أنا لم أفهم.. هل هو سعيد هناك؟ سألت الفتاة على حين غرة  
وهي تنظر من جديد إلى الرسالة.

-بالتأكيد.. ولم لا يكون سعيداً؟ ردت الأم وقد أحست بظلال شك توشح سؤال الفتاة.. فتى يحقق طموحاته ويحول أحلامه إلى واقع، كيف لا يكون سعيداً؟ ألم تسمعي ما قال: سألت الأم وهي ترفع الرسالة أمام عينيها قارئة فقرة من فقراتها.

-كل شيء هنا جميل يا أماء!! المدينة، الطبيعة، الغابات، الناس.. ولم تستطع روضة أن تتابع ما تقوله شمس. إذ سرعان ما شرد خيالها إلى الفتيات هناك "هن من يقصد بالتأكيد... فتيات باريس باهرات الحسن والجمال.. الكل يؤكدون ذلك فهل سيقع في شراكهن؟" لكن الأم قطعت عليها شرودها وهي تقدم لها الرسالة.

-انظري.. بنفسك.. ألا يبدو سعيداً من كتابته؟ خطه، أحرفه نفسها ألا تدل على مقدار راحته وسعادته؟

ونظرت الفتاة إلى كلمات الرسالة المنظومة عقداً من لؤلؤ وجمان... "ما أشد الحسرة في قلبي!! لو أستطيع فقط أن أقرأ" لكن أباه لم يعلمها القراءة والكتابة.. هو لم يكن يؤمن بذلك.. ولم تقرأ الفتاة وتكتب؟ ألكي تسهل عليها مكاتبات الغرام؟ تكتب الرسائل للفتيان وتقرأ رسائل الفتيان؟ أمها على قناعة تامة بكل ما يقول أبو روضة "البنيت للبيت والزواج، لا للمدارس والخواجات". وظلت روضة وأخواتها أشبه بآن وأخواتها دون تعليم. في غفلة من شمس، مررت روضة الرسالة أمام وجهها، تشممت رائحتها، لثمت الأحرف السوداء المسطورة بانتظام ودون أن تشعر سألت دمعتان من عينيها.. التفتت شمس فلم تملك إلا أن تشفق..

-أتريدين أن توصيه بشيء، سألتها وهي تشدها بذراعها إليها، إشفافاً وحباً.. الليلة سأكتب له رسالة..

-أوصيه أن يحذر من الفتيات هناك، ردت الفتاة على عجل.

-أنت تغارين عليه؟ علقت شمس ضاحكة..

-بل أخاف عليه.. فالكثيرون يتحدثون عن بائعات.. لا أدري ماذا يسمونهن... وعن أمراض زه... زه... لا أدري ماذا يسمونها...

وتبسمت شمس من جديد مرتبة كتف الفتاة شادة إياها إليها.

-بائعات هوى؟! ومرض الزهري!!

-أجل.. الكل يقولون انهن يغوين الرجال فلا يفلت أحد... وأنه مرض خطير لا يشفى منه أحد...

-وحده الأخضر لا تخافي عليه.. هو ابني وأنا أعرفه.. ما من امرأة تستطيع أن تغويه.. وجاء صوت عزيز جرس إنذار. كان يرد تحية وضحة بصوته الجهوري الأجل فهببت الفتاة ملء طولها وهي تعلم أنه في طريقه إلى امرأته..

-عن اذنك خالة، قالت لشمس وهي تتجه نحو الباب.

-مع السلامة، روضة، لكن روضة توقفت عند العتبة وبنبرة الرجاء غمغت.

-لا تنسي خالة.. سلمي لي على الأخضر كثيراً.

-بالتأكيد، هو نفسه لا ينساك في رسائله، يهديك دائماً سلاماً خاصاً، فكيف ننساه نحن؟ ردت شمس وهي تهز رأسها للفتاة التي أسرعت في الخروج وقد ازدادت احمرار وجنتين وإطراقة رأس.

قبلة على الوجنة اليمنى ثم أخرى على الوجنة اليسرى.. عادة ألفاها مذ تزوجا.. يعود عزيز إلى المنزل فتستقبله شمس بالقبلات. في البداية كانت القبل من نصيب الفمين المتشوقين دائماً والشفاة المتحرقة دائماً، وكانت تلك القبل تتحول إلى عناق وربما حمل بين الذراعين وانصهار بالأحضان، لكن شيئاً فشيئاً بدأت تتحول إلى الوجنات وإلى قبل هادئة ربما بدافع العادة أكثر مما هي بدافع الشوق.

-ما لها روضة خرجت على عجل؟ سألها وهو يخلع المعطف والطربوش مقدماً إياهما إليها...

-حياء العذارى، ردت ضاحكة وهي تعلقهما على المشجب.. كان قد ترك عادة لبس العباءة والفروة في الشتاء. مذ غادر حماة ترك تلك العادة، تجار دمشق يلبسون المعطف والطربوش وإن كنت في قوم اشرب في إنائهم.. إذن لماذا لا يلبس المعطف والطربوش ويبدو واحداً من تجار دمشق؟

خرج عزيز إلى الصنبور يغتسل ويتوضأ.. لم يعد هناك حاجة لأن تصب له الماء على يديه ورجليه.. الصنبور وفر عليها ذلك العناء.. عبر أنابيب وتمديدات تأتي المياه من نبع الفيحة.. حسب شمس أن تمد يدها إلى الصنبور تفتحه فينسكب الماء قوياً كالرصاص غزيراً كالشلال "يا إلهي!!" هتفت يوم وصلت المياه إلى منزلها أول مرة" الماء يصل إلى خدمتي وأنا في مطبخي!! أي شيء رائع هذه الحضارة!! أي إنجاز عظيم هذا الإنجاز!!" وطوال أيام ظلت تأتي إلى الصنبور، تفتحه ثم تغلقه، تفتحه ثم تغلقه وتطرب أيما طرب لصوت الماء وهو ينسكب قوياً

كالرصاص غزيراً كالشلال، تتأمله وتتحسر على نساء هناك في البادية، في القرى، يقطعن المسافات الطويلة إلى أن يردن الماء.. ويذقن الأمرين قبل أن يوفرن نقطة الماء..

"الله أكبر! الله أكبر!" ارتفع الأذان من المنذنة القريبة، فأسرع عزيز ينهي وضوءه ويتجه إلى المسجد حيث يحرص أن يصلي المغرب دائماً في الشتاء. على العشاء فقط عاد عزيز يسألها عن حياء العذارى، ذلك الذي جعل روضة تمر بقرية مسرعة لا تلوّي على شيء.

-الفتاة تحب الأخضر.. بدأت شمس مائلة عليه هامسة رغم أنهما كانا وحيدين على العشاء. فمناف وبدور عند الجيران وكل في فلك يسبحون.  
-وأين هي من الأخضر؟ رد عزيز باستغراب، كأنما لم يخطر بباله من قبل أن شيئاً يجمعهما..

-يبدو ثمة شيء، فليس هناك رسالة منه لا تحمل سلاماً لها..

-لكنها أمية لا تقرأ ولا تكتب..

-الحب لا يميز بين أمي ومتعلم.. فقير وغني.. بدوي وحضري وغمزت بعينها غمزة خاصة أعادته إلى مضارب الشيخ نواف والفرس الشقراء التي طارت به مع فصيل عسكري يطلب يدها زوجة وحبيبة.

-صدقت.. الحب لا يعرف تفرقة ولا تمييزاً عنصرياً.. لكن.. هل قال شيئاً؟ هل اعترفت بشيء؟

-لو تأخرت دقائق كنت سأجرها إلى الحديث.. أجعلها تعترف..

-المهم ألا يكون قد وعدنا بشيء.. أنت تعلمين.. تتعلق البنات وتتنتظر، وهو قد يطول به الزمن، من يدري؟

-هذا ما أريد التأكد منه.. أم روضة جارتني مثل أختي.. والبنات مثل بنتي.. ولا أريد لها أي أذى.

-هذا ما أقصده.. ربما تكون قد بنت قصوراً في الهواء وهو..

-لا.. لا.. هو ليس بريئاً.. قاطعته شمس مبتسمة ملوحة برأسها، أم أنكم معشر الرجال تضعون اللوم دائماً على النساء؟ حواء هي التي أغوت آدم.. هي التي أطعمته التفاحة، أنزلته من الجنة.. وأنتم مساكين أبرياء لا ناقة لكم ولا جمل..

-الله!! الله! الفارس الملمم يتكلم بهذه الطريقة؟ منذ متى، يا مهجة روعي، يا حبة عيني؟ وشرع يدغدغها مداعباً وهي تضحك وتبتعد متجنباً حركات يديه..

-أرأيت؟ عاشر القوم أربعين يوم تصير منهم.. قالت بلهجتها البدوية التي لا يمتعها كالعودة إليها من حين إلى حين، وكلما حشرت في الزاوية، ربما تعبيراً عن أخص خصوصيات نفسها الكامنة هناك في الأعماق.

-بالمناسبة.. احزري من زارني اليوم؟! سألها وهو ينكمش قليلاً كأنما تذكر شيئاً يدعو للانكماش.

-لو كنت في المضارب لحزرت.. لكن هنا.. في دمشق.. بدأت جوابها، لكن فجأة خطر لها خاطر فتوقفت لحظة ثم تابعت، من؟ عواد؟

-عواد؟! مسكين؟! رد عزيز وقد بدا على سيماه الإشفاق، مذ أخفق في الحصول على البكالوريا العام الماضي صار وكيل معلم مقسماً الأيمان المغلظة ألا تراه عين حتى يحصل عليها..

-من الذي زارك إذن؟

-القومندان!!

-رينو! صاحت شبه فاتحة عينيها.

-أجل.. رينو! رد وهو يطلق زفرة طويلة.

-لم نرتح منه إذن؟ سألت شمس وهي تزفر زفرة أكثر طولاً.

-لا راحة لمؤمن إلا بلقاء وجهه ربه، قال عزيز بين المازح والجاد.. بالأمس فقط عاد من بيروت فأراد الاطمئنان علينا.

-حين عطست الفأرة بادرها القط "اسم الله"، فردت الفأرة "أرحنا أنت من شرك ونحن بألف خير من الله.."

-ما أحسبه سيربحنا.. بالعكس هو يقترح علي أن أخذه الشهر القادم إلى الريف والبادية.. فقد حدثه بعضهم عن جمال الطبيعة هناك في الربيع..

-أحسن!! يذهب هناك، يسأل وينقصي.. لا بد أنه مصر على معرفة السر..

-وهذا ما يخيفني.. الرجل له هدف ولا يثنيه شيء عن بلوغه ذلك الهدف.

لكن القومندان كان يبدو في غاية الكياسة، يتصرف في غاية الدماثة والأدب.. بل هو لا يلتقي بشمس مرة إلا وينحني على يدها يقبلها كما يفعلون هناك في الشانزليزيه وفرساي، حاول الزوجان الابتعاد عنه أكثر من مرة، بل

اقترحت شمس في البداية الرحيل عن دمشق لكن الظروف.. المتغيرات جعلتها تنسى الاقتراح. الرجل يتقرب بذكاء وحنكة.. بلطف وأدب إلى درجة لم يستطيعا معها إلا أن يكونا لطيفين مؤدبين.. هو حضاري، سلوكه حضاري، حوار، مفاهيمه، أفكاره كلها حضارية تفحمك، وهناك خدماته!!

عزيز لا يحتاج إلى شيء من السراي، الدرك، التعليم إلا ويسارع إليه فيسارع الرجل إلى تلبية حاجته.. "ثم هناك خدمته الجلى.." عزيز يقول لشمس كلما تحدثا "المنحة التي أمنها للأخضر لا تماثلها خدمة!!" فالقومندان الذي عرض مساعدته على الأخضر بكلام عرضي عابر، سرعان ما شمر عن ساعديه ونزل ساحة العمل والجد حين ظهرت نتائج الامتحان. استصدر له القرارات التي يحتاج، أخرج له الجواز. أنهى ترتيبات السفر. بل حمله معه بسيارته إلى مرفأ بيروت.. ثم زوده برسائل توصية وتزكية ورافقه مع أمه وأبيه إلى متن السفينة يودعونه هناك.

يومذاك طغى على عزيز الشعور بالعرفان والامتنان إلى درجة كاد ينسى معها شكه وريبته. "أخوك لا يخدمك مثل هذه الخدمة" إنها بألف خدمة.. "هي دين له في عنقي حتى الممات"، كان لا يفتأ يكرر وكانت شمس لا تملك إلا أن تسكت. الحيرة تأكل لسانها والعجب يذهب بقدرتها على الحكم.. لم يكن الرجل في الفترة الأخيرة يلح على شيء أو يشير إلى ما يريب... سلوكه لا غبار عليه.. كلامه عسل مصفى.. فلماذا تخاف منه؟ لقد باتت على ثقة أنه مختلف عن جيران.. هو لا يعاملها كأنثى، لا ترى في نظرتة نزوة أو شهوة. إذن لماذا تلبسه لبوس جيران؟ ألا يعقل أن يكون نزيه الغاية عفيف النفس، لا بغية له فيها ولا مطمع؟! الظروف كلها تغيرت.. هي نفسها تغيرت.. شمس تشعر بذلك.. لم يعد الرجال يتلمظون حين يرونها، ولم يعودوا يدورون ويلقون لإغوائها، حسني، خالد، إبراهيم، جيران.. كلهم مضوا مع حماة وأيام حماة. هي الآن في دمشق.. رجال مختلفون، مجتمع مختلف.. ثمة حدود بينها وبين الرجال.. هامش لا يجروأ أحد على تخطيه.. صبري، أبو روضة، الجيران، الدكتور الشهبندر، القومندان، كلهم لا يحاولون تخطيه.. "أهو الحرملك والسلمك الذي حرصت على الحفاظ عليه؟ أهو السن؟" كثيراً ما كانت شمس تتساءل وهي تنظر إلى وجهها في المرآة، إلى صدرها، إلى جسدها فيخيل إليها أنه لم يتغير شيء.. ما يزال الوجه مشعاً كالشمس توهجاً وألقاً، الشعر أسود فاحم يحيط بوجهها كما تحيط الهالة بالبدر، الصدر كاعب كصدور العذارى.. جسدها حين تتأمله في الحمام الدافئ أو في سريرها العريض يجعلها تتنفس الصعداء راحة وطمأنينة وهي تراه لا يزال مشدود

العضلات، متماسك الجلد، أهيف الخصر، أملس البشرة، لا تجاعيد فيه ولا تغضنات.. تماماً كما يقول لها عزيز "أنت المرأة التي لا يجرؤ الزمن على الاقتراب منك" إذن لم اختلفت نظرة الرجال إليها؟ لماذا لم تعد مضطرة إلى الدخول في معارك معهم؟ كل منهم حيوان مفترس وهي الفريسة؟ صحيح أنها هنا لم تفتح مضافة لهم، لم تكن تجالسهم، لكن ثمة مناسبات كثيرة التقت فيها برجال، انفرد بها رجل، مع ذلك ظل الاحترام هو الرابطة التي تربطها بهم، الأدب، الكياسة.. "فلماذا؟" كانت دائماً تتساءل "هل السر بي أم بهم" "هل ذهبت الكوكيت" اللعوب مني إلى الأبد؟ "جيرار وصفها ذات يوم "بالكوكيت" ولم تكن قد انتبهت لنفسها يومذاك.. "ربما كانت الأنثى في داخلي تتصرف بما لا يملك معه الرجل إلا أن يثار؟" الإغراء مطية إبليس.. وما من آدم إلا ومن الممكن أن يكون مطية إبليس.. وما من آدم إلا ويوجد في الأنثى حواء تلوح له بالتفاحة ومن تراه لا يحب التفاح؟! "لعل حادثة جيرار قتلت فيها الكوكيت... هي تتذكر جيداً كيف وجدت نفسها حبيسة داره، الحارس على بابها ولعلعة الرصاص في أذنيها... ساعات طويلاً ظلت ترتعد وهي تنتظر في أي لحظة أن يفتح جيرار الباب، وبالقوة والسلاح يفترسها.. "هو غبي" كثيراً ما كانت تردد وهي تستعيد تلك اللحظات "لو دخل شاهراً مسدسه، مزق ثيابي عن جسدي واغتصبني اغتصاب القوي المقدر، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كيف كان لخنجري أن ينقذني؟" هي تعلم أن استهتاره ولا مبالاته هما اللذان أنقذاها من برائته، لكنها تعلم أيضاً أن فرائصها كانت ترتعد.. طوال انتظارها له، ثم وهي تنقض عليه بالخنجر، بعدئذ وهي تعبر أزقة الليل والخوف لاطئة من جدار إلى جدار.. ألهذا السبب ماتت فيها الأنثى؟ انقطعت عنها الدورة الشهرية فلم تحبل بعد ذلك ولم تلد؟ شمس لا تدري.. كل ما تدريه أن خوفها تلك الليلة كان شديداً.. هو نوع من ذلك الخوف الذي يقطع الجوف..

لقد قطع جوفها، مزق أحشاءها وربما قتل البييضات في مبيضها، فكيف تحبل أو تلد؟ كيف لا يتغير سلوكها مع الرجال؟ كيف لا يتغير سلوك الرجال معها؟

الاحترام، الهوامش، الحدود، ذلك ما بات يميز علاقتها بالرجال... الكل يعرف حده ويقف عنده، وهي سعيدة، راضية. عزيز يملأ عليها حياتها.. حبه ما يزال ملء جوانحها، لكنه حب من نوع جديد... هو عميق هادئ كنهز النيل... لا صخب، لا زبد، لا اضطرابات.. مياه هائلة تجري بطيئة متمهلة، لا يعرقلها شيء

ولا يعكرها شيء. لكن يظل السؤال "لماذا تقرب هذا القومندان؟" "لماذا خدماته لنا؟" "لماذا رغبته في أن يعرف ماضيها؟" "لماذا الحاحه على الدخول في حياتنا؟" كثيراً ما كانت شمس تطرح تلك الأسئلة على نفسها لكن الأكثر بكثير هو طرحها إياها على عزيز فيقلبان أوجه المسألة ليظلا حائرين، وتظل الأسئلة حائرة.

دخلت وضحة الغرفة، حملت العشاء وقد انتهى الزوجان منه.

-تريدان الشاي عمي، عمتي؟ سألت وضحة الزوجين بلهجتها البدوية التي لم تغيروها ولم تبدلها.

-اي.. لكن شاي ثقيل.. أكره عجم، أجاب العم باللهجة نفسها كي لا يبدو نشازاً. فيما اكتفت العمّة بهز رأسها للفتاة التي عنست وكبرت، سممت وترهلت وهي تخدمها، رفيقة لا تفارقها في حل أو ترحال.

-تدري، أنا خائفة من هذا القومندان.. قالت شمس ما إن أغلقت وضحة الباب وراءها.

-معك حق.. الرجل يخوف ويحير، عقب عزيز وهو يطرق أرضاً ثم تجذب عينيه نار المدفأة فيمسك بالملقط يحرك عبر فوهتها قطع الحطب التي تحولت إلى جمر متوهج..

تلك الحيرة والخوف هما اللذان دفعا شمساً لأن تفكر بالهرب "لكن المشاكل لا تحل بالهرب، قال لها عزيز حينذاك"، المشكلة يجب أن نواجهها كي نحلها لا أن نهرب منها لتلاحقنا ثم تقضي علينا". الأحداث نفسها جاءت متسارعة لتدعم رأى عزيز..

القومندان يتطوع من تلقاء نفسه لخدمة عزيز وشمس. لا يطلب حاجة، لا يبتغي جزاء ولا شكوراً فلماذا يهرب عزيز؟ صحيح، هو خائف بل خوفه مزدوج.. خوف تعرفه شمس وخوف لا تعرفه البتة.. إذ لم يكن عزيز يلتقي بالقومندان مرة إلا ويتساءل في سره "أهو يشك بماضي أم بحاضري؟ أيتقرب لحل لغز قديم أم لغز جديد؟" ذلك أن علاقته مع البطحيش، وان تمكن حتى ذلك الحين من إخفائها، هي التي كانت تشغله وهي التي كان دائماً يضعها في الحسابان "ماذا إن كان الفرنساوي قد وقع على أثري؟ عرف شيئاً عن أعمالي تلك؟". صحيح أن غياب البطحيش أشهراً طويلة، ولجوء عزيز إلى السكينة، طمأنه قليلاً، إلا أن الصحيح أنهما، بعودته، عادا إلى العمل من جديد. كان الإغراء أقوى من أن يقاومه عزيز، وكان البطحيش قادراً دائماً أن يلوح بذلك الإغراء. إذ لم يمض على

زيارة عزيز للوكر المختبئ في أحشاء الكرك شهر أو شهران حتى دعاه الداعي لعملية جديدة كانت حصيلتها جندياً سنغالياً وعشر بواريد أخذها الصديقان اللذان كان قد تملكهما هاجس فلسطين وحاجة أبناء فلسطين للسلاح. لكن إن كان الفرنسي قد ظل عاجزاً عن معرفة سر عزيز والبطحيش، هل يعني ذلك أنه عاجز عن البحث والتقصي؟.

عزيز يساوره خوف الحاضر بقدر ما يساوره خوف الماضي. هو يعلم أن للقومندان يداً في الاستخبارات وأنه قد لا يكون سوى شرك نصبه الفرنسيون للإيقاع به. "قد يكون أصدقاؤك كلهم مزيفين، لكن ثق أن أعداءك كلهم حقيقيون" عزيز لا يدري ممن سمع تلك الحكمة لكنه على يقين أنها صحيحة... "مزيفون!!" أجل ما أكثر الأصدقاء المزيفين.. يأتي إليك الصديق، يسبغ عليك القبل، يعطيك الحلاوة من طرف لسانه، لكن ما إن تحين اللحظة حتى يلدغك، فما الذي يضمن ألا يلدغك القومندان؟.

القومندان يتحرك.. يغيب.. يظهر.. هو في بيروت حيناً، في باريس أحياناً وفي دمشق أكثر الأحيان... المندوب السامي يثق به.. فرنسا نفسها تكلفه بمهام خاصة... كلهم في دمشق يعرفون ذلك.. عزيز سأل الزعيم، سأل صبري، سأل ذوي الشأن فأكدوا كلهم أن القومندان راسخ الأقدام، عميق الجذور، موضع ثقة دولته. إذن، كيف يمكن أن يكون موضع ثقة عزيز أو شمس؟.

مع ذلك ظل السؤال: لماذا أرسل الأخضر إلى فرنسا؟ لماذا مهد له الطرق كلها؟ قدم له تلك الخدمات كلها؟ فأخبار الأخضر مفرحة كل الإفراح.. ما إن وصل إلى باريس وقدم رسائل التوصية حتى وجد كل عناية وترحاب من إدارة السوربون ومن الدكاترة الأساتذة... راتبه عال يعيش به عيش الأمراء، مسكنه مؤمن، حاجاته مقضية، بل حتى أخت القومندان سارعت إليه، عرضت عليه صداقتها، عرفته بزملاء وزميلات، دعتة إلى منزلها، عرفته بأهلها. "جانيت فتاة رائعة، هكذا كتب لهم في آخر رسالة" تقدم لي كل عون.. لا تبخل علي بجهد أو وقت" وعادت الحيرة من جديد "تري ما هو ذلك القومندان؟ ملاك أم شيطان؟ ينوي بنا الشر أم يريد لنا الخير؟" أسئلة تحير فكيف يمكن لعزيز وشمس إلا أن يكونا رهن الحيرة والشك؟

-تريد رأيي.. لا تأخذه معك إلى القرية.. قالت شمس وهي ترشف الشاي الذي جاءت به وضحة.

-لو كان الصيف لتهربت.. رد عزيز وهو يتنهده.. بحجة العمل.. التجارة..

يمكنني التهرب لكن الآن ولا عمل سوى القعود في المحل.. بماذا أحتج؟

-بأية حجة.. المهم أن تبعده عنا، عن ماضيها..

-صحيح، لكن كيف؟ بعد كل ما فعله لنا من معروف نقول له: اذهب عنا..

لا نريدك.. ألا يثير هذا شكوكه أكثر؟

شمس تعلم أن هذا يثير شكوكه أكثر، لكن ماذا تفعل؟

-لا أدري.. المهم أن نحمي أنفسنا منه.. هو نار والاقتراب من النار

خطر.. ألا تذكر يوم دعواته إلى الغداء؟ سألته شمس:

-وكيف تراني لا أذكر؟ أجاب عزيز وهو يهز رأسه، رغماً عنه كان قد

دعاه.. فالخدمة التي هي بألف خدمة كانت تثقل كاهله وكان يريد أن يردّها له

بهذا الشكل أو ذلك. يومذاك كان والده علي المر قد جاء من القرية يودع الحفيد

الذاهب إلى فرنسا وكان يرافقه نواف، الحفيد الآخر الذي تزوج واستقر في القرية،

قوة لجدّه علي المر وعوناً لعمه يونس... وكانا يحملان معهما خرافاً، فقطيع

الأغنام الذي بدأ بنعجة عزيز العزراوية بات يعد بالمئات، وبات باستطاعة علي

المر أن يذبح لضيفه الخروف والخروفين دون أن يرف له جفن فماذا يحمل معه

إلى الشام؟ أقل من ثلاثة خراف؟

عزيز شال برأسه زهواً... ثلاثة خراف تصنع وليمة، بإمكانه أن يدعو لها

أعيان القوم ووجوههم فيعيد عزيز عزه. الدكتور الشهبندر، فارس الخوري، صبري

العسلي، جميل مردم، كلهم دعاهم عزيز كما دعا شريكه -صبري وعلى رأس

الضيوف كان رينو.

يومذاك، كان القومندان في أوج فرحه، يمازح هذا، يضاحك ذلك، يتبسط مع

الكل، يكيل المديح للمضيف حاتم الطائي، جوداً وكرماً، ثم أبي إلا أن يأكل التريد

بيده "أنا أحب العرب.. أحب طريقتهم في الأكل.. فلا يكون وسيط بين الإنسان

وطعامه..". قال إذاً مبرراً إقباله على الطعام بيده رغم الشوك والمعالق التي

كانت من فضة والتي حرصت شمس أن تزين بها المائدة.

"لورنس كان كذلك"، قال عزيز معلقاً، وقد تذكر ذلك الضابط الإنكليزي الذي

كان يرافق الأمير فيصل في حملته لتحرير الشام. "أتعرف لورنس؟" سأله فجأة

القومندان وقد اكتسى وجهه سيما الجد. ارتبك عزيز وتعثّر وقد أدرك أنه أخطأ،

فالقومندان لا يحرص على شيء حرصه على الغوص في ماضيه، وها هو ذا

يعطيه أدوات الغوص كلها.. ما أنقذه هو تدخل صبري... صديقه وشريكه "أنا

الذي يعرفه... وأنا الذي حدثه عنه"، بدأ متضحاً وفي نيته إبعاد الكرة عن مرمى عزيز، هو الذي يعرف عنه كل شيء"، "كان يأكل بيده ثم يمسح بها لحيته ويقول: صابون العرب لحاهم" وضجت المائدة بالضحك...

مع ذلك لم يفوت القومندان الفرصة، حين خرج يغسل يديه وجاءته شمس بالمنشفة "أنت مشبعة حضارة ومدنية.." قال لها شبه منح إجاباً بطعامها وشرابها" أنا لا أصدق أنك جئت من البادية إلى دمشق مباشرة.. ألم تعيشي في مدينة أخرى من قبل؟".

شمس تذكر ذلك السؤال، لكنها لا تذكر جيداً كيف تخلصت من جوابه. شيء كالرعب تملكها للتو فارتعدت مفاصلها.. لا... لا.. يمكن أن يكون ذلك السؤال بريئاً.. هي تعرف ذلك.. لكن ماذا تفعل وهي لا تستطيع قطع الصلة بالقومندان ولا تستطيع نكران جميله؟

-محير هذا الرجل.. محير.. رددت أخيراً وكأنما تردد لنفسها.

-بالتأكيد، رد عزيز وهو يلعب الجمر بالملقط، لكن ما أظنها إلا لعبة ذكاء فرضت علينا، ولا بد لنا من أن نلعبها..

-أمي، أبي، قاطعتهما بدور، الصبية الكاعب، وقد دخلت الغرفة لاهثة مقطوعة الأنفاس.

-ما بك.. بدور.. ماذا هناك؟ سارعت شمس للإجابة فيما بدا على الأب سيما التعجب والاستغراب.

-روضة خرس..

-خرست؟! ماذا تقولين؟ صاح الأب والأم معاً.

-أجل... لم تعد تستطيع النطق.. صارت خرساء... ووجدت شمس نفسها تهب ملء طولها.. وألف دافع يدفعها لأن تمضي إلى روضة الخرساء..

وصلت شمس فوجدت أم روضة تلطم صدرها وتسفح الدموع نائحة.

-تعالى.. انظري.. أختي.. شمس.. روضة خرس.. ما عاد لسانها ينطق بحرف.. خرساء روضة صارت.. خرساء.. وأمسكت بها شمس من كتفها تربتها مهدئة..

-توكلي بالله.. أم روضة.. هو خرس عارض ولا شك.. روضة كانت عندي العصر.. ما أحلاها!! بلبل يغرد!!

-الببل الآن صار حجراً.. لا ينطق.. لا يسمع.. لا يفهم.. تعالي انظري  
أختي شمس. وسارت أم روضة بصاحبتها إلى داخل الغرفة، حيث كانت روضة  
وسط حلقة من أخوات ثلاث والكل يشهقن ويبكين..

-روضة؟ ماذا بك خالة؟ أسرعت شمس إليها هي لا تصدق ما تراه.. لكن  
روضة اكتفت بفتح فمها والارتواء بين ذراعي شمس. شدتها شمس إلى صدرها  
لحظة مربتة ظهرها، ثم أبعدها عنها، ماسحة بيديها الدموع عن وجنتيها.  
-هه.. تكلمي.. بدأت شمس وكلها حب وتشجيع.. روضة.. قولي.. ماذا  
بك؟

فتحت روضة فمها على سعته، لسانها تحرك بين سقفه وأرضه، لكن دون أن  
يخرج إلا خليط من أصوات مبهمه خرساء تحاول النطق فلا تستطيع..  
-يا إلهي!! روضة!! قبل ساعتين فقط كنت عندي، كان لسانك ينطق، وكنا  
نتحدث، ما الذي جرى؟ انطقي.. تكلمي.. حاولي..

لكن محاولاتها باءت بالفشل من جديد.. ومن جديد عادت دموعها تنهمر  
ونواح أمها يتعالى. وجه روضة شاحب كوجه تمثال، عيناها جاحظتان رعباً  
وهلعاً.. ربما هي نفسها لا تصدق أنها صارت خرساء. أخواتها لا يصدقن.  
-لكن كيف؟ كيف حصل هذا؟ سألت شمس الأم وقد يئست من البنت.

-هكذا فجأة، أختي شمس!! بدأت الجارة تشرح وهما تجلسان بجانب  
روضة.. بعد المغرب جاؤوا يخطبونها لابراهيم ابن أبي ابراهيم النجار.. أنت  
تعلمين!! أبوه جار أبي روضة.. عنده ورشة نجارة يصنعون فيها الموازيك  
والمعشقات والمنمنمات... أبو ابراهيم معلم في النقش، والحفر على الخشب..  
كدت أزگرد فرحاً.. أنت تعلمين... البنات يجب أن يتزوجن والولد عريس لقطه..  
ابراهيم تتمناه كل بنت.. لكن حين نقلت لها الخبر انكمشت وارتعدت.. اصفر  
وجهها وغمغمت "لا.. أمي.. لا أريده." صرخت في وجهها "ويلك!! ترفضين  
ابراهيم؟ فلم تزد أن قالت "لا أريده.. لا أريد أن أتزوج". وخشية الفضيحة ذهبت  
إلى أبيها قبل أن يقرأوا الفاتحة. قلت له "البنت لا تريده" وفي الحال هاج وماج  
حالفاً بالسبعة الأبراج، ليقطعن عنقها ان سودت وجهه أو كسرت كلمته.. حاولت  
تهدئته، لكنه رمانى جانباً حاملاً ساطوره، أنت تعلمين ساطور الجزار الكبير  
وأسرع إليها. رأته ففتحت فمها تستجد لكن لم تخرج كلمة الاستجد... بل صرخة  
رعب مبهمه لم تنطق بعدها بحرف.

- هو الخوف إذن!! سألت شمس وهي تنظر إلى روضة التي كانت ما تزال شاحبة الوجه فاعرة الفم دامعة العينين، تمثالاً للذهول والرعب..  
- الخوف.. غير الخوف.. لا أدري.. لكنها فضيحة، أختي شمس..  
فضيحة.. ماذا سيقول الجيران عنا؟ أية إشاعات سيتناقلونها؟  
-قولي مصيبة.. أم روضة.. هذه مصيبة.. ليقل الناس ما يقولون.. ليشع الجيران ما يشيعون.. المهم أن تعود روضة سليمة.. أن يرجع لسانها فينطق..  
-صحيح.. لكن هذا العريس ذهب.. إبراهيم طار من يدنا، ماذا أفعل أختي شمس؟

ماذا أفعل؟

-لا تفكري بهذا.. أم روضة.. فكري ببنتك الخرساء.. كيف تعيدونها؟ كيف تشفينها؟

-صحيح!! كيف تشفى؟ هل تشفى؟ يا للمصيبة!! يا للكارثة!! وعادت أم روضة تلطم صدرها وتتوح من جديد، فيما عادت شمس إلى روضة تحتضنها، تمسدها، ماسحة دموعها، محاولة إزالة الرعب من عينيها.

-لا تخافي.. روضة.. أنت ستتكلمين.. فقط انظري إلي.. اسمعيني... وتوقفت شمس وقد خطر ببالها خاطر.. أم روضة! قالت وهي تلتفت إلى جارتها، خذي البنات واخرجن.. دعيني مع روضة لحظة..

لم تكذب أم روضة الخبر.. غريقاً يتعلق بحبال الشمس، أشارت إلى البنات أن يتبعنها ثم خرجت بهن، وكأنما راودها الأمل نفسه بأن تفك عقدة لسانها.

-هه.. أخبريني.. ما الذي جرى؟ سارعت شمس إلى حنثها على الكلام وقد خلا لهما الجو. فتحت روضة فمها من جديد تريد أن تتكلم لكن من جديد استعصى عليها الكلام، بارودة استعصى رصاصها فوقف في بيت النار لا يدخل ولا يخرج.. همهمة وهمدرة، اختلاط أصوات ومحاولات نطق.

-أ.. أ.. أ.. تبعنها هأهأه.. هه.. هه.. ثم شعور بالعجز فيأس فانهمار دموع من جديد.

-خفت من ساطور والدك!!!؟

وهزت روضة رأسها دافنة إياه في حضن شمس وشمس تدرك أن الخوف يعقد اللسان.. هي تذكر قصصاً رويت وأحداثاً وقعت عن تأثير الخوف ذلك الذي

يحيل الشعر الأسود إلى أبيض. أجل، الخوف يشيب الشعر فكم هو فظيع هذا الخوف!! كثير من الناس حبس لسانهم الخوف فلم يعودوا ينطقون.. في قبيلتها أكثر من بنت انعقد لسانها في موقف كهذا.. خافت من أب أو فزعت من أخ فانعقد لسانها.. هناك في المضارب يدعونها الحبسة والحبسة تعالج..

بل هي أحياناً تشفى دون علاج، بالملاطفة، بالكلام الجميل، بالمعاملة الحسنة، تشفى الحبسة.

-هيا.. روضة.. لا تخافي الآن.. نحن وحيدتان.. انطقي.. حاولي.. راحت شمس تحسها وهي تمد يديها إلى شفثيها ولسانها، مثيرة، محرصة، وكأنما تريد أن تعلمها كيف تنطق.. روضة تحاول، تفتح فمها على مصراعيه، تطلق الهواء من رثيها أمرة حنجرتها بتريدي الأصوات المفهومة.. لكن فجأة تشعر وكأن حبالها الصوتية أوتار جلدية في ليل صقيعي، يمر بها الهواء فلا يحرك ساكناً.. روضة أحست بذلك الجليد مذ وقعت عينها على ساطور أبيها يحمله بيده ويدخل غاضباً مزمجراً. "هي تريد أن تروى لشمس كيف صرخ بها: ترفضين إبراهيم؟ لماذا؟ قولي.. "تريد أن تصف لها كيف كان الساطور يلمع في يده، الغضب يلمع في عينيه، الموت يلمع هنا، هناك في فضاء الغرفة، تريد أن تحكي لها ما فكرت به، لكن كيف ولسانها لا ينطق؟ روضة تعي لحظة بلحظة ما حدث معها بعد ذلك.. تريد أن تحكي لها ما فكرت به "أقول له أحب الأخضر؟" لمع السؤال في ذهنها فارتعدت من أخمص قدمها حتى قمة رأسها "إذن هو الموت؟ لكنني لا أريد إبراهيم.. لا أريد سوى الأخضر.. أحب الأخضر.. أحب الأخضر ولا أرضى بديلاً عنه "لكن زمجرة جاءت أكثر حدة وغضباً "قولي.. هيا.. تكلمي.. لماذا ترفضين إبراهيم؟" وتراجعت روضة أمام أبيها نحو الزاوية.. "أبي.. أرجوك.. فقط لا أريد إبراهيم".. صار للبنات لسان ينطق... "زمر الأب من جديد". رأي بمن يتزوجن.. يرفضن.. أو يقبلن.. قسماً لأقطعن لسانك إن ترفضني.. هيا.. تريدين إبراهيم أم لا؟ تكلمي.. أجيبني. "كانت روضة قد صارت في الزاوية، محشورة كفار في حجر، الساطور فوق رأسها يلمع كحد السيف والموت يتراقص أمام عينيه شيطاناً للرعب، فتحت فمها تريد أن تتكلم، أن تجيب.. أطلقت الهواء من صدرها.. أمرت حبالها الصوتية أن تقول "كما تريد يا أبي!! أنا بأمرك يا أبي!!" وخيل إليها أنها نطقت العبارة التي علمتها إياها أمها من قبل فالأب لا يعصى والبنات لا تملك إلا أن تقول له "كما تريد يا أبي!! أنا بأمرك يا أبي" لكنها لم تسمع صوتها.. ربما هي نطقت العبارة لكنها لم تسمعها.. كانت تريد أن تبعد

شبح الموت... وتلك العبارة وحدها تبعد شيخ الموت.. "إذن لماذا لا أقولها؟" ومن جديد أمرت حبالها الصوتية بتردادها.. فعينا الأب بدنا أكثر غضباً وسيما وجهه أكثر احتقاناً وهو ينتظر جواباً لا يجيء..

-ماذا قلت؟ انظري.. تكلمي.. هدر صوته من جديد.. فيما كانت يده تتحرك بالساطور عالياً تريد أن تهوي... من جديد فتحت فمها تريد أن تتكلم.. لكن من جديد لم يخرج جواب ولم يسمع صوت... لا أبوها سمع صوتها ولا هي سمعته. إذن، أين ذهب ذلك الصوت؟

-أ.. أ.. ه.. ه.. ه.. وحده ما خرج من فمها في المرة الثالثة والرابعة والوالد يزداد غضباً وزمجرة، إلى أن أدركت أن حبالها الصوتية تخذلها، لسانها يخذلها عاجزاً عن النطق. في اللحظة نفسها، ودون أن تشعر، أطلقت صرخة حادة وقد ملأ عينها زعر أشد من زعر الموت ثم سقطت أرضاً، وكأنما تبحث فيها عن النطق ذاك الذي أضاعته، فكيف تعيده إليها شمس؟ أنى لمحاولاتها أن تجدي نفعاً وقد عقد لسانها الخوف؟

في الأيام التالية صارت روضة شغل الحي الشاغل، صندوق فرجة يريد الكل أن يتفرجوا عليه... وكان ذلك كل ما تخشاه أم روضة، الفضيحة... مذ توقف لسان روضة عن النطق خشيت الفضيحة.. "أية إشاعات!! أية أقاويل!! أية فضيحة" كانت لا تفتأ تكرر وقد وجدت نفسها عاجزة عن التصرف.. تستقبل النساء الآتيات لمواساتها في ابنتها أم تطردهن؟ كسيرات حزينات يأتين لمشاركتها في مصابها، فهل تردهن على أعقابهن؟ يذرفن معها الدموع، يلطمن خدودهن، فكيف تشك في عواطفهن؟ فتيات الحي، نساؤه كلهن يفتحن أعينهن تعجباً من لسان روضة الذي عجز عن النطق فجأة، حاولن حل عقده، فك عقاله.. لكن بدا وكأن العقدة لا تحل، والعقال مشدود على نحو لا فكاك له..

-خذيها إلى الطبيب، قالت شمس لجارتها وقد ذهب هول الصدمة الأولى...

-وماذا يفعل لها الطبيب؟ هي حبسة لسان وما يفهم الطبيب بحبسة اللسان؟ ردت أم روضة التي لم يكن الطبيب قد دخل مخها يوماً، فالأطباء دجالون، مشعوذون، لا يعرفون شيئاً.

-هناك طبيب، صديق عزيز، يفهم كثيراً..

-لا.. لا.. الأطباء كلهم لا يفهمون..

-لكن، صدقيني.. هذا غير شكل، الدكتور عبد الرحمن يفهم، دارس برا.. وهو صديق عزيز.. نأتي به إلى روضة يراها ولا نخسر شيئاً.. وكادت أم روضة تقتنع... إلا أن الجارات الأخريات تدخلن.. -لا.. لا.. حرام أن يكشف عليها رجل، قالت إحداهن.

-ولماذا الطبيب؟ هي ستشفى من تلقاء ذاتها، قالت أخرى:

-ولماذا لا تأخذينها إلى الشيخ عمر؟.. قالت الثالثة.. وانطلقت أصوات أخرى في الحال تثني على الاقتراح العبقري، الشيخ عمر حجة الميدان والشاغور، بل دمشق كلها، يكتب الحجب التي لا يقف في وجهها شيء، يرقى الرقى التي لا تخيب.. التعاويذ حرفته، التمام شغلته... الأمراض كلها يشفيها، السخونة يرفعها، البرص يزيله بل حتى العقم يجتثه من جذوره.. كثير من النساء العاقرات ذهبن إليه وخرجن منجبات مخصبات كثرية الغوطة.. الأهم من هذا كله أنه "مخاوي" الجن.. وأن هؤلاء يسلسون له قيادهم فلا يعصاه أحد منهم..

سألت شمس الجارة التي أبدت حماسة شديدة للاقتراح، فراحت تتكلم عن مقدرات الشيخ عمر، أعماله ومعجزاته تلك التي تصل حد المعجزات والكرامات.. -عجبا.. جارة.. كيف تسألين هذا السؤال؟ حصانك نشيط قوي، يجري هنا وهناك، فجأة يتوقف في مكانه عاجزاً عن الحركة، ما الذي يكون قد جرى له؟ -ماذا؟ ردت شمس وهي لا تدري قصد الجارة من مثالها ذلك.

-أحدهم عقل قائمته، ربطهما معاً بعقد أو حبل فعجز الحصان عن الحركة.. صح؟ سألت الجارة على حين غرة النساء من حولها.

-صح، جاء الرد من النساء جميعاً وقد تحمسن للفكرة والمثال.

-هكذا اللسان، تابعت الجارة منتصرة مزهوة، يتكلم ويتحرك إلى أن يأتي جني فيعقده.. وتلك هي الحبسة..

-صدقنت جارتنا.. أم محمد الحداد صار معها ذلك.. وذهبت إلى الشيخ عمر.. من أول مرة فك عقدة لسانها وعادت صحيحة سليمة من جديد..

-خلاص، أم روضة خذيها إلى الشيخ..

-أجل.. جارة.. ليس لك إلا الشيخ.

-الشيخ مضمون أختي أم روضة، بجلسة واحدة يطرد لك الجني ويعيد

اللسان إلى طبيعته... .

راحت التعليقات تترى من هنا وهناك، إلى درجة وجدت شمس نفسها حصة في وجه تيار، لا تملك إلا أن تسلم أمرها له.

-بالتأكيد، هو جني مريد، قال الشيخ عمر وهو يفحص الفتاة التي كانت تفتح فمها أمامه عاجزة عن الكلام.

-والعمل سيدي الشيخ؟ سألت الأم واللهفة ملء عينيها، أرجوك، سيدي الشيخ... أنقذها سيدي الشيخ ولك كل ما تريد.

-لست أنا من يريد، بل هو الجني المريد، قال الشيخ أبيض اللحية، أعجف الجلد وهو ينقر بعصاه جانب وجه الفتاة.. لقد دخل هنا ولن يخرج إلا بعمل.. عمل صعب.. وفدية كبيرة.

-أنت تأمر.. سيدي الشيخ..

-الخميس تعودين إلي ومعك خروف لا يخالط سواده ابيضاض ولا قرنيه اعوجاج.

-تأمر، سيدي الشيخ

-ولا تنسي أن تأتي بجام من البخور وقنينتين من العطور، ثلاث من عصي الخيزران وخمس من الذهب الرنان..

-تأمر، سيدي الشيخ..

يوم الخميس عادت أم روضة بابنتها حاملة جاماً من البخور وقنينتين من العطور، ثلاث عصي من الخيزران وخمساً من الذهب الرنان.

-ادخلي إلى هذه الغرفة، أمر الشيخ، المتربع على دكته العالية، روضة التي كانت تقف أمامه، شاحبة الوجه، مرتعدة الفرائص، همت الأم بالتحرك معها، إلا أن صرخة "قف" غاضبة سمرتتها في مكانها.

-وحدها تدخل الغرفة، تابع الشيخ، أم تظنين أن الجن يخرجون في حضور الإنس؟ أحنيت الأم رأسها طاعة وخضوعاً، فيما كانت عيناها تتابعان ابنتها بإشفاق وهي تتخطى خائفة وجلة عتبة الغرفة الأخرى.

عقب البخور ملء الغرفة، دخانه شبه حجاب، روضة لا ترى من ورائه شيئاً، لا تميز شيئاً، الوجل في قلبها يجعلها تهم بالجري كأرنب مذعور لكنها لا تتجرأ. تتلفت وراءها إلى الأم الخائفة المشفقة فتشجعها الأم بحركة من يدها وغممة من

شفتيها لا تفهمها روضة، فيما الشيخ فص ملح وذاب..

يدان كأيدي الفتيات أمسكتا بيدي روضة، ناعمتا الملمس، طريتان لم تعرفا كدحاً ولا شفاء.. نظرت روضة عبر دخان البخور وعبقه فرأت غلامين، ربما هما في سنها أو أصغر.. قادها الغلامان إلى لوح في صدر الغرفة.. أوماً لها أن تتبطح عليه.. دون تردد انبطحت الفتاة، وجهها إلى الأرض يداها إلى الجانبين.. لوح الخشب تحتها صلب قاس، لا يخفف من قسوته حصيرة أو حشية. أحد الغلامين شد وثاق يديها إلى عمود عند رأس اللوح، الآخر فعل ذلك برجليها عند أسفله.. بعد ذلك سمعت الشيخ يهمهم بشيء..

رفعت رأسها فرأته يلوح بمبخرته إلى الأعلى والأسفل، اليمين والشمال. الشيخ يتحرك حول اللوح، الدخان ملء خيشوميتها، ملء عينيها، ملء صدرها، وتسعل، تعطس، ثم تهمد. شفتاه تتمتان بشيء لا تسمعه روضة.. الغلامان يتحركان إلى الوراء، كل منهما في زاوية يرقب الشيخ وهو يلوح بمبخرته، قاذفاً إياها إلى الأعلى، مطيحاً بها إلى الأسفل، مغمغماً مهممماً. الدخان يتكاثف والعبق يشتد، وشيء كالديوار يبدأ في رأسها.. أنامل من خدر وغشيان تمتد إلى أصابعها، إلى عينيها، إلى أذنيها لتتحول الدنيا كلها إلى شيء من سديم، هبولى لم تعرف التشكل بعد.. أخيراً سمعت صوت الشيخ وهو يدمدم، خافتاً مبهماً في البدء ثم عالياً واضحاً فيما بعد.

- شمروخ، ممروخ.. يامن لا تلبس حرير.. ولا جوخ، لماذا جئت إلى ذلك البيت؟ وماذا فعلت بهذه البنات، تباً لك! تباً لك! تدخل إلى الإنسان فنخرس اللسان... اخرج أيها الجان، يا سليل الشيطان!! شمروخ ممروخ! تباً لك!! تباً لك!! ملعون ابن ملعون!! اخرج يا مافون!! النار مهواك وجهنم مأواك!! تباً لك!! تباً لك!! شمروخ ممروخ!! شمروخ ممروخ!! لكن فجأة انتفض كل ما في جسد روضة.. فجأة توقفت عن أن تسمع أو ترى، وقد سرت في جسدها موجة وجع شديد.. كانت عصا الخيزران قد بدأت تنهال على ظهرها، كتفيها، رديها، فخذها.. بسرعة وقوة كانت تنهال الضربات وابلاً من مطر صيفي لم تملك معه روضة إلا أن تصرخ، صوتها يشق عنان السماء، جسدها كله يتخبط فوق اللوح وهي تحاول الهرب.. لكن أنى لها الهرب ويداها موقفتان؟! أنى الهرب ورجلاها مقيدتان؟! العصي قاسية لا ترحم.. ضرباتها موجعة.. تشعر روضة أنها تحفر عميقاً في جلدها والشيخ الهرم لا يتعب..

حاولت روضة أن تستغيث، أن تقول له: ارحمني.. لا تضربني.. لكن عبثاً

فلسانها المنعقد لم تنفك عقده. العقال الذي يشده إلى لهاتها لم تحله الضربات، هي تصرخ، تصيح لكن صراخ الخرساء وصياح معقودة اللسان، ماذا تفعل؟ الألم شديد.. ظهرها أسياخ من نار، إيتها شواظ من لهب وهو يضرب، يضرب، عصاه تتكسر، فيسرع الغلام بعصا جديدة، الثانية تتكسر فيسارع الغلام الثاني بعصا ثالثة والشيخ يعاود الصراخ: شمروخ ممروخ يا صاحب الجلد المسلوخ.. اخرج أيها الجان، يا سليل الشيطان!! لا!! ليس من عينها، ويحك تفقأ عينها.. ويشند هلع روضة.. تود لو تستطيع مد يدها إلى عينها تحميها من الجني.. لكن يدها موثقة.. فترتعد وتتلوى والعصي تنهمر عليها وصرخات الشيخ تلعلع من جديد.

لا.. لا تخرج من أذنها ويحك!! تجعلها طرشاء.. ثم تتهاى الضربات موجعة حارقة كشواظ النار.. لا تخرج من أنفها، لا تخرج من يدها، لا تخرج من بطنها.. اخرج فقط من إصبع رجلها الصغرى. اخرج.. اخرج.. اخرج.. وتغيب روضة عن بقية الصرخات وقد بات لضربات الخيزران وقع أشد إيلاماً من أن يتحملة وعي إنسان.

-7-

-عواد!! هتف عزيز فرحاً وهو ينهض لاستقبال الشاب الطويل النحيل، أشقر الشعر والشاربين، أهلاً بك في دمشق.

-أهلاً بك عمي أبا العز.. رد الشاب النحيل الطويل وهو يقبل كتفي الرجل الذي لم يكن قد مضى على رؤيته له أكثر من عشرة أيام. فطوال موسم البيدر، كان عواد يعمل كالعادة جمالاً يحمل عدول الحبوب من الجنوب إلى الشمال: الموسم خصب نقل فيه عزيز الكثير من الحنطة والشعير ملاً بهما مستودعه أولاً ثم باع الباقي لهذا التاجر أو ذاك. كان عواد قد قدم فحص البكالوريا من جديد، وكان رسوبه مرتين قد زاد من تصميمه على النجاح أكثر وأكثر. وأواخر نقل الموسم أعلنت النتائج وكم كانت فرحته كبيرة حين رأى اسمه على صفحة الجريدة!! كم كانت فرحة أمه الأرملة كبيرة، وهم يبشرونها بنجاح ولدها!! أخيراً أثمرت جهودها!! امرأة مات عنها زوجها تثبت للناس جميعاً أنها قادرة أن تعمل في الأرض، أن تربي ولدها خير تربية بل أن تعلمه كما لا يستطيع الرجال تعليم أبنائهم. عرس كبير أقامته له.. عزيز حضر ذلك العرس، قدم له ذا القرنين هدية النجاح ثم دبك في المسرح كما لم يدبك من قبل.

-هه.. بدأ التسجيل؟ سأله عزيز وقد أجلسه قربه على كرسي القش الصغير فيما عدول الحنطة والشعير ترتفع في المحل أكداً أكداً..  
-أ.. أجل.. ل.. ل.. لكنني.. خائف..

ودون أن يفصح عواد عن خوفه، كان عزيز قد أحس في نبرته تلعثماً وتردداً.

-خائف.. مم؟

-يقولون.. الحقوق بحاجة إلى دوام والدوام بحاجة للإقامة في دمشق..  
وأخشى أنني لا أستطيع ذلك...  
-لماذا لا تستطيع؟ تعال.. أقم عندي.. اعتبر بيتي بيتك..  
-سلمت عمي عزو.. لكن..  
-لا.. لا تقل لكن.. بيتي واسع بل هو فارغ.. الأخضر في فرنسا.. نواف  
في القرية.. فلماذا لا يسعك.. ولداً من أولادي؟  
-أنا أعرف شهامتك وكرمك وعمي أبا العز!! وأشكرك كل الشكر على هذا  
العرض!! قال عواد وهو يمسك بيدي عزيز عرفاناً وامتناناً رافعاً إياهما يكاد  
يقبلهما.. لكن أفضل.. وفجأة توقف لكأنما غصت حنجرته بالكلام...  
-هه.. قل.. ماذا تفضل؟ سأله عزيز وقد راه يتوقف متردداً من جديد..  
-أفضل أن أجد عملاً.. قريباً.. رد عواد وقد استعاد تماسكه.. هنا في  
المدينة أو ضواحي المدينة، فأدرس الحقوق وأؤمن مصروفي.. أنت تعلم..  
العجوز لا تستطيع ذلك في دمشق.  
-العجوز كفت ووفت.. تعبت وشقيت.. حتى أوصلتك إلى هنا.. صحيح..  
عليك أن تريحها الآن.  
-لذلك قلت أشغل وأدرس، فأضرب عصفورين بحجر واحد..  
-نعم الرأي، قال عزيز معجباً بفكرة الفتى الناحل الطويل.. لكن ماذا في  
ذهنك؟ أي عمل تريد؟  
-هذا ما جئتك نبحث فيه.  
-اسمع عواد، قال بعد أن توقف قليلاً متفكراً.. ما رأيك تعمل هنا.. معي؟  
سأله وهو يشير بيده إلى المحل.  
-هنا..؟ عمل مؤقت؟!  
-إذن تريد عملاً دائماً؟  
-أجل عمي أبا العز.. وظيفة في الميرة.. في السراي... معلم وكيل كما  
عملت العام الماضي...  
-هو ذاك... هتف عزيز مثنياً.. أجل.  
معلم؟! بيدك حق.. عمل أخف وأنظف!!  
-هل تستطيع مساعدتي عمي أبا العز؟ أتعرف أحداً يمكنه تعييني؟

-أعرف.. أجل.. أعرف.. رد عزيز دون حتى أن يفكر.. عواد طلب منه خدمة فهل يتقاعس؟

هو يعرف رجالاً من بني وطنه، يمكن أن يطلب منهم هذه الخدمة، لكن هل يستطيعون تأديتها؟ شريكه صبري؟ الدكتور عبد الرحمن؟ جميل مردم؟ كلهم لا يملكون من أمر البلد شيئاً.. أكثر من مرة رأهم يخذلون أمام عنت ليوتتان أو كايبتان فرنساوي، فلماذا لا يقصد رأس النبع؟

-انهض معي.. أشار له وهو ينهض، ثم سرعان ما أغلقا المحل ومضيا يغذان الخطأ. بالترحاب استقبلهما القومندان رينو وقد فاجأته الزيارة فهش لها وبش..

-أنا لا أصدق.. عزو يزورني!! قال القومندان بلكنته الأجنبية وهو يجلسهما على مقعد وثير ليجلس وراء طاولته..

كانا، مذ أرسل القومندان الأخضر إلى فرنسا، يلتقيان.. لكن القومندان دائماً هو المبادر، هو من يذهب إلى عزيز في المحل، يزوره في بيته، يفرض عليه نفسه...

-حقك علينا مسيو قومندان!! بدأ عزيز وهو يجرب مخزونه من الدماثة التي حاول اكتسابها ذات يوم في حماة، لكن خالد آغا والكايبتان جيران قطعاً عليه الطريق حينذاك. الحقيقة، زيارتكم واجبة...

-صحيح.. زيارتنا واجبة.. مع ذلك لا نراك.. إذن لا بد هذه المرة، جاءت بك الأمور الصعاب... قال ضاحكاً وهو يشير إلى الشاب النحيل الطويل الذي كان عزيز قد قدم اسمه، لكنه لم يستطع حفظه..

وشرح عزيز الأمور الصعاب التي جاءت به فضحك من جديد..

-معلم!!؟ بسيطة يا رجل!! قال بكثير من الاستهانة، ثم التفت إلى عواد، اعتبر نفسك معلماً منذ اللحظة، ومد يده ببطاقة تحمل اسم القومندان بأحرف سوداء متراكبة توحى بالرهبنة والسطوة، ثم كتب عليها شيئاً، بعدئذ تابع: تأخذ هذه إلى وزارة التعليم.. تسأل عن مدير التعليم الابتدائي.. تعطيه إياها وهو يكمل البقية..

بيد مرتعشة، أخذ الشاب الطويل النحيل بطاقة القومندان، فيما انهمرت عبارات الشكر منه، من عزيز الذي وقف هو الآخر مستأذناً.

-أين تذهب أنت، أبا الأخضر؟ اجلس يا رجل.. قال القومندان وهو يمسك

بيده إلى امتدت إليه تودعه..

-لا.. شكراً.. سأذهب معه.. هو لا يعرف أحداً ولا يدري كيف يتحرك في دمشق..

مكراً قبل القومندان رحيله، فقد كان يرغب في انتهاز الفرصة أكثر.. عند عتبة الباب فقط تذكر..

-صحيح، قال القومندان فجأة، أنا مسافر بعد غد إلى باريس.. إن كنتم تريدون أن ترسلوا شيئاً للأخضر!؟

-بالطبع نريد.. رد عزيز وهو يعلم أن الأم لا يسعدها كأن ترسل لابنها أشياء وأشياء..

-إذن هيئوه.. وغداً مساءً.. أمر بكم.. قال القومندان وكأنما اعتاد المرور بهم دائماً..

في وزارة التعليم لم يجد عزيز وعود الشخص المطلوب.. انتظره ساعة و يضع الساعة، لكن أحدهم همس في أذن عزيز أن مدير التعليم الابتدائي في جولة وأنه لن يعود قبل الغد.

- هو حظي التعيس! تأفف عواد وتأوه، أنا أعلم.. هو حظي التعيس!!

لكن عزيز ضحك مرئياً كتفه:

-ولماذا هذا التشاؤم؟ لم تجده اليوم تجده غداً؟

-أخشى أن حظي العائر يلاحقني!! أنا متشائم عمي.. لا أصدق أن الحظ سيقف إلى جانبي يوماً!!

-حظ!! حظ!! ما هذا الذي تقوله عواد؟ سأله ساخراً ملوحاً برأسه، وهما يغادران مبنى التعليم.

-الحظ حقيقة أكيدة عمي أبا العز.. ابن الرومي كان يؤمن بالحظ.. بل كان يتطير من القطة السوداء أو الوجه القبيح إذا اصطبح به فلا يخرج يومذاك!!

-لا.. لا.. دعك من ابن الرومي وتطيره.. لا تتشائم، عمرك.. واسمع مني.. حظنا هو ما نصنعه بأيدينا..

عند باب الجابية بدا عواد متردداً.

-أذهب إلى القرية اليوم وأعود غداً، قال بشيء من تلعثم، رداً على نظرات

عزيز المتسائلة.

-بل تمام عندي الليلة وغداً تتابع.. قال بشيء من شرود في البدء، بعدئذ انتقض وبنبرة من عتاب ولوم تابع: لكن ما خطبك؟ ألم أقل لك اعتبر بيتي بيتك.. أنت في مقام الأخضر.. متى جئت إلى دمشق أنت ضيفي.. ابن من أبنائي..

وارتعش شيء في داخل عواد.. ما هذه الأريحية؟ ما هذا الكرم؟ لماذا إذن في حوران يحذروننا من أبناء دمشق؟ الشامي يزدرينا؟ يأنف منا؟ بخيل... شحيح.. لا يعرف الكلب باب داره.. أتراهم يشنعون على الشوام زوراً وبهتاناً؟ لكنه نظر إلى عزيز فتذكر فجأة أنه ابن ريف وقد قبل سنوات فقط إلى دمشق، فلم يملك إلا أن يبتسم "هي ذي أخلاق الريف إذن، لا أخلاق المدينة." ثم مضى بخطى وثيقة إلى بيت عزيز.

فرح به مناف فرحه بأخيه الأكبر، كذلك فرحت بدور، ففي بيتهم شاب متعلم يحمل "البكالوريا". أيضاً فرحت شمس فقد حمل لها رائحة الأخضر.. لكن كم كان فرحها عظيماً حين نقل لها عزيز خبر القومندان:

-سأصنع له الكبة والمحشي والبيروق.. ردت للتو بحماسة الأم التي تظن أن ابنها في غيابها لا يجد طعاماً أبداً...

-كبة!! محشي!! بيروق!! ماذا تقولين، شمس؟ الرجل ذاهب إلى فرنسا لا إلى كفر سوسة.

وتبين لشمس أنها لا تستطيع أن ترسل له من الطعام إلا مؤونة يمكن طبخها فيما بعد، فالقومندان سيسافر بحراً، ورحلة البحر تستغرق العديد من الأيام.

رسالة سريعة كتب عزيز لابنه نقل له فيها حب الأهل والوطن هو المشوق بالتأكيد لأخبار الأهل والوطن.

لكن الرسالة الطويلة كتبتها الأم باثة بعض ما في صدرها من مشاعر وأحاسيس: سألوا أعرابية: من أحب أبنائك إلى قلبك؟ فقالت: المريض حتى يشفى والصغير حتى يكبر والغائب حتى يعود..

الأخضر بكرها... حبيبها الأول وهو الغائب فكم تكن له من حب!! كم تحمل من مشاعر وأحاسيس، هي الأم التي باتت ترى الحياة من خلال أبنائها، تتنفس عبر أنفاسهم، تعيش لهم وبهم. بود شمس لو تستطيع أن تطوي الأرض طياً فتصل إلى الأخضر، تأخذه بين ذراعيها، تشمه، تضمه.. "يا لرائحتك أنت يا

فلذة الكبد!! كم أتوق لشمها، عبق الياسمين!! "كُتبت له شمس" يا لعينيك يا أخضر! كم أنا مشوقة إلى بريقهما، إلى حورهما حيث الأبيض والأسود يتقابلان، نهاراً ساطعاً وليلاً حالكاً... بني!! كم أحن لسماع صوتك يشنف أذني.. لدفء أنفاسك تدغدغ عنقي، وأنت تلقني بنفسك في أحضاني.

طوال بعد الظهر ظلت شمس تكتب. تتوقف لتتابع، وهي تتمنى لو أكملت دراستها كي تمتلك ناصية اللغة فتكتب بطلاقة وانسياب، لكن، وهي تكتب، تستعصي اللغة أحياناً وتحزن.. فرساً لم تروض بعد.. فتكتب بالعامية "سيضحك علي الأخضر"، رددت لنفسها وهي تعيد قراءة الرسالة.  
-كُتبت بالعامية.. قالت لعزير، والكتابة للفصحى.. أه!! ليتني أتقن الفصحى!!

-لا تخافي!! الأخضر لن يعتب علينا.. طمأنها عزير، الذي كتب هو الآخر بالعامية، حامداً ربه أنه يستطيع الكتابة، فمعظم أقرانه لا يستطيعون فك الحرف.. بالمناسبة، هل كتبت له عن روضة؟

-بالطبع!! مذ حصل لها ما حصل كنت أنوي أن أخبره.. لكنني تريثت. الآن أخبرته... حرام!! يجب أن يعلم!!

مع الرسالة، أعدت شمس رزم البرغل، الشنكليش، الموالح، الحلويات، البن..  
-هو يحب القهوة العربية كثيراً.. قالت للقومندان وهي تشير إلى كيس البن الذي طلبت من البائع أن يكثر من الهال فيه.. وهناك لا تصنعون القهوة العربية..

-صحيح.. هناك نشرب النسكافية..

-لهذا، يطالبنا كل مرة بالقهوة.. أكثرنا من القهوة.. أكثرنا من الهال، تابعت شمس ثم لوحت برأسها، صحيح.. المرء على ما تعود.

-أف.. أف.. ما هذا كله؟ أشار القومندان إلى الرزم الأخرى بكثير من الاستغراب.

-لا تؤاخذنا.. رد هذه المرة عزير، وهو خجل بعض الشيء.. أم ترسل لابنها الغائب! إذن.. بودها لو ترسل له كل ما تطول يدها من أطعمة ومأكولات..

-لكن ما هذا؟ قال وهو يبتعد بأنفه عن رزمة كانت تصدر روائح لا يستطيع أنف إلا أن ينكرها.

-شكليش.. الأخضر يحبه كثيراً.. ردت الأم باندفاع، فضحك القومندان  
ملء شذقيه..

-أوه!! لكن أخشى أن يهربوا منه، هناك، في فرنسا، إن شمو رائحته!!  
عزيز نفسه كان قد احتج لدى شمس "ليس حسناً أن نحمل قومنداناً مثله  
أشياء كهذه!!"

رائحة الشكليش كريهة منفرة لكن لا فائدة.. فقد تحولت شمس إلى مجرد أم  
لا يعنياها إلا رضى ابنها وسروره.

-أنت تمزح أم جاد؟ سألت شمس وقد خشيت فجأة أن يكون في ذلك إزعاج  
له. فالرجل كريم معهم، نبيل، دمث ولا يحسن بك أن تلحس صاحبك كله إن كان  
عسلاً.

-بل هو جاد.. تدخل عزيز ضاحكاً قبل أن يتاح للقومندان الرد..  
-لا.. السؤال لماذا تبعثين مثل هذه الجبنة العفنة.. وفي فرنسا ثلاث مائة  
نوع من الجبنة.

-صحيح، ردت شمس بحماسة خاصة، لكن ليس فيها هذا النوع الذي يحبه  
الأخضر.

-هو ذا ذوق الشرق الذي يختلف فيه عن الغرب... علق القومندان وهو  
يجلس على المقعد الوثير في غرفة الاستقبال يرشف القهوة ويبتسم..

-الشرق والغرب.. هي ذي المشكلة دائماً. بدأ عزيز وهو يرى في القومندان  
مرة ثانية رجلاً جاء من الغرب لاستعمار الشرق، رجلاً مختلفاً كل الاختلاف، بل  
خصماً معادياً، مع ذلك ما من صداقته بد.

-ذات مرة، دار نقاش في منزلنا وكنا نتغدى، تدخلت شمس عائدة بذاكرتها  
سنين عديدة إلى حماة وإلى الكابيتان جبرار، لكن نظرة من عزيز ملؤها الخوف  
والتحذير جعلتها تفلح عن إكمال الحديث... فتح القومندان عينيه على سعتهما  
حائاً إياها على الاستمرار.

-اي.. دار نقاش؟ حول ماذا؟

-الشرق والغرب، ردت وقد رأته أنه ليس بإمكانها إلا أن تستمر.. هل  
يلتقيان أم لا؟ فما رأيك أنت سيدي القومندان؟.

-قبل أن أقول رأيي.. من تراه كان المحاور؟ وأين؟ وماذا كان رأيه؟

ووجمت شمس كما وجم عزيز أمام أسئلة القومندان التي انهمرت رشا عليهما ليريا فيهما ظلال الشك القديم وهي تعود إلى عيني القومندان ولسانه.. كأنما بحثه عن اللغز ما يزال هو المحرك الأساسي...

-لا.. لا يهم.. سارع عزيز للرد، وهو يشعر أن ثمة ورطة أوقعت شمس نفسها وأوقعته فيها.. المهم أن تعطينا رأيك أنت..

-رأيي.. الشرق والغرب مثلما هو الشمال والجنوب جهتان لعالم واحد، لا فضل فيه لجهة على أخرى ولا امتيازاً لطرف على آخر...

-رائع!! مسيو قومندان!! رائع!! هتفت شمس، وقد سرها جواب القومندان.. تعني أننا سواسية.. متساوون..

-بالتأكيد مدام.. كلنا بشر.. والبشر سواسية متساوون..

-لماذا تستعمروننا إذن؟ لماذا تعتبرون أنفسكم فوق ونحن تحت.. أنتم كل شيء ونحن لا شيء.

-من قال ذلك؟ رد القومندان وقد وجد نفسه فجأة في موقف الدفاع يشير له المدعي العام بإصبع الاتهام، أنتم أيضاً شعب عريق الحضارة.. أنا أعلم ذلك.. وأدافع عنه.. أريد لكم الحرية كما أريدها لشعبي.. صدقوني.. لم أكره يوماً كالاستعمار ولم أقف يوماً إلا مع تحرر الشعوب واستقلالها.

-أنت تكره الاستعمار، تؤمن بتحرر الشعوب، عادت شمس للسؤال وهي تريد أن تحل لغز الرجل.. مع ذلك أنت تخدم الاستعمار، تنفذ خطته وبرامجه.. أليس في هذا تناقض؟

-ربما ظاهراً.. مدام.. لكن في الباطن.. بالحقيقة... لا..

-كيف والاستعمار يجعلنا على طرفي نقيض.. ظالم ومظلوم، ناهب ومنهوب، مستغل ومستغل؟

-معك حق مدام.. معك حق.. الاستعمار يفرقنا.. يجعلنا أعداء.. لكن الإنسانية نفسها تجمعنا.. الحضارة البشرية تشد الأواصر بيننا، توحدنا.. أنا أؤمن بذلك، مدام، وحين ينتهي الاستعمار من العالم سنجد أنفسنا أبناء إنسانية واحدة، عالم واحد ومصير واحد..

-الله!! هذا هو الحلم، هتف عزيز وقد سحرته الفكرة.. لكن هل يتحقق؟

-لم لا، إن استطعنا أن نقيم حكومة واحدة تحكم العالم بالعدل وتسوسه

بالقسطاس؟

-معقول؟ قومندان رينو؟ أنت تفكر هكذا؟ سألت شمس هذه المرة.

-أكد.. مدام.. أنا أو من بالإنسانية، بالأمية، وبسهولة يمكن الآن صنع حكومة تحكم العالم.. عصابة الأمم في سويسرا، ألا تظنان أنه يمكن تطويرها لتحكم العالم؟

-تطويرها، وهتلر يهددها الآن؟ سأل عزيز وقد تذكر للتو تعديت هتلر الأخيرة على قوانين عصابة الأمم وتحدياته لقرارات عصابة الأمم...

-هتلر خطر.. خطر ولا شك.. لكن إن لم يكن هناك هتلر؟

-كيف، وهو الآن النجم الصاعد في السماء؟ سألت شمس، هي التي تعلم كم بات يتحدث عنه الناس... كم صار الشغل الشاغل للناس.. بعضهم يحبونه، بعضهم يكرهونه، بل إن بعضهم يبنون آمالاً كبار عليه، "سيخلصنا من بريطانيا وفرنسا كليهما.. سينهي الاستعمار في العالم.. سيعيد الحق إلى نصابه في الأرض.. سيخلص العالم من اليهود ويقضي على الأشرار". فقد كانت إذاعته التي تأتي قوية هادئة لا تفتأ تعد الشعوب بالحرية والاستقلال، تتكلم عن تطهير العالم من المستعمرين والمستغلين.. تحريره من الطغاة الظالمين..

-هو نيزك.. هتلر نيزك.. يصعد بسرعة.. صحيح.. لكن الصحيح أنه سيحترق بسرعة.. رد القومندان الذي كان يعلم ما يفعله هتلر بأوروبا بل وما ينوي أن يفعله هناك.. فالتقارير التي كانت تأتيه، الأخبار التي كان يسمعها، معلومات الجواسيس التي كان يطلع عليها، كلها كانت تؤكد أن هتلر يبني قوة عسكرية فريدة من نوعها في التاريخ.. قوة يريد منها أن تصنع رايخاً ثالثاً يهيمن على العالم كله وحجته: "عرق أنقى شعب أرقى" إذن لماذا لا يكون الألمان سادة العالم وهم لب العرق الآري وجوهره؟

عشرات الأسئلة انهالت على القومندان من عزيز وشمس فقد وجداها فرصة للاستفسار عن شغل الناس الشاغل: هتلر وحزبه النازي الذي بات في القلب من اهتمام العالم، في القلب من اهتمام مجلاته، إذاعاته.. فهو لا ينفك من حين إلى حين يفجر لغماً هنا، لغماً هناك.. بهذه الحجة، بتلك، هو يمد أذرع الأخطبوطية إلى ما حوله في أوروبا.. مهدداً العالم كله بالانفجار، باثاً الرعب حتى في قلب تشامبرلين بريطانيا، تلك الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

القومندان يعلم ما يشكله هتلر من خطر.. وهو يجيب على الأسئلة بصدق

وبصراحة.. ما عدا سؤالاً واحداً لم يستطع الإجابة عليه.

-هل سيفجر هتلر الحرب؟ وإن فجرها هل يفكر حقاً باجتياح فرنسا؟ سأل عزيز فلم يملك القومندان إلا أن يقشعر بدنه وهو يتصور الأهوال التي يمكن أن تجرّها حرب كهذه على بلاده، الدمار الذي يمكن أن توقعه في بلاده.. ولرغبته في التخلص، نهض وهو ينظر إلى ساعته:

-المعذرة.. تأخرت ويجب أن أذهب.. قال وهو يمضي على عجل، في أثره أمانة مرسلة إلى باريس وأبوان يحمّلانه السلام إلى فلذة الكبد في باريس.

القومندان يحفظ الأمانة ويرعى العهد.. هو يشعر أنها أثقل على ظهره من الجبل، ألم يقولوا "حملوا الجمل أمانة فناخ تحتها"؟ القومندان كذلك، خشي أن ينيخ تحت الأمانة فسارع يتصل بالأخضر لكنه لم يجده، "هو طالب مجدّ، والمجدّ يظل طوال النهار في الجامعة، ردت عليه البترونة، صاحبة "البنسيون". في المساء بلغته الخبر فأحس الأخضر بأنسام منعشة تدغدغ وجهه "رائحة أمي وأبي!! شميم أهلي ووطني!! أه كم أنا مشوق لكم يا أهلي ووطني!!" ولم يجد نفسه إلا وهو يطبع القبلات الحرى على وجنتي "البترونة" العجفاوين المتخددتين.

-أنت مسرور؟ سألته العجوز ذات الجلد المتجدد والوجنتين المخددتين وقد فاجأتها قبلاته.

-كثيراً!! كثيراً، هتف وهو يكاد يطير فرحاً.

-إذن، هو بانتظارك غداً، الساعة العاشرة صباحاً..

ومن جديد قبل البترونة قبلات حرى ثم مضى إلى غرفته.. كانت تلك هي الغرفة الثالثة التي يبدلها خلال عام. "البنسيون الأول" كان بعيداً عن جامعته، وكان لجهله بالمدينة يريد أي مكان يؤويه، لكن لم يمض شهران حتى ذاق الأمرين، باريس كبيرة واسعة ممتدة ولا يعقل أن تكون جامعته في شرفيها ومسكنك في غربيها، فأسرع يبحث عن بنسيون جديد. البنسيون الجديد كان قريباً شروطه كلها مناسبة إلا أن صاحبه كانت فظة غليظة القلب فلم يملك إلا أن ينفذ من حولها. نظام صارم قاس كانت تقرضه على البنسيون حتى ليخيل إليك أنك في تكتة عسكرية... وهي الجنرال الأعظم... كل شيء لديها بنظام: الطعام، النوم، الاستيقاظ، الحمام، المرحاض. ولم يملك الأخضر إلا أن يعجب: كيف يمكن أن يكون المرحاض بنظام؟ هل يمكن للمثانة والشرح أن يلتزما بنظام؟ لكنها هي كذلك.. تريد أن تكون المهيمنة المسيطرة وكل ظنها أنها في بنسيونها ربان

سفينة لا يخرج أحد في سفينته عن طاعته.

في "البنسيون" الثالث وجد الأخضر ضالته.. خمس دقائق أو ست تفصله عن جامعته. الماما كلارينس هي الرعاية ذاتها، الرأم والحنان ذاتهما حتى لتذكره بأمه شمس.. في الصباح توقظه حسب الطلب.. غداؤه، عشاؤه، كل ما يحتاجه يأتيه إلى غرفته، فكلارينس ليست كالمدمام رولان تلك التي تلزم كل من في البنسيون بالجلوس إلى مائدة الغداء أو العشاء وفي وقت محدد لا يزيد دقيقة ولا ينقص. كلارينس عجوز في الستين، خاضت غمار الحياة بكل ميادينها وساحاتها، بدءاً من ساحة الفلاحة والزراعة وحتى ساحة بيع الهوى. كان أصلها الريفي يأبى إلا أن يظهر عفوية وطيبة وكانت قد تنقلت بين جنوبي فرنسا وشمالها، سنين طويلة تشردت وارتحلت.. في الحرب الأولى عرفت طعم الجوع والخوف وهربت من الجوع والخوف إلى باريس. استقرت أخيراً في باريس. تعرفت إلى رسام يدمن المونمارتر ومن بيت ذلك الرسام صنعت بنسيونها بعد أن أسلم الزوج وداعته.

البنسيون مريح، غرفة الأخضر مريحة، حاجاته مقضية، طباخ وخادمة يقومان بكل ما يحتاجه النزلاء والماما البترونة تعرف كل نزيل: ماذا يحتاج، كيف تلبي حاجاته، فاستعذب الأخضر المقام.

النهار في الجامعة، الليل في غرفته.. الأخضر سعيد.. دورة اللغة مر بها بنجاح، الفصل الأول من سنة الطب بدأه.. هنا كل شيء يوظف لخدمة الإنسان، لتوفير راحة الإنسان... الأخضر يشعر بطعم مختلف للحياة. في ما حوله، الناس أحرار، لا أزمات لديهم، لا هموم، لا مشاكل.. بل عمل.. كل يمضي إلى عمله، حتى ليتعذر على الأخضر أن يجد امرءاً يتسكع في شارع أو يجلس في مقهى يشرب النارجيلة أو يلعب النرد. حقاً!! أين مقاهي النارجيلة؟ أين يلعبون النرد؟ سأل جانيت ذات مرة، وقد مضى عليه بضعة أشهر في باريس. ضحكت جانيت ضحكة القهقهة ثم هزت رأسها "نارجيلة!! نرد!! عم تتكلم، أخضر؟" سألتها، ملؤها التعجب، وكأنها تسمع كلمات غريبة لم تسمع بها من قبل، ماما كلارينس كانت قد سمعت بها لكنها أكدت له "لن تجد في فرنسا من يدخل نارجيلة أو يلعب نرداً.. هذا شغل العاطلين الباطلين عن العمل" وعاد الأخضر بذاكرته إلى الشرق حيث تفتش ضفتي بردى مقاهٍ لا عد لها ولا حصر...

ملؤها النارجيلات وطاولات النرد. كان الأخضر قد تعرف إلى باريس، شوارعها، ساحاتها، معالمها، ففي الجامعة أوقات فراغ وثمة أيام عطل لا يقضيها

كلها في القراءة والكتابة. كان يريد أن يعرف جيداً عاصمة فرنسا، ذلك القوي المهيمن الذي يستعمر بلاده... وكان قد اكتسب أصدقاء زوجاً، صفاً، بيضاً، حمراً، فالفرنساوي القوي يبسط سلطانه على بلاد شتى من قارات شتى.

الأخضر لا يهتم بالسياسة كثيراً لكنه ليس جاهلاً بها تماماً... جلساتهم في "بوفيه" الجامعة، في النادي، لدى بعضهم بعضاً، تجره إلى النقاش في السياسة، إلى تناول مسائل راهنة وقضايا ساخنة، فكيف يظل جاهلاً بالسياسة؟ ثم إنه في بلد المستعمر ولا يغريه كأن يعلم ذلك الفرق الحضاري الذي جعل من وطنه مستعمرًا ومن فرنساوي مستعمرًا.. فوارق كثيرة لمسها الأخضر لمس اليد.. أشياء كثيرة لم تكن قد وصلت إلى دمشق وجدها في باريس، منجزات حضارية لا تعرفها دمشق تعرفها باريس.. وبات الأخضر على يقين "المسألة مسألة حضارة.. على أي درجة من درجات سلم الحضارة أنت، يتحدد وضعك: أعلى أو أسفل، مستعمر أو مستعمر، مستغل أم مستغل؟" ووجد في ذلك كل حافز لأن يحصل على المزيد من العلم والمعرفة.. "الحضارة هي العلم، هي المعرفة.. بقدر ما نكسب منهما نرتقي سلم الحضارة".

-هه.. قل لي.. كيف أنت؟ دراستك؟ بادره القومندان رينو، وهو يستقبله في الموعد المحدد.

-أنا بخير.. لا أملك إلا أن أشكرك، سيدي القومندان.. وقدم له كشفاً بما فعل وما أنجز بعد أن جاء إلى باريس.

-عظيم!! كنت عند حسن الظن إذن؟ وكما توقعت!

لكن الأخضر كان مشوقاً لأخبار الأهل، متلهفاً لمعرفة الأحوال هناك.. في بلده حيث يسكن القلب وتهيم الروح، ولم يكن الأخضر ليشتبع من حديث القومندان وهو يروي له أخبار الأهل والوطن.. كان يستمع وكله آذان صاغية، وكان يود لو يظل يحدثه حتى آخر الليل... لكن القومندان مشغول.. لديه موعد هام مع جنرال في القيادة.. اعتذر من الطالب واعداً إياه بقاء ثانٍ قبل أن يعود. أعطاه الأمانة ضاحكاً من الشنكليش الذي أرسلته له أمه.. ففتح الأخضر فمه سروراً ودهشة، لكن السرور الأكبر كان بالرسالة التي قدمها له.

في عب اللحم وضعها الأخضر، وهو لا يصدق متى وصل إلى غرفته.. لكن قبل أن يصل تلقتة كلارينس وقد لفتت نظرها علبة الكرتون الكبيرة التي حملها بشق النفس..

-أوه!! ما هذا أخضر؟ قالت بلهجتها الجنوبية التي ترفض أن تحول الرائ إلى غين كما يفعلون في باريس.

-هذه من الأهل.. هناك في دمشق. وأسرع الأخضر يفتح العلبة، يخرج الحلويات.. الموالج.. ثم يبدأ بتوزيعها على أصحابه النزلاء..

-أوه!! لا.. لا.. ما هذا قصدت.. دعها لك.. هي من أهلك وأنت أحق بها، لكن الأخضر لم يرد على الماما كلارينس..

-بالعكس، مشاركتكم تسعدني أكثر، قال الأخضر وهو يقدم لهم الموالج والحلويات التي لم يروها ولم يعرفوا مثيلاً لنكهتها من قبل.

-أنتم عرب كرماء.. أنا أعرفكم.. تحبون العطاء وتكرهون البخل.. حسبك.. حسبك.. قالت له الأم كلارينس وهي توقف سيل أريحيته ثم تحمل معه العلبة إلى غرفته. "تحبون العطاء لكن أنتم تحبون الأخذ.. فضيلتنا الكرم وفضيلتكم البخل... أليس هذا ما يميزنا عنكم.. نحن الشرق وأنتم الغرب؟".

كان الأخضر يخاطبها سراً، وهو يدخل بقية الحاجات التي جاءت من دمشق تحمل أريج دمشق. على سريره استلقى، أخرج الرسالة وشرع يتشممها.. "آه!! بالشميم العرار!! يا لعطر الفل!! يا لعبق الياسمين!!" بيدين مرتعشتين فض الرسالة، وبعينين شبه مغرورقتين بدأ يقرأ.. سعيداً بأخبار الأب.. بنجاح تجارته.. مسروراً بنجاح مناف أخيه، بنجاح بدور إلى "البروفيه".. كل شيء على خير ما يرام.. ديباجة الرسالة حملته عالياً على بساط الريح. "سلام سليم أرق من النسيم وأحلى من العافية على قلب السقيم".."أجل.. سلامكم أحلى من العافية وأرق من النسيم فكم أنا مشتاق إليكم!!" خاطبهم من بعيد وهو يتابع قراءة الأسطر التي خطتها يد الأم.

".. تخص وتهدي روحك الزكية وأنفاسكم البهية". "إيه! إن هذه إلا أنت أيتها الأم!! يا أركى روح وأبهى نفس!! يا نبع الحنان الذي لا ينضب! يا سلسيل الحب المتدفق أبداً شلالاً من دفء وعطاء!!"

لكن فجأة توقف الأخضر.. "خبر مزعج سأنقله إليك.. أنا أعلم أنه مزعج، لكن لا بد من أن أخبرك به... مسكينة روضة ابنة جارتنا خرست.. أصبحت عاجزة عن النطق". ومن جديد أعاد قراءة الأسطر وهو لا يصدق ما يقرأ. "روضة صارت خرساء!! بكماء!! صماء!!؟! لا.. الأم لا تقول انها صماء.. بل عاجزة عن النطق، تهمهم، تدمدم، تخرج أصواتاً لكنها تظل مبهمه لا يستطيع أن يفهمها

أحد.. لكن كيف؟". الرسالة تروي حادثة الخرس بكثير من التفاصيل "جاءها عريس!! رفضته أمام الأم لكنها خافت أن ترفضه أمام الأب... انعقل لسانها وعجزت عن الإفصاح!! "معقول هذا يا ربي!؟" راح الأخضر يتساءل وهو يقلب الرسالة بطناً لظهر وظهراً لبطن"... روضة الصبية المرحة، الشيطانة المهذارة، ذات اللسان بأربع شعب تصاب باليكم!؟ تصبح عاجزة عن الكلام؟ يا إلهي!! أي لغز هو الإنسان!! "ومن جديد راح يبحث في الرسالة عما يحل ذلك اللغز، لكن الأم لم تكن قد كتبت له شيئاً.. فكرت أكثر من مرة أن تكتب له "هي تحبك، تريدك أنت ولا تريد سواك، وسوف تنتظرك إلى أن ترجع إليها" لكنها خشيت أن يؤثر ذلك في ابنها، أن يشعره بالذنب، أن يعيقه عن متابعة دراسته، فصمتت. إشارة وحيدة فقط كانت قد سجلتها في زاوية مهمة من الرسالة "الدكتور الشهبندر يعالجها الآن.. هو يقول ان السبب سيكولوجي.. لا أدري ماذا". ولم يملك الأخضر إلا أن يضحك.. بعدئذ تابع. "ثمة شيء في نفسها تخفيه وهو ذاته ما يمنعها من الكلام!!" "أهو تلميح من أمي لي؟! ماذا تريدني أن أفهم منه؟"..  
طوال بعد الظهر، ظل الأخضر يفكر حزيناً شارداً إلى درجة لم يسمع معها الصوت الناعم الذي كان يسأل عند الباب:

-الأخضر هنا؟

-أجل!.. هنا.. تفضلي جانيت.. ادخلي.. ردت الماما كلارينس، لكن الأخضر لم يسمع الرد.. لم يسمع وقع الخطى المقترية، بل لم يستطع التخلص من شروده إلى أن دخلت جانيت الغرفة شبه هاتفة:  
-أوه!! أخضر!! أين أنت؟ لم أرك اليوم في الجامعة؟ وقبل أن يتاح له الوقت للنهوض من سريره، كانت جانيت قد وصلت طابعة قبلة على خده الأيمن ثم أخرى على خده الأيسر، دافعة به إلى النهوض..  
-كنت عند أخيك، رد الأخضر وهو يقف على الأرض بشيء من تعثر.  
-القومندان رينو جاء؟ سألته بتلك اللامبالاة التي تميز أهل الغرب.  
-لم تعلمي.. إذن؟! جاء أمس وجاء لي بحاجات وحاجات من دمشق..  
أتشربين القهوة العربية؟  
-أشرب.. أجابت الفتاة المرحة ضاحكة، لكن بشرط.. وتوقفت لحظة تنتظر سؤال الأخضر عن الشرط، لكنه لم يأت فاستأنفت: ألا تكون مرة..  
-مرة!! لا.. لا.. حلوة سأصنعها لك حلوة.. كالعسل.. قال وهو ينحني على

علبة الكرتون، يخرج كيس البن ثم يمضي به إلى المطبخ فليس يسعده كأن يشرب فنجان قهوة مع جانبيت... الفتاة الرشيق ذات العشرين ربيعاً والعينين الزرقاوين والشعر الأشقر حتى درجة الصهب، تلك التي كانت أول من تعرف إليها في باريس.

جانيت تدرس اللغات الكلاسيكية والأدب الكلاسيكي في السوربون، وعليها اعتمد في التسجيل بالجامعة، كانت له العون في فصل اللغة، ساعدته في شراء الكتب، في تعريفه بباريس، مدينة الحضارة والنور، جانبيت لم تبخل عليه بشيء.. هي فتاة ذكية شجاعة واثقة من نفسها، واسعة الإطلاع ورغم أنها لا تكبره أكثر من عامين إلا أنه كان لا يملك إلا أن يندهش كلما دخلا حواراً أو علقا في نقاش. كانت تعرف الأدب اللاتيني، الأدب الإغريقي وتقرأهما بلغتهما الأم.. إن أرخى لها الحبل حدثته عن هوميروس، سوفوكليس، فرجيل وأسماء أخرى لم يسمع بها من قبل. هي معجبة بشعر الرومان لكنها معجبة أكثر بمسرح اليونان وفلسفتهم.. وهي لا تقناً تبحث وتستقصي.. ذات مرة جاءت فرحة "أتعلم، ماذا اكتشفت اليوم؟" "ماذا؟" سألتها الفتى الشرقي الذي كانت تفاجئه دائماً باكتشافاتها: أعظم فلاسفة الأغريق إما أنهم من الشرق أو درسوا في مدارس الشرق.. في مدارس حمص، صيدا.. صور أي عندكم في بلادكم.. وشعر الفتى الذي لم يكن قد درس الأدب الكلاسيكي ولم يتعمق في معرفة حضارة الإغريق بكثير من الزهو "صحيح؟! أنا لا أعرف ذلك" أجابها الفتى فاندفعت تحدّثه عن فيثاغورس، زينون، أفلاطون، إلى أن فاجأته من جديد بقنبلة أخرى "كما اكتشفت أيضاً أن الإغريق أخذوا حسابهم وآهتهم عن البابليين، علوم الفلك والهندسة عن المصريين بل حتى أبجديتهم أخذوها عن الفينيقيين!! يا إلهي!! كم هو عظيم الشرق إذن!! كم له من فضل علينا هنا!! على البشرية جمعاء!! "حينذاك شعر الأخضر بزهو شال معه رأسه عالياً كما شعر باحترام شديد للفتاة التي تبحث وتستقصي كي تعرف وتعترف. "لكن لماذا لا يعترف الغرب بذلك؟ لماذا يعتبر أن أصل الحضارة الإغريق؟" سأل الفتى الذي كان يعرف بعض الأشياء عن أهمية الشرق، بلده، في صنع الحضارة البشرية كلها، هو الذي وضع أسس الحضارة ورفع أعمدتها عالياً.. ومن جديد اعترفت له "لعله الكره والحقد، لعله الصراع القديم على السيطرة على العالم: إغريق وفينيق، رومان وهانتيال.. إسلام وإسبانيا.. صليبيون وعرب. فكيف يعترف الغرب بفضل الشرق؟" ذلك جعله يكبرها أكثر.. هي تدهشه، تبهره أحياناً بأفكارها المختلفة، بأرائها الجديدة، بل يشعر أنه عاجز عن اللحاق بأفكارها أكثر الأحيان.

فارت القهوة على النار فابتعد الأخضر بالدولة قبل أن تطوف على حوافها..  
رائحة القهوة تنعشه، تحمله بعيداً إلى الشرق حيث البخور والهال، المسك والعنبر  
وتلك الروائح التي لا يشبع المرء من شمها.. صينية القهوة، الفناجين أعدتهما له  
الخادمة التي حاولت أن تصنع عنه القهوة "بل أصنعها بيدي.. كي تخرج عربية  
أصيلة كما أشتهي"، وقدم للفتاة الرشيق ذات العينين الزرقاوين فنجاناً يتصاعد  
بخاره تنشقته فانفجرت أساريرها.

-شيء منعش!! هتفت وهي ترشف الرشفة الأولى. حقاً!! لا شيء يضاهي  
القهوة العربية الأصيلة!!

طرب الأخضر للإطراء، فانبرى يقدم لها من كل ما أرسلته الأم في الشرق:  
بقلاوة، كل واشكر زنود الست، بللورية، بعدئذ جاء دور الموالح: البزر الأبيض،  
الأحمر، الفستق الحلبي، السوداني بل هم بأن يقدم لها الشنكليش والبرغل، لولا  
صيحات الاحتجاج التي تعالت منها.

-ماذا؟ تريد أن تحشوني حشواً؟ ما أطعمتني حتى الآن يكفيني ثلاثة أيام!!  
وضحكا كلاهما... كانت الفتاة قد أكلت بنهم، شربت بنهم، فكل ما قدمه لها  
جديد.. تتذوق هذا.. تجده لذيذاً تتذوق ذاك، تجده أذ وكله جديد طيب.  
-إذن كم في الشرق من أشياء جديدة علينا غريبة عنا؟ سألت وهي تتلمظ  
إثر قطعة من البللورية شعرت بها تذوب ذوباناً في فمها...  
-الكثير!! الكثير!!

-تعلم.. أنا أشعر أن كل شيء لديكم مختلف.. كل شيء لديكم أصيل  
عريق: القهوة العربية، السمنة العربية، الخيول العربية.. ترى هل الرجل العربي  
كذلك؟

وشعر الأخضر بدفقة دماء حارة تصعد إلى وجنتيه.. هو لا يدري إن كانتا  
قد احمرتا لكنه يدري أنه أطرق استحياء!! هذه الفتاة.. كم هي جريئة شجاعة!!  
"فكر وهو يشيح بوجهه وبيتعد بناظريه. هو يعلم أنها تعرف ما تريد وتعمل على  
تحقيق ما تريد.. كما يعلم أنها تعرف الرجال ولها تجارب كثيرة مع الرجال..  
بعض أصدقائها يعرفهم.. يراها وهي تذهب معهم.. ذاك شأنها الخاص.. وفي  
الغرب لا أحد يتدخل في شأن خاص.. علاقته بها تبتعد عن كل شأن خاص.  
هي أحياناً تأخذه بالأحضان حين يلتقيان، تقبله من فمه، تتأبط ذراعه وهما  
يمشيان، تلتحم به أكثر وأكثر لكن خجله كان يجعله يبتعد، يحاول تجنب المزيد

من الالتحام وكانت جانيت تحترم خجله.. تغمز منه أحياناً لكن تحترم رغبته أكثر الأحيان.. ذات مرة سألته "ألم تتعرف إلى فتيات هنا؟ ألم تقم صداقة مع إحداهن؟" وهز رأسه نفيًا "الفتيات بحاجة إلى فراغ وأنا لا فراغ لدي، وقتي كله لدراستي" وتبسمت حينذاك. هو يذكر ابتسامتها حتى اليوم، كما يذكر امتداد أناملها الناعمة الدافئة إلى خده تمسده برفق ثم تتشبيك في أنامله.

-هه.. أخضر.. ما لك لم تجبني؟ الرجل العربي فحل أصيل كحصانه أم لا؟ سألته وهي تمسح أصابعها بمنشفة بللها الأخضر بالماء..  
-لا.. لا.. أ.. دري.. بما.. أجيبك.. قال متلعثمًا محمر الوجه والعنق..  
-إذن.. دعني.. أجرب، قالت وهي تنهض عن كرسيها، ملؤها الحيوية والحماسة...

ذهبت إلى الباب المفتوح، أغلقت مصراعه على مهل، وعلى مهل حركت الرتاج إلى أن أخذ مكانه، وعيناها على الأخضر كأنما تقولان له "انظر. الباب الآن مغلق نحن في أمان".

-جانيت، ماذا فعلت؟ قال، وعيناها تتجهان إلى الباب.

-ما يجب أن أفعله.

-وكلا رينس؟ الخادمة؟ النزلاء؟ ماذا سيقولون؟

-لا.. لا عليك.. هنا لا شأن لأحد بأحد، قالت وقد ركعت على ركبة واحدة أمامه. أمسكت بيده ثم رفعتها إلى شفيتها.. حرارة هائلة شعت من أصابعها، من شفيتها. هو خائف، حائر يحاول الابتعاد.. لكن أين يبتعد وذراعاها طوق حوله، وجهها لصق وجهه، تلامس بخدها خده، تندلق بصدرها على صدره فيشعر بما يشبه الارتجاف "يا إلهي!! في المنزل وأمام سمع الناس وبصرهم!؟"

-لا تخف، قالت جانيت وكأنها تعلم ما يدور في ذهنه.. الناس هنا ليسوا كناسكم في الشرق، يتدخلون في شؤون الآخرين الخاصة.. هنا.. تغلق الباب عليك يصبح المكان ملكك، لا يسمح أحد لنفسه بانتهاك حرمة، فاطمن.. خذ راحتك كما تشاء.. مارس حريتك بالشكل الذي تشاء..

-راحتي!! حريتي!! بدأ يردد، وهو يرتعش من أخصص قدميه حتى قمة رأسه، فقد صار أتون النار فوق فخذه لكن كيف؟ وأخوك؟  
-وما شأن أخي؟ سألت وهي تنهض عن فخذه عتباً ولوماً.

-أعذر به؟ أخونه بأخته؟ لا.. لا.. هو أسدى إلي معروفاً ومن الغدر أن  
أرده له ولوغاً في عرضه، تمريراً لشرفه.. وانطلقت قهقهة عالية..

-غدر؟ تمرير؟! قالت من بين أمواج قهقهتها.. عم تتكلم يا صديقي؟ نحن  
هنا في الغرب ولسنا هناك في الشرق.. مثل هذه المفاهيم اندثرت لدينا وبادت..  
هنا، شيء واحد يعيننا هو الحب.. السعادة.. الرضى.. ولن يسعد أخي كأن توفر  
لي الرضا والسعادة، كأن تمنحني الحب!!

في رأسه ما يشبه الدوار، يسمعها الأخضر، مذهولاً، مبهوتاً متمسراً في  
كرسيه، فيما هي تخلع قميصها الزهري ذا التشجرات الخضراء... تحته لم يكن  
غير حمالة نهدين.. الصدر أبيض محمر كبركة من أرجوان، البطن ضامر  
أخمس، كأنه لم يعرف يوماً الطعام، السرة غمزة ذقن ترسل ألف إيماء.. هو لا  
يملك إلا أن ينظر.. احمرار وجهه، ارتعاش يديه، خفقان قلبه، كل ذلك لم يمنعه  
من استراق النظر.. يطرق لحظة لكن عينيه تتشدان إلى الأعلى لحظات.. ثم بدا  
وكأنهما تسمرتا حين انفكت الحمالة عن النهدين وتنفس النهدان الصعداء..  
حلمتهما اشربتا فجأة إلى البعيد، وثبتا إلى الأعلى مهرتين على مرجة ربيع.

-ما رأيك؟ أنا حلوة؟ صدري جميل؟

وتحركت شفتاه بالرد لكن جانبيت لم تسمع صوته.. فقد أحس باضطرام نار  
يشعل حلقه.. بغصة تسد فمه...

-أ.. أ.. أجل.. أفلح أخيراً في التخلص من الغصة.

-ما بك لا تتحرك إذن؟ ألسنت رجلاً؟

وكأنما كان ذلك الفتيل الذي أشعل البارود، هب الأخضر.. "هو ذا  
التحدي.. أنا لست رجلاً؟! من قال هذا؟ أنا الأخضر بن عزيز سيد الرجال..  
فكيف تهان يا أخضر؟ كيف تتحداك امرأة أيها الرجل؟" ولم يجد نفسه إلا وهو  
يمسك بها، يطوقها بذراعيه، يشدها إلى صدره، يلقم شفثيه شفثيتها ثم يحملها إلى  
الفرش.. يلقيها عليه ويعري ما بقي من ستر....

-الآن علمت لماذا الحصان العربي حسن السمعة واسع الشهرة.. غمغمت  
جانبيت دافنة وجهها في عنقه، وقد همدا هنيهة من الزمن عاريتين على الفرش..

-تعنين أنني نجحت في الاختبار؟ قال ضاحكاً، وهو يبتعد عنها قليلاً غارساً  
عينيه في عينيها..

-درجة امتياز.. قالت ضاحكة هي الأخرى وقد استعادت أنفاسها بعد

انقطاع، رادة إليه النظرة نفسها انغراساً وجرأة. وكومض البرق وجد الأخضر نفسه يعود إلى هناك إلى شجرة النارج في بيتهم الدمشقي، وروضة تختبئ وراءها بخجل واستحياء، ينظر إليها فتهرب بعينها منه، يقول لها انظري إلي فتزداد إطفافاً إلى الأرض "يا إلهي!! كم هناك من اختلاف!! روضة الحبيبة الخجولة التي تحبه حتى العبادة، لكنها لا تجرؤ على لمس يده، بل تستحيي أن تنظر إليه وجهاً لوجه، وجانيت التي لا تحمل له أدنى مشاعر الحب تتعري كما حواء وتمارس معه الحب.

-هه!! أين شردت؟ لكزته، وهي تتأمل عينيه اللتين غابتا بعيداً..

-لا.. لا.. رد في محاولة للتهرب منها ومن أفكاره.

-أنت خجول.. خجول كثيراً.. ترى ألم تعرف النساء من قبل؟

-أ.. أ.. بدأ.. قال متلعثماً وقد عاوده الحياء من جديد.

-إذن.. أنا التي فضضت بكَارتك؟! كم أنا سعيدة، أخضر؟! وانهاالت عليه تلثم خده، عنقه، صدره، منتشية بالبخارة التي فضتها للتو.. ومن جديد عاد خياله إلى روضة التي لم تجرؤ يوماً على البوح بحبها له. كانت تدور، تلف، تقترب، تبتعد، لكنها لم تقل شيئاً ولم تبح بالسر الذي ظل دفيناً في أعماقها تضن أن يراه النور.. عيناه مضتا إلى الطاولة حيث الرسالة التي كان يقرأها حين دخلت جانيت.. لحظت ذلك فسألته.

-في الرسالة شيء محزن.. أليس كذلك؟

-أجل؟! خبر أحزنني كثيراً!؟

-ما هو؟ احك لي..

وحكى لها الأخضر قصة الفتاة التي عقد الخوف لسانها فأصبحت خرساء.

-مسكينة، ألهذا الحد يصل الخوف بالفتاة عندكم؟

-كيف لا والساطور الذي يجز الأعناق أمام عينيها؟

-شيء محزن حقاً!! الفتاة لا تجرؤ على التعبير عن رأيها، لا تستطيع البوح بحبها، لا تملك حرية اختيار قرينها... ما هذا؟ قالت وقد نهضت تلبس ثيابها تعبيراً عن تغير مزاجها.

-هذا هو الشرق.. وهذا ما يحزنني في القصة.. جانيت.. أنا أشعر بالذنب.

-كنت تحبها إذن؟

-لا.. ليس حياً.. ربما هو مودة.. ألفة..  
-بالنسبة إليك.. لكن بالنسبة إليها حب، أمل، مستقبل.. وهذا ما سبب لها  
الصدمة.  
-ربما.. أُمي تقول رأي الطبيب أن خرسها لأسباب سيكولوجية.  
-اذهب إليها إذن، ربما تشفى إن رأتك..  
-والدراسة التي بدأت؟  
-لا أدري.. ما أدريه أن عليك أن تتصرف: اكتب لها.. طمئننها.. عدها  
بشيء.  
وكتب لها الأخضر، لكن دون أن يعدها بشيء، فوعد الحرّ دين، وهو لا  
يريد أن يضع ديناً في عنقه قد يضطر يوماً لإيفائه.  
بنفسه، أوصل القومندان الرسالة إلى شمس.. لم تفاجأ به كعادتها كل مرة،  
هذه المرة هي أم تنتظر أخبار ابنها بشوق العالم كله ولهفته.  
-أهو بخير؟ صحته جيدة؟ يأكل جيداً؟ ينام جيداً؟ انهالت عليه بالأسئلة ما  
إن جلس في غرفة الاستقبال، فرحاً في سره لغياب عزيز...  
-لا.. لا.. لا تخافي عليه.. الأخضر ذكي، فهيم، وهو رجل يعرف جيداً  
كيف يشق طريقه في الحياة...  
-يعني.. صار يعرف باريس.. له أحد هناك.. له أصدقاء؟  
-أو.. وه!! أصدقاء، صديقات.. بل هو وأختي جانيت صديقان حميمان!!  
لا يفارق واحدهما الآخر..  
وأجفلت شمس، لكن دون أن تسمح للإجفالة بالظهور.. هل أوقعته الفرنسية  
في شركها، هل علق في فخها؟ وماذا إن ألتهته عن دراسته وطبه؟"  
-يعني رأيته؟ جلست معه؟  
-مرات.. كان يجيء إلى المنزل مع جانيت.. وكنا نلتقي منفردين..  
الأخضر شاب نبيه.. صديقني سررت كثيراً برويته، ومضى يحدثها عن كل ما  
يحملة من أخبار..  
-الله كم أشكرك، سيادة القومندان!!  
-بل أنا الذي يشكرك، فقد أتحت لي فرصة لسماع حديثه العذب..  
-صحيح!! حديثه عذب؟ وقاطعته شمس بكثير من الفرح: عم كان يتحدث

سيادة القومندان؟

-أوه.. وه.. عن حياته هناك.. دراسته.. حياته هنا.. طفولته في حماة...  
وتوقف القومندان لحظة متفرساً النظر في وجه شمس التي بدت وقد  
انكشيت للتو، على سيماها الانزعاج والضيق، تعلمين؟ لم أكن أعلم أنكم عشتن  
في حماة.. لماذا لم تحدثيني عن ذلك؟

-ولماذا أحدثك؟ مرحلة مضت وانقضت سيادة القومندان..

-لكن بودي لو أعرف شيئاً عن حياتكم هناك.. هي تهمني..

-تهمك؟ لماذا؟ سألته وقد عادت أنامل الخوف تمسك بقلها عاصرة إياه.

-مدام، أنت الآن صديقتي، عزو صديقي.. وأنا لا أريد أن أتعامل مع  
أصدقاء أجهلهم.. الفضول يدفعني دائماً لأن أكتشفهم، أعرف كل شيء عنهم...  
"لماذا يريد اكتشافنا، بل لماذا فرض علينا صداقته، هو يعرف شيئاً، يشك  
بشيء بالتأكيد.. لكن ماذا عرف من الأخضر؟ أترأه يذكر تلك الأيام؟ أيعلم  
الأخضر من كان يجيء إلينا أو يذهب؟ يا إلهي!! الرجل مصمم على ملاحقتنا..  
فكيف التخلص منه؟".

وبدا التخلص منه ضرباً من المستحيل، فالقومندان الدمث اللطيف، الذي  
يحسن الحديث، يحسن التصرف، بل يقدم الخدمات ويصنع المعروف تلو  
المعروف، يطوق عنقها الآن بأكثر من قيد.

-لا.. اطمئن.. قالت أخيراً وقد تخلصت من أفكارها فيما كان صمت رهيب  
قد أطبق. نحن أناس بسطاء، حياتنا بسيطة..

-بسطاء؟! حياتكم بسيطة؟! كيف وأنت الشيخة ابنة الشيخوخ؟

"يا إلهي!! إذن جررت الأخضر إلى قول ما لم أحب أن يقول؟ إذن، بت لا  
تعرف قرية عزيز وحسب بل أهلي وعشيرتي أيضاً؟! فماذا تريد إذن؟ لإلام تبغي  
الوصول؟" "هه حضرة الشيخة شمس!! تابع القومندان وابتسامه عريضة على  
شفتيه، صدقيني.. أنا لم أفاجأ، كلام الأخضر عن أهلك وعشيرتك لم يفاجئني..  
كنت أشعر أنني أعامل امرأة غير عادية.. امرأة يجب أن تكون شيخة أو أميرة..  
لكن السؤال لماذا تخفين ذلك؟

-لا.. ليس... بدأت شمس متعثرة، لكنها توقفت دون أن تعرف ما تقول.

-الناس هنا، بل في كل مكان من العالم، يفخرون بأصولهم، بحسبهم

ونسبهم.. فلماذا أنت تخفين ذلك.. وأنت الشبيخة.. الأميرة؟  
-لماذا؟ لا.. لا أدري.. ربما أنا.. وزوجي نكره التفاخر.. نكره الحديث عن  
الماضي..

-ها.. تكرهان الحديث عن الماضي؟ هنا السر الذي أود معرفته؟ فما هو  
شمس، أيتها الشبيخة ابنة الشيوخ.. أي سر تخفين؟  
-أهو تحقيق؟ انتفضت شمس فجأة وهي ترى نفسها تحشر في الزاوية..  
أرجوك.. كف عن أسئلتك..

وتبسم القومندان وقد تيقن أن ذلك يكفي هذه المرة وأن عليه حقاً، أن يكف  
عن الأسئلة... بدماثته، بكياسته نفسها، نهض الرجل مودعاً، انحنى، هم بتقبيل  
يدها لكنها سحبتها.. "جيرار!! هو نفسه جيرار!! يريد أن يستجني إلى مصيبة  
أخرى!!" وكظمت غيظها.. باذلة كل ما في وسعها عليها تستعيد دماثتها:  
-كل الشكر لك، سيادة القومندان.. غمرتنا بأفضالك ولا ندري كيف نرد لك  
تلك الأفضال؟.

-بسيطة، رد القومندان ضاحكاً وكأنه لم يصدّق قبل لحظة، تدعينني إلى  
منسف تريد..

-هو كذلك.. لكن بعد أن يعود.. ردت ضاحكة وهي تشير إلى باحة البيت  
الفارغة وكأنما تشير إلى رب البيت الغائب، ثم ما إن أغلقت الباب وراه حتى  
أسرعت إلى مخدعها، ألقت بنفسها على السرير متنفسة الصعداء، وكأنما انزاحت  
عن صدرها صخرة صوان.. ساعة، ساعتين، التقطت أنفاسها ثم عادت إلى  
الرسالة تشمها، تلتهمها، تلتهم ما كتبه لها الأخضر التهاماً. كلماته تمس شغاف  
قلبها، تدخل هناك إلى الأعماق، تبلبل كالندى أزاهير الشوق المنفتحة للفتى  
الطويل الرشيق الذي لم يمتلئ بعد. "أمي الحنون.. أمي الحبيبة"، تقرأ شمس فتبرد  
نار هناك في صدرها، تطمئن أنفاس في صدرها وتسري راحة في أوصالها.  
أخباره سارة، أحواله مطمئنة.. "حمداً لك يا رب!! سيعود إلي الأخضر ظافراً  
مظفراً!! لكن أتراه يعود إلى روضة؟" راحت شمس تتساءل وهي تقرأ فقرة الرسالة  
التي يسأل فيها عن روضة. هو يقسم انه لم يبادلها كلمة حب ولم يعدها بعهد،  
ولا صار بينهما شيء.. ثم يلوم: "إن كانت تحبني إلى هذه الدرجة، لماذا لم تقل  
لي؟ لماذا كتمت مشاعرها طوال الوقت؟" أسئلة وجيهة، لكن من يستطيع الإجابة؟  
روضة، مذ انعقد لسانها، باتت غير قادرة على الإجابة. الشيخ الذي حاول

فك تلك العقدة لم يزد لها إلا تعقيداً... فالجنى الذي دخل فم الفتاة وأمسك بلسانها أبى الخروج.. عصي الخيزران الثلاث كسرهما على ظهرها، صرخاته ما زالت تدوي في أذنيها، بخوره في خيشوميتها، مع ذلك أبى الجنى الخروج.. روضة تذكر وقع العصي على ظهرها، إليتها، فخذها، تذكر الهمدرة والزمجرة، الصياح والصرخ، تذكر أوجاعها، آلامها، وهو ينهال عليها ضرباً لكنها لا تذكر متى توقف ذلك الضرب. أياماً وليالي ظل ظهرها ينزف دماً.. عظامها مكسرة، جلدها كله أزرق مسوداً.. أمها تبكي عليها، أخواتها ينحن، ودموعها هي لا تجف.. "ماذا فعلت بك؟ كم أخطأت بحقك!!" كانت أمها لا تنفك تندب، لاطمة خدها، صدرها، وكلها شعور بالذنب.

ذلك الشعور بالذنب أفادت منه شمس فأقنعتهم باللجوء إلى الطبيب..

جاء الطبيب، فهاله حال الفتاة المسكينة التي لم يكفها الموت بل جاءتها عصاة القبر. شهراً ظل يعالج جلدها المجرح ظهراً وعجزاً.. يدين ورجلين.. الميكرو كروم الأحمر، المسحوق الأبيض، الأقراص، الحبوب، كلها عرفتها روضة، مع الصراخ أحياناً وبلا صراخ أحياناً أخرى...

كان خوفها من ذلك الشيخ الذي يطرد الجن بعضا الخيزران جعلها تخاف من كل غريب. رأيت الدكتور يدخل بحقيبته الجلدية السوداء فانكشيت على نفسها وعبست، منقلصة متكورة، رافضة أن يلمسها لمساً. شمس معه... تحاول طمأننتها تشرح للفتاة المذعورة من هو الدكتور الشهبندر، وكيف سيعالجها "هو صديق عزيز.. وطبيب بارع.. اطمئني إليه، أسلمي أمرك له، تعودني سالمة معافاة بإذن الله!!" لكن روضة لم تطمئن، بل كان على شمس والطبيب أن يحدثاها أكثر وأكثر... عن الشعوذة والخزعلات.. عن النصابين والدجالين.. وعن الجهل الذي يوقع الناس بين أيديهم.. أخيراً، حسمت الأمر شمس، "هذا طبيب عالم.. وصديق مخلص.. رأيتك مرات في بيتنا ولا يمكن أن يريد بك الشر.. فاطمئني "حينذاك فقط اطمأنت روضة وأسلمت قيادها للطبيب...

الطبيب كبير القلب، رحب الصدر، هادئ، صبور.. يعالج الفتاة بحنو الأب وإشفاق الأخ. "من يصدق؟" راحت شمس تتساءل وهي ترى الطبيب الهادئ الصبور يعالج مريضته. "هذا الرجل هو نفسه كان وزيراً لخارجية الملك فيصل؟ هو نفسه الذي ناضل ضد الاستعمار العثماني والفرنسي؟ شارك في الثورة السورية الكبرى؟ تعرض للمخاطر والأهوال؟ وفي الوقت نفسه يداوي ويعالج!! كم هو متعدد المواهب إذن!! كم هو نعمة لقومه ووطنه؟" ولم يكن متعدد المواهب،

النعمة لقومه ووطنه، يخيب لشمس ظناً.. هو صديق حميم يكن لها كل الاحترام، يكن لعزیز كل المودة والحب.. قبل أن یذهب إلى مریضته أو بعد أن یعود من لدنها.. یزور بیت الأصدقاء كما كان یدعوهم. یجلس مع عزیز، یجلس مع شمس إن لم یکن هناك عزیز، فالدكتور الشهیدر هو الرجل الوحید الذی یطمئن له قلب شمس.. "رجل عظیم لا یوحی لك إلا بالثقة والاطمئنان!!" كانت تقول لعزیز كلما تحدثت عنه.. آراؤه فی الحیاة تعجبها، آراؤه فی السیاسة تعجبها، ولا تملك إلا أن تسأل وتساءل كلما جمعهما مقام. الرجل واسع المعارف، کبیر التجربة، صلب الإرادة، قوي العزيمة. هو متفائل حیناً، متشائم حیناً آخر "أنا أو من بهذا الشعب، متفائل فیهِ، لكنني أكفر بمن یتطحنون لقیادته، متشائم من رجالات سیاسته"، قال لشمس ذات مرة وحين سألته "لماذا؟" كان جوابه واضحاً: "شعب عظیم كشعبنا بحاجة إلى رجال عظماء أقویاء قادرین على انتشاله من هاویته، إنقاذه من ورطته... لكن للأسف كل من ترینهم طافین على السطح الآن مسوخ، أقزام، صغار، أصفار". ولم تستطع هی وعزیز إلا أن یوافقاه... كان البلد یرزح تحت نیر ثقیل ورجالاته یختصمون على صغائر الأشياء، كل منهم یرید الحصول على مكسب، أو إرضاء جنرال لبلوغ منصب، فی كل یوم ینحدرون أكثر، یسقطون أكثر ومن أجل ماذا؟ سفاسف وصغائر، فتات یرمیه لهم هذا الضابط الفرنسي أو ذاك. زعیم لیس بزعیم، ورئیس لیس له من الرئاسة شیء، والكل یسیرون فی ركب المستعمر خاضعین، خانعین". الدكتور غیر راض.. مذ عاد من مصر وهو یلوم وبعاتب، ینتقد ویهاجم. شمس تذكره حین دعتة عایده بیهم آخر مرة إلى الرابطة النسائية.

جریئاً كان!! واضحاً كان!! أجاب على كل سؤال، شفی كل غل.. وفي النهاية أطلقها صریحة واضحة: "المرأة نصف المجتمع.. والنساء مدعوات لأن یعملن شأنهن شأن الرجال وجنباً إلى جنب مع الرجال.. بل علیهن أن یعملن بلا كلل أو ملل لشحد هم الرجال، فالحرية تؤخذ ولا تعطى، الاستقلال لا تصنعه إلا التضحيات والبطولات، والتضحيات والبطولات یرضعها الأبناء من صدور الأمهات".

فی الصحف، فی المجلات، داخلاً، خارجاً، كان یكتب، بل لم یکن یفوت مناسبة إلا ویصدر فیها بیاناً یبین الحقیقة للشعب حاثاً إیاه على الدفاع عن حقه، هادياً إیاه إلى طریق الصواب...

ألیس هو زعیم الشعب؟ ألیس حزبه حزب الشعب؟ مع ذلك، وبكل تواضع

زعيم الشعب، يأتي بنفسه إلى فتاة خرساء يبذل المستحيل كي يشفيها.. بقلب رحيم ونفس مفعمة بالحب كان ينكب عليها، يعالجها، يحدثها، يسألها، يحاول استدراجها، جرّها جراً إلى النطق. أشهراً عدة ظل والفتاة ديدنه... هو واثق أن العلة في النفس وليس في الجسد.. شرح ذلك لأبيها، لأُمها فهزأ رأسيهما وقد استعصى عليهما الفهم. لكن شمساً كانت تفهم.

"يجب أن نكسب ثقّتها.. يجب أن نجعلها مطمئن.. اطمئنانها سيخلصها من عقدة الخوف.. ذهاب عقدة الخوف وحده يذهب بعقدة اللسان". شمس مؤمنة بوجهة نظره، بتصوره الواضح ورؤيته التي لا شائبة فيها... "ستنطق ان استطعنا التغلغل إلى أعماق نفسها، فاخرجنا ما في تلك الأعماق." على هذا الأساس بدأ يعمل.. يجلس معها طويلاً، يحدثها، يروي لها القصص، يفسر الأحداث ثم ينهال عليها بسؤال مفاجئ وكل ظنه أنها بحافز ما، باندفاع ما قد تجيب... لكن، طوال سنة أشهر، ظلت روضة تجلس، تصغي، تتلقى الأسئلة لكنها لا تجيب... حين جاءت رسالة الأخضر، همست أمه للطبيب:

-دكتور!! أنت قلت الفتاة بحاجة إلى حافز، إلى اندفاع تفك عقدة لسانها، ما رأيك أن تستخدم هذه الرسالة حافزاً؟ وأخرجت من حقيبتها ورقات مطوية بعناية.

-أية رسالة أختاه، سألتها الطبيب الذي كان معجباً بشمس "شخصية فذة" كان يقول عنها "امرأة لا كالنساء" وكان يأبى إلا أن يناديها "أختاه".

شرحت له الأخت الحب من طرف واحد، ذاك الذي كان يشد روضة إلى الأخضر مؤكدة له أن لذلك الحب دوراً في خرس الفتاة.

-لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟

-لم أكن على يقين.. لكن الآن نعم..

وتهلل وجه الطبيب!! "وضع اليد على العلة أقرب الطرق إلى معالجة المعلول". قرأ الرسالة فتهلل واستبشر:

-دعينا نجرب، قال لشمس وهو ينهض، كله همة وحماس. فقط الحقي بي بعد حين وافعلي ما أقول لك الآن...

بعد حين، لحقت به شمس.. كان قد تحدث مع روضة كعادته، حثها على الكلام، حرصها، لكن حين دخلت شمس ويدها خلف ظهرها، كما اتفقا، بادرها الطبيب باندفاع.

-بيدك شيء، ما هو يا أختاه؟  
-لا.. لن أقول.. هو يهم روضة كثيراً.. يفرحها كثيراً..  
وفي الحال، فتحت روضة عينيها على سعتها.  
-روضة لم يعد يهمها شيء.. ولم يعد يفرحها شيء..  
قال الطبيب بمسحة من قنوط  
-لا، ردت شمس بدفق من تفاؤل ما عدا هذه الرسالة، ما عدا صاحبها..  
هما يهمانها كثيراً.. كثيراً.. كثيراً..  
-هاتيها إذن.. أعرف ما فيها.. قال الطبيب وهو يمد يده إلى الرسالة  
فابتعدت بها شمس مقتربة من روضة..  
-كيف دكتور والرسالة لروضة؟ تسلم باليد.  
-حقاً؟ قال الطبيب وهو يغمز بعينه.  
-حقاً وصدقاً!! صاحبها يقول: سلميتها لروضة أعلى الناس عندي، وبدت  
روضة تشتعل حماساً وتحفزاً، حمية واندفاعاً، عيناها على الرسالة ويدها تهمان  
بالإمساك بها.  
-قد أثرت فضولي.. ممن هي أذن؟ سأل الطبيب وهو يرقب روضة،  
مسروراً، بطرف خفي..  
-لا.. عليها هي أن تحزر.. ردت شمس وهي تقترب أكثر من الفتاة..  
انظري.. روضة..  
شمي رائحة الرسالة.. قالت وهي تقربها من وجهها وتبعدها عنه. ألا تذكرك  
بأحد؟ ألا تستطيعين أن تخمني من المرسل؟ ومن جديد، راحت تلوح بالرسالة أمام  
عينيها، فبدا بريقهما أشد تراقصاً، وحماستها أكثر توهجاً، بل خيل لشمس أنها ترى  
في روضة كتلة مشتعلة من نار..  
-الرسالة لك.. احزري من أرسلها؟ صاح بها الطبيب على حين غرة.. وعلى  
حين غرة انفجر صوت روضة.  
-الأخضر!! صاحت وهي تهب ملء طولها.. انها رائحته.. إنها رسالته..  
اقرئها لي.. تابعت، وهي تمد يديها كليهما في محاولة للإمساك بالرسالة، فيما  
كانت تنفجر أسارير وتفتت شفاه وقد تنفس كل من شمس والطبيب الصعداء.

-بماذا أوصيكم؟ بصوت خفيض ونبرة هادئة بدأ علي المر المستلقي على فراش المرض حديثه.

يونس، عزيز، نرجس، إبراهيم، نواف تابع معدداً أسماء المتحلقين حوله، متوقفاً بعد كل اسم وكأنما يتلذذ بنطقه ويستمتع بطعمه. تعاونوا، كونوا معاً على الدهر، في السراء والضراء ظلوا يداً واحدة.. لا يدخل بينكم طمع، ولا يحشر إبليس قرنه...

-أكيد، أبي.. أكيد.. لكن.. لا تجهد نفسك، خاطبه يونس وهو يرى أنفاسه تصعب ولهائه يزداد.

-بل يجب أن تسمعوني.. ربما كان هذا آخر كلامي لكم.. عاد علي المر بعد أن ربت يد يونس التي امتدت تهدئه، ونظر إلى نرجس التي كانت تجلس على الفراش بجانبه، وكأنما هي جاهزة لأن تضع رأسه على ذراعها تهدده.. "صحيح!! من قال إن الإنسان يعود في شيخوخته طفلاً؟.. أهي الدائرة التي لا بد من أن تكتمل؟ يبدأها المرء طفلاً، يشب ويترعرع، يصبح راشداً كهلاً ثم شيخاً.. خطا دائرياً يرسم إلى أن يلتقي طرف النهاية بطرف البداية وتتغلق الدائرة". راح عزيز يفكر وهو ينظر إلى أبيه. لم يكن علي المر يشكو من شيء، صحته، سمعه، بصره، كلها على خير ما يرام، يقرأ القرآن، يسمع أدق الكلام، يذهب، يجيء، في مضافته يستقبل الأصحاب، الأقرباء، الغرياء، يلعب المنقلة والداما، ويضحك بقهقهة تسمع حتى آخر الزقاق. لكن فجأة أحس بوهن، تعرق جسده، تصببت جبهته ماء، ارتفعت حرارته. كانوا في الصباح قد جاءوا بالفول الأخضر وكان هو يحب الفول الأخضر.. أكل خمسة أو ستة قرون.. بعدئذ بدأت عليه الأعراض:

قيء، تشنجات، وهن، ارتفاع حرارة وعرف الكل أنه الفوال. في اليوم الأول أخذه يونس إلى الطبيب. في المنطقة كلها لا يوجد طبيب.. وكان عليه أن يأخذه إلى حماة. "البوسطة" الوحيدة التي تمر بقرى المنطقة تلمم ركابها، تذهب إلى حماة مرة وحيدة.. تغرب مع الفجر لتشرق مع المغرب.. الطبيب أعطاه الدواء، وبدا أن الجسم القوي الذي لم يفقد سناً واحدة، ما يزال قادراً على المقاومة. عاد يونس بأبيه إلى القرية مع تحذيرات الطبيب، لا تقرب الفول أبداً.. حذار من الفول.. يصيبك بانحلال الدم فوراً ويقتلك. ولم يقرب علي المر الفول بعد ذلك.. لكن انحلال دمه تلك المرة كان كافياً لأن يفتح الباب لعلل أخرى كانت كامنة ما دام الجسم قوياً.. ضعف فبدأت تظهر برؤوسها: التهاب مرارة، تشنجات قولون، اضطرابات معوية.. وأدرك علي المر أن الثوب بات مهلهلاً، أية شدة تمزقه.. فأرسل في طلب عزيز يودعه قبل أن يموت. الشدة التي تمزق الثوب عادت بعد يومين، برداء تصطك لها الأسنان وترتجف الأوصال ثم لا تدعه إلا خرقة مبللة.. أرادوا إعادته للطبيب فرفض.. إنه الموت ولا مفر من الموت..

-أبي! لا تقل ذلك، أنت ما زلت قوياً!! رد عزيز شاداً على يده مشجعاً وهو يكره أن يراه، هو الذي لم يعرفه إلا قوياً شديد العزم، يستسلم للضعف والموت.  
-كنت، عزيز.. لكنه الزمن يا بني.. يبلي الحديد ويضعف القوي، أم نسيت أنني ابن ثمانين؟  
-لم أنس.. لكن..

-لا، عزيز، لا تقل لكن، قاطعه الأب الهادئ النيرة، المطمئن القسما، وكأنه ليس على فراش الموت. كلنا مصباح، ولكل مصباح زيت، ينفد فينطفئ المصباح.. أجل.. يا أولاد، اليوم أشعر أن زيتي ينفد.. ربما هذه آخر قطرة..  
-أبي. أرجوك. صاحت نرجس شبه نادبة، شبه باكية..

-نرجس، لا تتدبي ولا تبكي قبل أن تسمعي ما أريد قوله.. وضغطت نرجس على أعصابها، شادة بكفها على كف أبيها، فعادت الدموع المغرورقة في العينين إلى مكانها، وعاد الذعر المرتسم على المحيا إلى مكان هناك في الأعماق، ربما بانتظار لحظة أخرى..

-قل أبي، ماذا تريد؟ حثه يونس وقد أدرك أنه بالغ ما ليس منه بد.  
-نرجس، خاطب الأب ابنته التي كانت قد حبلت وانجبت الكثير، سمنت وتضخمت حتى أصبحت جذع سندية عتيقة.. افتحي الصندوق وهاتي علبة

منه...

ذهبت نرجس إلى صندوق أمها في الزاوية، فتحته وأخرجت علبة، سلمتها إلى الأب ففتحها.

- هنا، قال وهو يشير إلى الذهب الذي لمع للتو، مائتان وخمس وثلاثون ليرة عثمانية.. توقف الشيخ الذي أضعفه الفوال ثم تشنجات القولون والتهاب المرارة، فيما كان ناظره ينتقلان بين الأبناء المتحلقين حوله، في عيونهم الحزن وعلى رؤوسهم الطير. وفي هذه الصرة ثلاثة آلاف وأربعمائة ليرة سورية.. هي كل ما نملك من مال.. لكن الأرزاق كبيرة والحمد لله...

- الحمد لله، صاح كل من حوله فاتحين أيديهم رافعين عيونهم للسماء.  
- أنتم تذكرون... يوم جئنا أم العيون.. هاربين، خائفين، لم نكن نملك شيئاً.. لكننا اليوم نملك الكثير: أراضيها الواسعة هنا، في قلب الثور، في أم الرجوم، أغنام، أبقار، خيول، عربات.  
- الخير كثير والحمد لله، الخير كثير، قاطعه يونس، ربما رغبة في توفير الجهد على أبيه.

- هذا الخير أريدكم أن تزيدوه وتكثروه.. حتى تظل راية آل المر مرفوعة لا تعرف انتكاساً..

- سيكون ذلك بإذن الله يا أبي!! اطمئن يا أبي!! طمأنه عزيز وقد أدرك الهم الكبير الذي يشغل باله..

- الفرقة وحدها تضعفكم، الخلاف وحده ينكس رايتكم.. فلا تختلفوا ولا تفترقوا.. أنتم أخوة.. أنتم الثلاثة، قال وهو يشير إلى نرجس وعزيز ويونس، وإبراهيم.. ابن أخيك لكنه بمثابة عمران.. اعتبروه عمران.. واقسموا كل شيء على أربعة.

- بل على ثلاثة.. اندفع عزيز فجأة رافعاً أصابعه الثلاث، ففتح يونس عينيه هاتفاً:

-ماذا؟

-أنا أتنازل لكم عن حصتي.. لا أريد شيئاً..  
-وأنا أيضاً أتنازل.. تابعت على الفور نرجس وقد ألهبها عزيز حماسة ومروءة.. أسامحك بكل شيء.. لا أريد أرضاً ولا غنماً، خيلاً ولا بقرًا..

-لكنه حقكما، عقب علي المر وهو ينقل ناظريه بين عزيز ونرجس.. بمزيج من التعجب والانبهار، الحزن والسرور..

-صحيح.. هو حقنا.. لكن الحمد لله!! أنا هناك بخير!! تجارتي رابحة وأحوالي حسنة... ولن أقاسم أخي وابن أخي على أرض لن أعمل بها.

-وابنك نواف؟! تساءل وهو يرمق الحفيد الذي يحب.

-نواف.. سأخذه معي إلى الشام.. أنا بأمس الحاجة إليه هناك.

-وأنت، قال وهو يميل برأسه إلى نرجس..

-أنا بخير أيضاً.. أبو خليل الساهي جاء معك إلى أم العيون وكسب كما كسبت.. أيضاً.. لدينا أراض وأغنام.. خيول وأبقار فلماذا أقاسم أخوتي ثروتهم؟

-بارك الله بك وبه!! قال علي المر وهو يمسك بيدها ثم بيد عزيز، إذن، ماذا أوصيك، يونس؟

إبراهيم هو عمران..، عمران هو أخوك.. والأخوة سواسية يقتسمون قسمة الحق...

-لا، أبي، حصة عزيز ستظل لعزيز.. صحيح.. نحن نقبل كرم نرجس وتسامحها.. لكن.. عزيز.. لا.. ستظل حصته معي متى أرادها كانت له.. مالا.. أرزاقاً.. أرضاً..

-كذلك حصتي، عمي يونس، نطق إبراهيم أول مرة وقد أثارته الحمية والنخوة، تظل معك وأظل أنا واحداً من أولادك نعمل معاً ونعيش معاً.

-الحمد لله! الآن أموت مرتاحاً مطمئناً! تمت علي المر وهو يتنفس الصعداء..

-حقاً أبي!! لست خائفاً من الموت؟ سأل عزيز بكل جد وكأنما يريد أن يتخلص من شاغل يشغله.

-خائف؟! كرر الأب الذي انعكست الراحة والطمأنينة قبل ثوان على سيماء، فبدت مشرقة بشيء كالنور. أنا أخاف من الموت، عزيز؟ تابع سؤاله بمسحة من عتب. لا.. لا.. الموت حق وما علي المر من يخاف من الحق..

-صحيح!! لكنه الموت يا أبي!! المجهول الذي تلقى في هوته!! الغول الذي ترتعد له فرائص الشجعان..

-لا.. عزيز.. الموت ليس مجهولاً ولا غولاً.. الموت مجرد انتقال.. من دنيا

فانية إلى دنيا باقية.. من حياة زائلة إلى أخرى دائمة فلماذا نخاف ونحن ننقل إلى البقاء والخلود؟

-والحساب.. العقاب؟ سأل عزيز بكثير من التردد..

-الحساب!! العقاب!! كرر الأب الذي بدا وكأنه يستمد قوة من ضعف، وصفاء من تشوش. هو ذا ما يخافه الناس عزيز، وليس الموت!! ومن يخاف إلا الآثم المرتكب؟ وحدهم المذنبون الآثمون يخافون.. أما الأنقياء الأتقياء الذين لم يذنبوا ولم يأتوا، ما ضرروا أحداً ولا آذوا أحداً فلماذا يخافون؟ هم يعلمون أنهم بموتهم تنتهي حياتهم هذه، لكن لتبدأ حياة جديدة وعدهم ربهم فيها بجنة من سندس أخضر تجري من تحتها الأنهار.. فلماذا لا يكونون مطمئنين؟  
وشعر عزيز بتيار من طمأنينة دافئة يسري في أوصاله.

-الحمد لله!! تنهد متمتماً..

-أجل الحمد لله!! ردد الأب وقد ارتعشت شفتاه فجأة وناست ذبالة المصباح في حدقتيه فجأة.

مع ذلك شد بكفه على كف نرجس، وهي ما تزال ممسكة بها، ثم رفع سبابته اليمنى أمام وجهه مستأنفاً:

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!! مع الهاء الأخيرة سمع عزيز صوتاً كالحشجة، فيما أحست نرجس بشيء ينسحب من كفها وبأنفاسها تنسحب من صدرها. نظرت إلى الأب فوجدت فمه انفتح على مصراعيه، وعينييه جحظتا وقد خبا منهما النور...

نظرة العينين نفسها، انفتاحة الفم نفسها، تخشب اليد نفسه كانت قد أحست بها يوم ماتت أمها قبل بعض الزمن.. إنه الموت.. نرجس تعرفه.. يأتي بالضباب والسديم فينشرهما على كل ما حوله ليترك القرس والحزن.

-لا.. أبي.. لا تمت، أبي!! دونما تفكير، دونما شعور، وجدت نفسها تصيح مولولة نادبة، فيما انكب يونس بخوف وهلع على يد أبيه، وانحنى عزيز على جبينه.. متحسناً بيديه، مقبلاً بشفتيه، الجبين ما يزال دافئاً لكنه ليس دفء الحياة، أنامله انحدرت مع صفحة الخد تتلمس الوجه الذي كانت تحب... الشفتان في الأثر.. تلتزمان، تتحسان.. لم يعد ثمة قلب يخفق، لم يعد دم يتحرك.. ثمة سكون.. برد..

-لقد مات!! تمت عزيز وكأنه يخاطب نفسه فيما امتدت يده إلى العينين

تغمضهما وإلى الشفتين تطبقهما بعد أن ظلنا منفتحين على هاء الشهادة والطمأنينة.

سبعة أيام ظل بيت الشعر منصوباً في ساحة القرية والناس يتوافدون معزين.. من القرية، من الصابرة، من القرى الأخرى التي كانت قد نشأت وانتشرت خلال ذلك الرده من الزمن، لتشكل جبهة جديدة للحضارة وال عمران في منطقة خالصة للبداءة والبداة. قليب الثور، أم الرجوم كانتا الأقرب إلى أم العيون وكان أهلها قد جاؤوا من الغرب أيضاً، حيث الريحانة والجبال، لا هرباً من العصلمي كما جاء علي المر وصحبه بل سعياً وراء الرزق وقد سدت في وجوههم أبواب الرزق.

لم تكن أم العيون قادرة على الاتساع للوافدين الجدد فقادهم علي المر إلى الشمال، حيث القباب الكثيرة، والعواميد الزرقاء التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على عمران كان ثم باد.. حفروا هناك، فنتشوا، بحثوا، فوجدوا آثار دور قديمة خربها الزمان، أساسات أبنية من حجر أزرق، دعامات وأعمدة من حجر أزرق وقد زينت بعناقيد العنب وأوراق الزيتون، كما وجدوا بقايا لمعاصر زيتون، وأباراً غطاها أهلها بصفائح من حجارة زرقاء. جفاف أو غزو جعلهم يرحلون على أمل العودة.. ثم لم يعد أحد. رفع الوافدون الجدد الأغشية ثم أنزلوا الدلاء في الآبار فخرجوا بالماء.. أية نعمة إلهية!! كان علي المر قد شارك في بناء القرى الجديدة واستصلاح الأراضي الجديدة حيث المنطقة تعمر وتتوسع من جديد، وعلي المر رائد وطلائعة، مرشد وشريك. سنوات خصب عشر تتابعت بغلال وفيرة ومواسم خيرة فجعلت دار علي المر تمتلئ حنطة وشعيراً، أغناماً وأبقاراً وجعلت صندوقه يعج بالذهب والفضة.. والناس كل الناس يحملون له الإعجاب والإكبار، الحب والود، فكيف لا يسارعون إلى المشاركة في عزائه؟.

خبر الموت ينتقل.. بسرعة ودون أن يعلم أحد كيف؟. وصل الخبر إلى قبيلة شمس فأسرع الشيخ نواف يعزي بالرجل الذي خاواه يوماً ثم ناسبه بعد ذلك ليصنعا معاً نسيجاً جديداً للحياة، لحمته وسداته: بدو وحضر، رعي وزراعة، يكمل واحدهما الآخر ولا يعيش واحدهما بغير الآخر.

خبر الموت انتقل أيضاً إلى الريحانة، وأسرع الأهل القدماء الذين لم تنقطع أواصرهم بعلي المر ولا انقطعت أواصر علي المر بهم... طوال ربع قرن كان ما ينفك يزورهم ويزورونه، يأتي بالحواسيد منهم ويستجر المهاجرين. مصاهرات قامت، علاقات امتدت، وظلت الريحانة المحج الذي لا يهنأ لعلي المرعيش إن لم

يحج إليه العام تلو العام، ولا يطيب له طعام إن لم يأكل من زيتته وزيتونه، جوزه ولوزه، دبسه وزبيبه. ظلت الريحانة الأرض التي تمتد فيها جذوره عميقاً في التربة كجذور الزيتون والسنديان فكيف يتخلف أهل الريحانة عن المشاركة في مأتمه؟. جديناً حملوا، عجولاً ساقوا، وأحمال بغال من برغل وزيت سفحت كلها على روح علي المر وحملت لنفس عزيز كل شعور بالعزة والفخار.. فالرجل الذي فتح أرضاً جديدة بدا أكثر أهمية مما يتصور عزيز.. لكأنه ملك في مملكته الجديدة.

سبعة أيام ظل عزيز يستقبل المعزين.. متعبة كانت المراسم، متعبة كانت الطقوس.. لكنها الأعراف والتقاليد، وهل باستطاعته أن يغير الأعراف والتقاليد؟" لكن لماذا سبعة؟" كان لا يفتأ يتساءل وقد أرهقه استقبال الناس ووداعهم.. "أهو عدد مقدس؟ الأسبوع سبعة أيام، السماوات سبع، الأرضون سبع، الله خلق الكون في ستة أيام ثم استوى في اليوم السابع على عرشه.. أهو رمز الكمال والاكتمال؟ يستمد قداسته من قداسة الكمال والاكتمال؟". لم يكن عزيز يدري، لكنه كان يتساءل. في اليوم الخامس كان قد جاء المعزون من الريحانة، في السادس جاء صحبه من حماة: حسني الدباغ وأهله بعد أن مات الحاج صبحي.. الدكتور نورس، المحامي إبراهيم كلهم جاؤوا وحمل مجيئهم الكثير من العزاء لقلب عزيز.. "لم ينسني الناس هناك.. لم تذهب تلك المرحلة من عمري سدى". .. وأكد له حسني أن الناس ما زالوا يذكرونه في الحاضر.. ما زالت النسوة تتحدث عن الشبخة ابنة الشيوخ التي ملأت ذات يوم الحب العتيق أحاديث كرم وقصص تفرد وشجاعة، لكن ما جعل عزيزاً يتتبه كل التتبه همسة حسني:

-تعلم؟ أحد المخبرين سألني قبل شهر عنك؟

-أحد المخبرين سألك؟ ماذا تعني؟

-أعني.. هكذا.. دون سابق إنذار، جاء رجل لم أكن أعلم أنه يعمل مع الفرنسي، ثم تبين أنه مخبر.. تحري.. يعني..

-إي.. وما الذي كان يريد؟

-كان يريد أن يعلم أي شيء عن عزو المرارة.. عن امرأة تدعى شمس.. بدوية.. ابنة شيوخ..

-إي.. وبماذا أجبتة؟

-قلت له أنا لا أعرف شيئاً عن مثل هذا الاسم.. لكنني أعرف رجلاً باسم عزيز المر.. وامراته شمس ابنة الشيخ نواف..

-سامحك الله!! قاطعه عزيز وهو يضرب كفاً بكف.. ما الذي فعلته؟

وبدا حسني الدباغ منبهتاً، فقد فاجأه الذعر في عيني عزيز.. حينذاك فقط تبين له سوء ما فعل. لقد جره ذلك المخبر، من حيث لا يدري، للإقضاء بكل ما يعرفه عن عزيز المر وزوجته الشبيخة شمس التي دوخته ذات يوم، وكان على استعداد لأن يقدم لها تنكة من الذهب إن استجابت له.

في اليوم السابع فقط اكتمل سوء تلك الفعلة.. حين ظهر على حين غرة ثلاث سيارات يتعالى إثرها الغبار، وهي تشق طريقها إلى أم العيون. أولاد القرية الذين كانوا ما يزالون يعجبون من عربات تسير بلا خيول ودواليب ليست من معدن تخرج على طرق لم تمهد، استقبلوا الموكب عند أطراف القرية ثم تقدموه مرشدين إلى حيث بيت الشعر وعزيز الذي فتح عينيه على سعتهما وهو يرى القومندان رينو بنفسه ينزل من السيارة.. ثم يأخذه بالأحضان معزياً مواسياً.

-يا إلهي!! قومندان فرنسي!!

-موكب سيارات آتٍ من الشام لتعزية عزيز!!

-كم هو مهم، عزيز إذن!!

راحت الوشوشات تتداح في بيت الشعر، والناس ترى إلى القومندان بكل نجومه وأوسمته يخاصر عزيزاً، وراه ضباط وجند، ثم يشقون طريقهم جميعاً إلى بيت الشعر ليحتلوا صدارته. لم يكن أحد من أهل القرية قد أحس بالخوف الذي سرى في أوصال عزيز وهو يرى الموكب، ولا بتوجس الشر الذي ملأ نفسه وهو يأخذ القومندان بالأحضان، ولا بالأفكار السوداء التي ملأت رأسه وهو يسير.

-هو يعرف كل شيء عنا، قال عزيز لشمس وهو يأوي إلى فراشه بعد يوم طويل من التعب والإرهاق.

-كل شيء؟! كل شيء؟! سألت شمس شبه مرتعدة، فقد كانت تعلم ما رواه حسني عن تحريات الفرنسيين، وكانت تعلم ما توصل إليه القومندان من استدرجه للأخضر في باريس، كما كانت على يقين من أن تحرياته القديمة وتقصياته لم تكن قد ذهبت بلا طائل.

-أعتقد... كل شيء.. أجاب عزيز وهو يحس بأموج الرعدة تصل إليه..

-يا إلهي!! حتى علاقتنا بجيرار؟! سألت شمس وقد صار وجهها قناعاً للذعر، ما هربت منه، هي وعزيز، سنين طويلة، وما حاولا معاً إخفاءه، سنين طويلة، بات الآن عارياً مكشوفاً أو يكاد..

-لا أدري.. هذا وحده ما يزال موضع شك، رد عزيز وهو يحاول أن يستعيد في ذهنه وجه القومندان عله يستشف من أمائره علامة للشك أو إشارة للاتهام، لكن القومندان كان قد جاء صديقاً، الود على محياه، والتعاطف في سيماه... لم يكن طوال ثلاث ساعات قد ألمح إلى شيء أو تحدث بما يثير الشك. هو رجل في منتهى التهذيب واللياقة.. عبر عن حزنه بوفاة الفقيد الغالي.. عن مسارحته للمجيء ما إن سمع نبأ الوفاة، عن سروره بمشاركة صديقه في عزائه، وحين قدمت المناسف أكل هو وصحبه، ردد العبارات التي يرددتها الناس عادة في المآتم متمنياً لعزیز حسن الصبر والسلوان ثم امتطى سيارته ورحل.

-الغبي حسني.. لو نعلم فقط ما حدث به ذلك المخبر!؟

-ما قلته لك حرفاً بحرف..

-يا إلهي!! عزيز!! أشعر أن الأنشطة تضيق حول عنقي!!

-أنا نفسي أشعر بذلك!! بل.. تصدقين!؟ شعرت، وأنا أراه ينزل من سيارته، أنه يحمل لي بيديه تلك الأنشطة..

-إذن.. ماذا نفعل!؟

وكان ذلك هو السؤال الذي أرقهما حتى مطلع الفجر، فيما كان الجواب سبباً في إرباك ناس وقلب مخططات. دملجة، رغم الحزن على الجد الذي فارقه على عجل، كانت تكتم في صدرها سعادة لا تستطيع الحديث عنها لكن عينها كانتا تبرقان بها. فعمها عزيز مذ وصل إلى القرية، كان قد قال لابنه "عليك أن تحزم متاعك إلى دمشق، أنا بأمس الحاجة إليك". "الحمد لله!! سنترك القرية"، راحت دملجة تهتف، وهي تكاد تطير فرحاً.. "سأعيش في المدينة".

كانت دملجة تحلم بالعيش في المدينة، بل ربما لم توقع نواهاً في هواها إلا لكي يأخذها إلى المدينة.. لكن أملها خاب بعد الزواج فكرهه للمدينة كان يجعلها على طرفي نقيض. دملجة تعلم من قبل أنه يعشق الريف وأنه يريد العيش فيه، لكنها كانت تمنى نفسها بتغييره بعد الزواج. "القرية!!؟ لماذا نعيش في القرية؟ هنا غبار وحر في الصيف ووحل وقر في الشتاء!!". كانت تقول له: "في القرية لا شيء سوى الشوك في الأرض والحشرات في الجو.. الضيق والحرمان.. الأفاويل والإشاعات" "في المدينة الطرقات المعبدة، الأبنية الجميلة وقبل هذا وذاك هناك الكهرباء". كانت تحاول إقناعه كلما خلا لها الجو، فالكهرباء كانت الساحر الذي يخطف الأبصار "حسبك أن تضغط زراً ليشرق نور كنور الشمس"، كانوا قد تكلموا

أمامها ففتحت عينيها إلى أقصى اتساع... "إذن، لن تكوني بحاجة لتعبئة زيت الكاز وغسل البلورة والمصباح كل يوم، قص الفتيلة وإشعال الكبريت؟" لا، لا، لا، ذلك الزر يغنيك عن هذا كله، يعفيك من كل تعب" بعدئذ سمعت دملجة أشياء أخرى: المكواة تصلينها بالكهرباء فتكوى ثيابك، التسخين، التدفئة، كله على الكهرباء والأهم الأهم الحاكي والمذياع.

في المدينة حاكٍ تضعين عليه أسطوانة فتسمعين الأغنية التي تشائين، الموسيقى التي عليها ترقصين... تديرين مفتاح المذياع فتسمعين محمد عبد الوهاب... أسمهان، أم كلثوم.. "يا إلهي!! أي حلم إذن، أن يعيش المرء في المدينة!!". على ذلك الحلم ظلت دملجة تعمل. نواف ضدها، أمها عليا، أبوها يونس، كلهم يريدون كسب نواف... إبقاءه في القرية، فهو قوة للعائلة ورصيد.. لكن دملجة غير معنية بقوة أو رصيد.. هي تريد أن تذهب إلى المدينة، تعيش حياة المدينة، حيث النظافة، الماء، الكهرباء، فنتيه على أخواتها ولداتها ونفقاً أعين الحاسدين والحاسدات..

في أيام المآتم السبعة كانوا كلهم في هم ودملجة في هم، كلهم حزاني باكون، وهي تكتم سعادة في القلب تكاد تفيض على الوجه والشفنتين.. هي تخشى اللوم فقط فتكبت، وتنتظر اليوم الموعود.. كل شيء معد للرحيل.. وما تراه هذا الكل شيء؟ ما تراها تأخذ من القرية إلى دمشق؟ لا.. لا.. حسبي بعض ثيابي الداخلية، مصاغي وذهبي".

فقد كانت دملجة تعلم أن ثياب القرية لا تصلح للمدينة وأن عمها وامرأة عمها سيجهانها في دمشق عروساً تزف لابن عمها من جديد. نواف نفسه كان قد استعد للرحيل، رغم نفوره من المدينة، رغم تعلقه بالقرية لم يكن ليخالف أوامر أبيه. "أنا بحاجة إليك"، إذن سيلبي نواف الحاجة ودملجة سعيدة بذلك.. أيام المآتم طويلة، بعدها دملجة بالدقائق والثواني وهي تعلم أن عمها لن يستطيع المغادرة قبل إتمام الطقوس: الأسبوع، الذبائح، النفقة على روح الميت، كلها لا بد من قضائها قبل العودة إلى دمشق. عمها رجل هام، يأتي الناس لتعزيته من كل مكان.. حتى من دمشق جاؤوا.. قومندان بطوله وعرضه ركب سيارته تلك المسافات الطويلة كي يقوم بالواجب.. وازدادت سعادة دملجة "سأعيش أروع عيش: عزاً وجاهاً، غنى وسعادة".

الكل في القرية يتحدثون عن المكانة التي يتبوأها عزيز في دمشق، عن غناه وثروته، عن علاقاته الواسعة بكبار القوم من سياسيين وذوي شأن، فرنسيين

ووطنيين.. ومجيء القومندان أكبر دليل زاد في أحاديث أهل القرية وزاد في سعادة دملجة.. لكن ما إن جاءت ساعة الرحيل حتى جاءت معها الصدمة:

-ابق هنا الآن، قال عزيز لابنه فزفر قلب الابن فرحاً.

-تعني لم تعد تريدني في دمشق؟ سأل نواف أباه وهو لا يكاد يصدق.

-بل أريدك.. لكن.. لنؤجل ذلك الآن.. ابق مع عمك في القرية.

لم يسأل نواف عن السبب، ولم يرغب في معرفة الطوارئ التي دعت الأب لتغيير قراره.. حسبه أنه سيظل في القرية.. حسبه أن يثب فرحاً متراقصاً إلى دملجة، يأمرها بفك صررها ورزما فتجحظ عينا المرأة على الحلم الذي يهرب.

-لا.. نواف.. لا تقل ذلك..

-بل أقوله.. هما سيسافران غداً.. نحن سنبقى.. وأنا سعيد.. سعيد.. سعيد..

طوال السهرة ظلت دملجة مع امرأة عمها تسأل وتستفسر.. لكن عبتاً.. شمس متكئة واجمة مقطبة الحاجبين.. هي تعلم هول الصدمة على الكنة التي تفقد أعلى أحلامها، لكن ماذا باستطاعتها أن تقول؟ أتقول لها إن القومندان يلاحقها ملاحقة الهر للفأر؟ إن ثمة سرّاً تخفيه، وهو يسعى للكشف عنه؟ إن خطر الموت يهددها إذا ما كشف ذلك السر؟ أتحكي لها عن الكابيتان جيران؟ ثورة حماة؟ مطامع جيران بها؟ دفاعها عن نفسها؟ وعن ذلك التاريخ الطويل من الهروب والتخفي والتمويه، عل السر يضيع؟.. لا، ليس باستطاعة شمس أن تبوح بشيء.. السر الذي حملته مع زوجها من حماة لم يعرف به أحد.. كانت حذرة طوال تلك السنين وكان عزيز حذراً.. لكن ها هو ذا من مأمته يؤتى الحذر.. القومندان يستفرد بالأخضر في باريس كي يحدثه عن طفولته في حماة.. المخبر يأتي إلى حسني الدباغ كي يستجره للحديث عنهما..

لا شك أن القومندان يقترب من ذلك السر ولا شك أن الخوف يemor في قلبيهما كليهما.

"أشعر أن الأنشطة تضيق حول عنقي" تقول لعزيز، ثم يسهران حتى مطلع الفجر وقبل أن يرقد لهما جفن يقرران "تسافر إلى دمشق فإن رأينا خطراً هربنا في الحال". لكن هل تستطيع شمس البوح بذلك لدملجة؟ هل تستطيع إشعارها بالخوف الذي يعتورها، بالحذر الذي عاودها هي وعزيز فقررا إبعاد نواف عن مكمن الخطر.. إبقاء احتياطاً في القرية حتى لا يضعوا بيضهم كله في سلة واحدة؟ شمس تلتزم جانب الصمت ودملجة تكاد تنفجر قهراً وغيظاً سرعان ما تحولا إلى

دموع سخان وهي تودع الراحلين إلى دمشق.

في دمشق، كان الجو مكفهراً متلبداً بالغيوم، ليس غيوم المطر والثلج، البرق والرعد، بل غيوم السياسة والدسائس، الحرب والضرب. قبل ثلاث سنوات كانت مفاوضات قد أجريت ومعاهدة قد عقدت لإنهاء الانتداب. لكن قبل أن يجف حبر المعاهدة بدأت فرنسا تسحب البساط من تحت الأرجل، متذرة بهذه الحجة أو تلك، منسحبة من هذا الالتزام أو ذاك، مؤكدة أنها لا تخطط إلا لترسيخ استعمارها للبلاد، فالوزارة التي لا ترقع عند قدمي مندوبها السامي تحل في الحال، رئيس الجمهورية الذي لا يكون لديها "شبيك لبيك عبدك بين يديك" يعزل، والمدير الذي لا يكون عبداً مطيعاً يرمى في القمامة... تراجعات متتالية قامت بها فرنسا، ضربات متتالية وجهتها لحلم الاستقلال لكن الضربة الأشد كانت لواء اسكندرونة.

قبل عشرين عاماً كانت تركيا "العصلمي" قد خرجت من البلاد، لكن هل تخرج تركيا أتاتورك؟ أحلامها بسورية لا تستطيع أن تتحقق، فلم لا تتحقق بلواء اسكندرون؟ بالحرب والضرب لا تستطيع ذلك فلماذا لا يكون بالتأمر؟. كليكية، جزيرة ابن عمرو، ديار بكر، كلها أراض عربية، مع ذلك وضعت يدها عليها، بالقوة أخذتها، فلماذا لا تأخذ لواء اسكندرون؟

منذ زمن طويل كان أتاتورك قد كشر عن أنيابه يريد التهامه. لكن ثمة فرنسا.. كما في الموصل بريطانيا.. بريطانيا لم تتحل عن الموصل لكن فرنسا تتخلى.. "تجري استفتاء" اقترح أبناء أتاتورك وهم يلوحون بثمن اللواء لفرنسا. الصفقة رابحة وفرنسا لا يغيرها كالصفقات الرابحة.

عصبة الأمم أرسلت بعض المندوبين، فرنسا أطلقت لتركيا العنان، تزور وتحرف، تبدل وتغير، وجاءت النتائج كما يشتهي أبناء أتاتورك.. الثمانية والستون بالمائة من السكان العرب صارت ثمانية وثلاثين، والأقلية التركية صارت أغلبية وسلخ لواء اسكندرون!! سلخ وهو حي، عكس ذبائح الدنيا كلها، تلك التي تذبح أولاً ثم تسلخ.. لواء اسكندرون صلب على خشبة عالية، دقت المسامير في يديه وقدميه ثم بدأ جلاوذة أتاتورك يسلخونه. دماؤه تنزف، صرخاته تتعالى، أناته تقطع نياط القلوب لكن لا أحد يسمع.. عصبة الأمم التي جاءت لإحقاق الحق وإحلال السلام على الأرض، بريطانيا التي تدعي الصداقة للعرب والاهتمام بمصالح العرب، فرنسا التي التزمت ذات يوم بحماية الأرض التي انتدبت عليها، حتى روزفلت الداعي لحقوق الشعوب في الحياة وتقرير المصير، لم يسمع بصيحات اللواء ولم تصل أذنيه توجعته وأهاته، لكنها وصلت مدوية موجعة إلى دمشق.

في المرجة، الحجاز، الحميدية، كانت صرخات اسكندرونة تتردد. في باب الجابية والصالحية، على ضفاف بردى وجدران الأموي كانت ولولات أنطاكية تنعكس مستجدة طالبة الغوث. الأخت تسلخ جلدًا عن لحم، لحمًا عن عظم، فماذا تفعل أختها التوأم؟.

الأخت التوأم هبت إلى النجدة.. هي مكبلت اليدين مغلولة القدمين لا تملك إلا الصوت فتطلقه صراخاً، سمعه عزيز وشمس مذ وصلت بهما السيارة إلى شارع بغداد، ذلك الشارع العريض الذي شفته فرنسا عبر الرياض والبساتين كي تقضي على متمردين خارجين على القانون، يترصون بجنودها فيصرعونهم أرضاً، يكمنون للدوريات فيمزقونها تمزيقاً.

الشوارع الأخرى غير سالكة.. حشود الطلاب، جماهير الناس تملأها كلها مانعة السير، موقفة كل حركة.. فلم يملك الزوجان إلا أن يدورا حول سور دمشق قبل أن يصلا إلى الشاغور فالميدان.

-أين مناف؟ سأل الوالدان وضحة، وهي تستقبلهما بكثير من اللهفة والشوق.

- لا أدري.. منذ الصباح خرج ولم يعد..

-تعنين أنه في المظاهرة؟ خائفة ملهوفة أسرعت شمس تسأل.

-الله أعلم..

-وبدور؟ سأل الأب هذه المرة

-لا.. بدور.. عند روضة..

وتتنفس كلاهما الصعداء، يخرج الشاب مظاهرة، في الأمر وجهة نظر، لكن أن تخرج الفتاة، تعرض نفسها للخطر فأمر بيث الذعر في الأوصال.

-ناديها، وأسرعت وضحة إلى روضة التي كان الدكتور الشهبندر قد حل عقدة لسانها فعادت تنطق ككل خلق الله. بعدئذ عرفت أن القصور التي بنتها كانت مجرد قصور في الهواء.. شمس شرحت لها "حبك للأخضر من طرف واحد، هو بعيد في شغل شاغل فكيف تربطين مصيرك بمصيره؟ العريس جاء فلماذا ترفضين؟" أنا واثقة أن الأخضر يحبني "ردت حينذاك "لكنه يقسم انه لم يصرح لك بشيء ولم يلزم نفسه بشيء" "صحيح" قالت بغصة في الحلق. "إذن.. كيف تتصورين أشياء هي مجرد أوامام؟" "أنا أحبه وسوف أنتظره" "تنتظرين عبثاً.. فمن يضمن شاباً في بلد أجنبي؟ من يكفل ألا يقع في شرك امرأة هناك؟" وبدت الحجة مفحمة، بدأت روضة بعدها تطرد شيئاً فشيئاً خيال الأخضر من عينيها،

صورته من ذهنها.. شيئاً فشيئاً بدأت تنزل من السماء حيث كانت تحلق عالياً بأحلامها المجنحة فتري نفسها تستقبل بالأحضان الأخضر العائد من باريس طبيياً قد الدنيا لتصنع معه عش الزوجية السعيد.

أبوها، أمها، لم يعودا يجروان على إكراهها: "خذي هذا العريس، خذي ذاك" كان خرسها قد علمهما درساً فتركاها تقتنع وتختار.. وكانت قد اختارت العريس الذي تستعد للبناء به بعد أيام.

-أهلك جاؤوا، نقلت وضحة البشرية للصبية ابنة الخامسة عشرة قاطعة حديث روضة عن العرس والعريس.

-حقاً؟! هتفت بدور وهي تهب بسرعة، فقد كان في صدرها شوق عارم لرؤية أوبوها وكأنهما غابا عنها شهوراً طوالاً.

بالأحضان أخذها الأب، بالأحضان لفتها الأم، يقبلانها ويلثمانها. وردة عيقة الرائحة عاطرة الأريج. كان البرعم قد تفتح صدرها ناهداً وقواماً فارعاً وخصراً أهيف...

شمس تنظر إليها فتري فيها نفسها تتشكل من جديد.. الشعر الأسود الفاحم، العينان السوداوان، البشرة البيضاء، وحدها القامة أطول، العظام أغلظ، الكتفان أعرض، أتراها بنية عزيز؟ بدور مزيج من شمس وعزيز، وأي مزيج؟ شمس تنظر إليها ولا تشبع.. الصبا والجمال.. كلاهما معاً بدور، وبدور كلاهما معاً، فكيف لا تسر الأم وكيف لا يرضى الأب؟.

لكن الأب مشغول البال، مناف يشغله والدار لا تسعه.

-أنا ذاهب إلى المحل، قال لشمس وهو يخرج لا يلوى على شيء. بيت صبري قريب. مريه، قرع الجرس:

-أين أبو فريد؟ سأل من وراء الباب ومن وراء الباب جاءه الجواب:

-خرج.. لا أدري أين..

"أنا أعلم أين" قال، وقد وصل إلى المحل المغلق، لنفسه ثم للأنتى التي جاءه صوتها من وراء الباب، لا يعلم من هي.. أهي الأم أم الابنة؟.. خلف الأبواب تتشابه أصوات النساء فلا تستطيع الأذن تمييزها. صداقته مع أبي فريد لم تغير شعرة واحدة من علاقته بأهل بيته.. بيوت الميدان ما تزال متمسكة بالحرملك والسلمك.. حاجز عال يفصل بينهما ولا فائدة من محاولة اختراق ذلك الحاجز.. لكأنه الاسمنت ينطحه الوعل بقرنيه فينكسر قرناه.. صبري يدخل بيت عزيز،

يجلس مع شمس، يتحدثان، يشربان، يأكلان... منذ أيام حماة كان صبري قد دخل بيت شمس واستقبلته صديقاً، لكن ما كان لعزير أن يدخل حرملك صبري الذي أبى أن يغادر دمشق. أم فريد في بيت العائلة في الميدان، صبري يذهب، يجيء، يحل، يرحل وهي قاعدة في البيت العتيق جزءاً لا يتجزأ منه.. الأم، الأخوات، نساء الأخوة، كلهن يشكلن حرملكا متين البنيان متماسك الأركان، يرى ولا يرى، يسمع ولا يسمع، ثم يكيد للرجال ذلك الكيد العظيم.

طوال إقامته في دمشق، كان عزيز يتمنى لو ترمى الحجب وتزول الحواجز لتقوم علاقة طبيعية بينه وبين بيت صديقه، رفيق العمر أبي فريد.. لكن عيئاً كانت أمانيه.. أم فريد، أم صبري، البنات كلهن صديقات شمس ويدور ابنة شمس.. يلتقن، يتبادلن الزيارات، تربطن أقوى الأواصر.. لكن حتى هنا وحسب.. فقانون الحريم صار يحرم عليه الاختلاط بالرجال: لا ير رجل وجهك، لا يلمس يدك، لا يسمع صوتك.. إلى آخر اللات التي سطرها قانون الحريم وتشرف على تنفيذها أمهات الحريم. عزيز يعلم رأي صبري، كرهه لذلك الحرملك والسلملك. لكن ما كان باستطاعته تغيير شيء فالعبدة أحرص على عبوديتها من سيدها، وأكثر دفاعاً عن قيودها من مقيدها..

نفض عزيز رأسه، متخلصاً من أفكار قديمة كانت تراوده مذ جاء إلى دمشق واصطدم بحاجز الحريم.. جلبية ما تصل إلى مسامعه.. أصوات وهتافات تأتي مختلطة، غامضة مشوشة فيدرك أنه يقترب من المظاهرة ويفكر من جديد بمناف. مناف في أحد أزقة سوق ساروجة.. حوله بضعة عشر من الفتيان، والزقاق كله حشد من الرجال، أصواتهم تتعالى هاتفة احتجاجاً على سلخ اللواء ورفضاً لتسليم فرنسا لواء اسكندرون... كانوا قد تجمعوا في قلب "العمارة" ثم زحفوا هاتفين متجهين إلى سراي الحكومة، لكن جند الحكومة اعترضوا طريقهم بالعصي والهرارات فتفرقوا هنا وهناك ثم تجمعوا من جديد في سوق ساروجة.. مناف متحمس، الفتيان من حوله متحمسون، كلهم ناقدون على فرنسا، على المستعمر الذي يتأمر ويكيد، ممزقاً الوطن بائعاً ترابه. بعض الفتيان زملاء مدرسة. بعضهم الآخر صبية وصناع، لكنهم جميعاً، شأنهم شأن الكبار، يدفعهم الحماس للدفاع عن الوطن، لمنع المؤامرة على الوطن..

**اسكندرون عربية... لا تركية ولا فرنسية**

كانوا قد بدأوا يهتفون فتردد المنعطفات البعيدة أصداء هتافاتهم:

**يا عصملي يا طماع... عمرك أبداً ما بتشبع**

### يا مستعمر يا ملعون... كيف بتبيع اسكندرون؟

وكان المستعمر الملعون يسمع الهتاف من نوافذ السراي المطلة على بردى من جهة والمرجة من جهة أخرى فتنتفخ أوداجه غيظاً.

-فرقوهم.. لا تدعوا أحداً يقترب، كانت الأوامر تتطلق من الجنرال منتفخ الأوداج فينقض الجند، الشرطة، الجندمة على الفتيان العزل والصبية الذين لا يحملون سلاحاً سوى الحجارة، يقتلعونها من هنا وهناك ويقذفون بها الأعداء:

النا لنا اسكندرون ... مو للعصلي المأفون

ما منتازل ما منتازل ... عن ذرة من تراب الوطن

شيلي إيدك عصلية ... اسكندرون عربية

يا فرنسا برابرا ... اطلعي من هالأرض الحرة

كانوا يرددون وهم يحاولون مهاجمة السراي من جديد، يزرعون مطالبهم في مسامع الجنرال المنتفخ الأوداج وحجارتهم في سرايه. ساروا قدماً في الزقاق لكن الجند كانوا بالمرصاد، رشقوهم بالحجارة فانطلق وابل من الرصاص... زعقت نساء من داخل البيوت، وخلف الشبايك فيما حدث هرج ومرج واختلط الحابل بالنابل والمتظاهرون يرتدون إلى الوراء مذعورين.. حول الزقاق التفوا، مناف في طليعة الملتفين، ثمة زقاق آخر، ربما لا يسده الجند. أشار إلى صحبه أن أسرعوا.. وأسرع الفتيان ملء أيديهم الحجارة وملء صدورهم الحماسة... الزقاق خال، نظروا إلى طرفه القصي، لكن لا أحد"سننفذ من هنا إلى السراي.. يجب أن نزرع سرايهم حجارتنا وأذانهم صراخنا" واندفع الفتية البضعة عشر، لكن ما إن وصلوا إلى المنعطف حتى انقض عليهم الجند، بعصي غليظة وهراوات ثقيلة.. على صدورهم، رؤوسهم، أكتافهم، ظهورهم، كانت العصي تنزلق ضاربة موجعة.. هراوة بادرت منافاً على ذراعه اليمنى فسقط منها الحجر الذي كان يحمله للسراي، حاول أن يحمي رأسه بيديه لكن الهراوة راحت تنهال على كتفيه، ظهره، ذراعيه ثم نزلت ضربة على رأسه.. تراجع وهو يشعر بالدم ينسرب إلى عينيه.. حاول أن يبصر لكن الدم غشاوة تمنع الإبصار، اندفع على غير هدى. هناك، لكن العصي كانت تنزل عليه. الهراوات تدقه. ثلاثة أو أربعة من الفتيان جاؤوا ينجذونه لم ير أحداً منهم، لكنه سمع صرخاتهم، وعلى رأسها: "الله أكبر على الباغي المعتدي" ثم توقفت العصي والهراوات وأمسكت أيدي به ترفعه عن الأرض ثم تدفعه متعجلة مسرعة فلا تقف حتى تصل إلى البيت.

فتحت له وضحة الباب فصدمت شاهقة متراجعة.. فركت عينيها في البداية وهي تراه:

ثيابه دم، شعره دم، وجهه دم، فلم تستطع إلا أن تولول لاطمة خديها، شادة شعرها، سمعت شمس اللولولة فخرجت.

-مناف!! ابني!! صرخت تدفعها غريزة الأم لأن تولول، لكن الفارس الملمث استيقظ فجأة كاماً فمها مانعاً إياها.

-أسرعي، وضحة.. اذهبي إلى الدكتور الشهبندر.. انتتي به.. أعطت أوامرها وهي تحضنه بين ذراعيها قائدة إياه إلى غرفة القعود.. ثيابه كلها مضرجة بالدماء وفي رأسه أكثر من ينبوع ما زال يتدفق.. حائرة مرتبكة، راحت تتلمسه.

-بدور، صرخت أخيراً، هاتي لي ماء، هاتي منديلاً أبيض.. هاتي بنأ.. هاتي تبعاً..

وبدت بدور أكثر حيرة وارتيباكاً وهي تنتقل بين المطبخ، الغرفة، أرض الديار والأم، تلك التي لم تغسل يوماً دمماً ولا رتقت جرحاً.. لكن تذكر يوم كانت في حال مماثلة وغسل لها السجان الجرح.. هي تريد إيقاف الدم لكن الدم لا يقف.

-المجرمون السفلة يريدون قتلك؟! بماذا ضربوك؟

-هراوات غليظة لم أر مثلها من قبل!! أجاب مناف وهو يستعيد في فمه طعم الهراوة تدق رأسه كما تدق سنابل الحنطة..

-يستقون على فتى مثلك!! كسر الله أيديهم!! أعمى عيونهم!! السفاحون!! القتلة!! وكبست كتلة من البن على الجرح الأول..

-اكبسي إصبعك هنا، بدور، أمرت ابنتها مشيرة إلى الجرح في الجانب الأيسر، يجب أن نوقف الدم..

ثم انتقلت إلى الجرح في الجانب الأيمن لتنظفه بالماء البارد ثم تكبس عليه كتلة أخرى من البن المحروق التي لا تعلم شمس كيف يوقف النزف لكنها متأكدة أنه يوقفه.. ثلاث مرات أعادت شمس جمع البن والتبغ ثم الضغط براحة الكف والأصابع على الجرح الذي يأبى دمه إلا أن يتسرب.

مناف يصرخ توجعاً وألماً، أمه تكاد تصرخ توجعاً وألماً لكن ما عساها تفعل؟! إن لم توقف النزف لم تبق فيه قطرة دم!! هذا الدم الغالي يجب أن تحافظ عليه.. أن تبقيه في الجسم الذي شقي كثيراً حتى صنعه.. لكن ما لها وضحة تأخرت؟ عيادة الشهبندر قريبة.. في ساحة باب الجابية حيث تتفرع الطرق إلى

مدحت باشا، الميدان، الشاغور، والباب الصغير فلماذا لم تعد؟  
وضحة ملهوفة تتحرق.. وهي تقف أمام عيادة الدكتور. تطرق الباب، لكن لا  
أحد يفتح..

".. ماذا أفعل يا ربي؟ عمتي تريد الدكتور. مناف بحاجة ماسة إليه" لكن  
الدكتور غائب.. عيادته مقفلة.. فكرت أن تذهب إلى منزله.. واندفعت مسرعة،  
لكنها تذكرت أنها لا تعرف المنزل "أعود بلا دكتور؟ ماذا سيحدث لمناف؟" وفجأة  
لمحته، حلاق باب الجابية، فهتفت مستنجلة:

-أبا عثمان!! داخلة عليك.. أسرع لإسعاف مناف..

وأسرع أبو عثمان، الحلاق الذي يمارس شتى أصناف المداواة: يضم  
الجروح، يقلع الأسنان، يرفع بنات الأذان، يقطع السخونة، يصنع كاسات الهواء،  
بل بعضهم يقلن إنه يداوي حتى العقم، ولا أحد أحسن من أحد.

كان فارغ الأشغال، يقف في باب دكانه، الناس كلهم في المظاهرة، ولا أحد  
فارغ للحلاقة، فلماذا لا يسرع لإسعاف مناف؟

استقبلته شمس بعينين مفتوحتين على اتساعهما.. كانت تنتظر الدكتور  
الشهبندر فإذا به الحلاق أبو عثمان. لكن الرجل لم يدعها تستوضح.

-عن إنك!! دعيه لي! قال لها وهو يبعتها عن رأس الفتى الذي بات  
باستطاعته أن يرى وقد غسلت الأم والأخت وجهه، لكنه لم يكن يستطيع أن يكتف  
أناته وتوجعته، تلك التي تحولت إلى صراخ وأبو عثمان يغسل له جرحه الأول  
بسائل أحمر لم يكن يختلف كثيراً عن لون الدم.

-لكن أين الدكتور؟ همست شمس كازة على أسنانها عاتية، وهي تميل على  
وضحة التي هزت كتفها.

-العيادة خالية!! لا بد أنه في المظاهرة.

الشهبندر لم يكن في المظاهرة وحسب، بل كان على رأسها.. فهو مذ أعلنت  
عصبة الأمم أنها ستجري استفتاء في اللواء لتقرير مصيره أدرك أن هناك مؤامرة.  
الصحف الغربية التي اطلع عليها، السياسيون، الصحافيون الأجانب والعرب الذين  
التقى بهم، الإشاعات والأقاويل التي تسربت إلى دمشق، كلها كانت تؤكد أن  
هناك مؤامرة. احتج، كتب المقالات في الصحف، قابل رئيس الجمهورية، حدث  
الوزراء، رجالات البلاد وكل غرضه: استنهاض همهم لمنع المؤامرة. لكن  
المؤامرة سارت كما خطط لها: نتائج الاستفتاء ظهرت: وفرنسا تسلم لتركيا اللواء

نفسه الذي كان الروم أنفسهم قد انسحبوا منه يوم انسحب هرقلهم من سورية أمام خالد بن الوليد معترفين بأن سكانه فينيق عرب، منذ عهد الفينيقيين العرب، فكيف يصبح اليوم تركيا.. كيف يصبح سكانه أتراكاً؟.

في ساحة الحجاز، كان الدكتور الشهبندر يسأل السؤال نفسه وهو يخطب في الجماهير التي ألهب حماسها زعيم حزب الشعب خطيباً مفوهاً لا يشق له غبار:

-وماذا يفعل من لا يملك من أمره شيئاً؟ ماذا يفعل من يرسف في أغلال الرق والاستعباد، الاستعمار والانتداب.. لقد نام أبائنا وأجدادنا حتى صرنا مطمح كل طامع.. ثرواتنا تنهب، رقابنا تسترق، أرضنا تستعمر.. بل تعطى لأعدائنا لقمة سائغة، على طبق من فضة تقدم لهم ونحن لا حول ولا طول... كان عزيز قد شق طريقه بين زحام المتظاهرين إلى أن وجد نفسه في ساحة الحجاز.. الدرك، الجند يسدون المنافذ فلا أحد يستطيع التحرك.. والدكتور عبد الرحمن، على شرفة مبنى المحطة يخطب في الجماهير وفي عينيه وصوته بحة:

لا.. أبداً لا أرغب أن تفوتني هذه الفرصة من غير أن أتعرض للمتأخرين من السلف، أذكر إهمالهم وغفلتهم فلو كان فيهم جزء من اليقظة والقومية وحب الوطن ما أصيبت بلادنا بالآلام التي تعانينا، والكوارث التي تنصب عليها، لكنهم حصرموا فخرنا وضحكوا فبكينا وتواكلوا ففشلنا..

"صحيح" شرد عزيز مع كلمات الزعيم مفكراً "لولا تواكلهم واستسلامهم لما ظل العصملي، أغبى بني البشر وأجهلهم، أربعة قرون ينيخ بكليله على صدورنا.. صحيح.. لولا ذلك التواكل لما حلت فرنسا محل تركيا ولما كانت تقسم بلادنا على هواها وتعطي أراضيها هبات لهذا وذاك على هواها أيضاً..".

لكن لعللة رصاص أوقفته، قاطعة عليه طريق الشرود.. كان الشهبندر قد بدأ هجوماً ضارياً على فرنسا، دولة الظلم والقهر والجور، وكان الناس قد بدأوا يهتفون ويصفقون، صاببين جام غضبهم على المستعمر الذي يفرط بما يستعمر. أثار ذلك قائد الجند فأمر جنده بإطلاق النار.

اختلط الحابل بالنابل وقد سقط بعض القتلى وصرخ بعض الجرحى. كانت الأوامر تقضي بإطلاق النار في الهواء لكن بعض الجند يتلذذون بعذاب الآخرين، يسرهم منظر الدم يتدفق أحمر حاراً على حجارة الطريق، يشفي غلهم ذعر الناس، وصراخهم وهم يولون الأدبار.. وبدلاً من أن يسددوا فوهات بواريدهم نحو السماء خفضوها قليلاً فانزعت رصاصها في أجساد لم تكن تريد إلا الاحتجاج على غر.

أسرع عزيز باتجاه المبنى وليس في ذهنه إلا أن يحمي الزعيم. هو يعلم أن فرنسا ناقمة عليه، المفوض السامي حاقده كاره، فمن يضمن ألا يستغل جنده الفوضى فيزرعوا جسده بالرصاص؟

عند باب المبنى التقى بالدكتور خارجاً، أحاطه عزيز بذراعه وهو يدفعه باتجاه الزقاق الجانبي فيما كان الرصاص ينز فوق رأسه أقرب إلى أذنه من حبل الوريد.

بضعة رجال تجمعوا حول الشهبندر وهو يعبر الزقاق الذي بدا يضيق كلما ابتعد عن ساحة الحجاز.. كانوا يبدون وكأنهم يشكلون درعاً حوله، عزيز في المنتصف منه، بعضهم كانوا ما يزالون متحمسين، ما إن ابتعدوا قليلاً عن أزيز الرصاص حتى عادوا يهتفون:

شو بتريد يا زعيم منساوي

بضرب السيف منحطم الفرنسي

لكن الزعيم أوقفهم عن الهتاف وهو يعلم أن الصمت والتخفي وحدهما طريق النجاة..

-لكن العيادة خطيرة.. لست هنا في أمان، قال عزيز وقد دخلوا العيادة مسرعين، ثم راح يتلفت حوله وكأنما يخشى وصول الفرنسيين في أية لحظة.

-إذن، أذهب إلى المنزل، رد الدكتور وهو يعلم أن صاحبه على حق.

-وهل منزلك أكثر أماناً؟ لا.. لا.. نذهب إلى منزلي.. هو أبعد.. ووصولهم إليه أصعب، قال عزيز شبه ممازح...

ثم مضى الصديقان إلى المنزل الذي كان قد ودع الحلاق الطبيب قبل دقائق فقط.

-أهلاً وسهلاً بك دكتور.. بادرتك شمس وهي تسبق صاحب المنزل إلى غرفة الضيوف...

هل أخبروك أنا كنا نبحت عنك؟

-تبحثون عني؟ لا! لماذا؟ ماذا هناك؟ سأل الدكتور وقد داهمه شك ما..

شرحت شمس الأمر فأسرع الرجلان إلى غرفة مناف حيث كان يستلقي في فراشه وعلى رأسه عمامة من اللفائف والضمادات. نظر إليه الطبيب، تفحصه فوجد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً فقد قام الحلاق بمهمته على خير وجه. بعض

الحبوب فقط أوصى بها للفتى منعاً للالتهاب.

كانت الجروح قد توقفت عن النزف، وكان جلده خارطة من كدمات زرقاء، جسده بعض حطام.. رأى الأب ذلك فاحمرت عيناه وثار في صدره بركان.  
-يضررون ابني!! يقتلون فلذة كبدي.. كان عزيز يدمدم وهو يرى بألم عينه ما فعلت بجسمه الهراوات.

-احمد ربك.. ضربوه بالهراوة ولم يضره بالرصاص!! قاطعه الطبيب مهدئاً، زافراً، فلعة الرصاص في ساحة الحجاز كانت ما تزال ملء سمعه وبصره..

-وكيف يدعون أنهم دعاة حضارة؟ رسل مدنية؟ سأل عزيز وقد عاد الطبيب إلى غرفة الضيوف، فيما جاءت شمس بالقهوة.

-إن هو إلا ادعاء، رد الطبيب الذي كان قد أمضى يومه كله في مقارعة المستعمر تحريضاً وخطابات، يريدون به خداع الشعوب وتضليل الأمم، أما الحقيقة فليس هناك استعمار يقوم إلا على العنف والوحشية.

-لكن لماذا تفعل فرنسا فعلتها هذه؟ لماذا تتنازل عن أرض هي تستعمرها لبلد كتركيا؟

سألت هذه المرة شمس وقد بدا لها أن في الأمر سرّاً لا يفهم.

-كي تكسب تركيا..

-وماذا يعني كسبها لتركيا؟

-إبعادها عن هتلر..

-هتلر؟! سألته شمس من جديد بكثير من التعجب..

-أجل.. هتلر يقيم تحالفات ومحاور الآن، وإذا أغضبت فرنسا تركيا، تحالفت هذه مع هتلر، وشكلت خطراً حقيقياً عليها، هنا في سورية، في لبنان.. في البحر..

-العجيب.. أن كل شيء يجري على حساب هذا الوطن.. علق عزيز وهو يطلق زفرة حرى.

-هو ذا شأن الضعيف دائماً.. يتناهشه الأقوياء دائماً.. ونحن ضعفاء أبا الأخضر، ممزقون متشرذمون.. فلماذا لا تعطي فرنسا لواء اسكندرون لتركيا؟ لماذا لا تعطي بريطانيا فلسطين لليهود؟ تقتطع الكويت من العراق؟ تهب عرستان

لإيران..

-صحيح!! لماذا؟ ما يمنع بريطانيا أو فرنسا.. بدأ عزيز التساؤل، لكن سرعان ما تدخلت شمس:

-يقولون: هتلر يريد أن يمنعهما، وأنه مع الشعوب ضد كل المستعمرين أعداء الشعوب...

-لا.. لا تصدقي، شمس. قاطعها الطيب العارف بأسرار السياسة، في أوروبا صراع مصالح وحرب نفوذ.. هتلر يريد حصته من العالم، مستعمرات ومحميات، أراضي وثروات.. والآخرون يقفون في وجهه، يحاولون منعه..

-وكرهه لليهود؟ طرده لهم من ألمانيا؟.

-هي ذي المؤامرة...

-مؤامرة؟ كيف؟ سألت شمس من جديد..

-كيف؟ سأقول لك، خاطبها وهو يميل بكليته نحوها متتهداً تنهدة الموجه المحروق. الصهيونية تريد يهوداً لفلسطين فمن أين تأتي بهم؟ من أمريكا؟ هم في أمريكا مستقرون ناجحون.. من روسيا؟ ستالين يتيح لهم أحسن الفرص عملاً وثناءً ومناصب، من بريطانيا وفرنسا؟ في بريطانيا وفرنسا، اليهود في أحسن الأحوال، إذن ليطرد هتلر اليهود فيجدوا أنفسهم بلا أرض، بلا وطن، وما أسهل على الصهيونية حينذاك أن تسوقهم إلى فلسطين لتكون لهم الأرض والوطن..

-المؤامرة واضحة فعلاً.. هز عزيز رأسه وبرم شفتيه.. لكن سرعان ما قاطعه الدكتور:

-وبذلك يتحقق شعار الصهيونية، "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب".

-يا للهول!!- يا للقذارة!! ردد كل من عزيز وشمس. بعدئذ حدثهما الزعيم عن أرقام المهاجرين ففتحا أعينهما استغراباً ودهشة: مئات آلاف اليهود يهاجرون، طوعاً أو كرهاً، إلى فلسطين.. فهل سيبقى فيها شعب؟ ألن يسيطر عليها هؤلاء المحملون بعلوم أوروبا وخطط الصهيونية؟

-وإن قامت الحرب وانتصر هتلر؟ سألت شمس وهي على قناعة تامة أن هتلر صادق في كرهه لليهود، جاد في حربه عليهم، ألن يببدهم حتى لو كانوا في فلسطين؟.

-هذا إذا انتصر.. لكن الحرب تظل هي الحرب ومن يعلم ان نشبت من

ينتصر؟

كانت الحرب في الأشهر الأخيرة قد صارت حديث الناس جميعاً، الكل خائف منها، متوجس شراً.. تهديدات هتلر، تصريحاته اللاهية، خطبه النارية، كلها كانت تنقلها الإذاعات، والإذاعة العربية من برلين توصلها طازجة إلى أسماع العرب في شرقي الوطن وغربيه، فيتحمس بعضهم لهتلر مراهناً أنه سيكون خلاصهم من بريطانيا وفرنسا، ويتخوف بعضهم بحجة أن النعل أخت النعل وأن المستعمر هو المستعمر سواء كان بريطانياً أو ألمانياً، فرنسياً أم إيطالياً.

-تعلم؟ بودي أن تقوم الحرب اليوم، قال عزيز بانديفاج مفاجئ، فينشب ناب كلب بجلد خنزير ورتاح من هؤلاء المستعمرين جميعاً..  
-إن تقالت الفيلة ذهبت الأرناب دعساً تحت الأرجل.. رد الطبيب الزعيم وهو يتنهد، وإن نشبت الحرب بينهم لن تكون إلا على حسابنا..  
-أنت متشائم دكتور؟ تدخلت هذه المرة شمس شبه ضاحكة.  
-وما الذي يدعو للتفاؤل ونحن على هذا الحال من الضعف والتجزئة؟..  
لا.. أخطاه!

..لا.. ما أظن إلا أن الآتي أعظم..

في الأيام التالية، تكشّف أن نبوءة الدكتور صحيحة وأن الحرب قاب قوسين أو أدنى، وأن الآتي أعظم حقاً... أوروبا كلها كانت ترتجف قسبة في مهب ربح، وفي دمشق وزع الفرنسيون دباباتهم ومصفحاتهم في الساحات والشوارع، زرعوا جندهم ودركهم في الأزقة والحارات، ثم اندفعت كلابهم تطارد الفرائس من الوطنيين، كباراً وصغاراً تنفي وتزج في السجن.. بحجة الحرب الوشيكة تضاعفت إجراءات الطوارئ، زادت تعسفات العسكر، منعت المظاهرات، لوحقت التجمعات، أغلقت الصحف.. كل تجمع يزيد عن ثلاثة يلاحقه الجند بحرايهم، كل صحيفة تنادي بالحرية والديموقراطية أو تلمح تلميحاً إلى الاستقلال، تغلق أبوابها ويساق صاحبها إلى السجن. حتى الطبيب الزعيم جاء من يذره، فالذئب يكشر عن أنيابه لالتهامه.

أهل دمشق مندهلون، ما بال أم العدالة والحرية والمساواة تضرب عرض الحائط بكل ما له علاقة بالعدالة والحرية والمساواة؟ معاهدة الست وثلاثين تداعت أرضاً.. يحتج رجالات البلد فيقول لهم المندوب السامي: "انقعوها واشربوا ماءها..

هذا هو الواقع رضيتم به أهلاً وسهلاً، لم ترضوا اذهبوا فبلطوا البحر.. لا مظاهرات، لا احتجاجات، لا حرية، لا استقلال"... وازداد ذهول الناس وهم يرون زحوف اللاجئين تصل إلى دمشق.. عرب اللواء يطردون من بيوتهم، تنهب أموالهم، تصادر أملاكهم، تغتصب نساؤهم فلا يجدون أمامهم من خيار إلا الفرار...

على رأس الفارين كان الأستاذ: رجل متوسط القامة، حنطي البشرة، هادئ القسمات، أنيق الملابس، الأستاذ يكتب في الصحافة منذ سنين، يخطب في الجماهير، ينافح ويكافح ضد مؤامرة كان على علم بها من قبل.

-حقاً! أستاذ؟ سأله عزيز وقد استقبله مع المستقبلين ثم جاء به ضيفاً إلى المنزل. أكنت تعرف بالمؤامرة من قبل؟

-بالطبع.. مذ كنت أدرس في باريس، قرأت الكثير عن تصميم تركيا على إعادة اسكندرون والموصل إلى حيازتها.

-إذن، ستستعيد الموصل أيضاً؟ سأله الیوزياشي العتيق، الذي لم يكن يفارق شريكه، بكل الاستغراب والتعجب..

-لا.. بريطانيا لا توافق.. في الموصل نפט.. وبريطانيا لا تفرط بالنفط.  
كان الأستاذ قد هرب من اللواء بثيابه.. كان يعلم أن تركيا تنربص به تربصاً...

فرنسا قبلها كانت قد سامته مر العذاب: تحقيقات وإهانات، وهي بلد الديموقراطية، فما تراها تفعل به تركيا؟

هو يعيش مع أخته، وحيدین لا أباً ولا أمماً، لا زوجاً ولا ابناً، ومع أخته هرب، فالضبع الأتاتوركي لا يرحم وفكاه يطحنان العظام.

أياماً عدة ظل الأستاذ في ضيافة عزيز.. وليالي عدت ظل يسمع أحاديثه عزيز. الرجل علامة فهامة، درس في فرنسا، اطلع على شتى الثقافات: الأدب، الفكر، الفلسفة، كلها صنعتها، اللغة مطيته وحواره لا أمتع ولا أشهى..

شمس أحببت أخته.. بسيطة، طيبة، أليفة ودودة تلك الأخت، تحب أخاها كثيراً، معجبة به كثيراً فأصيبت شمس بعدوى ذلك الإعجاب.. هي تسأله، عزيز يسأله.. وهو يجيب: "الاستعمار.. حذار الاستعمار.. هو بلاؤنا الوحيد، خلاصنا بالخلاص منه، كرامتنا بإخراجه من أرضنا، لا أمل من مستعمر، ولا أمان لمستعمر، هو عدو فلا تقرب العدو.. ولا تقم معه أواصر أو كنت كمن وضع

الحية في عبه، لا يعلم متى تلدغه".

ولا تملك شمس إلا أن تفكر بالقومندان، ذاك الذي بين الحين والحين يحدثهم عن الحضارة والمدنية، الإنسانية والأممية، وعن أوامر المحبة التي يمكن أن تجمع بين الشعوب... القومندان الذي يزعم أنه يكره الاستعمار ويعمل على تخفيف ما يستطيع من أعبائه.

-ألا ترى أن القومندان هو تلك الحية؟ سألت شمس عزيزاً وقد مضى الأستاذ إلى قيلولته..

مستعيدة في ذهنها حلقات الحصار التي ما فتئ يفرضها عليها القومندان واحدة تلو الأخرى، وعلى نحو تبدو معه كل حلقة أضيق من الأخرى..

-اللجنة عليه إنه ليحيرني هذا الرجل.. رد عزيز وهو يستعيد في ذهنه ما يمثله القومندان من خطر وقرارهما في القرية بالابتعاد عن ذلك الخطر..

-لا.. لا تحتر. ما علينا إلا أن نقطع علاقتنا به...

-وهل نستطيع؟ سأل عزيز وهو يتذكر كيف تتفتق قريحة القومندان عن حيل للتقرب منه لا تخطر ببال إبليس.. فهو لا يفتأ يمر به في المحل أو يدعوه إلى المكتب أو يأتي إلى المنزل، هكذا بحجة أو بغير حجة...

-يجب أن نستطيع.. يجب أن نقطع حتى شعرة معاوية معه.. لكن قبل أن تتاح لعزيم فرصة الرد، طرق سمعه وقع خطوات عسكرية تققع على بلاط الدار.. نظر من النافذة فاتسعت حدقتاه.

-إنه القومندان، هتف بنبرة الهمس لشمس، التي كانت تختلس النظر هي الأخرى.

-ومعه جنديان، يلمع مسدسهما على جنبيهما.. تابعت بنبرة الهمس نفسها.. -وتقولين.. نستطيع؟ علق وهو يزفر، مسرعاً إلى منتصف الدار حيث كان القومندان قد وصل.

-أهلاً وسهلاً سيادة القومندان.. أهلاً وسهلاً، بدأ عزيز ترحيبه، ماداً يده للرجل الذي يعلم أنه حية في أنيابها السم.. لا يدري متى تلدغه.. ثم مضى به إلى غرفة الضيوف، متهدل الكتفين، مطأطئ الرأس...

مبدأ أن ينطلق منهما كل سلوك: السعادة والألم. من خبرته في الحياة، عزيز يعلم ذلك، كما يعلم أن ذنبك المبدأين يلخصان حياة الإنسان كلها، سلوكه كله، هو الذي يسعى، فرداً أو مجتمعاً، لتحقيق غايته الأسمى: السعادة. يعمل لتوفير أسبابها، يجد، يكبد، يعرق، يتعب وكله أمل أن يصل إلى دنيا الراحة والطمأنينة، الرغد والهناء: إلى السعادة. في الوقت نفسه يحاول تجنب الألم، الابتعاد عن الشر، الحزن، الأذى، الخوف: مسببات الألم وصانعاته، لكن كيف لعزيز أن يفلح في تحقيق السعادة وتجنب الألم؟.

مذ وعي الدنيا وهو يسعى للسعادة، يحاول تجنب الألم، لكن تلك تهرب منه وهذا يلاحقه.. مسباته كلها تلاحقه.. في الريحانة كان يعيش في رغد وهناء...  
لكن أبا شعيب "العصملي" من ورائه، جاؤوه بسفيرلك فكان الخوف والألم...

في حماة، استقر، بدأ يشق طريقه في سوق السمنة والجبنة إلى أن جاء جبرار فقلب كل شيء رأساً على عقب، وكان الخوف والألم.  
بعد ذلك هربا إلى دمشق تخفياً، غيرا اسميهما، انتماءهما، لكن عبثاً، فقد كان لهما القومندان بالمرصاد، وكان الخوف والألم.

-كيف تسمحان لمناف بالاشتراك في المظاهرات؟ وجه القومندان السؤال لعزيز، عاتباً عتب الصديق، لائماً لوم المشفق، فلم يملك عزيز إلا أن يفسح له في الطريق، ناسياً كل ما اتخذه من قرارات. انظر، تابع القومندان بنبرة الصديق المشفق، اللائم العاتب، وهو يعرض لائحة بأسماء في يده. هذا اسمه على رأس المشاغبين المطلوبين للعدالة، أين هو؟

-ماذا؟ جئت هنا تريد اعتقاله؟

-هم يريدون اعتقاله.. قال القومندان وهو يشير إلى الخارج، حيث يقف جنديان حارسين قرب الباب.

-يشبعونه ضرباً بالهراوات؟ يزرعون جسده جروحاً وكدمات، ثم يريدون اعتقاله؟ اذهب وانظر إليه.. إنه شبه ميت.

وذهب القومندان إلى غرفة الشباب الذي كان رأسه قد تحول إلى عمامة بيضاء من الشاش والضمادات وجسده إلى كتلة متييسة من الكدمات والتورمات.

-على كل حال.. أنا هنا صديق.. عاد القومندان يهمس بنبرته الأولى نفسها.. قلبي عليكم وعليه.. إن كنتم تريدون ألا يعتقل فأبعده.. الليلة أبعده.. أنا هنا لا عين رأت ولا أذن سمعت.. لكن من يضمن ألا يأتي أحد لاعتقاله؟. وأسرعت شمس بابنها إلى حيث الأمان: دار الشعلان، لكن دون أن تستطيع التخلص لحظة واحدة من الحيرة والاندھاش.

-هذا الرجل يكاد يجنني، قالت لعزیز، وقد فرغ لتوه من دورية جاءت تسأل عن مناف، صحيح هو صديق؟ قلبه علينا وعلى ابننا؟ لا يريدون أن يعتقلوه؟

-لا أدري.. رد عزيز، أنا أيضاً في حيرة شديدة.. كلهم يقولون: المفوض السامي يكاد يجن.. يريد أن يعتقل كل من شارك في الشغب والمظاهرات.. بل إن الدوريات اعتقلت العشرات..

-الدورية التي جاءت أكبر برهان.. لا شك أنهم يريدون اعتقاله.. ماذا قلت لهم..؟

-أنكرت وجوده.. تماماً كما قال لي... أخبرتهم أنه بعيد في المضارب. وبدا الأبوان مجبرين على الاعتراف بفضل القومندان الذي أنقذ ابنهما، فقد مضت قصة مناف على خير.

لكن قصة أخرى كانت قد بدأت ومعها بدأ القومندان التدخل، لكن هذه المرة ناصحاً محذراً. كان عزيز قد استضاف الأستاذ النازح من اللواء، الباحث في دمشق عن ملاذ، وكانت علاقة ود وصداقة قد قامت بينه وبين عزيز، بين أخته وبين شمس... أياماً طويلة ظل بيتهما مفتوحاً لهما، هما اللذان صاروا بلا بيت... شمس ابنة الشيوخ تحسن الضيافة، توفر للأستاذ وأخته أسباب الراحة، "البيت بيتكما"، كانت لا تفتأ تقول لهما، "نحن الضيوف وأنت رب المنزل" كانت لا تنفك تداعبه، هي وعزيز، وكان الأستاذ، ابن البيت الكبير، والعائلة التي تعرف

الأصول، يعلم انهما ابنا أصول وأنهما خير من يحسن الضيافة. الطعام، الشراب، اللباس، بل حتى المال قدمه المضيف لضيفه، هو المعجب به كل الإعجاب.. "الأستاذ عبقرية فذة" كان لا يفتأ يردد. "علمه واسع، ثقافته بلا حدود، معارفه بحر زاخر، فكيف لا أسر به وأعجب؟".

مذ دخل بيته، لم يعد عزيز يفارقه.. يستقبل معه رجالات السياسة، وفود الناس، يخرج معه في لقاءاته. الأستاذ ذائع الصيت.. مذ كان في فرنسا يكتب المقالات، يصدر البيانات، يلتقي بالكتاب والمثقفين، يدافع عن حرية بلاده واستقلالها، والناس هنا وهناك يتابعونه.. هو حرب على الاستعمار لا هوادة فيها.. سيف في صدر البغي والعدوان لا يفل حده.. ناضل في اللواء، واجه الأعداء، قاوم مؤامرات فرنسا وتركيا عليه ثم وجد نفسه مرغماً على الخروج من لوائه.. آدم جديد يخرج من جنته.

الوافدون إلى بيت عزيز يسألون الأستاذ، يريدون أن ينهلوا من ثقافته وهو لا ييخل بجواب، لا يخاف من جواب.. أليس هكذا الأبطال؟ لا يخشون في الحق لومة لائم، ولا يضعفون أمام الطغيان أو يهنون؟ "لا.. لا تصدقوا مستعمرًا.. المستعمرون كذابون مخادعون.. "كان يقول لزواره منبهاً محذراً" يحدثونكم عن الخير وهم لا يريدون بكم إلا الشر.. يتشدقون عن المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة وهم لا يسعون إلا لمصلحتهم، لا يفكرون إلا بمنفعتهم". عزيز يعلم أن كل ما يقوله الأستاذ صحيح، لكن ما يعجبه فيه هو تلك القدرة العجيبة على التعبير، على إجراء المحاكمات المنطقية، على استخلاص الخلاصات والنتائج.. يبضع كلمات يستطيع الأستاذ أن يلخص تجربة كاملة، يبضع عبارات يضع خلاصة مرحلة كاملة..

هو يغبط الأستاذ على موهبته الفذة ولا ينفك يتساءل: كيف يستخلص ويستنتج؟ من أين يأتي بتلك القدرة على التعبير؟.

"عدو الجد لا يود"، قالها الأستاذ ذات مرة، عبارة بليغة موجزة، أعجب بها عزيز كل الإعجاب.

صحيح، هو يعلم أن عداوة الاستعمار قديمة قدم الجدود فكيف يزعمون الآن أنهم يريدون الخير لسورية؟ يعملون لمصلحة سورية؟ "المستعمر والمستعمر عدوان مبینان، فكيف يمكن أن يجمع بينهما الود؟ هما على طرفي نقيض، فكيف يجتمعان؟ لقاؤهما الوحيد لقاء خصمين في ساحة القتال، عدوين في ميدان الوغى.. علاقتهما علاقة الغالب بالمغلوب.. المنتصر بالمهزوم فكيف تجمعهما

مصلحة مشتركة أو منفعة واحدة؟

كان حديثه يشنف أذني عزيز، يجعله يشتعل حماسة وحمية، فيسمع إن كان ثمة ضيوف، ويسأله المزيد إن كانا وحيدين "المستعمر يريدك تابعاً وأنت تريد استقلالك فكيف تتفقان؟ هو قيود وأصفاد وأنت سعي للحرية والخلاص، فكيف تلتقيان؟" ويجد عزيز في كلام الأستاذ الكثير من الأجوبة على ما يسأل من أسئلة "المستعمر يريد تجزئتنا فماذا نفعل؟ نقاتل.

يريد ضعفنا وتفترقتنا فكيف نرد؟ بالوحدة. ثم يبدأ حديثاً لا أحب على قلب عزيز ولا أشهى...

الوحدة العربية.. إنها اللحم الذي لا يفارقه أبداً.. ويتذكر عزيز أيام الجيش العربي والزحف إلى دمشق.. يوم كان الأمير فيصل يحلم بدولة عربية تمتد من جبال طوروس حتى بحر العرب.. وكان صبري بديوي يحدثه عن الدولة العربية القادمة التي ستعيد مجد العرب وعزتهم..

سنوات مرت، حسب معها عزيز أن ذلك اللحم قد انتهى إلى الأبد. لم يكن ثمة من يتكلم عن الوحدة العربية، لم يعد أحد يفكر بالدولة العربية الواحدة.. كان المستعمر قد جزأ البلد نفسها إلى دويلات صغيرة أغرقت الناس في هم جديد: كيف يعيدون للبلد الواحد لحمته؟ كيف يوحدون البلد المجزأ نفسه؟ لكن ها هو ذا الأستاذ يأتي حاملاً راية الوحدة والحرية.. هو عاشق لهما لا يلهج إلا بذكرهما، دعه ساعات يتحدث عنهما.. تصورات واضحة، أفكاره متبلورة: "العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة.. من المحيط إلى الخليج ينبغي أن تقوم دولة الوحدة.. لكل أمة قومية تجمعها وعصبية تربط بين أبنائها، وأممتنا تجمعها قومية عربية وتربط بين أبنائها عصبية عربية، فلماذا نرضى أن نظل دويلات وشرادم؟".

ليس هنالك أحلى من ذلك الكلام على مسامع عزيز.. مسامع صبري، مسامع الدكتور الشهبندر نفسه.. كلهم يستمعون للأستاذ، يحتضنون كلامه العذب، يتشربون أفكاره.. لكن إلى حد.. وحده عواد يستمع إلى كلامه ويتشرب أفكاره بلا حد..

كان الفتى الطويل النحيل، أشقر الشعر والشاربين، قد صار فرداً من أفراد عائلة عزيز... مذ التحق بكلية الحقوق وسكن في دمشق، كان قد غدا جزءاً لا يتجزأ من البيت...

ألم يقل له عزيز "أنت بمثابة الأخضر.. أنت بغلاوة نواف ومناف؟" إذن لم

لا يكون ابناً من أبناء عزيز وشمس؟ واسطته لدى القومندان رينو كانت قد أمنت تعيينه معلماً في مدرسة بعيدة قليلاً عن الجامعة، لكنها مدرسة. راتبه فيها سبع وعشرون ليرة.. يعني باستطاعته أن يستأجر غرفة، يشرب، يلبس ويرسل إلى أمه في القرية بضع ليرات.. بمرتبته يشتري خمس ليرات ونصف الليرة من الذهب.. وكم تفعل ليرات الذهب الخمس والنصف؟!.. لم يعد عواد بحاجة لأن يعمل جَمَلاً أيام الحصاد والدراس، ولم تكن أمه قادرة على رعاية الجمل في غيابه فباعته الجمل. "ابني يعلّم ويدرس الحقوق في آن معاً.. بضع سنوات وبصير محامياً" كانت تتفاخر وقد شفى عواد غلاً قديماً في صدرها. "سيدافع عواد عن الحق.. سيقف ضد الباطل، ولسوف يرفع الظلم، عن المظلوم" كانت لا تفكأ تردد، وهي تتذكر كيف حاول أخوة زوجها أن يسلبوها حقها بعد موت أخيهم. لم يستطيعوا سلبها حقها كله لكنهم سلبوها بعضه.. حاولوا إيذاءها، ضغطوا عليها، لماذا؟ كان كبيرهم يريد الزواج منها، أليست أرملة أخيه؟ أليس هو الأولى بأرملة أخيه؟ إذن ليتزوجها. لكن أم عواد رفضت "سأظل أربي ابني.. لن يحل أحد محل أبيه" وكانت معركة، ظلت رجاها تدور سنين قبل أن يقطن الأخ من أرملة أخيه.

عواد لا يعرف ذلك كله، كان صغيراً، وكانت الأم حريصة على ألا توغر صدره على عمه.. ألا تنبش القبور فتنبعث الروائح النتنة.. لكن شعورها بالظلم ظل يلازمها، غلها على الظالمين ظل يكمن في الأعماق، وظل حلمها أن يأتي يوم تجد فيه ابنها قادراً على رفع الظلم والانتقام من الظالمين. ذلك، ربما، ما دفعها لتشجيعه على دراسة الحقوق، وهو وحده ما جعله يتعلق بالأستاذ أبي المدافعين عن الحقوق. كان الرجل لا يفتأ يتكلم عن الظلم الذي حاق بالعرب، بالعدوان الذي استهدفهم من كل حذب وصوب، لا يفتأ يتكلم عن النهضة العربية وضرورتها، القومية العربية، إحياء الأمة العربية، وبعثها إلى الوجود من جديد.. عواد يصغي بكل ما فيه: بأذنيه، بعينيه، بشفتيه، بل ربما بكل خلية من خلاياه.. وكل يوم يزداد إعجاباً بالرجل الفذ، بالأستاذ الكبير الذي تبهره أفكاره حتى أعلن له ذات يوم "أستاذ.. اعتبرني تلميذاً لك مريداً من مرديك، لا أتركك أبداً". وبر الفتى الطويل النحيل بوعدة فغداً ظلاً للأستاذ، يخرج معه، يدخل، يذهب، يأتي، يقضي له شؤونه، يؤمن حاجاته، وحين أراد أن يستقل ببيت له، شاكراً عزيزاً وشمساً على حسن ضيافتهما، كان عواد هو الذي استأجر له بيتاً قريباً من غرفته ومدرسته.

لكن استقلاله في بيته لم يضعف حبل الود بينه وبين عزيز، ولم يبتعد عواد عن البيت. في النهار، في الليل، كان الأستاذ يأتي إلى البيت الذي فتح له صدره

طوال شهرين، وكان عواد لا يسعده كالمجيء مع الأستاذ أو بدونه. شمس تحبه، مناف يحتاج إليه، بل حتى بدور تفتقده... طوال العام الدراسي كان يساعدها في الدراسة، يشرح لها النحو والصرف، يحل لها مسائل الكيمياء والفيزياء، فكيف لا تشعر بفقدانه إذا غاب؟

في بداية الصيف ذهب إلى والدته، أمضى هناك شهراً وبعض الشهر لكنه عاد وهو يشعر أن شيئاً ما يشده إلى دمشق.. غيابه أحدث فراغاً في داخله لم يكن يستطيع تحديده.. لكن ما إن دخل بيت عزيز حتى تنفس الصعداء، لقد أحس للتو بامتلاء ذلك الفراغ وهو يرى بدوراً تحمل القهوة للأستاذ...

الأستاذ يدبج المقالات في الصحف، يزور كبار القوم، يجلس في مقهى البرازيل فيجتمع حوله الناس ويحدثهم عن الوحدة والحرية، الاستعمار وشروعه، فرنسا وبريطانيا، دورهما في الولايات والشور التي لا تنزل على رأس الأمة فحسب، بل العالم كله.. هو يحلل، يركب، يشرح، يفسر ويتحول الكل إلى آذان صاغية له، يراه المخبرون، يسمعونه، فيكتبون التقارير محذرين من خطر الرجل الذي لا يتوقف لسانه عن النقد والتجريح، عن السخرية والتهكم، ساباً الاستعمار لاعناً أذنبه.

تصل التقارير إلى المفوض السامي فيويخ القومندان:

-لماذا تتركونه يسرح ويمرح؟

-وماذا نفعل به؟ يسأل القومندان رئيسه..

-احبسوه.. يصرخ المفوض السامي غاضباً، فالتقارير التي وصلت تقطر سماً وكلها تحذر من الخطر الشديد الذي يجسده الأستاذ بما يشحذ من عقول ويستتهض من همم.

-لكن كيف؟ بأية تهمة؟ أجاب القومندان الذي كان الأستاذ قد أغاظه أكثر من مرة وهما يلتقيان في بيت عزيز، وكان بوده أن يحبسه أكثر مما يود المفوض السامي، لكنه لا يجد التهمة المناسبة وقد انغرس في نفسه عميقاً احترام سيادة القانون واحترام حقوق الإنسان.

-هو يسبنا، يشتمنا.. بدأ المفوض السامي.

-لا بد لنا من دليل، سيدي المفوض السامي..

-وتقارير المخبرين هذه؟ قاطعه شبه مزمجر، أليست دليلاً؟- بلى... لكنه غير كافٍ...

-إذن وفروا الدليل.. اثبتوا بالإثبات.. المهم ألا تدعوه يسرح ويمرح على هواه... طاعوناً ينشر الوباء حيثما يحل.

ولكي لا يدعه يسرح ويمرح، كما أمره المفوض السامي، ولا يدع الطاعون ينتشر، أعطى القومندان تعليمات جديدة لتطويق الأستاذ أكثر، ومحاصرته أكثر، ثم أسرع إلى بيت عزيز.

-العدوى تهددكم فابتعدوا عن الخطر، قال لعزيز وشمس، ففتح كلاهما عينيه.

-أية عدوى؟ أي خطر؟ سأل عزيز

-ذلك الأستاذ الذي لا يغيب ذنبه عن بيتكم حتى يظهر رأسه.. إنه خطر.. وأنا أحذركم منه.. باسم الصداقة، باسم المودة.. أمركم أن تبتعدوا عنه.. بل أن تقطعوا كل علاقة لكم به...

ولم يناقشه عزيز. كما لم تجادل شمس. كانت لهجته حادة ونبرته قاطعة، هو يأمر وينهى، تعود ذلك طوال سنين.. مذ تخرج من كليته الحربية ليوتنان حتى صار قومندان، وهو يأمر وينهى فكيف يفكر بمناقشة عزيز وشمس؟ ما ناقشاه بعد ذهابه هو تلك العبارة "باسم الصداقة، باسم المودة" أهي صداقة ومودة حقاً، ما بينهما؟ لم يكن عزيز ولا شمس على ثقة من ذلك. كانا كلاهما قد صارا على يقين من أن ما بينهما إنما هي لعبة القط والفأر.. القط يريد أن يأكل الفأر والفأر يتحاشى ذلك، لا يريد أن يهرب، لا يريد أن يبدي خوفه وفي الوقت نفسه لا يريد أن يمسك به القط.

الأنشطة التي أحست بها شمس تضيق حول عنقها أكثر من مرة عادت وارتخت أكثر من مرة.. أشهر تمر لا يسأل فيها القومندان عن الماضي، لا يبحث في تلك المرحلة أو يتقصى.. لكأنه يتعمد أن يخفف من الحصار. القط يتمدد في الزاوية، عيناه على الوكر، لكنه يتظاهر باللامبالاة بالفأر.. يخرج الفأر برأسه من الوكر، يشعر بشيء من الطمأنينة، عينا القط مغمضتان، جسمه كله مسترخ، لا تحفز ولا توثب، إذن يمكنه الخروج.. يمكنه الاطمئنان..

فجأة يطرح القومندان سؤالاً يقشع له بدن شمس وعزيز:

-تعلم عزيز.. قال القومندان ذات مرة، بنبرة كلها لا مبالاة، وهم يشربون القهوة حول البركة وأنسام الليل العليلبة البليلة تغتسل بمياه النافورة، بودي لو تحكي لي شيئاً عن عصيان فوزي القاوقجي في حماة.. ألم تكن هناك؟ ألم تشارك به؟.

وأسقط في يد عزيز حائراً لا يدري بما يجيب.. السؤال لئيم يخفي وراءه غاية في نفس يعقوب، عزيز على يقين من ذلك.. لكن بماذا يجيب؟ ان أنكر، قد ينكشف كذبه الصريح ويقع في الفخ الذي نصبه له القومندان منذ زمن طويل، وإن أثبت قد يستجره بالسجين والجيم إلى حيث لا يعلم إلا الله..

- ما هذا السؤال، سيادة القومندان؟ أنفذته شمس وهي تتدخل للتو، الرجل كان ابن بطوطة ينتقل بين المضارب والخيام في البادية، وبين القرى والمزارع في الريف، يتاجر بالسمن والصوف، بالأجبان والألبان، فما شأنه بفوزي.. لا أدري ما اسمه والعصيان؟.

وتضاحك القومندان الصديق، معترفاً بأنه سؤال سخييف حقاً، لا يدري كيف خطر بباله.. شمس تدري كيف خطر بباله.. هي على ثقة أنه يتبع معهما تكتيك "خطوة إلى الإمام، خطوتين إلى الورا". شد الأتسوطه ثم إرخائها، إلى أن يتأكد أن الفريسة وقعت تماماً وليس أمامها من مفر.

بعد ذلك، لم يتطرق للمسألة، لكأنها أصبحت طبي النسيان.. الذعر الذي بثه في نفسيهما في القرية بدأ بالتلاشي، تفكيرهما بالهرب لم يعد يراودهما، فالهر لا يحرك ساكناً. بالعكس، ها هو ذا يبدي خوفه على ابنهما مناف، يعاتبهما على ترك حبله على الغارب فيشترك بالمظاهرات ويعرض نفسه ويعرضهما للخطر.. ها هو يحذرهما من الأستاذ... "ابعدا عن الشر وغنيا له" ذلك كان مغزى كلامه وباسم ماذا؟ باسم الصداقة.

-أظن أنهم ينوون به شراً، سألت شمس عزيزاً وهما يقلبان كلام القومندان بطناً لظهر وظهراً لبطن...

-أظن ذلك، هو ينقدهم نقداً لادعاً، يفضحهم، يطالب بإعادة اللواء، باستقلال البلاد، بل وإعادة توحيد العرب، وهم ساكنون.. لكن إلى متى؟ ما أظن إلا أن صبرهم نفذ...

-نبهه...

-نبهته.. اليوم في المقهى كان يتكلم وكان مخبر غير بعيد يصيخ السمع مسجلاً كل كلمه.. لكزته مشيراً إلى المخبر، فنظر إليه بازدراء "دعه يبلط البحر.. قلت له "عيونهم حمراء عليك" قال "ما صاحبك من يخشى كلمة الحق".

-ماذا إذن؟ هل ستقطع علاقتك به كما أمر، سألت وهي تشير إلى الصدر والكتفين دلالة الأوسمة والنجوم..

-خسى، ما عزيز من يأمره فرنساوي مستعمر، رد، وقد ثار في نفسه غضب  
كامن وحقد دفين كان الرجل منذ سنتين، يحاول إخفاءهما، كتمهما، لكن هل يدرك  
المرء كل ما يتمناه؟ منذ ذهاب الأخضر إلى فرنسا، شعر عزيز أن عليه أن يسلك  
سلوكاً مختلفاً.. ابنه في باريس، فلذة كبده في فرنسا فكيف يحمل عليها السلاح؟  
كان قد لاق الأمر كثيراً لكنه لم يستطع أن يبيلعه.. خوفه على فلذة كبده جعله  
يكظم غيظه على المستعمر البغيض ويكتم حقه عليه.. بل بات يتحاشى اللقاء  
بالبطحيش، رفيق القتال وزميل السلاح، هو يسمع عن حادث هنا، حادث هناك،  
فيعلم أن صاحبه لم يلق السلاح ولم يعلن الهدنة.. هو أعلن الهدنة.. فكيف يلتقي  
بالبطحيش؟ مرتين التقيا، لكن لفترة وجيزة، عرف فيها البطحيش أن صاحبه في  
حيرة وتردد جعلاه يعلن هدنة من جانب واحد فلم يلمه ولم يجادل. البطحيش يعلم  
أن كل شيء يأتي بالإكراه ما عدا خوض الوغى ودخول ساحات القتال.. الحماس  
وحده، الاندفاع وحده هو ما يجعل المرء يقاتل وغض البطحيش الطرف، كما  
انسحب عزيز لكن دون أن يقطع ما بينهما من آصرة خفية لحمت واحدهما  
بالآخر حيناً من الزمن وسنظل تشد واحدهما إلى الآخر طوال الزمن.

الأحداث الأخيرة جاءت تترى وكلها يذكي نار الحقد ولهيب الغضب. عزيز  
لا ينسى منظر ابنه وهو غارق في شاشه وضماداته، طفلاً في لفائفه، لا ينسى  
جسده المتورم، تضاريس زرقاء وحمراء..

تلك اللحظة فار غضبه، أحس أن الدنيا كلها تتحول إلى شوك ونار،  
الشوك يخز عينيه والنار تشعل صدره.. تلك اللحظة فكر بالذهاب إلى  
البطحيش.. بالعودة إلى القتل والقتال.. الأستاذ وحده من شغله عن ذلك.. محيئه،  
استضافته، استقبال الوافدين والزائرين له حال بينه وبين الذهاب.. لكن أحاديث  
الأستاذ عادت توجج النار في صدره، دعوته للمواجهة جعلته يفكر بالبطحيش مرة  
ثانية" وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة تدق"، كان الأستاذ لا يفتأ يردد  
فيشعر عزيز بما يشبه الذنب". لماذا أعلنت الهدنة من طرف واحد؟ هذا المستعمر  
ما يزال يضطهد ويستبد، ينهب ويسلب، يذلنا ويهيننا، فكيف نهاندنه؟ "ويشتد شعور  
عزيز بالذنب. "لا يموت حق وراءه مطالب"، كان الأستاذ يقول، فيؤمن عزيز على  
قوله "إذن لماذا نسكت عن حقنا؟ فرنسا عقدت معنا معاهدة ثم تنصلت منها...  
بنداً بنداً تنصلت منها.. ثم زادت الطين بلة بخيانتها للأمانة.. عصابة الأمم  
وضعت سورية أمانة في عنقها.. سورية من اسكندرونة إلى درعا ومن أنطاكية  
إلى السويداء، فلماذا تفرط فرنسا باسكندرونة وأنطاكية؟ لماذا تخون الأمانة؟

"وتغدو أسئلة الأستاذ هاجس عزيز.. يفكر فيها ليل نهار فيثور حقداً ويلتهب حماساً ومن جديد يجد نفسه يفكر بالبطحيش، يندم على الابتعاد عنه. "لا.. لا بد مما ليس منه بد.. لا بد من قتال المستعمر، لا بد من العودة إلى البطحيش". قرر عزيز في سره وهو يستعيد تهديد القومندان المبطن بالصدقة والمودة "يريدني أن أبتعد عن الأستاذ؟ أن أقطع علاقتي به.. كيف وهو رمز البطولة والتضحية، نبراس الوطنية والحق؟".

..لا.. لم يكن عواد وحده هو الذي تعلق بالأستاذ أو اعتبر نفسه مريداً من مريديه، بل عزيز نفسه كان كذلك.. وعزيز يحب أن أحب ويكره أن كره.. الأستاذ، بوجهه الأبيض السمح وسمائه المتناسقة الجميلة، يدخل في القلب، فكيف ان سمعت كلامه العذب، وهو يتناثر درراً وجواهر؟ كل ما كان يفكر به عزيز على نحو مشوش كان الأستاذ يعبر عنه بأكثر العبارات رشاقة وأشد الأساليب وضوحاً. وكل ما كان يؤمن به عزيز دون أن يعرف التعبير عنه كان الأستاذ قد صاغه نظريات ومبادئ، بلوره مقولات وأفكاراً، فكيف لا يتعلق به عزيز؟ "أقطع علاقتي به؟" راح عزيز يتساءل ساخراً "بعيد عليك يا قومندان.. بل سأضع نظرياته موضع التطبيق.. سأنفذ بالفعل ما يتحدث عنه بالقول". كان قراره الأخير وكان في اللب من قراره صورة البطحيش تتراءى بكل ما تحمل من حقد على المستعمر وتصميم على مقارعتة حتى النهاية..

في الصباح التالي أفاق عزيز، وكله شعور بالبهجة والغبطة.. كان أيلول قد بدأ وكانت أزهار الفل والياسمين تملأ الجو عباقاً وأريجاً. شمس إلى جانبه مسترخية في الفراش... هو يعرف عادتها... تسترخي وتتأخر في الفراش. عزيز يعرفها جيداً. يتأمل وجهها وبيبتسم.. هذا الوجه الجميل، هذه البشرة البيضاء، هذا الشعر الأسود، الله كم أحبك شمس!! كم أحب كل ما فيك!! "بأطراف أنامله راح يمسد الشعر المنسدل على الوسادة، بشفتيه يقترب من الخد الأبيض الأسيل.. من الجبين المشع شمساً مشرقة لا يمر عليها الزمان ولا يؤثر فيها الزمان.

أنفاسها دافئة تدغدغ صفحة خده، لكنه لا يقترب أكثر.. يبقى هامش الحذر، يريد أن تظل نائمة، ربما تحلق مع أحلامها عالياً في السماء فلماذا ينزلها إلى الأرض؟ الليلة الماضية كانت تنوب دفناً وحباً.. لكأنما عادت إلى أيام الصبا" .. لا.. لا.. من قال إنها فارقت تلك الأيام؟ من قال إنها غادرت ذلك الصبا؟" عزيز يشعر أنها ما تزال في ريعان الشباب، تتجدد كما تتجدد الشمس، كما تتجدد الفصول.. كانا وحيدين. لا ضيوف، لا سياسة، لا هموم.. أراد الفروع لنفسيهما

كما يفعلان دائماً.. في الأسبوع ليلة واحدة، لا يستقبلان بها أحداً، لا يزوران أحداً، بل يفرغان واحدهما للآخر، يأكلان معاً، يشربان معاً، يسهران معاً، وغالباً ما يستعيدان الماضي، يناقشان الحاضر، يبحثان في المستقبل.. تقليد كانا قد اتبعناه منذ جاء إلى دمشق، حيث الهموم كثيرة والمشاكل كثيرة.. "ساعة لريك وساعة لنفسك" مبدأ لم يجد عزيز مناصاً من التمسك به.

شربا العرق، أكلا الكبة النية، فصفصا البزور والفتق الحلبي.. وحيدين، سعيدين، محبين عاشقين عشقاً لم يغيره ضعف ولم تخمد جذوته الأيام.. عشقاً لم يفتأ يترسخ جذوراً في الأعماق ويمتد فروعاً في السماء.. صحيح أن لقاءاتهما الجسدية بانتت تتباعد بعض الشيء، فثمة الهموم والأولاد، الوطن والناس، وربما السنون والأيام لكن الصحيح أيضاً أن ذلك الحب الذي جمعتهما ذات يوم كان قد غدا أبعد مدى من حدود الخيال وأرسخ أركاناً من عالياات الجبال..

لم يعد حبهما بحاجة إلى أدلة أو براهين، فبرهانه منه وفيه.. لم يعد بحاجة إلى كلمات الغزل وتعابير المجاملة... لكن في تلك الليلة غازلها، داعبها، احتضنها بين ذراعيه حتى أحس بها تذوب زبدة على نار.. بعد ذاك التهمها كما لم يلتهمها من قبل.. هو يحب الزبدة فكيف إن كانت ذائبة لا تحتاج إلا لفتح الشفتين؟!

عزيز يتأمل وجهها على نور الصباح الآتي عبر الزجاج المعشق، أحمر أزرق، أخضر أصفر، فيغدو الوجه قوس قزح ساحر الألوان.. "حبة قلبي.. مهجة روعي.. اسبحي في بحار الرغد والنعيم.. هانئة سعيدة حتى غروب الشمس. لن أدع أحداً يوقظك يا أغلى ما في الكون على قلبي. أنت يا حبي القديم!! أنت يا حبي الجديد!! أنت يا حبي الوحيد!!".

وانسل عزيز على مهل محاذراً إيقاظها.. أعدت له وضحة القهوة، رشف الفنجان على عجل فهو نفسه كان قد تأخر في النوم وعليه أن يفتح المحل. لكن ما إن دلف إلى الشارع حتى جاءه صوت سحب الاسترخاء من جسده كما تسحب الروح من الجسد..

-الحرب.. الحرب.. الحرب.. كان الصبي يحمل رزمة من الصحف ويصيح مسرعاً ملهوفاً كأنما تلاحقه أشباح الحرب.. منكمشاً، مشدود الأوتار، تسمر لحظة، فيما كان الصبي يقترب منه وكأنما يعلم أنه يريد أن يشتري صحيفة..  
-حرب ماذا، يا ولدا؟ سأله عزيز وهو يمد يده إليه.

- هتلر يكتسح بولونيا.. الحرب اشتعلت.. قال بشيء من الفرح وكأنما  
تقمص شخصية هتلر يملؤه الفرح والزهو باكتساحه لبولونيا...

أخذ عزيز الجريدة وأسرع إلى المحل "إيه أيتها الحرب!!" تمتم لنفسه: "منذ  
زمن تلوحين في الأفق.. تهددين الناس بالخطر.. فلماذا اليوم تتفجرين؟ لماذا  
اليوم.. يوم السعادة والهناء؟" راح عزيز يتساءل وهو يزفر متتهداً، مستعيداً في  
ذهنه تسلسلاً لأحداث بدت معها الحرب آتية لا محالة..

في آذار، كان هتلر قد وضع يده على تشيكوسلوفاكيا.. بهذه الحجة، بتلك،  
أفاق الناس فإذا بجيوشه تحتل البلد الجار، ضاربة عرض الحائط بالمواثيق الدولية  
وقوانين عصبة الأمم. ثارت فرنسا، هاجت بريطانيا، صرخت روسيا واحتجت،  
لكن هتلر إذن من طين وأخرى من عجين، ووقف العالم كله عاجزاً.. الفريسة  
تستنجد وتستغيث لكن ما من منجد ولا مغيث...

في نيسان، فعل موسوليني بألبانيا ما فعل صاحبه بنشيكوسلوفاكيا، ولا أحد  
أحسن من أحد.. هتلر قوي.. إذن موسوليني قوي. ذاك جبار، هذا أكثر جبروتاً  
وليرفع أحد صوته ويحتج. لكن ألبانيا ليست تشيكوسلوفاكيا.. هي شعب مسلم..  
طوال عمره ظل شوكة في خاصرة أوروبا وشجا في حلقها.. إذن ليقنع موسوليني  
تلك الشوكة، ليخرج ذلك الشجا.. وسكت الناس.. بعض الأصوات ارتفعت لكن  
خافتة، بعض الاحتجاجات ظهرت لكن واهية، كأنما هي رفع عتب.. فالروح  
الصليبية لم تكن قد ماتت بعد، والصليبيون لم ينتهوا من أوروبا بعد..

في أيار، عقد الجباران الجديدان معاهدة تحالف وتعاون، مباركاً كل منهما  
للآخر ما فعل، مشجعاً إياه على المضي قدماً في ما سيفعل.. محور قوي ملأ  
قلب فرنسا ذعراً، وهي ترى نفسها بين مطرقة هتلر وسندان موسوليني.. هتلر  
يحمل أحقاداً بارتفاع الجبال وعمق البحار على فرنسا التي مرغت الألمان  
بالوحد.. جعلتهم يحنون رؤوسهم ويأتون خاضعين خانعين إلى قصر فرساي  
يوقعون معاهدة، كلها إرغام وإذلال. وينسى هتلر؟ هتلر لا ينسى.. وإن نسي،  
مصالحه لا تنسى.. فرنسا تستعمر نصف العالم وبريطانيا النصف الآخر ضانتين  
بعظمة تلقيان بها لألمانيا.

أفينسى الألمان؟ لا.. هم يريدون حصتهم من الفريسة إن لم يكن طوعاً  
فكرهاً.. وقد بدأ هتلر مسيرة الإكراه والكره...

في آب، ضرب ضربته القاضية.. ذهب روبنتروب إلى موسكو سراً، التقى  
بستالين سراً.. عقد معه اتفاقاً سراً، ثم فاجأ العالم: هتلر وستالين فاجأ العالم

بإعلان معاهدة تفاهم وحسن جوار يحترم بموجبها كل منهما الآخر، ويمتنع عن التدخل في شؤون الآخر أو الاعتداء على أراضييه.. يومذاك قال الدكتور الشهبندر لعزیز "هتلر أمن الحماية لظهره، فما يمنعه من الهجوم الآن؟". الفكرة نفسها ردها يومذاك الأستاذ.. وها هو ذا الهجوم يحدث والحرب تتفجر.. الجريدة بين يدي عزیز تحمل مانشيتاً عريضاً، أعلاه بلون الدم وأسفله بلون الحداد.. يقرأه عزیز بانقباض وتجهم "الطاغية النازي يشعل الحرب"، "قووات الجحيم كلها تتفتح دفعة واحدة على بولونيا". ثم تروي الجريدة تفاصيل مخيفة عن حرب لم يعرف مثيلاً لها التاريخ: "من البر الجيوش الألمانية تندفع عند منتصف الليل.. الدبابات تهدر، المدفعية تزأر، الشاحنات، الناقلات، المصفحات، تتطلق سيولاً جارفة من كل مكان لتكتسح كل مكان.. من البحر: السفن، البوارج، المدمرات، الكاسحات كلها تظهر قبالة الشواطئ البولونية لتصب حممها اللاهبة على المدن الآمنة والسكان العزل النائمين. من الجو.. أسراب غريان سوداء تبصق النار والرصاص فتحيل الأخضر يابساً والعمار يبابا..".

كان عزیز يقرأ وعيناه تتسعان أكثر وأكثر.. آلة الحرب النازية، القوى الجوية الهائلة، القوى البحرية المدمرة، كلها كان الناس يتحدثون عنها وكان عزیز قد سمع بها، لكنه ما كان يتخيل قط أنها من الحجم والقوة بحيث تكتسح بلداً كبيراً كبولونيا، اكتساح العاصفة بيتاً من ورق.

صبري شاركه تعجبه حين جاء، فاليزباشي، الذي تدرب في الأستانة وحارب في جيش "العصملي" وضد جيش "العصملي"، لم يكن يعرف مثل آلة الحرب النازية، تلك التي يمكنها أن تعصف ببلاد طويلة عريضة بين عشية وضحاها. قرأ الخبر من جديد، فتشا بين الأسطر وما وراء الأسطر عن الحدث الجلل الذي يعرفان كيف بدأ لكن لا يعرفان أين يمتد أو كيف ينتهي..

الكل في حيرة ولبال.. عزیز وصبري لا يستطيعان البقاء في المحل يبيعان ويشتریان،

فالحدث أخطر من أن يجلسا معه يبيعان ويشتریان.. تحركا في السوق، التقيا بالناس.. الكل لا حديث لهم سوى الحرب. الفرنسيون وجوهم عابسة قمطيرير.. صحفهم مجلة بالسواد، أحرفها، كما شرح له صبري، تنطق بالذعر والتوجس.. "من الضحية الثانية؟" كانت تتساءل. الذئب ينقض ولن يتوقف قبل أن يصرع أكبر عدد من القطيع".

في مقهى "البرازيل"، الرواد جماعات جماعات، وكلهم مشغولون بالنبأ

الصاعق:

احتلال بولونيا. بعضهم فرح وبعضهم حزين، بعضهم راضٍ وبعضهم ناقم. المعايير لدى الناس مختلفة دائماً، والزوايا التي ينظر منها الناس مختلفة دائماً. من ينظر من زاوية هتلر فرح مزهو. وما أكثر من هم مع هتلر، ليس حباً به بل نكايه بالفرنسيين والإنكليز.. لكن من هم ضد هتلر يعلمون مدى الكارثة التي بدأت للتو..

-احتلال بولونيا سيجر تفاعلات وردود أفعال، لا يعلم منتهها إلا الله.

كانوا يقولون فيرد الطرف الآخر:

-لن تجر شيئاً، ستسكت بريطانيا وفرنسا، كما سكتت عن تشيكوسلوفاكيا وألبانيا.

آراء وتخمينات.. لغط وجلبة كانت تملأ المقهى، كما كانت تملأ المقاهي الأخرى، دوائر الدولة، الشوارع، البيوت، فقد بدا العالم كله ذلك النهار يقف على كف عفريت، والعفريت يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال.

"تسكت بريطانيا وفرنسا أم لا؟" تلك كانت المسألة.. الأستاذ قال "لن تسكتا"

الدكتور الشهبندر كان يرى ذلك أيضاً، والشهبندر يفسر "بولونيا كاثوليكية وفرنسا حامية الكاثوليكية، فكيف تسكت؟ آلة الحرب الهتلرية تقتل، تذبج، تدمر، فكيف تغض الطرف فرنسا؟ هي وبريطانيا أعلنتا قبل أشهر التزامهما بالدفاع عنها فكيف تتسحبان من التزامهما؟" وجاء الجواب بعد ثمان وأربعين ساعة فقط: أعلنت الدولتان الأقوى في العالم: بريطانيا، الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وفرنسا، الإمبراطورية التي لا يغيب عنها القمر، حربهما على هتلر.

-فرنسا أعلنت الحرب، ماذا يعني ذلك؟ سألت شمس الأستاذ، وهم على مائدة الغداء..

-يعني أن معارك ضارية ستجري بين الدولتين وألمانيا وربما على أرض كلتا الدولتين...

-ماذا؟ ستصل الحرب إلى باريس؟ ستطول الأخضر؟ وتنبه عزيز إلى الخطر الداهم الذي لم يكن قد فكر به.. فلذة كبده في باريس، فماذا إن قصفتها طائرات هتلر؟ ماذا إن تحولت إلى ساحة معركة؟ ألن يهدد ذلك حياة الأخضر؟ أمنه وسلامته؟.

طوال يومين، ظل الأخضر والحرب شغلها الشاغل.. "أية ورطة؟" كانت شمس تفكر "ليتنا لم نبعثه؟ تباً لفرنسا وشهاداتها!!" فقد استيقظت فيها الأم التي لا يههما في الوجود سوى سلامة ابنها، ولا تعادل كنوز الوجود قلامة ظفر ابنها..  
-دعنا نعهده إلى الوطن، اقترحت الأم.

-لا.. لا.. ما يزال باكراً على ذلك.. رد عزيز وهو يعلم أن عاطفة الأم هي التي تتكلم.

-وماذا إن فات الأوان؟ ماذا إن هجم هتلر على فرنسا هجومه الصاعق على بولونيا..

ألا يضيع ابننا؟ ألا نخسر فلذة أكبادنا؟.

-شمس، فرنسا ليست كيولونيا.. هي بلد قوي يستعمر نصف العالم..

-لكنها أمام هتلر لا شيء.. العالم أمام هتلر لا شيء.. ألم تسمعهم يتحدثون عن آلة حربه الجبارة، تلك التي لم يعرف مثلها التاريخ؟.

-صحيح.. شمس.. صحيح.. لكن..

-لا.. لا تقل لكن.. قاطعته وقد تحولت إلى لبوءة يهدد أشبالها الخطر..

-حسن.. حسن. قال وقد تسرب شيء من خوفها إلى قلبه.. دعينا نستفسر أكثر، نسأل.

-الأمر واضح كعين الشمس فلماذا نسأل أو نستفسر؟.

-مع ذلك نسأل، ولمعت في ذهنه فكرة، أجل بإمكانه أن يفيدنا القومندان الآن...

ولاذت شمس بالصمت.. ذهب خوفها من القومندان، كرهها له، قرارها بقطع كل علاقة معه.. شيء واحد كان ينتصب أمام عينيها: الاطمئنان على فلذة الكبد ومستقبل فلذة الكبد..

-هه.. ماذا قلت؟ سألتها وهو يراها تلوذ بالصمت.

-أجل.. اذهب إلى القومندان. اسأله، تأكد منه..

وذهب عزيز إلى العدو الذي "ما من صداقته بد" يسأل ويتأكد.

-خائف على ابنك، وهو في باريس؟ رد القومندان بصلف الفرنسي الذي أثرت حميته وتحركت عنجهيته..

-لا.. أنا لست خائفاً سيادة القومندان، لكنها الأم.. وأنت تعلم ما تعني الأم؟

عواطف الأم؟

-لا.. لا.. طمئننها.. لدينا جيش قوي.. مثل هتلر وأكثر.. لدينا طيران..  
دبابات.. مصفحات.. مثله وأكثر.. تحصينات قوية، خط ماجينو الشهير! خطوط  
دفاعنا الحصينة! في حرب الأربعة عشر هزمناهم.. وفي هذه الحرب سنهزمهم..  
اطمئن اطمئن.. فرنسا لا تهزم..

وخيل لعزیز أن القومندان صار قومنداناً آخر.. لهجته، حماسته، صلفه..  
كله كان جديداً عليه.. ذهبت تلك الدمثة.. ذهب ذلك اللطف.. الرقة.....  
الإنسانية.. لغة الحضارة والعقل، كانت كلها قد انسحبت أمام خطر الحرب ليظهر  
بدلاً منها تعصب و صلف، حماسة وغرور...

-أعلم. أنا أعلم ذلك، قال عزيز أخيراً وهو يبلع أملاً خفياً في أن لا تكون  
فرنسا قوية، أن لا يصمد جيشها يوماً واحداً، بعدئذ تابع: المشكلة أن أمه لا تنام  
الليل.. لا تفكر إلا به.. أيمننا الاتصال به مباشرة؟ أيمننا الاطمئنان عليه  
سريعاً؟.

-أنا أقول لك اطمئن.. باريس أمان وسلام.. الكل هناك يعيشون حياتهم  
المألوفة.. اليوم تحدثت مع الأهل. لم يطرأ تغير قط.. فلا تشوشوا الأخضر ولا  
تخيفوه.

-صحيح.. معك حق.. يجب ألا نشوشه..

-قل لأمه.. لا خطر على باريس.. هي في حزر حريز.. إن دارت الحرب  
فلسوف تدور على أرض ألمانيا.. على خط ماجينو و تحصينات الحدود، معارك  
ربما تستمر سنين وسنين وفي النهاية يكون لنا النصر..

أبلغ عزيز رسالة القومندان للأم، لكن دون أن تتلج صدرها أو تطفئ لهب  
أمومتها.

-اكتب له رسالة.. أرسل له برقية..

أعجبته الفكرة.. البرقية من البرق والبرق سريع، يصل إلى باريس بلمح  
البصر...

وإذا ما ارتد، ارتد بلمح البصر، فلماذا لا يرسل برقية؟

في الصباح التالي، مضى عزيز إلى مركز البريد، كتب أقل من سطرين ثم  
طيرهما على جناح البرق حيث كان الأخضر مايزال غارقاً في سبات عميق.

"نحن في غاية القلق. نريد الاطمئنان عليك.. عد حالاً إن كان يتهددك خطر الحرب". ولم يملك الأخضر إلا أن يفتح عينيه دهشة واستغراباً، وهو يقرأ البرقية التي أيقظته من سباته العميق..

أعود حالاً؟! يتهددني خطر الحرب؟" راح يتساءل وهو مايزال يفرك عينيه متثائباً متكاسلاً، كارهاً النهوض من الفراش، "لكن أية حرب؟" تابع تساؤله وهو ينظر من شبابه إلى الشارع المزدهم بالناس: طلاب، طالبات، تجار، باعة، سياح، سائحات وجرس الترام يطلق رنينه المتميز من حين إلى حين. ثمة أيضاً الحافلات، السيارات الصغيرة، إشارات الشرطي وهو يعطي أوامره مطلقاً حركة السير، موقفاً إياها، مؤكداً أن نهر الحياة مايزال يتدفق تدفقه المألوف، لا فيضان، ولا خطر.. "إذن، لم خوف أبي وأمي علي؟ أظنون هناك أن الحرب قامت في باريس؟" وتبسم بشيء من السخرية..

كان الأخضر قد سمع إعلان فرنسا الحرب، وهو على شاطئ المحيط الأطلسي.. زميله هناك كان قد دعاه إلى زيارته في عطلة الصيف.. كان من روايان.. آخر العطلة فقط تسنى له أن يلبي الدعوة فذهب إلى الميناء الرابض على شاطئ المحيط.. ميناء كبير يعج بالبواخر والسفن، البورج والمدمرات، المراكب الشراعية والطوربيدات الحربية.. والد جاك لديه سفينة لصيد الأسماك تتوغل قليلاً في المحيط، فتأتي ببيادر من الأسماك. لديه أيضاً، سيارة يسوقها جاك بنفسه ويذهب بها حيث يشاء. جاك وحيد أبويه، مدلل يصل إلى فمه كل شيء بملعقة من ذهب "هذه الأموال كلها لدى والدك، وتظل أنت الولد الوحيد؟". سأله أول ليلة "ولماذا الأولاد الكثر؟ واحد يكفي ويزيد" رد جاك ضاحكاً.. "نحن هنا نختلف عنكم، أنتم العرب: ولد تربيته جيداً خير من عشرة تتركهم إلى الشارع.. نحن قوم نكره التكاثر".

وضحك الأخضر وهو يتذكر الآية الكريمة "ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر"، هل هذا يا ترى ما قصده سبحانه؟. ناس لا هم لهم إلا أن يتناسلوا.. المرأة تلد لتحب، وتحبل لتلد، والرجل يغرق في حمأة الإعالة والعوز يوماً بعد يوم.. وزفر الأخضر زفرة حارقة ثم تابع ضاحكاً. "الشاعر العربي عندنا يقول

"بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نزرور"

جاك لم يفهم بيت الشعر الذي قاله الأخضر بعربية مفخمة لكن ما إن شرحه له بالفرنسية حتى قهقه ضاحكاً.. "صحيح"، تابع بعد أن كفكف ضحكته، أرأيت

إلى الحيوانات أيضاً؟ الأرناب تتكاثر حسب متواليه هندسية يمكن أن تصل معها، هي وذريتها خلال سنتين أو ثلاث، إلى عشيرة من الأرناب تأتي على الأخضر واليابس بينما اللبوء تضع خلال الفترة نفسها شبلاً أو شبليين فقط". وشرذ الأخضر بعيداً "الحمد لله، أمي لم تلد إلا أربعة..". رآه جاك يشرد فاستفسر، أجابه الأخضر فأبدى له كل تعجب "معقول؟! هذا شيء نادر.. والداك رضى بأربعة فقط؟". ولم يكن الأخضر يعلم أنه على مبدأ "مكره أخاك لا بطل" كانت أمه قد توقفت عن الإنجاب.

بسيارة جاك، جابا معاً شواطئ الأطلسي شمالي رويان وجنوبيها.. زارا السهول، الجبال المحيطة بها.. فثمة طرق.. في كل مكان طرق للسيارات.. سكك حديدية للقطارات.. الأخضر يراها ويتحسر على بلاد ما تزال مقطوعة الأوصال لا طرق ولا سكك حديد.. السيارات فيها نادرة والقطارات أندر.. على السفينة أخذ جاك في رحلة صيد.. ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ أيضاً ظلاً متوغلين في أعماق المحيط. المحيط ساكن تدغده أنسام الصيف فترقد أمواجه كما يرقد طفل تهدده أم حنون.. لكن المغامرة الكبرى كانت حين عادا من البحر.. أرصفة الميناء مزروعة ببائعات الهوى.. غوان يقدمن الشراب، فتيات يعرضن أجسادهن... برامج "ستريبتيز" تعرض في هذا النادي أو ذاك، ولأول مرة يسمع الأخضر بكلمة "ستريبتيز"، ماذا تعني؟" سأل جاك. "التعري" أجاب جاك حسب قول البعض، والمشاكسة بشريطة من قماش حسب قول البعض الآخر.. المرأة تتعري إلا من شريطة ضيقة تتركها بين فخذيه لتشاكس بها الرجال" وشاهد الأخضر في تلك الليلة حفلة تعري ومشاكسة لم تترك في نهايتها المرأة الفاتنة حتى تلك الشريطة الضيقة بين فخذيهما. شيء مثير.. أنا لم أعد أستطيع التحمل." قال لصاحبه، فضحك هذا، "أنتم حامون.. كلكم أهل الشرق هكذا!! لا يستطيع واحدكم ضبط نفسه"، تشعل النار في الهشيم وتقول له اضبط نفسك... لا تحترق، قهقهه جاك، وهو ينهض ليخرج به من البار. "ألا نأخذ زادنا معنا؟" سأله الأخضر وهو يشير إلى فتاتين شقراوين، كشفتا عن نهودهما وأفخذهما، متلويتين تلوي فتاة "الستريبتيز" على الحلبة. "لا.. أنا أخشى بائعات الهوى أولاء.. ذات مرة أصبنتي بالسيلان." "ماذا إذن، تريدنا أن ننام جياعاً عطاشاً؟" من قال هذا؟ لا.. لا. سأتيك بزاد أطيب وشراب أعذب."

وأسرع جاك بسيارته إلى "ستوديو" صغير في بناء قديم لونه الزمان بلونه الكالح، لون الشيوخة والهرم، "هذا عش النسر.. أجيء إليه كلما احتجت إلى

السكينة والهدوء.

من عش النسر اتصل جاك بصديقه.. عبارة أو عبارتان همس بهما في أذنها ثم لم تمض دقائق حتى كانت فتاتان غضتان لم تبلغنا سن الرشد بعد، تطرقان الباب..

في "الاستوديو" براد صغير يحوي كل شيء.. الشراب من كل صنف ولون، الطعام من كل صنف ولون، لكن الأخضر يحب النبيذ.. جانيت علمته ذلك.. مذ اقتحمته في عقر داره راغبة في تجريب الحصان العربي وباتا يلتقيان بين الفينة والفينة.. أغرته بشرب النبيذ فشرب، زكت لديه "الروزيه" فأحبه.. جانيت تعرف ما تحب، تعرف ما تكره.. لها آراؤها المبرمة، قراراتها القاطعة.. وأحبها الأخضر لذلك. "هذا الوضع الغريب لكأنها ليست امرأة"، كان يفكر متذكراً ما يقولونه عن المرأة في الشرق "حواء لغز غامض، لغز لا يستطيع حله إلا الله"، جانيت واضحة كعين الشمس، لا ألغاز فيها ولا رموز.. تشتهي الرجل تقول له "أشتهيك"، تنفر منه تقول له "أنفر منك". تريد صداقة عابرة تقيمها، تنتهي الصداقة تتهيأ.. بكل بساطة، بكل وضوح، تتصرف جانيت، تتكلم. هي معه اليوم.. غداً مع غيره، تمر به، تسلم عليه وربما تصفعه على قفاه ممازحة ثم تشبك ذراعها بذراع الآخر، وتمضي.. "كيف؟ لماذا؟" سألتها ذات مرة وقد شعر بالحنق. "أنا هكذا.. لا أريد ارتباطاً بأحد ولا التزاماً بأحد.. فأظل حرة.. حرة كشعاع الشمس". ولم يكن يملك إلا أن يغض الطرف أمام شعاع الشمس. الخجل خلصته منه، الجنس علمته فنونه، الصداقة منحته إياها خالصة، لكن جسدها ملكها وحدها، تريد أن تكون صاحبة الحق الوحيدة فيه.

"أهذه هي الحرية التي تحلم ببلوغها حواء؟" الأخضر معجب بجانيت، بل ربما يشعر أحياناً بالحب، مشاعر غيرة تأكله وهو يراها تقبل هذا الشاب أو تمضي مع ذلك.. لكنها كانت تكبحه إن لم يكبح نفسه.. شيئاً فشيئاً تملك القدرة على الكبح، وقد ترسخت في نفسه القناعة التي حاولت غرسها فيه، "نحن صديقان، نلتقي حين تقضي الحاجة، ونفترق حين تنعدم"، النبيذ "الروزيه" جعله يشرد مع جانيت، لكن الفتاة الغضة البضة ذات الشعر الأشقر إلى جانبه تشعره بنوع من الحرج، "ماذا؟ جسديك معنا وعقلك مع سوانا؟" قالت لائمة فنفض الأخضر رأسه ضاحكاً "اكسكزي موا" قال بكثير من التوكيد والود، ثم أسرع إلى الحاكي يضع اسطوانة، سرعان ما صدحت بموسيقى راقصة. "عرض سترتيز.. من منكما تقدمه لنا؟" سأل الأخضر وهو يرغب أن يستعيد حالة الفوران التي

وصل إليها، وهو في نادي "الستريتيز" .. "أنا" قالت الفتاة الأخرى، الغضة البضة، ذات الشعر الأحمر القصير كشعور الصبيان، ثم أسرع تلتوى أفعواناً يؤدي طقوس الحب والربيع.

رقصتها شجعت ذات الشعر الأشقر، فهبت تتعري وتشاكس.. "كلهن مشاكسات"، قال لصاحبه غامزاً ضاحكاً، فرد جاك "بل قل كلهن فنانات بارعات". وأمضى الأخضر ليلة حمراء أثبت فيها أن الحصان العربي هو المجلي دائماً، الأكثر قدرة وتحملاً دائماً، فقد كان ما يزال يعدو بين هذه المرجة وتلك، حين كان الحصان الآخر قد ارتقى على الفراش، مستنزفاً حتى الرمق الأخير.

في تلك الليلة، أعلنت فرنسا الحرب لكن أحداً من الأربعة لم يسمع بذلك ولم يشعر به.. في القطار فقط، وهو عائد إلى الشرق، حيث العاصمة التي تحتضن السين، بكل شغف وشوق، قرأ الأخضر الخبر: هو مانشيت عريض يملأ واجهة الصحيفة.. نظر خارج القطار متعجباً.. السهول ساكنة، أسراب العصافير لم يروعها باشق، الجبال حملان وديعة يتراكب بعضها فوق بعض والسماء صافية لما يأتيها أيلول بالغيوم بعد. وصل إلى باريس فكانت، كعادتها، تغص بالناس غادين آتين، بالسيارات تشق طريقها بنزق، بالأتوار مشعشة، بالمطاعم ملاءى، بالكازينوهات تبهر أنوارها الأبصار.. "إذن، لماذا الخوف يا أبي؟ لماذا الشعور بالخطر، ولا خطر؟" لكن لكي يطمئن قلبه، أسرع إلى الجامعة التي فتحت أبوابها، ذلك اليوم نفسه، فانصب عليها الطلاب والطالبات سيلاً دافق الأمواج. وأنه جانباً فأسرعت تأخذه بين ذراعيها مقبلة عاتية:

-أين كنت؟ خمسة أيام وأنا أبحث عنك؟

-إذن شاكك الحصان العربي؟ قال وهو يغمز بعينه ضاحكاً..

-شاقني فقط؟ قل أموت شوقاً إليه، ردت وهي تنظر إلى الأسفل حيث يلتقي الفخذان، فلم يملك إلا أن يضحك:

-قولي لي أولاً، ألسنت خائفة من الحرب؟

-خائفة من الحرب؟ قالت وهي تبرم شفتها استهتاراً، نحن الفرنسيين لا نفعل منذ أربعمئة عام إلا الحرب، نقاتل هنا، نقاتل هناك. بل لقد حاربنا أوروبا كلها ذات يوم وانتصرنا، ذهب نابليون إلى مصر، وصل إلى موسكو، توغلنا في أفريقيا، استعمرنا آسيا، أمريكا فهل نخاف اليوم من هتلر؟

-لكنهم الألمان وزخم الرايخ و..

-لا.. لا تخف.. قاطعته وهي تتأبط ذراعه، مبتعدة به عن الطلاب والزحام،  
مادامت فرنسا وبريطانيا حليفين لن تهزما هتلر فحسب بل العالم كله..  
-تفتك كبيرة؟

-التاريخ شاهد والتجربة عبرة.. مذ انفتحت فرنسا وبريطانيا على استعمار  
العالم واقتسام النفوذ فيه، وهما تستعمرانه وتقتسمان النفوذ فيه، ولسوف تظلان  
هكذا يدهما في رقبة العالم ماداما حليفين متفقين.. لن تسمحا لهتلر بمشاركتهما  
الغنيمة بل ستسحقانه كما تسحق القملة.. فاطمئن.. وأرسل الأخضر إلى الأم  
الخائفة والأب المشغول البال رسالة بثها الكثير مما يطمئن.. وصف الحياة في  
باريس، الدراسة المعتادة في الجامعة، الهدوء والطمأنينة في النفوس بل بث أقوال  
جانيت بحرفيتها، دون أن يحذف منها ما يدل على الصلف والغرور...

عزيز أحس بذلك الصلف والغرور، كما أحس به وهو يحدث أباها  
القومندان، الذي كان اكتساح هتلر لبولونيا قد أزاح عن وجهه قناع الدماثة  
والكياسة، ليظهر على حقيقته: ذنباً شرساً، ليس فيه سوى المخالب والأنياب.

-كم أتمنى أن يمرغهم هتلر بالوحل، هؤلاء المستعمرين المتغترسين!! قال  
لشمس، وهو يدمج بين صورة القومندان وأخته...

-لماذا؟

-ألم تسمعي؟. يريدون أن يظل نيرهم في رقبة العالم.. يدوسوا بأقدامهم  
العالم..

-وما الفرق؟ إن ذهب هؤلاء، ألن يحل هتلر محلهم؟ ألن يكون استعمارهم  
ألن وأدق رقبة؟

-لا، ليس هناك ألن وأدق رقبة من هذا الاستعمار!! أنا أكرهه... أكرهه!!

وبدا حقد العالم كله يفور في صدر عزيز.. كثير من الناس يتحدثون في  
المقاهي، الشوارع، البيوت، عن هتلر: المسيح المخلص" ترى لماذا لا يكون  
المخلص فعلاً؟ هو يكره بريطانيا وفرنسا.. عدواً مبيناً لهما، وعدو عدوك  
صديقك.. هذا قانون من قوانين المنطق..

فلماذا لا ينطبق ذلك القانون على هتلر؟ لماذا لا يكون صديقاً وحليفاً فعلاً؟  
"وغدا عزيز، ولا هاجس له إلا أن يتابع أخبار هتلر: في بولونيا، في الغرب، في  
الجنوب، حيث جيوشه تدق بأحذيتها العسكرية أبواب العالم.

-يجب أن نعلن الحرب على فرنسا.. أيضاً.. يجب أن ننتهز الفرصة

فحارب هذا المستعمر البغيض، قال ذات صباح لصبري، رفيق السلاح القديم، وهما يفتحان المحل.

-الحقيقة.. هي أعظم فرصة.. تدخل فرنسا الحرب في أوروبا فننقض عليها هنا، نقتنص منها نصرنا.. نفرض عليها حريتنا واستقلالنا..

-يعني أنت معي؟! نستغل الحرب كي نشن عليها الحرب..

-مع المستعمر ينبغي ألا يفوت المرء أية فرصة، ألا يهادنه أية لحظة.. بل في أي وقت يستطيع ضربه، عليه أن يضربه..

ووقع ذلك، في نفس عزيز أيما موقع.. "صحيح.. لماذا أهادنه؟ لماذا لا أعاود ضربه؟" ولم تمض تلك الليلة حتى كانت تضمه غرفة منغوسة في أحشاء الكرك، قلعة درعا الحصينة، حيث أسرع البطحيش يستقبله بالأحضان.

-كنت أعلم أنك ستعود.. قال له وقد فرغا من عشاء أعده الرجل على عجل..

-وها قد عدت.. فماذا لديك؟ سأله وهو يعلم أنه لم يكف يوماً عن ضرب المستعمر:

دركه، جنده، ضباطه، جباته، أيًا كانوا وأينما كانوا. كان البطحيش قد بات مصدر رعب حقيقي لحاكم درعا، عسكريه وشرطته، يترصدونه هنا، فيظهر هناك، يخططون للإمساك به في الشرق فينبق في الغرب. كم نصبوا له كمائن! كم أرسلوا دوريات! كم جندوا مخبرين! لكن البطحيش من نسل أبي زيد الهلالي، ما إن يقترب منه الخصم حتى يلبس قبعة الإخفاء، فلا تراه عين.. ويغدو بإمكانه أن يدغدغ خاصرة الخصم، ينخس رقبتة، يدخل أحد خيشوميه، يفعل به ما يشاء.

"الجنّي" صاروا يدعونه "ماذا فعل الجنّي؟" "ما هي آخر أخبار الجنّي؟" "شددوا الحصار على الجنّي" ثم يخططون ويرسمون، لتذهب مخططاتهم ورسومهم كلها أدراج الرياح، فالإنس لا يستطيعون رؤية الجن ولا الإمساك بأبي زيد الهلالي وهو يلبس قبعة الإخفاء...

-أنت جاهز؟ سأله الجنّي الفرح بعودة صديقه.

-لو لم أكن كذلك لما جنّنت.

-حسناً.. غداً مساء إذن!!!

في الياودة عرس كأعراس أبناء السلاطين، كانت قد مضت عليه ستة أيام، ينصب فيه كل ليلة مسرح للدبكة وتشعل النيران، تفرع الطبول وتعزف المزامير،

فالأعراس هي الفرصة الوحيدة لأن يهزج شعب محزون، يغني أناس بأسبون  
ويزغرد مقهورون.. هي كوتهم الوحيدة إلى عالم الفرح، ومهريهم الوحيد من الترح.  
البؤس، الفقر، الجوع، الحرمان، القهر، الإذلال كلها بانتظارهم ليل نهار، فلماذا لا  
يستغلون فرصة لنسيان الجوع والإذلال، للطيران بعيداً عن البؤس والفقر، الحرمان  
والقهر؟.

أهل الياودة كلهم في العرس، يدبكون ويرقصون.. ناسين أو متناسين ما  
ينتظرهم بعده. "الأجضان" الفرنسي.. قائد المخفر المتغطرس، الذي يخيل له أنه  
يبلغ الجبال طولاً، يرقب عرسهم وينتظر.. غنيمة مغرية.. لعبه يسيل عليها قبل  
أن تقع عليها عيناه... هو يعرفها، فتاة طويلة بيضاء، شهية كرجيف ساخن..  
فليفرحوا بها ويدبكو.. "الليلة تزف إلى عريسها.. لكن قبل ذلك ستزف إلي" وكان  
ذلك ما فرضه "الأجضان"، مذ جاء إلى مخفر الياودة... "كي نمرغ أنوفهم في  
الوحد".

عند حلول الظلام، كان البطحيش وصاحبه ينسلان شبحين مقنعين، إلى  
بيت العروس. مع أمها وأبيها رسماً الخطئة، وعلى عاتقهما وقعت مهمة حفظ  
السر.. دوي الطبل يتردد أصداء في الياقوصة حيث الهوة العميقة التي ابتلعت  
ذات يوم نصف جيش الروم. أنغام المزمارة عالية راقصة تثير كامن الأحاسيس  
وخافي المشاعر.. أقدام الدابكين والدابكات تصنع أجمل إيقاع... يشنف أذني  
عزيز لكنه لا يجد طريقاً لأذن البطحيش.. اللحظة الحرجة تجيء.. الهودج أعدّ  
والبعرير يقتررب: إخ.. إخ.. يصيح بصاحبه فينيخ البطحيش وعزيز أعصاب متوترة  
وحواس مشدودة.

الكل بانتظار العروس.. تدخل الهودج فينقلها إلى العريس الموعود. في شبه  
العممة تسير العروس تحف بها الصبايا والبنات، قرب الهودج يكمن البطحيش  
وعزيز.. تقترب العروس من الهودج، وتعثر الأم. يسقط الفانوس وينطفئ الضوء،  
وتحت جناح الظلام تنسل العروس مبتعدة عن هودج ينفتح وينغلق بمثل لمح  
البصر، ليضم بين ذراعيه عروساً ووصيفة لم تكونا عروساً ووصيفة قط..

-هي.. تج.. هي.. تج.. يعود الصوت حائماً البعرير على النهوض. ينهض  
البعرير ثم يسير بالهودج، تحف به لدات العروس وهن يغنين ويهزجن.. الرجال  
في المؤخرة، الأولاد يتوزعون هنا وهناك والزغاريد تنطلق، معلنة مغادرة العروس  
بيت الأهل.

"الأجضان" وجنده أمام باب المخفر، يتلمظ بشفتيه ويفرك يديه لوجبة شهية

قادمة.. على ظهر الجمل تسيير.. هودجها من عصر الطعائن وملابسها من دمقس الحرير.

-أطلق النار، مال "الأجضان" على مساعده أمراً، وقد اقترب موكب العرس... سبع، ثماني طلقات اندفعت رشاً فخرست الحناجر للتو. لم يعد هناك غناء، لم يعد ثمة زغاريد، الكل ساكن كأنما يقف على رأسه الطير.

-تقدم بالهودج، تابع "الأجضان"، أمراً الصبي اليافع الذي كان يمسك بالرسن. بحذر تقدم الصبي، فتقدم ورائه الجمل والهودج فوق ظهره يتمايل نحو اليمين ونحو الشمال، أنتن الخمس، اقتربن اقتربن، هدر بصوته الجهوري مشيراً إلى حلقة النساء التي تحيط بالهودج.. فجنده الخمسة بحاجة لعرائس أيضاً.

لم تخالف النساء الأمر.. بل تقدمن... في أقدامهن الحذر، في عيونهن الخوف. وعلى رؤوسهن الطير.

-أنتم.. البقية.. نساء.. رجالاً.. أولاداً.. هيا اذهبوا الآن.. كل إلى بيته.. لا يمين.. لا شمال.. كل إلى بيته وبإشارة من يده عاد الرصاص للانطلاق رشاً، وبعث أزيزه الرعشة في القلوب والرعدة في الأوصال وأسلم الكل سيقانهم للريح.

عبر مدخل المخفر سار الجمل بهودجه، تحف به النساء الخمس، وفي ساحة المخفر أمر "الأجضان" الصبي اليافع بإناخة الجمل.. صدع الصبي بالأمر.

-إ..خ..إخ.. هتف الصبي بالجمل، شاداً رسنه إلى الأسفل، صائحاً به المرة ثلو المرة، أخيراً استجاب. طوى أماميته فمال الهودج إلى الأمام، مهدداً من فيه بالسقوط، لكن ما إن طوى خلفيته حتى اعتدل الهودج وقد صار بطن الجمل على الأرض.

اقترب "الأجضان" من الهودج متهلل الوجه منفرج الأسارير.. جنده من حوله، يتفحص كل منهم فريسته بين النساء المتوجسات الخائفات.. أزاح "الأجضان" الستارة من الجانب الأيمن وهو يكاد يطير فرحاً...

لكن رشة من رصاص تفاجئه فيطير موتاً. "مون ديو!! مون ديو!!" صاح وهو ينقذف إلى الأعلى، فيما كان يندفع من جانبي الهودج، كليهما، شبان ملثمان لم يرهما أحد ولم يعرف بهما أحد وكانت البندقيتان في أيديهما قد تحولتا إلى فوهتي جحيم سرعان ما أحالتا هشيم "الأجضان" وجنده إلى نار متأججة اللهب...

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

- القضاء على مخفر بكامل عناصره..
- مصرع "أجضان" وخمسة جنود..
- حركة مقاومة سرية..

راحت أسلاك البرق والهاتف تتناقل الأخبار بين مخافر حوران، ثم بين درعا ودمشق، فدمشق والمدن الأخرى. لم يكن الفرنسيون قد نسوا ثورة الخامس والعشرين، ولم يكونوا يجهلون أنهم في حالة حرب.. فهل يستغلها الوطنيون ليشعلوا الثورة من جديد؟

ضجيج وعجيج في المخافر، جلبية واضطراب في التكنات.. الجند، الضباط، القومندان رينو نفسه يكاد يجن.. من الياودة تخرج خطة كهذه..؟! تنفذ عملية بهذه الخطورة؟ وطوال شهر وبعض الشهر، ظلت السياط تنهال على ظهور رجال الياودة والعصي تتحطم على أقدامهم:

- من فعل هذا؟
  - كيف تسلل المقاتلان؟
  - من سهل لهما الأمر؟
  - أين اختفيا؟
- أسئلة كثيرة كادت تنهال على أهل الياودة انهيال السياط على الظهور والعصي على الأرجل، لكن لم يكن هناك من يستطيع أن يجيب. أبو العروس عجوز متداع، من أول فلقة كاد يلفظ أنفاسه. الرجال الآخرون كلهم أنكروا:
- لا علاقة لنا..

- لا نعرف شيئاً..
- نحن أنفسنا فوجئنا.
- لا بد أنه البطحيش، قال أحدهم وقد اهترأ جلده تحت السياط والعصي، فاشتعلت عينا المحقق غضباً.
- أوتعرفين البطحيش؟ سأل العروس عابساً.
- كلا، ردت العروس بلسان كالتين...
- لكن الرجلين تسللا إلى هودجك.. ركبا معك، لماذا لم تصرخي؟ ولم تستطع أن تقول له إنها هي نفسها لم تتركب الهودج وتابعت اللعبة:
- كانت خائفة..
- صفيهما لنا..
- لم أنظر إليهما..
- كاذبة، صرخ بها وهو ينهال عليها صفعاً وركلاً.. لكن دون أن تتد منها آهة أو تخرج صرخة..
- حاكم درعا يكاد يجن.. حائط من الصلب كان قد اصطدم به.. لا ثغرة فيه ولا منفذ فكيف يفك لغز ذلك الحادث؟ هو يعلم أن "الأجضان" زادها كثيراً.. التعليمات إليه "أذلوا الناس، مرغوا كرامتهم بالوحد.. لكن لا تقربوا العرض.. العرض وحده يجعل هؤلاء الناس يثورون ويغضبون.. لكنه أبى إلا أن يزيداها. صار الاعتداء على أعراض الناس ديدنه، الولوغ في شرف النساء ألهيته المحببة.. فماذا كانت النتيجة أيها الأجضان؟". النتيجة منطقية، الحاكم يعرف ذلك. لكن هل يستطيع الاعتراف به؟ "الأجضان" طغى وبغى، جار وتجبر.. صحيح، لكن الصحيح أيضاً أن على الناس أن يتحملوا.. وإن لم يعد باستطاعتهم التحمل فليشكوا.. ثمة سلطات عليا يمكنها أن تحاسب.. لكن أن يقتلوا؟ لا.. لا.. كان الحاكم وضباطه يرددون فيما بينهم، والحقه مرجل يغلي في صدورهم..
- لم يكن أحد من أهل الياودة، رجالاً أو نساءً، قد رأى الرجلين الشبحين.. رغم الضرب، التعذيب، التتكيل، السجن، لم يكن أحد منهم قد اعترف.. "رؤوسهم يابسة" قال الحاكم، "يموتون ولا يعترفون".
- العروس، رغم الركل، العفس، الصفع، الرفس، ظلت على أقوالها الأولى "لم أنظر إليهما" .. كنت خائفة" "كان الظلام حالكا" وهي أيضاً تموت ولا تعترف...

وحين نزلا من الهودج يطلقان الرصاص؟ سألها المحقق فأجابت بأريحية  
"كان أحدهما ربة والآخر طويلاً"

-الربة هو البطحيش.. ذلك مؤكد، توصل أخيراً الحاكم إلى الاستنتاج هو  
الذي كان يعرف صفات البطحيش وتاريخه..

تاريخ البطحيش حافل.. منذ اليوم الأول لوصوله، سمع الحاكم بذلك التاريخ  
ثم عاشه يوماً بيوماً "البطحيش ضرب، البطحيش اقتحم، البطحيش فجر...". ولم  
يكن أحد يرى ذلك البطحيش، هو يضرب ويهرب.. أبو زيد يلبس قبة إخفاء،  
فماذا يفعل الحاكم؟ مرات كثيرة أرسل دوريات وراءه، شدد الضغط عليه، حاصره،  
طوقه، لكنه في كل مرة كان يفلت، أحدهم فسر له ذلك "البطحيش سمكة في  
بحر، فهل تستطيع الإمساك بسمكة في بحر؟".

لكن الحاكم لم يقتنع، فسأل "معقول؟ كل من حوله بحر له، حتى يكون هو  
سمكة؟" "بالتأكيد. كل من حوله معجبون به، يتمنون لو كانوا مثله، يقاتلونكم كما  
يقاتلكم هو لكنهم لا يستطيعون... لسبب أو لآخر لا يستطيعون.. هو يستطيع،  
كيف لا يتحول إلى بطل يحبونه جميعاً؟ كيف لا يصير رمزاً يضحون بأنفسهم  
حفاظاً عليه؟" منذ نذ عرف الحاكم أن معركته مع البطحيش معركة صعبة طويلة  
الأمد، هي معركة مع شعب وليست معركة مع فرد.. وها هو ذا حدسه يصدق:

يصقئ مخفر بكامله.. يصبح للبطحيش أعوان.. الأمر خطر إذن.. والحدث  
جلل.. الحدث الجلل بلغ مسامع المفوض السامي فارتد من شفتيه تقيعاً:

- ما هذا التسيب؟ نحن في أقصى درجات الطوارئ، فأين الحذر والحيطة؟.
- هو رجل فرد يقوم من حين إلى حين بمثل هذه العمليات.. رد الحاكم وهو  
يرتعث خوفاً من ثورة المفوض السامي.
- رجل فرد.. ولا يستطيعون الإمساك به؟. أين استخباراتكم إذن؟ أين  
جواسيسكم؟

- نحن نفعل المستحيل يا سيدي.. لكن..
- لا نقل لكن.. أمسكوا بهذا الرجل.. حياً أو ميتاً أريده، بأي شكل أريده..  
لاحقوه.. شددوا الحصار عليه. وجودك كله مرهون بالإمساك به... أسمع؟  
وجودك كله مرهون به.. وازداد الحاكم ارتعاداً وخوفاً..

جمع رجاله كلهم.. نقل لهم أوامر المفوض السامي.. وبدأت الدوريات  
تطوف القرى، تراقب الطرق، تجوب شوارع درعا ونصب عينيها هدف واحد:

الإمساك بالبطحيش، حياً أو ميتاً...

البطحيش على علم بذلك.. هو مذ قام بعمليته في الياودة، لم يدخل المدينة.. ودع صاحبه إلى دمشق ثم مضى إلى كهفه في منحدر الشلالات يراقب.. هو حزين على ما يجري لأهل الياودة.. يود لو ينتقم لهم جميعاً.. لكن هو رجل فرد.. منذ سنين وهو يحاول إشعال الفتيل في الجماعة.. عملياته كلها كانت بغرض إشعال الفتيل لكن بالأسف!!.. كان ينفخ في رماد... شهراً وبعض الشهر استمرت محنة الياودة، بعدئذ بدأ الهدوء يخيم.. الدوريات صارت أقل عدداً، أقل كثافة فخيّل للبطحيش أن الشدة انتهت.. وأن باستطاعته أن يعود إلى عش النسر هناك... في قلب الكرك.. عكس الشمس سار... ومع انسلال أزقة درعا إلى جوف الظلمة، كان هو ينسل.. الأولى في غفلة من الضياء، وهو في غفلة من الفرنساوي...

البطحيش يعلم أن العدو يحاذر مقاربة الكرك تحت جناح الظلام.. لكنه لا يعلم أن لكل قاعدة استثناء وإن الكرك منذ عملية الياودة، تعيش ذلك الاستثناء.. كانت درعا قد أنيرت بالكهرباء، وكانت المصفحات تحرس مداخل الكرك ومخارجها، مرسله رجالها في هذا الزقاق أو ذاك وهي على أهبة الاستعداد للتدخل في الحال، لكن البطحيش لم يأت الكرك من الشوارع التي تتسع للمصفحات، بل جاءها عبر درب مترب، شائك يصلها بالبرية ولا يعرفه الفرنسيون..

دخل الزقاق الذي لما تتره الكهرباء بعد. الناس كلهم في بيوتهم يتناولون عشاءهم ويستريحون بعد عناء يوم طويل. هو مشتاق إليهم، بوده لو يطرق أبوابهم باباً باباً، يصافحهم، واحداً واحداً، لكنه يتردد "أراهم غداً أما الليلة فإلى عش النسر." لكن ما إن اجتاز المنعطف حتى ظهرت وسط الزقاق دورية مشرعة الحراب تملأ الطريق كله. تلكاً لحظة فجاءت صرخة "قف... أنت هناك... قف... البطحيش".

ودونما حوار أو تردد وجد البطحيش نفسه ينكفي من حيث جاء. أول باب دفعه لم يندفع، الثاني صرّ صريراً مخيفاً لكنه لم يفتح.. نظر إلى الأعلى ثم انطلق كالسهم: الشباك، أطراف خشب السقف، فأعلى السطح.. أحذية العسكر تملأ الزقاق جلبة وضوضاء، أصوات العسكر تقترب صارخة: "توقف.. أنت.. توقف.. لكن البطحيش لم يتوقف.. زحف على السطح ثم تدلى بنفسه واثباً إلى الأرض.. نظر يمنة ويسرة فرأى ضوءاً من خصاص الباب..

أسرع إليه، فتحه فوجد نفسه أمام امرأة تدلق على نفسها الماء.. شهقت خائفة، فهمس وهو يشيح بنظره

- لا تخافي أختاه!! أنا البطحيش والعسكر في إثري.

في التو، قفزت المرأة، ألفت عباءة على جسدها.. ثم أسرعت إليه، أمسكت بيده ثم سحبته إلى الخلف، حيث عنابر المؤونة تنتصب اثنين اثنين.. "اختبئ هنا"، همست على عجل وقد جاءها قرع الباب عجولاً ملحاً.. رفع البطحيش الغطاء، ثم ألقى بنفسه في عنبر ذهب حنطته إلى الطاحون من قبل.. قرع الباب يشتد، لكن المرأة لا تسمع. خلعت العباءة ثم عادت إلى كرسيها الخشبي الواطئ وإلى الليفة والصابون تفرك جسدها، كأنما ليس هناك بطحيش ولا قرع باب..

قرع الباب توقف، رفس بالأرجل حل محله ثم انخلاع باب ارتد بشدة إلى الحائط فتناثر في الجو صوت ارتطام.. بعدئذ انداحت جلبة الأحذية واضطربت أمواج صياح وصراخ.. المرأة صماء خرساء.. تمد يدها إلى الطاسة تملأها بالماء الساخن وتدلقها على الجسد المشدود حتى النهاية.

تقترب الجلبة، تقترب الأصوات.. تزيد المرأة من دلق الماء، ويزيد البخار من ضباب الغرفة.. مرة ثانية يفتح الباب ومرة ثانية تشهق المرأة لكن هذه المرة بولولة ثابتة.

-ويلاه!! ويلي!!

تصدم الولولة آذان الجند.. يصدم عري المرأة عيونهم.. فيما تصدم خياشيمهم رائحة الصابون والبيلون، فلا يشعر "السرجان" إلا وهو ينكص مرتدداً مغلقاً وراءه الباب. لكن هل ينكص عن الكرك؟ ليلة ليلاء عاشتها الكرك.. لم يدع السرجان فيها باباً إلا طرقة، ولا داراً إلى فتشها، بحثاً عن البطحيش، أبي زيد الهلالي وقد لبس مرة أخرى قبعة الإخفاء.

الحاكم سمع تقرير "السرجان" فأرغى وأزید:

-يفلت من أيديكم؟! يختفي بلمحة عين؟ لا.. لا عذر لكم.. سأعلق مشانقكم إن لم تأتوا بهذا الشيطان!! سأعدمكم رمياً بالرصاص إن أفلت مرة ثانية.. شددوا الضغط.. تابعوا التفتيش.. سيروا الدوريات..

لكن رينو تدخل، وقد أرسله المفوض السامي لاجتثاث شأفة البطحيش...

-لا.. هذا أسلوب بالي.. جريتموه فلم يجد نفعاً.. غيروه.. قال القومندان الذي كانت قصة المخفر قد أثارت كل ما في صدره من حقد على أناس ينكرون

الجميل ويعضون اليد التي تمتد إليهم بالخير والنفع..

-كيف غيره، سيدي؟ سأل الحاكم العسكري، ورتبته لا تتجاوز رتبة الكابيتان، ماذا تقصد؟

-أقصد.. الحيلة.. نستخدم معه الحيلة فنوقعه في الشراك..

وهش الكابيتان للفكرة حاكاً رأسه.

-صحيح أكبر منك بيوم أفهم بسنة، قال للقومندان الممثلئ معرفة بشتى أساليب التعامل مع أبناء المستعمرات: حرب، حيلة، مجابهة، مناورة، لكن كيف؟ أية حيلة؟ ومال عليه القومندان هامساً:

-رجل نثق به.. نرسله إليه، فيكون لنا حصان طروادة..

-هو ذاك يا سيدي.. هو ذاك، قال الكابيتان فرحاً وهو يسرع إلى الهاتف يسأل ضابط الأمن عن رجل يثق به...

بعد يومين فقط كان مدير السجن في درعا يستقبل محمد التيناوي، بعد أن جرده زملاؤه من رتبة "الكاربورال" ومن لباسه العسكري نفسه، ليسوقوه إلى السجن بأيديهم.

-ما تهمته؟ سألهم مدير السجن.

-خائن، غدار.. يسرب المعلومات إلى العصابات ويتعاون معهم لضربنا. هو الذي شارك في عملية المخفر.. وانهاالت على محمد التيناوي الركلات والصفعات إلى أن ألقى أرضاً، ثم جره الحرس مبللاً بالماء، مضرجاً بالدماء إلى أول مهجع.

ثلاثين يوماً ظل.. وهو يفطر فلقة ويتعشى فلقة.. صراخه عند الإفطار والعشاء يملأ السجن.. يضرب بالعصي، يساط بالسياط، تدق قدماه، يدق ظهره ثم يعاد إلى المهجع، يحمله الحرس حملاً وقد عجزت رجلاه عن حمله.

السجناء حزاني عليه، متعاطفون معه.. يداوون قدميه، يضمون جراحه، يقدمون له الدواء والغذاء، فالرجل وطني مخلص والفرنساوي غاضب عليه: طرد من الوظيفة وحبس في القمقم...

-نخير أهلك في الشام؟ سأله زملاؤه في المهجع.

-لا.. لا تعذبوا أنفسكم.. أنا مقطوع من شجرة، ليس لي أحد.. وازداد زملاء المهجع شفقة على التيناوي وتعاطفاً معه.. باتوا يحلفون أغلظ الأيمان أنه أكثر

الناس وطنية وأشدهم عداً للمستعمر .

-أنا لا أعرف البطحيش.. لم أشاركه عملياته.. لا علاقة لي به.. كان لا يفتأ يصرخ في وجوه المحققين حتى أعلن المحققون عن عجزهم.  
أربعة أشهر نفع في السجن.. بعدئذ عقدت محاكمته.. القاضي الفرنسي عادل... بحث عن اعتراف.. دليل.. لكن ما من اعتراف أو دليل.. وأخلى القاضي العادل سبيله...

خرج التيناوي إلى النور فاستقبله الناس بالأحضان، بطلاً يقارع الاستعمار من داخل ويتحمل سياطه من خارج. دون أن يحصل منه على اعتراف.. المضافات تستقبله، الناس يأخذونه بالأحضان، الكل يلهبون بقصته، يحكون عن بطولاته.

-معقول؟ تساءل عزيز مستغرباً وقد نقل له عواد أخبار التيناوي. شرطي رضع حليب فرنسا، يخون فرنسا؟

-قصته في درعا على كل شفة ولسان.. مسكين كم قاسى على أيديهم من عذاب!! أنا بنفسى رأيتته.

-أين؟

-في مكتبة الشرع.

عزيز يعرف مكتبة الشرع.. المكتبة الوحيدة اليتيمة في درعا...

صاحبها يحب الثقافة، يهتم بالمعرفة إلى حد كرس نفسه لنشر المعرفة والثقافة بأسرع وقت وشتى السبل.

تلاميذ المدارس، طلاب الكتاتيب، كل من يحب أن يقرأ، يذهب إليه يستعير الكتاب لقاء قرش إن كان يملك قرشاً ولا شيء إن لم يكن يملك شيئاً.. المجلة، الجريدة، الكراس، الكتاب، كل ما يرغب فيه طالب المعرفة، يجده لدى فائق الشرع. يستعيره هو الذي لا يرد مستعيراً، يقرأ، يعيد وإن أراد ألا يعيد، فليبق لديه الكتاب أو المجلة، وليدفع له الثمن بالتقسيط المريح: نصف فرنك، فرنك، ربع ليرة، ما شاء طالب العلم فليدفع. ابن الشرع رحب الصدر يحتوي في أحضان عطفه كل من يرغب في علم.

عواد نفسه كان يأتي إلى درعا، يشتري منه الكتب بالتقسيط المريح ويتحدثان معاً في السياسة، الأدب، التاريخ، الفكر... فائق الشرع متقف كبير يتابع كل شاردة وواردة، يقرأ حتى قصاصات الجرائد، يهتم بأخبار الشهبندر، بنشاطات

الأستاذ الذي جاء لاجئاً من اللواء ولا يبرح يتكلم في وحدة العرب، حرية العرب واستقلال العرب..

فائق يعلم أن لعود صلة بالأستاذ والزعيم، فيهش كلما جاءه عواد ويبش، ولا يتركه حتى يأخذ منه أخبارهما وأخبار دمشق.. لكنه آخر مرة كان مشغولاً بالتيناوي.. لم يسأل عواداً بل أجابه. لم يسمع منه قصصاً بل روى له قصصاً، وخرج عواد معجباً حتى اتساع الحدقتين بالرجل الذي لطأ طويلاً تحت إبط الاستعمار وهو ينخس بمنخسه الاستعمار..

-قلت، تهمته التعاون مع البطحيش؟ سأل عزيز وقد أثارتة قصة الرجل..

-بل ومشاركته في عملية المخفر؟ لكنهم لم يجدوا دليلاً فخرج براءة..

-وهل أعيد إلى السلك؟

-لا.. الرجل صار موضع شك.. تعرض للتعذيب والإهانة، فكيف يتقون به

من جديد؟ بدا كلام عواد مقنعاً، مع ذلك ظل عزيز مشغول البال..

-وهل يعرفه البطحيش؟ هل بينهما من علاقة؟ سأله عزيز وكله حيرة

وانشغال بال.

-من يدري يا عم؟ لو كنت أعرف البطحيش لسألته.

عواد على حق.. لابد من سؤال البطحيش نفسه.. لابد من معرفته أولاً، كي

يطرح عليه السؤال.. عزيز يعرفه لكن هل يعرف عواد أنه يعرفه؟ طوال تلك

السنين، كانت علاقتهما قد ظلت سرية، لا يعرف بها أحد، فهل يشهرها الآن؟ هل

يعترف لعود أن البطحيش صاحبه وان باستطاعته أن يسأله ذلك السؤال.. لكن

لا.. كل سر تعدى اثنين شاع..

القومندان يدفع جرة ذهب لقاء معرفته ذلك السر. هو، مذ سمع بحادث

المخفر، لم يكن يشغله البطحيش والإمساك به، بقدر ما كان يشغله معرفة ذلك

الرجل الطويل الذي اشترك معه. التحقيقات، الاستقصاءات، التحريات كلها وقفت

عاجزة أمام ذلك اللغز...

البطحيش، عادة، يقوم بعملياته مفرداً وحيداً.. مرة واحدة فقط ذكرت دورية

المزيريب أنها اشتبكت مع رجلين. ما عدا ذلك، البطحيش حريص على الانفراد

والتفرد، فمن عساه ذلك الوافد الجديد الذي انضم إلى البطحيش؟

أسماء كثيرة طرحها ضباط الأمن على الحاكم وعلى القومندان، ورجال كثير

جاؤوا بهم، لقطع الشك باليقين.. هذا من نوى، ذاك من داعل، ثالث من درعا،

رابع من اذرع... .

لكن ما خطر ببال ضابط الأمن ولا حاكم درعا أن يمتد بتحقيقاته إلى دمشق، القومندان نفسه لم يخطر بباله ذلك.. وظل السر مغلقاً ما يرح يشغل باله. أسرار كثيرة، ألغاز أخرى تشغل بال القومندان ربما أخطرها لغز جبرار.. صديقه الذي قتل دون أن يعرف قاتله. صحيح أنها بلد صغير، سورية، لكنها ما تزال تدهشه.. بكل ما تتفتق عنه من مشاكل وقضايا.. لكأن رجالها صنعوا من فولاذ.. بالسيوف والخناجر حاربوا إحدى أقوى قوتين في العالم.. أشعلوا الثورات عليها هنا وهناك.. القومندان يعرفها واحدة واحدة... أيام الثورات عاشها.. عرف سلطان الأطرش، أحمد مريود، سعيد العاص، فوزي القاوقجي.. بل كثيراً ما كان يرسله المفوض السامي لمفاوضة هذا أو اللقاء مع ذلك، كان رصيده لدى أهل البلد قد جعل منه وجهاً مقبولاً للتفاوض وكان، بحكم ثقافته واطلاعه، قادراً أن يعرف أيسر السبل للتفاوض. زملاؤه الضباط كانوا يأخذون عليه مأخذ كثيرة: التهاون، الضعف، التخاذل، وكانوا كثيراً ما يوجهون له اصبع الاتهام.. هو يذكر حتى اليوم تقرير الكابيتان جبرار له حين سمح لأهل السويداء بالقيام بمظاهرات على كاريبيه.. جبرار ليس زميلاً وحسب بل هو صديقه وابن دورته. "أنت متخاذل، لا تتفصك إلا درجة واحدة حتى تحارب مع أعداءنا ضدنا،" قال له حانقاً موبخاً.. حاول أن يناقشه يومذاك لكن جبرار لم يستمع إليه. "خرس.. اخرس.. أنا لست بحاجة لهرائك".

وخرس الكابيتان رينو الذي كان يعلم تماماً كم جبرار متعصب لقوميته، مؤمن بتفوق عرقه، ينظر إلى كل ما عداه من عل.

قبل ثورة حماة بثلاثة أيام، كان رينو بزيارته.. المندوب السامي أرسله يستكشف ويستطلع، فالمعلومات تشير إلى أن هناك تمللاً وتحركاً.

التقى رينو بجبرار، كوستلير، ضباط القيادة.. كانوا كلهم يؤكدون أن شيئاً ما سيحدث، لكن جبرار كان أكثرهم تصميمياً على تدمير المدينة على رؤوس أهلها إن حدث ذلك الشيء. كان يبرم شفته استخفافاً، يهز رأسه احتقاراً، يضرب بجمع كفه الطاولة، وهو يتحدث، مهدداً متوعداً "الشكوك كلها تدور حول فوزي القاوقجي" قال يومذاك، "لم لا نقصر الشر وننقله. إذن؟" سأله الكابيتان رينو

"لا.. لا.. يجب أن نكشف الخونة فنسحقهم، نجعل منهم عبرة لكل معتبر"، وفتح رينو عينيه عجباً من رغبة صديقه في الشر وحبه للأذى. بعدئذ عاد رينو وكله قناعة أن عليهم أن يعالجوا المشكلة قبل أن تستفحل. اقترح على رئيسه نقل

الكابيتان القاوقجي، لكن حين صدر قرار النقل، كانت الثورة قد اشتعلت، حماة هاجت وماجت، يلفها إعصار كاد أن يدمر كل شيء. هدأت العاصفة فنقلت أسلاك البرق فيما نقلت مقتل الكابيتان جيرار.. حاول رينو معرفة التفاصيل لكن لم يكن هناك تفاصيل.. "وجد في منزله عارياً وخنجر في صدره".

يومذاك لم يكن باستطاعة رينو أن يذهب إلى حماه فيتحقق بنفسه.. كانت سورية قد اشتعلت ثورة وحروباً من جنوبها إلى شمالها، وكان سلطان الأطرش يهدد بدخول دمشق، وكانت الغوطة غابة تتأجج حرائق، فأين يذهب الكابيتان رينو؟.

بعد شهور طوال، استطاع رينو أن يفتح ملف جيرار من جديد.. لكن دون جدوى...

كان كل شيء قد تغير: ضباط انتقلوا، جند استبدلوا، معالم ضاعت، آثار طمست ولم يخرج رينو إلا بنتف من معلومات: "حاجب جيرار الخاص اختفى بعد الثورة فلم يقع له أحد على أثر".

"عند وقوع الحادث لم يكن في البيت حراس ولا جند".. جيرار كان يقول "ولماذا الحراس والجند؟! أنا لا أخشى الحملان والأغنام". وصدق رينو، نتف المعلومات تلك فقد كان جيرار يردد ذلك على كل مسمع، استهتاراً بالناس والسكان.. سائق جيرار وحده قدم له المعلومة الوحيدة التي تلفت النظر، "قبل الأحداث مباشرة أوصلت إلى بيته امرأة سافرة الوجه".. "صفها لي"، طلب الكابيتان رينو فوصفها السائق "في العشرينات من عمرها، بيضاء البشرة، فاحمة الشعر، ممشوقة القوام"، لم يكن السائق يعرف لها اسماً أو عنواناً، ولم يكن يدري إن كانت النساء اللواتي كان جيرار يأخذهن إلى البيت يلهو بهن ويستمتع أم لا. السائق لم يكن يسأل رغم التقاليد المحافظة، "رغم حصار المرأة، رغم الحجاب والملاءة، كان الكابيتان يجد المرأة دائماً" قال السائق للقومندان، وكان كثيراً ما يتفاخر بصولاته وجولاته. "علينا أن نترك بصماتنا واضحة حيث نذهب.. وخير البصمات ما كان على فروج النساء." السائق يشك في أن ذلك كان سبب مقتله. "الناس استغلوا الثورة، فانتقموا ثأراً لكرامتهم". وكان كوستلير نفسه قد أبدى مثل ذلك الرأي "للكابيتان جيرار أعداء أكثر: أناس سطا على نسائهم، رجال مرغهم في الوحل، نساء اغتصبهن، فمن يعلم من انتقم منه؟" وطوي ملف جيرار.. نسيه حتى صديقه رينو... لكن ما إن اندلعت المظاهرة النسائية في دمشق وجيء له بإحدى النساء البارزات في قيادتها حتى استيقظت ذاكرته من جديد.. عادت إلى

ذهنه صورة تلك المرأة السافرة ببيضاء الوجه، فاحمة الشعر، ممشوقة القوام ومع الصورة برز السؤال "هل لهذه المرأة علاقة بتلك؟" من ذلك السؤال تفرعت أسئلة أخرى وكلها تؤكد أن رغبته في كشف لغز جيرار لم تمت بعد.

سألها يومذاك، حقق معها وفكرة واحدة تطغى على ذهنه "يجب أن أعرف هذه المرأة أكثر. ينبغي أن أظل على صلة معها باستمرار". أوصى بها الحارس، رعاها من طرف خفي ثم ما إن جاء الضوء الأخضر من المفوض السامي، حتى كانت شمس أولى الخارجات إلى الحرية.

كل ما فعله رينو بعد ذلك كان بهدف محدد: أن يكسب ود عزو وثقة شمس، فيدخل إلى قلب العائلة. هو يرى الزوج والزوجة حذرين، يريدان إبقاء هوامش ومسافات فيتعجب: "أترأه كره الأجنبي؟ أهو الخوف من ذوي السلطة؟ أم هناك سر ما يريدان إخفاءه؟" لكن سرعان ما ازداد تعجباً حين اكتشف، أن عزو ليس بدوي الأصل بل حضري.. أهله من سكان الريف لا من سكان البادية، يعملون في الزراعة لا في الرعي.. بعد إذ قام باستقصاءات وتحريات وتكشفت أسرار أخرى له.. طبقة أسرار بعد أخرى بدأت تتكشف.. إلى أن حكى له الأخضر في باريس عن طفولته في حماة.. و"متى؟" "أيام الثورة". مخبر حماة جاءه أيضاً بمعلومات هامة لكنها غير كافية.. منذئذ صار شكه كبيراً. ثمّة علاقة بين هذه المرأة وتلك، قبل يوم واحد أخذها السائق إلى منزل جيرار.. لكن ماذا جرى بعد ذلك؟ هل نامت لديه؟ هل غادرت؟ هل كانت خليلته؟ هل كانت عابرة؟ "كلها أسئلة صارت تتقاذف في ذهنه، فتلك المرأة التي لم يرها أحد بعد ذاك هي وحدها مفتاح اللغز....

الضباب ينقشع، شيئاً فشيئاً كان ينقشع. خطة محكمة وضعها رينو لتشديد الحصار وإحكام الطوق.. الخطة بدأت تؤتي أكلها.. التستر، التمويه، كل ما لجأت إليه المرأة ورجلها لإخفاء الماضي، إحاطته بالغموض، كان يتهاوى.. هو بنفسه ذهب إليهم في القرية، رأى، أهله، أهلها، كما رأى أصدقاءهما في حماة.. حسني، إبراهيم، الدكتور نورس، ومن أولئك وهؤلاء استطاع الحصول على كل ما يريد: خدمة عزيز في الجيش العربي، عمله في حماة، علاقاته، علاقات زوجته، ثم بلغ اللب: صداقتهما لجيرار...

-شمس، صارحيني الآن، بدأ القومندان رينو، وهو يشرب قهوة مضيقته، متعمداً مناداتها بذلك الاسم، متفحصاً إياها بناظره ربما كي يرصد كل ارتعاشة أو خفقة تمر على صفحة وجهها.. هل كنت تعرفين في حماة ضابطاً يدعى

جبرار؟.

"يا إلهي!! هذه هي الأنشطة تنشد أكثر وأكثر، الطوق يحكم أكثر وأكثر،  
فماذا أقول له؟ بماذا أجيبه؟" ويدا وجهها قناعاً أصفر وقد انسحب منه الدم...

- ر.. ر.. بما .. لا.. أدري.. ردت متلعثمة، مشيخة بوجهها..

-معقول؟ أصدقاؤكم في حماة أكدوا لي أنه كان يزوركم، تزورونه..

"اللعة!! أصدقاؤنا في حماة قالوا له كل شيء، فماذا تقولين يا شمس؟ ماذا  
تفعلين وقد انكشف كل ستر؟ "هه.. ماذا قلت شمس؟ تابع القومندان الذي بدا  
فرحاً بنفسه وهو يرى الطريدة تتخبط واقعة في الشراك.

-قلت.. ربما.. لا.. أدري.. لا.. أذكر.. ردت بتلعثها واضطرابها نفسيهما  
وهي ترى حبل المشنقة يتراقص أمام عينيها، "لا.. تماسكي... شمس" خاطبت  
نفسها بعد ذلك، وهي تراه فرحاً مزهواً يتفحصها بناظري الصياد وقد اطمأن على  
وقوع طريدته. "لا تستسلمي شمس.. دافعي عن نفسك.. أنكري كل شيء..  
هاجميه... الهجوم خير وسيلة للدفاع". وفي الحال، انشدت أوتار في داخلها  
وتوترت أعصاب.. لكن لماذا تسأل عن..؟. ماذا قلت اسمه؟

- جبرار.. كابيتان.. كان صديقي وقد قتل في ظروف غامضة.. ما تزال

لغزاً

- والآن، تريد أن تعرف تلك الظروف؟ تحل ذلك اللغز؟

- لم لا، أنا المولع بحل الألغاز وكشف الأسرار؟

- ألا ترى أنه فات الأوان؟! ألا ترى أنها قضية قديمة؟

- لا.. قضايانا لا تعرف القدم.. إنها روح ضابط.. سيد من سادة فرنسا  
والسادة حقهم لا يموت..

"هكذا إذن؟! السادة حقهم لا يموت.. إذن.. أنت آت اليوم تطالبني بحقك!!

تثأر لرجل من بني جلدتك أراد هتك عرضي، تمرغ شرفي؟"

هه.. شمس.. ما بك.. تكلمي!!

- وماذا تريدني أن أقول؟ ردت وقد شحذت عزمتهما ذكرى جبرار تراه بعينها

يخلع قميصه، يلقي ببنتاله ليبدو عريه مخرزاً يفتأ العين.

- فقط.. هل كنت تزورينه في بيته؟ سألها غارساً عينيه في عينها.

- خسى.. خسئت.. انتفضت شمس غاضبة، أم تحسبني واحدة من إياهن؟

- لا.. ما هذا قصدت.. قال متعثراً وهو يرى صورة اللبوءة في عينيها،  
فخشي أن يخسر كل شيء.

- إذن.. ماذا قصدت؟ أسئلة.. أسئلة.. أهو تحقيق؟ ماذا تريد مني يا رجل؟  
- أريد الحقيقة..

- الحقيقة ليست عندي.. لا علم لي بشيء.. دعني وشأني.. دعني  
وشأني.. قالت بصوت كالصراخ، وهي تهب ناهضة فاقدة آخر ذرة احتمال...

- سأدعك.. قال وهو ينهض بدوره، شاداً أعصابه، محاولاً التظاهر  
بالبرودة.. لكن لا تنسي.. أنا وراءك حتى أعرف الحقيقة.. ثم لوح بيده: هاي..  
سلمي لي على عزيز.. الشاويش الذي يتقن فن الحرب والقتال.. ومضى تمثلاً  
للصلف والغرور، دون أن يلتفت إلى الوراء..

تلك الليلة لم يرقد لشمس جفن.. الليلة التالية رقد لها جفن لكن لكي يتحول  
رقادها إلى كوابيس، هي فيها نعجة تاهت عن القطيع فانقضت عليها الذئاب..  
تروغ من هذا لتلتقي بذاك، تتلمص من ثالث فيواجهها رابع.. وتنتفض من نومها  
شاهقة صارخة.. عزيز مسافر. هي وحيدة، أكثر من مرة داهمها الكابوس، وأكثر  
من مرة هبت من فراشها صارخة عازمة على أن لا تنام. لقد تحول الأرق إلى  
نعمة والنوم إلى نقمة.. عزيز بدأ موسمه.. الشعير والحنطة يحصدان وهو ينتقل  
بين أصحابه من الفلاحين، "يعرين" على شعيرهم وحنطتهم، يزودهم بما يحتاجون  
للحصاد حتى إذا ما درسوا البيادر، كان هو الأولى بغلالها من المنافسين  
والمزاحمين.

- تعال.. أسرع.. أسرع، بادرت ما إن دخل الفناء، وعلى وجهه وعشاء السفر  
وغباره...

- ماذا هناك؟ رد وقد دخلا الغرفة، دون أن تحتضنه كعادتها ودون أن تقبله  
قبلة الترحاب..

- هو يعرف السر.. يعرف كل شيء.. قالت شبه لاهثة، شبه مغممة  
وكأنما لا تريد لحيطان الغرفة أن تسمع.

- أي سر؟ من هو الذي يعرفه؟ سأل وقد غاب عن ذهنه القومندان رينو  
بقضه وقضيضه.. حينذاك، وبهمس الخائف، حكمت له عن لقائها بالقومندان،  
راوية له أدق التفاصيل...

- نزع القناع عن وجهه، إذن؟ سأل وهو على يقين أن ساعة الحسم قد

أزفت..

- لم يكن ينقصه إلا أن يسوقني إلى السجن باتهام مباشر: أنت التي قتلت جيران!!

- جيران، تلك اللعنة التي تطاردنا منذ خمسة عشرة عاماً!! قال وهو يزفر الزفرة تلو الأخرى.. فيما شريط طويل من الذكريات يعبر أمام عينيه: شمس الملطخة اليدين والثياب بالدماء... حماة الحرائق والدمار، مركب الليل الذي امتطياه إلى حيث لا حرائق ولا دمار....

- عزيز.. لا تشرد.. يجب أن نفكر بسرعة.. يجب أن نتصرف بسرعة..

- نتصرف؟! وماذا نفعل!؟

- نهرب!! ألم نقرر ذلك من قبل؟.

- إلى أين؟ إلى القرية؟. يعرف قريتنا.. إلى القبيلة؟. سلاحفنا.. أم نسيت المصفحات والدبابات؟ السيارات والطائرات؟

لم تجب شمس، فهي تذكر جيداً المعركة التي شنها الفرنسيون على إحدى القبائل في قلب البادية، لا لشيء إلا لأنها عصت أوامر ليوتنان، فاشتعلت السماء فوقها ناراً، واشتعلت الأرض تحتها ناراً، الطائرات تدكها من فوق والمدفعية تدكها من تحت.. شمس تعلم أن فرنسا اليوم ليست كالعصملي أيام زمان.. يفلت منها البدو، ويخرج عليها الخارجون... ولا سلطان لها إلا حيث المدن والعمران.. فرنسا اليوم تملك الطائرات التي لا تعرف حدوداً.. تصول وتجول أنى شاءت، ميدانها السماء مثلما ساحات حربها الأرض.. بلمحة عين تنتقل من الشمال إلى الجنوب وبلمحة أخرى تصل من الشرق إلى الغرب.

- نذهب إلى الريحانة.. ردت وقد لمعت في ذهنها الفكرة..

- الريحانة!! هتف بصوت شبه عالٍ وكأنما كانت قد غابت عن ذهنه منذ زمن طويل..

- أجل، لطالما حدثتني عنها.. هناك في الجبال.. نتخفى.. نموه أنفسنا.. نضيع.. "إيه.. ريحانة!! غادرتك هارباً من "العصملي"، فهل أعود إليك هارباً من الفرنسيين؟" هه ماذا قلت؟ تابعت شمس بنيرة المتعجلة.

- لا.. لا.. في الريحانة، كما في كل مكان، عملاء وجواسيس.. سيكشفوننا..

- أنسلم القومندان أعناقنا إذن؟  
- من قال ذلك؟ فقط.. دعيني أراه..  
- لا.. خير لك ألا تراه.. فهو يغمز ويلمز منك، يعرف حقيقتك أيضاً.  
- يعرف حقيقتي؟ ماذا تقولين؟  
- هو الذي يقول، ردت ملوحة برأسها زافرة، ثم تابعت بصوت يحاكي  
صوته: "سلمي لي على الشاويش عزيز الذي يتقن فن الحرب والقتال." فماذا  
يقصد؟

وانسحب الدم من وجه عزيز بعد أن كان قد احتقن واحمر.  
- الشاويش عزيز؟! إذن هو يعرف كل شيء عنا، تلك الأيام؟  
- وربما عنا هذه الأيام..  
- ماذا؟ هتف وقد تسرب إلى صوته رعشة من خوف..

لم تجبه شمس، بل غرست عينيها في عينيه.. لم تكن قد كلمته يوماً عما  
تعرفه عن نشاطه في حوران، صحبته للطبْحيش، الفرح الذي تراه في عينيه وهو  
عائد من إحدى عملياته، الخوف والتوجس فيهما وهو ذاهب إلى إحداها.. لكنها  
كانت تعلم.. كيف لا وهي القادرة على دخول تلافيف دماغه؟ قراءة أفكاره؟ معرفة  
أحاسيسه ومشاعره؟ هو لم يرد أن يشركها في سره.. ليكون.. للرجال أيضاً  
أسرارهم.. ربما هي نفسها، لو ظلت الفارس الملتئم، لظلت لها أسرارها.. هو لا  
يريد البوح.. خوفاً عليها؟! ضنا بها وبأولادها؟! هي لا تدري.. لكنها تدري أنها  
ذات يوم رأت بقعتين أو ثلاثاً من الدم على سترته، في يوم آخر، رأت غباراً، في  
ثالث وسخاً وأشواكاً، فمن أين تراه، يأتي هذا كله؟ هو يزحف ولا شك. شمس،  
الفارس الملتئم، تعرف جيداً معنى الزحف، تعلم ما يترك من آثار.. كما تعلم من  
أين تأتي بقع الدم.. مرة أو مرتين ذكر لها البطحيش، حدثها عن بطولاته، أتره  
كان يشير إلى السر الإشارة التي يفهمها اللبيب؟ أتره كان يعترف لها ضمناً؟  
يبرئ ذمته تجاهها؟

دون كلام، دون إشارات، وعلى مهل، كانت شمس تجمع القرائن والأدلة إلى  
أن صارت على يقين أن روح عزيز الوثابة لم تعرف استكانة قط.. وحين انتشرت  
في كل مكان قصة المخفر والعروس.. باتت على ثقة مطلقة أن زوجها هو ثاني  
ذئبك الاثنين، الرجل الطويل عريض المنكبين الذي كان القومندان يحار في أمره  
ولا يزال.

- تكلمي.. شمس.. ما الذي تريدني قوله؟
- عزيز، لا تتجاهل.. أنا أعرف كل شيء وما أحسب القومندان إلا شاكاً بك.. شريكاً للبطحيش... ما أحسبه إلا ملاحقاً إياناً كلينا..
- إذن.. قال وهو يخفض رأسه، ربما بنوع من الاعتراف بالسر، بنوع من الامتنان للحبيبة التي حافظت له على ذلك السر، يجب أن يموت القومندان.
- وتزيد الطين بلة؟ قالت بعجالة وقد ارتسمت أمام عينيها معارك غير متكافئة ومطاردات بوليسية في مدينة كلها شرطة وجند..
- ما أحسب أماناً خياراً آخر.. هو منذ أربع سنين يلاحقنا، يضيق الخناق علينا.. وها هو ذا على وشك أن يدفع بالكرسي من تحت أرجلنا، فماذا فعل؟ نترك الأثشطة تكتم أنفاسنا أم نسبه فنكتم أنفاسه؟
- أمران أحلاهما مر، لكن، عزيز، علينا أن نتصرف بسرعة.. القومندان الآن يلعب على المكشوف.. وما أحسبه إلا ضارباً ضررته القاضية..
- ضررته القاضية!! أجل.. ضررته القاضية.. راح يردد وهو يهز رأسه، ملء عينيه الحزن وملء قسماته الحيرة.. ودون أن يشعر وجد نفسه يشردد.. "آه يا حبيبتى!! ما أشق علي أن أجدك وأجد نفسي في مثل هذا المأزق.. خياران كلاهما صعب.. كلاهما قاتل.. لكن لا.. لن نترك أنفسنا لأثشطة رينو تشنقنا.. يجب أن نتغدى به قبل أن يتعشى بنا.. يجب أن نقتله، فنخلص منه نحن والوطن."
- لا.. لا.. المعركة غير متكافئة.. قالت شمس، وقد قرأت أفكار رجلها "لكأن الحب، الألفة، طوال العشرة، كلها تلغي الحجب، تزيل الحواجز، فتتحول العيون إلى مرايا تعكس ما يدور في الداخل من أفكار، ويغدو بإمكان الذبذبات الكهربائية أن تنتقل بين الدماغين ناقلة للآخر كل ما يدور في الأول من أفكار.. دع رينو وشأنه.. لست قادراً وحدك على مواجهة فرنسا..
- الحمد لله!! هناك من هو قادر على مواجهتها!! تتمم عزيز وهو يرفع يديه وعينيه للسماء!! رياه!! دع هتلر يسحقها سحق الملح!!
- عزيز!! لا تقل هذا أمام أحد!! سيتهمونك بالنازية!!
- نازي!! فاشي!! أنا أتحالف مع الشيطان ضد هذا المستعمر البغيض!!
- وإن عرفوا بموقفك هذا.. ألا يقطعون رأسك؟

- لم أعد خائفاً منهم.. الأخبار هناك تسر.. قال عزيز وهو يشير إلى الشمال الغربي، كأنما يشير إلى ساحات القتال في أوروبا، حيث كان هجوم غادريان الصاعق قد أذهل العالم.. بأيام فقط كانت دباباته قد التفتت على خط ماجينو، مغافلة التحصينات الفرنسية كلها، مكتسحة الأراضي الواطنة كلها..  
مداحة شمالاً.. مداحة غرباً..

- عزيز!! ماذا تقصد؟ ما الأخبار التي تسر؟

- يقولون المدرعات الألمانية اخترقت هذا الصباح الحدود الفرنسية وهي في طريقها إلى باريس..

- باريس؟! يا إلهي!! هتفت شبه مولولة.. ماذا سيجري للأخضر؟

ذلك السؤال كان، مذ بدأ الاختراق، على كل شفة ولسان، لكن بصيغة أخرى. "ماذا سيجري لباريس؟ ماذا سيجري لفرنسا؟" فالسرعة والمفاجأة والمغامرة كلها كانت مقومات الاستراتيجية الألمانية الجديدة. لم يكن هتلر يريد الحرب على طريقة الحرب السابقة: حرب خنادق وتحصينات، بل حرب حركة ومدركات.. قبل شهر كانت قواته قد هاجمت الأراضي الواطنة وتنفس الفرنسيون الصعداء، فقد خفت وطأة الألمان على جبهة الشرق..!!" إذن، هم قانطون من إمكانية مواجهتنا أو اختراق تحصيناتنا، "قال الجنرالات الفرنسيون، بعضهم لبعضهم الآخر ضاحكين مقهقهين، وبدا لهم أن بإمكانهم أن يأخذوا إجازات، أن يذهبوا إلى باريس يتمتعون بحسنائواتها، ويتخففون قليلاً من أعباء الحرب وويلاتها. لكن ما إن انقضت مدرعات غادريان على حدود الشمال حتى فغروا أفواههم "تنتظرهم من الجنوب والشرق فيأتون من الشمال والغرب"، في الشمال، الحدود مفتوحة، فرنسا لا تخشى بلجيكا، هولندا، أو اللكسمبورغ، كلها دول صديقة، لا خوف منها ولا خطر، فلماذا تحفر الخنادق؟ لماذا تريض الجند والمدافع؟ وهكذا لم تجد الدبابات الألمانية أمامها مقاومة تذكر، فاندفعت تنهب الطريق نهباً ولم يحل الظلام حتى كانت قد قطعت نصف الشوط إلى باريس، ثم لم يطلع الفجر حتى عادت تهدر.. مع هديرها يهدر الذعر، ومع قنابلها يتفجر الخوف: الجند يفرون، الناس يهربون.. وهي تجري مسرعة، نصب عينيها: باريس..

حكومة باريس في ذهول مطبق.. جيوشها على خط ماجينو.. كرامة جرارة... أحدث المدافع هناك.. أحدث الدبابات.. المصفحات.. الطيارات.. لكن ما الجدوى؟ دبابات هتلر أقرب بكثير إلى باريس، وأسرع بكثير منها. طيارات هتلر لا تنفك من الصباح حتى المساء تشعل التحصينات الشرقية ناراً، فلا يستطيع

جندي رفع رأسه، ولا تستطيع آلية حركة... طائراته في الشمال أيضاً وفوق باريس، تهدر، تقصف، تثب الذعر في القلوب..

"باريس ساقطة" "هجرُوا باريس"، "انجوا بجلودكم"، صار الكل يقولون، همساً وجهاً... الالتفاف الألماني مفاجئ، هجوم غادريان صاعق.. وبدأت باريس تفرغ ما في جوفها.. سيارات، شاحنات، قطارات كلها محملة حتى الحافيتين وكلها مسرعة باتجاه الجنوب.. الذعر في عيون الناس، الارتجاف في أوصالهم.. النازيون قادمون.. سيحرقون الأخضر واليابس، وحده الأخضر لم يكن يخاف من النازيين.. ليس في عينيه ذعر ولا في أوصاله ارتجاف "ومالي أنا؟ أجنبي يدرس هنا لا أكثر ولا أقل." لكن جانبيت لم توافقه.

- أجننت؟ النازيون سوفاج.. متوحشون!! لا تعرف قلوبهم الرحمة ولا يميزون بين وطني وأجنبي..

- يقتلون الناس كلهم؟

- وما الذي يمنعهم؟ هم حاقدون.. يريدون الانتقام لهزائمهم في الماضي.. الانتقام من العالم كله.. ألا ترى ما يفعل هتلر؟ يضرب في الشرق، يضرب في الغرب، في الشمال، في الجنوب.. هو مجنون مسلح بأحدث الأسلحة، وما الذي لا يفعله مجنون يمتلك أحدث الأسلحة؟ الحجة قوية، جعلت برودة الأخضر تسخن، وأفكاره تذهب وتجيء.

- أرحل إذن إلى سورية!! قال وهو يستعيد في ذهنه برقية أمه وأبيه، يحذرانه من الحرب قبل أقل من عام.

- ترحل، ودراستك؟ الطب الذي قطعت شوطاً فيه؟ اللحم الذي حلمت به سنين وسنين؟

- وهل سيظل مجال لدراسة أو طب.. إن كان النازيون كما تقولين؟

- وهل تحسبهم سيهنؤون في باريس؟ إن هي إلا أيام أو أسابيع، وتأتيهم جيوشنا من الشرق فتبيدهم إبادة الذباب..

- حقاً، جانبيت!؟

- حقاً وصدقاً!! فرنسا قوية.. جيوشها ملء العالم.. فماذا تفعل دبابات غادريان ورومل؟ صدقني.. سنسحقها سحقاً.. ويعود كل شيء كما كان..

- إذن.. أبقى هنا.. إلى أن يتم ذلك السحق.. ويعود كل شيء كما كان..

- تبقى في ساحة قتال؟ وما الضمانة ألا تصيبك رصاصة، أو تمزقك شظية؟ لا.. لا.. تذهب معي..

- أين؟

- إلى الجنوب.. أقصى الجنوب.. حيث لا يستطيع النازيون الوصول..

مع الفجر، كانت سيارة الرينو الستيشن، التي تنتجها مصانع آل رينو أنفسهم، تقلهم إلى مونبلييه؛ جانيت وأمها، زوجة القومندان وابنتها، خلية إناث، ما من ذكر فيهن سوى الأخضر..

قنبلة مدوية كان سقوط باريس.. الإذاعات، الهواتف، أسلاك البرق كلها كانت تردد عبارة واحدة "سقطت باريس"، وكانت تلك العبارة أشبه بصاعقة نزلت على رأس كل فرنسي...

داخل البلاد، خارجها، كانت الصاعقة قد فتحت عيوناً، فغرت أفواهاً، زلزلت أركاناً... القومندان يسمع الإذاعات ولا يصدق، يقرأ الصحف ولا يصدق، يصغي لما تنقله أسلاك البرق والهاتف ولا يصدق.. "معقول؟ خمس سنوات في الحرب الماضية ونحن نقارع الألمان... نهزمهم فيعودون، ويهزموننا فنعود.. كيف لا نصمد اليوم خمسة أيام؟ أي انهيار مخز!!

كيف يحدث هذا؟ كيف؟ لكن من تراه يعرف الجواب؟.

الضربة التي وجهها هتلر إلى قلب فرنسا، جعلت الجسد كله ينفكك: الحكومة انهارت، المؤسسات تداعت، الوزارات، الإدارات، قوى الأمن، الجيوش كلها ارتبكت وضاعت.. السلك انقطع فماذا يحدث لحبات العقد؟ "لا قيادة، لا اتصالات، لا ناظم.. النازي خطط لكل شيء.. وفي رأس مخططاته قطع الرأس فيظل الجسد بلا رأس، ويغدو بإمكانه أن يفعل به ما يشاء.

القومندان رينو في دمشق يحط وينط.. "نحن الذين نستعمر الناس يأتي من يستعمرنا؟ نحن الذين نحتل نصف العالم يأتي من يحتلنا!!؟" وبدا له العالم كأنما انقلب رأساً على عقب!! "ثمة خطأ أم أن التاريخ اللعين يعيد نفسه.. بسمارك يوجد ألمانيا ثم ينقض على باريس فلا يجد نابليون الثالث مناصاً من الفرار... في الخارج كما في الداخل، الكل في حيرة ولبال.. الكل ضائع، القومندان يسأل عن أهله وأصحابه، يتصل بالقيادة، يرسل البرقيات، لكن لا أحد يجيبه، ألم ينقطع الرأس؟

إذن من ذا الذي يجيب؟

"ماذا نفعل؟" كان السؤال الذي طرحه على المفوض السامي، وقد أسرع إليه في بيروت.

المفوض نفسه لم يكن لديه جواب.. الأحداث العاصفة كانت قد زلزلت الأرض تحت قدميه، توازنه اختل، فكيف يقدم للقومندان جواباً متوازناً؟ جيوش الشرق قوية منتشرة في سورية ولبنان، بل هناك جيوش جرارة في الجزائر، تونس، أفريقيا الوسطى، أفريقيا الغربية، جنوب شرقي آسيا.. لكن ما تراها تساوي، وأرضها نفسها قد احتلت؟ عاصمتها قد سقطت؟ ما تراها تفعل وقد صارت جسداً بلا رأس؟ هي مجرد أطراف. المفوض السامي يعرف ذلك، كما يعرف أن الأطراف لا تصبح رأساً أبداً.. هي مجرد تابعة، تتلقى الأوامر.. لكن من يعطي الأوامر؟! وعاد إلى ذهن الرجلين المتحيرين حالة مشابهة، وجد فيها الجنرال كليبر نفسه منقطعاً عن وطنه الأم.. نابليون هرب بجلده عائداً إلى فرنسا ليتزكده هو في مصر منقطعاً منبتاً.. الأسطول البريطاني يحاصره من البحر وشعب مصر يتربص به من البر...

"تنتظر ونراقب"، توصلاً أخيراً إلى قرار بعد أن انضم إليهما جنرالات جيش الشرق، ورؤوس الإدارة في مستعمرات الشرق. "في غضون ذلك يكون شعارنا الحفاظ على الذات، سياستنا: الترغيب والترهيب: نضرب بيد من حديد الأعداء، ونغري بالمكاسب الأصدقاء".

ازدواجية أعجبت القومندان، لكن لم يعجبه ما رآه، وهو يعود إلى دمشق. على ضفة بردى كان المتنزهون والمتنزهات ينتشرون.. بعضهم يعقدون حلقات دبكة، بعضهم يغنون.. هنا مذياع يخبر، هناك حاكٍ يغني وفي كل مكان أصناج وكأن فرنسا لا تتسحق تحت جنازير الدبابات النازية! كأن باريس لا تصرخ وتستغيث والنازي يغتصبها متغلغلاً فيها حتى الأعماق؟ ولم يجد القومندان نفسه الا وهو يفور غضباً.

-احظروا التجمعات.. حرمو المشاوير، امنعوا النزعات، صرخ بالضباط من حوله، فالقومندان لا يشفي غله إلا أن يشارك أهل دمشق أهله، هناك في باريس، الضراء.

بين المتنزهين، كان ثمة عائلتان.. الشهر حزينان وحزيران حار، شمس تحرق ذنب العصفور، فكيف لا يبحث عزيز وصبري عن مكان رطب وأنسام عليلة؟ وأين يجدانها ان لم يجداها في الربوة؟ العائلتان تنتزهان معاً.. علاقتهما حميمة، كثيراً ما باتتا تلتقيان، على غداء أو عشاء.. في نزهة أو مشوار، وفي

النزهة والمشوار تلغى الحجب، لا يعود حرملك وسلمك بل ناس سواسية كأسنان المشط، في ذلك اليوم كانوا قد خرجوا إلى بردى، ينعمون بفيء حوره وأنسام مائه.. مناف، بدور، فريد، حازم، فريدة، كلهم كانوا قد ساهموا في جمع الحطب وإشعال النار، فيما كانت شمس وأمنة قد أعدتا أسياخ الشقف والكباب.. عزيز يحب شواء اللحم، مهمة لا يرضى لها أحداً سواه، صبري يشاركه، رفيقي درب طويل.. رائحة الشواء تعبق، تمتلئ بها الخياشيم، الدخان يتصاعد تمتلئ به العيون، والكل فرح سعيد.. لم يكن أحد يغني، أو يرقص، بل هم يتجمعون مثنى وثلاثاً.. يتحدثون ويضحكون، يشوون ويعملون، فجأة توقف كل شيء، وقد انقض عليهم رجال الشرطة.. الفتيات زعن خوفاً، الفتيان صرخوا احتجاجاً. سمع عزيز الزعقات، انقض صبري للصرخ، رفع كلاهما رأسه فإذا به وجهاً لوجه أمام السوط.

"ها هو التاريخ يعيد نفسه، الشاويش ينهال بسوطه، أبو شعيب يريد تمرغي بالتراب"، وأمسك عزيز بيد الشرطي صائحاً:

- لا تضرب، وتوقفت اليد عالياً في الهواء، كأنما جمدها الخوف..  
- اذهبوا من هنا.. ممنوع التجمع، صرخ الشرطي دون أن يضرب بالسوط.  
- لكن، نحن هنا ننتزه.. صرخ صبري بدوره وقد عادله عنفوان اليوزياشي وحميته..

- ممنوع التنزه.. ممنوع الرقص.. ممنوع الغناء..  
وتلفت الصديقان، واحدهما إلى الآخر، بينما اقتربت شمس تتوسلها الصبر، ترجوها السكوت.. لكن كيف تراه يصبر؟ وأنى له السكوت؟.

- هل جننت؟ صاح عزيز وقد اسودت الدنيا في عينيه.. من يمنع شعباً من أن يتنزه؟ يرقص أو يغني؟.

- اسمع يا هذا.. لا تتفلسف.. نفذ الأوامر وحسب.  
- وإن لم أنفذها؟  
- تذهب إلى السجن

- بل أذهب إلى قومندانك نفسه.. أعرف سر هذا البغي والعدوان!!  
فرجال الشرطة كانوا قد اندفعوا على ضفاف بردى حيث منتزهات الربوة ودمر يطفئون ابتسامات ويكتمون ضحكات.. يسكتون دفوفاً ويفرقون تجمعات.

سياطهم تنهال على الظهور، أكفهم تصفع، أرجلهم ترفس، لا يفرقون بين ذكر وأنثى فيهرع الناس: كل في اتجاه وقد تحولوا جميعاً إلى إوز مذعور.

- معقول؟ قال عزيز، ما إن أدخلوه إلى القومندان، أهل المدينة والحضارة يمنعون أبسط حقوق المدينة والحضارة؟

- اسمع.. عزيز، نحن في حالة حرب، وليس في الحرب مدنية أو حضارة..

- ها أنتم تنزعون القناع عن وجوهكم.. فتبدون على حقيقتكم؟

- ماذا تقصد؟ همج نحن؟ وحوش؟.

- ماذا تدعو إذن، ضرب الناس بالسياط؟ تفريقهم بالحرب؟

- ألم يضرب أهلنا بالسياط، هناك في باريس؟ ألم يفرقوا بالحرب؟ ابنك الأخضر ماذا تعرف عنه؟ أهلي أنفسهم ماذا حل بهم؟.

رد القومندان وقد تقلصت سيماء وجهه كمدا وحنقاً

- إذن.. أنتم تنتقمون من ألمانيا فينا؟ تفرغون حقدكم علينا؟

قال عزيز وهو يتجاهل عامداً أسئلة القومندان.. بعدئذ تابع، لكن بنبرة أكثر دبلوماسية. أين إذن الديمقراطية التي تتادون بها؟ أين الحرية؟ أين حقوق الإنسان؟

-عزيز، مرة أخرى أكرر: في الحرب لا ديمقراطية، لا حرية، لا حقوق إنسان. بل أمن وأمان فقط.. أسمع؟ ما يهمنا أمننا وأماننا الآن.. كل ما يعكرهما نجتته من جذوره؟. أسمع عزيز؟ اني أحذرك.. قال مهدداً بسبابته وقد احمرت عيناه.. تلفت عزيز حوله، فأدرك أنه في المكان الخطأ والزمان الخطأ. كانت الساحة تعج بالجند ووقع أحذيتهم يملأ الفضاء..

-أنا فقط أكلمك كصديق، بدأ عزيز، وقد أيقن أن أية معركة يدخلها خاسرة.

-صديق.. غير صديق، قاطعه القومندان وقد وجدها فرصة سانحة.. انتبه عزيز.. شغب، لا أريد. مشاكل.. لا أريد.. ولا تنس.. أنا أعلم كل شيء عنك.. أعلم كل شيء عن ماضيك.. حاضرك.. أنت وشمس.. فقط الحرب شغلنتني عنكما.. الحرب أنقذتكما.. لكن لا بد من أن أحاسبكما.. أسمع؟ حساباً عسيراً سأحاسبكما ذات يوم..

سمع عزيز التهديد فاغر الفم، مدركاً أن القومندان يقطع أخيراً شعرة معاوية.. لم يعد يريد إرخاء أو شداً، بل هو يقطع الشعرة، مكشراً عن أنيابه معلناً

الحرب. مع ذلك تحدها عزيز:

-اسمع قومندان.. ليس لأحد عندنا شيء ولا أحد يستطيع محاسبتنا..

-حين تنتهي هذه الحرب سأفرغ لك!! ولسوف ترى!!

متظاهراً بالغيظ، متظاهراً بالقهر، بلع عزيز ريقه ثم انفتل على عقبيه، حامداً ربه، شاكراً حظه أن الحرب شغلت عنه القومندان.

الحرب شغلت القومندان عن كل شيء.. فحبل السرة الذي انقطع بين الجنين وأمه، كان يفرض على الجنين الاعتماد على الذات والاستقلال بالموارد.. "كليب" من قبل كان قد اعتمد في مصر على ذاته واستقل بموارده.. جى الضرائب، صادر الأموال، نهب الغلال، سرق المحاصيل وأطعم جنده، وكان على جيش الشرق أن يفعل ذلك.. "صادروا القمح والشعير، الحمص والعدس". صدرت أوامر المندوب السامي لرجاله في الشرق، حيث دمشق وبيروت، وبدأت المصادرات.. "ما يجبي من أموال هو لجندينا، ما يصادر من حبوب هو لجيش الشرق وليس للحكومة الوطنية في دمشق وبيروت." واشتدت على رؤوس الناس ضربات المطرقة الحديدية.. إجراءات ميرة شديدة، اعتقالات كل من يشتبه به، منع التجمعات، حظر الكلام عن الحرب، عن هتلر، بل منع الناس حتى من سماع صوت برلين..

القومندان يكره إذاعة برلين يكره صوت البحيري، وهو يلعلع منذراً بالويل والثبور فتصدر الأوامر؛ "الاستماع لإذاعة برلين جريمة، كل من يقبض عليه متلبساً بتلك الجريمة يسجن حتى انتهاء الحرب"، أوامر "قراقوشية" أخرى كانت تصدر كل يوم، وكلها بهدف واحد: كم الأفواه، كم الانفاس.. كل معارض يساق إلى السجن، كل من يبدي فرحه بانهزام فرنسا يساق إلى السجن.. كل صحفي يكتب ما يثير شكاً أو ريبة يساق إلى السجن، وامتألت بالناس المعتقلات والسجون وغدا الحال لا يطاق..

حال الزعيم الشهبندر لا يطاق أيضاً.. هو يرى بأمر عينه ما فعلته الهزيمة بفرنسا، يرى بأمر عينه كيف ازداد حذاء العسكري وطأة، قبضة الاستعمار قسوة، كيف تحولت كل سياسة الاستعمار إلى تضيق، حصار، ضرب، قتل، فكيف يتحمل الرجل الحر، المؤمن بالاستقلال، المقاتل أبداً من أجل الحرية والاستقلال؟ الضيق يمسك بخناق ولا يستطيع إلا أن ينفث ما في صدره، فيتكلم.. ينتقد.. في بيانات حزب الشعب، في الصحف، في لقاءاته بالناس، الزعيم يتكلم، ينتقد.. آذان المستعمر تسمع وترى، فيرسل القومندان له تحذيراً شديداً باللهجة: "اسكت أو

أسكتناك".

- تسمعون؟ يريدون إسكاتي!! قال الزعيم لزواره ذات ليلة وكله حنق وثورة، يريدون أن يطفئوا نور الشمس بأفواههم، أن يكتموا صوت الحق.. فماذا أنتم فاعلون؟

أجوبة شتى خرجت من هنا وهناك، وكلها حماسة واندفاع للدفاع عن الحق، منع الأفواه من إطفاء نور الشمس، لكنهم جميعاً هللاً لاقتراح الزعيم:

- نعلن إضراباً عاماً في البلاد كإضراب الستين يوماً...

- الإضراب، أجل، المظاهرات، الاحتجاجات، ذلك وحده ما يجب أن نفعل، جاءت الردود من كل مكان.

- وإذا احتاج الأمر، فالثورة والقتال.. تابع عزيز الفكرة، وهو يشتعل حماسة لقتال مستعمر بغيض..

- حسن، قال الزعيم بما يشبه الهمس، الفرصة سانحة لاقتناص استقلالنا، فلنبدأ الآن.

وبدأ التحرك خطوة خطوة: كتبت المناشير، وزعت في البلدات والمدن.. تحرك زعماء وقادة، خطب شيوخ وأئمة، والكل يحتجون، يدعون للإضراب، يطالبون بالاستقلال... وبدأت دمشق كلها على أهبة الاستعداد للإضراب.

لكن في المساء وقبل اليوم الموعد بساعات، كان الزعيم في عيادته، قد فرغ لتوه من كتابة خطابه.. سمع صوت الباب يفتح ووقع خطأ تتقدم.. رفع رأسه فرأى رجلاً عتلاً يدخل الغرفة..

-أبا الهول!! ماذا هناك؟ سأل الرجل الذي كان يعرفه مرافقاً لزعيم سياسي منافس..

-يدي دكتور.. يدي تؤلمني.. رد الرجل العتل وهو يخرج يده من جيبه..

-تعال!! أرنيتها!! قال الدكتور وهو يطوي الأوراق أمامه، هاماً بالنهوض، لكن قبل أن ينهض، أحس بارتطام يرتج له صدره وبصوت يصم أذنيه.. الصدمة فتحت عينيه والصرخة شفتيه، فيما بدأ دم أحمر ينبجس من صدره.. شهق، رافعاً يده، محاولاً صد الرصاص، محاولاً الوقوف لكن رصاصة ثانية عاجلته فهزته يمناً ويسرة، ثم جاءت الثالثة فهوت به أرضاً، ملء فمه الدماء وملء عينيه الظلماء..

"اغتالوا الزعيم" انتشر الخبر، فوقع على الناس وقع الصاعقة.. وفتحت دمشق عينيها على سعتها فاغرة الفم شاحبة الوجه.. الخبر مر بالشوارع، القصور، البيوت القريبة البعيدة ليتركها، وكل من فيها كأنما على رؤوسهم الطير.. أسئلة كثيرة بدأت تلف وتدور مع الخبر، زوبعة من رمل: "من قتل الشهيد؟" "من له مصلحة في تصفيته؟" "من الذي خطط؟"، "من الذي نفذ؟" كان القاتل قد زرع رصاصه في جسد الطبيب ثم ذاب فصاً من ملح.. فمن يجيب على الأسئلة؟ مجهول دخل العيادة، أطلق النار على الرجل ثم اختفى، فكيف يمكن معرفة القاتل أو تحديد الدوافع؟ ربما هو خلاف شخصي، ربما انتقام لخطأ ارتكبه الطبيب، ربما تصفية لحسابات قديمة... من يدري؟ السلطة تبرأت من الحادث، الصحف الناطقة باسمها خرجت في الصباح التالي تنعي الرجل لابسة ثياب الحداد.. لكن الناس الذين وقع عليهم الخبر وقع الصاعقة كانوا يشيرون للسلطة نفسها بأصابع الاتهام.. فالرجل الذي نذر حياته لمقارعة الاستعمار، لم يكن قد كف لحظة واحدة عن العمل لإيفاء نذره..

قاتل العثمانيين، ناضل في عهد الحكم العربي، كان أحد أعمدته الرئيسية، وقف في وجه غورو، ذهب إلى المعتقلات، شارك في الثورة.. الفرنسيون يعرفون هذا كله، والشعب يعرفه أيضاً. المحكمة الفرنسية التي حاكمته قالت إنه ثار على جميع الحكومات التي قامت في سورية" وهي نفسها التي وصفته بأنه ثائر غير قابل للشفاء، "فحكمت عليه بالإعدام... لكن الظروف خدمته فهرب خارج البلاد، ونجا بأعجوبة من الإعدام.

البلاد كلها تعلم أن ذلك الثائر غير القابل للشفاء هو أول من نادى بالعدالة الاجتماعية والاشتراكية.. طريقاً للخلاص يسلكه المجتمع فيلغي التفاوت الطبقي

ويرفع الظلم الاجتماعي عن كاهل الفقراء والضعفاء.. يحقق المساواة والعدل ويصبح الناس كلهم سواسية كأسنان المشط.. كلهم سمعوه وهو يخطب بالجماهير فيلهبهم حماسة عن حقهم في المعتقد، حقهم في الحرية، حقهم في التعبير عن الرأي.. ويطلب من الجميع التساهل والتسامح كي يظل المجتمع متماسكاً، منشداً الأواصر كأنه البنيان المرصوص.

الشعب كله يعلم كم كان يؤمن بالعلم طريقاً للتقدم، بالعلمانية مركباً إلى الوصول إلى الشاطئ الآخر، شاطئ الارتقاء والحضارة، بالعقل هادياً ومرشداً وكلهم يذكر قوله "العقل والدين الصحيح يمشيان جنباً إلى جنب".

الناس الذين أذهلهم الخبر كانوا يذكرون جيداً ما قاله في المحكمة الفرنسية أثناء محاكمته، وبصوت هادر كأنه الإعصار "الوطنيون وحدة، بغض النظر عن انتماء اتهم المذهبية، مثلما الاستعمار واحد بغض النظر عن اسمه أو جنسيته، لهذا، لا رابطة إلا رابطة الوطن، والوطن هو دنيا العرب ولا مجتمع إلا المجتمع الذي يقوم على هذه الرابطة: الوطنية".

الناس يحبون الزعيم الذي كرس حياته كلها لخدمتهم، كلهم يحبون الرجل الذي دعا للمجتمع الواحد، للوطن الواحد، عمل ليله ونهاره لبناء دولة العرب، لتحقيق العدالة والكرامة للعرب فكيف لا يقع عليهم خبر اغتياله وقع الصاعقة، وكيف لا يقف على رؤوسهم الطير؟.

ثواني، أو ربما دقائق، ظل الطير واقفاً ثم رفرف بجناحيه وحلّق عالياً فانطلقوا: الصاحب إلى صاحبه، والجار إلى جاره يتسألون ويجتمعون، يصيحون ويتنادون: "لنقلب البلد على الجناة".

لكن، كيلا ينقلب البلد عليهم، سارع الجناة لاتخاذ التدابير، قطعوا الطريق إلى بيت الزعيم الذي أسس ذات يوم حزب الشعب فصار الشعب كله حزبه، ومنعوا الوصول إلى الجنازة.. بالسياط، بالهراوات، بالحرايب، كان الجند يمنعون كل تجمع يزيد عن اثنين، مفارق الطرق المؤدية إلى بيت الزعيم زرعت كلها بالجند، سدت المنافذ ثم وضع النعش على عربة أسرعته به إلى المقبرة كيلا تتحول الجنازة إلى سيل عارم يكتسح في طريقه الجنازة...

حاول الكثيرون اختراق الحواجز، اصطدم الكثيرون بالجند معرضين صدورهم للحرايب والرصاص، لكن السدود كانت قاطعة مانعة، فانكسرت رؤوس نطحتها وارتدت أرجل تسلقتها، لتجد نفسها دمشق وجثمان زعيمها يوارى الثرى، تكلى محرومة من وداع ابنها، ممنوعة حتى من إلقاء النظرة الأخيرة عليه، فلم

تملك إلا أن تمزق ثيابها، تلمظ خديها، تولول وتتدب باكية إياه دموعاً من دم.  
وحده عزيز "دمعه في الحوادث غال". عيناه تتحولان إلى حجارة، ففار صدره  
غضباً واختبب دمه ثوراناً.. أسرع إلى صبري فوجده أشد غضباً وثوراناً، سارعا إلى  
الجنائز.. لكن السدود كانت لهما بالمرصاد.. راوغا أول سد فنفاذا منه، لفا على  
الثاني فاستطاعا اجتيازه، لكن الثالث كان أعتى من أن يجدي معه لف أو  
مراوغة، اصطدما به فعاد عزيز وآثار الهراوة على رأسه تتمور خيوطاً من دم  
سالت على وجنتيه فبدت أشبه بخيوط الدمع وهو ينهمر من العينين حزناً على  
الصديق الذي اغتيل...

رأته شمس فتحولت دموعها إلى دم هي الأخرى قهراً وحنقاً. منذ الصباح،  
كانت قد أطلقت لعينيها العنان تبكيان الطبيب الشفوق والصديق الصدوق، لكن ما  
إن وقعت عيناها على زوجها وقد تحول رأسه إلى ملعب للهراوات ووجنتاه إلى  
ميدان لخبول الدم تصول فيه وتجول، حتى خرجت عيناها من محجريهما.  
- أبلغت بهم الوحشية هذا الحد؟ سألته وهي تسارع إلى غسل جروحه النازفة  
دماً يغشى وجهه ويضرج ثيابه..

- وأكثر.. فقد أطلق بعض الجنود النار..

- المجرمون، السفاحون.. قتلوه ويمنعون الناس من دفنه!؟

- يفعلون كل شيء.. لإذلال الناس وكم الأفواه..

لكن الناس لم يذلوا ولم تكم أفواههم.. إذ، رغم السدود التي أقامها الفرنسيون  
في وجوههم، ورغم الحراب والهراوات كلها.. أنهى المصلون صلاة العصر ثم شقوا  
طريقهم إلى المقبرة جموعاً حاشدة صلت صلاة الميت على الزعيم المغدور.. ثم  
انطلقت رغم الحراب والرصاص وبصوت واحد هادر تصب جام غضبها على  
الاستعمار وأعوان الاستعمار أولئك الذين بلغ بهم الحقد أن يقتلوا رجلاً لا يعمل  
إلا من أجل الحياة..

أياماً وليالي ظلت دمشق تبكي الزعيم المغدور.. لكن أسابيع وشهوراً ظلت  
شمس تبكي الزعيم الصديق والأخضر الابن الذي انقطعت أخباره...

لم تكن عيناها ترقدان.. ولا بالها يهدأ، وكيف يهدأ بال أم ضاع ابنها!؟.

"النازيون سفاحون"، قالت إحدى الجارات "هم يكرهون العرب!!" فسر أبو  
فريد. "صنفونا في المرتبة السادسة عشرة من البشر" شرح ثالث "كل من يقع في  
طريقهم قتل".

أدلى آخر بدلوه راوياً لهم ما سمعه عن احتلال باريس.. وتلاطمت في صدر شمس أمواج الشك والريبة "أين ذهب الأخضر؟ ماذا حل بفلذة كبدي؟" قد وقع ما كنت أخشاه.. مذ وقع خطر الحرب كانت قد أرسلت له تذرره.. تطلب منه العودة، لكنه ضرب عرض الحائط بإنذارها.. أرسل لها يطمئنها "الحرب بعيدة، لا خطر".. بل إن القومندان أرغى وأزبد.. "نحن أقوىاء.. جيوشنا تحتل نصف العالم، فماذا باستطاعة هتلر أن يفعل؟". ها هو ذا هتلر يفعل ما لم يخطر ببال أحد.. بالحيلة عامل أمثال القومندان.. بالمناورة والخداع عالجهم، ثم أغمض واحداهم عينيه وفتحها فإذا بدبابات غادريان تطأ الشانزليزيه.. تحتل ساحة الكونكوردي، تفرش ذيولها على برج إيفل نفسه.. أصاب الذهول العالم ثم لم يفق من ذهوله. حتى كانت جيوش هتلر قد انداحت سيولاً جارفة بلغت الأطلسي فالمتوسط، فالألب وغدت فرنسا كلها ملعب كرة للجرمان.. "ويلي عليك!! ما جرى لك يا أخضر؟ أين أراضيك يا بني؟ سحقتك جنازير الدبابات؟! صرعتك رصاص النازي؟" كانت شمس لا تفتأ نادبة نائحة في ضوء النهار وظلمات الليل.. حتى بدا العالم لعزير وقد تحول إلى جحيم..

-استهدي بالله شمس، خففي عنك حبييتي، قال مهدئاً، وقد أفاق على صوتها المكتوم تنشج باكية في هدأة الليل.

-أخفف عني؟ كيف؟ عزيز، أريد ابني.. أريد الأخضر". ردت من بين نشجاتها، وهي تلقي برأسها على كتفه.. مسح عزيز براحته قطرات الدموع عن وجنتيها.. "يا لقلب الأم!! كيف لا ينزف دماً وقلدة الكبد في خطر!؟". راح يفكر في قلب العتمة والصمت مهدداً الرأس على الكتف. "كيف تتحول المرأة إلى مجرد أم لا تفكر إلا في أولادها؟ الحب ذلك الخضم الواسع الشاسع الذي تحول إليه قلب شمس ذات يوم، فعمت فيه، وسبحت بدفته، ها هو ذا قد تبخر الآن.. حب حل محله حب الأخضر ونواف.. بدور ومناف.. لكن كيف؟ عند غدير الماء، في المضارب، في أم العيون، في حماة، كان يخيل إلي أن ذلك الحب سيكون الأقوى، سيظل الأرسخ وأن شيئاً لا يمكن أن يحل محله.. لكن ها هي ذي شمس تنسى.. تظل أياماً وليالي لا تنظر إلي، لا تلمسني.. هي مشغولة بالأخضر، فكرها، قلبها، كل ما فيها بات للأخضر.. واحسرتها.. شمس!! قد تحولت إلى مجرد أم.."

- ماذا عزيز؟ أنت لا تقول شيئاً.. لا تتكلم.. قالت أخيراً محرصة إياه على كسر الصمت الذي أحست به يطبق على البيت، على المدينة، بل على العالم

كله.

- وماذا أقول حبيبتي؟ ليالي طوال وأنا أتكلم.. أشهر وأنا أحاول إقناعك:  
غير مجدٍ هذا البكاء.. غير مفيد هذا العويل.. فأنت لا تقلين شيئاً سوى قتل  
نفسك..

- ليتني أستطيع..

- شمس، قاطعها وهو يشدها إلى صدره لائماً عاتباً، تقتلين نفسك ولمن  
تتركيني أنا، عزيز، حبيبك؟.

- أجل.. أنت عزيز.. حبيبي.. معبودي.. لكن الأخضر ضاع حبيبي وهل  
تريدني أن أعيش إن ضاع..؟ لا.. لا.. الموت أهون لدي... أهون ألف مرة...  
وأدرك عزيز أن حب الأمومة يفوق كل حب.. بل خيل إليه أن كل حب  
تعرفه المرأة إنما هو لخدمة الأمومة.. تلك الغريزة المعطاء التي لا تعرف الأخذ،  
بل هي تعطي وتعطي لا جزاء ولا شكورا...

- الأخضر لم يضع، لم يمت، الأخضر حي يرزق.. أنا واثق من ذلك..

- إذن أين هو؟ لماذا هذا الانقطاع؟ لا خبر، لا رسالة.

ولم يستطع عزيز أن يجيب.. كان غياب الأخضر يشغله هو الآخر..  
صحيح.. هي أمه.. لكنه هو أبوه أيضاً.. فكره يذهب ويجيء ليس مع الأخضر  
فحسب بل مع أبنائه جميعاً، باله ينشغل عليهم.. هذا في مشكلة، ذلك في خطر  
فيطير إليه يحل إليه المشكلة، ينقذه من الخطر.. لكن مذ سقطت باريس أسقط  
في يد عزيز.. الإحصار اكتسح البيت الفرنسي كله قالباً عاليه سافله.. الأخبار  
مشوشة، بعضهم يقولون إن النازيين سفاحون لا تعرف قلوبهم الرحمة، دخلوا  
باريس فقتلوا وذبحوا، خربوا ودمروا.. بعضهم يحكون أن الدبابات كانت تهرس  
بجنازيرها حشود الهاربين.. وان الناس العزل كانوا يلقون بأنفسهم في نهر السين  
هلعاً ورعباً، فماذا حل بالأخضر؟.

فرنسا عزلت عن العالم، القوات النازية أطبقت بكماشتها عليها، أحكمت  
الطوق، لا اتصالات، لا بريد، لا هاتف، لا خروج، لا دخول.. انقطاع كامل  
فكيف يعلم ما حل بالأخضر؟ هو في قلق ولبال على الأخضر. في قهر وغيظ  
يصلان به حد البكاء، لكنه رجل.. والرجال لا يكونون..

- الصبر.. شمس.. بدأ وهو يخرج نفسه بصعوبة من خضم بلباله،  
صدقيني مالنا غير الصبر..

- لكن حتى متى والأيام تكرر؟ ها هي خمسة أشهر قد مرت ولم أعرف عنه شيئاً.. فألى متى نصبر؟ إلى متى ننتظر؟.

"شمس على حق" عزيز يفكر وهو يتأمل وجهها الذي خدته الدموع على ضوء النواصة الخافت، وقد أشعلها للتو. "النازي اكتسح فرنسا، حكومتها سقطت، قواتها دمرت، جيشها تفرق أيدي سبا، قصر منيف أمسكت به قبضة زلزال قوي ثم راحت تهزه يمناً ويسرة، أعلى وأسفل، حتى لم يبقَ فيه حجر على حجر.. فأين سكانه؟ ماذا حل بهم؟ أجل. شمس على حق؟".

كان عزيز يعترف في قرارة نفسه، لكن بصيصاً من أمل كان قد بزغ أمامه من بعيد، وقد سمع عصر ذلك اليوم خبراً غير عادي.

- إذن.. أنت لم تسمعي الخبر..

- أي خبر؟

- المارشال بيتان شكل حكومة في فيشي..

- بيتان.. فيشي.. ما الذي تقوله عزيز؟

- يا عزيزتي، قال بنبرة المداعبة: فيشي هي العاصمة الجديدة لفرنسا، وبيتان هو المارشال العظيم الذي هزم الألمان ذات يوم، لكنه اليوم يمد يده لهم وكل ما في ذهنه أن يللم أشلاء وطنه المحطم.

- وتعود المياه إلى مجاريها؟ سألت شمس وقد لمعت أمام عينيها بارقة أمل.

- بالتأكيد..

- تقصد.. يعود البريد والبرق، الاتصالات والمراسلات؟

- هكذا يقول المارشال نفسه: اختلاط الحابل بالنابل هذا سينتهي.. الفوضى ستزول.. ونعيد الحياة إلى طبيعتها..

- إذن.. يجب أن نرى القومندان.. قالت وقد اشتدت أمام عينيها بارقة الأمل...

- القومندان؟ إذن نسيت خطره وشده؟. نسيت موقفه آخر مرة؟.

- لا.. لم أنس.. ولن أنسى.. لكنه الأخضر.. وعلينا أن نعرف شيئاً عنه.. علينا أن نتأكد فقط: أهو حي أم ميت؟. وإني لمستعدة أن أدفع عمري كله من أجل معرفة ذلك... عزيز يعلم أنها مستعدة، بل هو نفسه على أتم الاستعداد لأن

يضحي بالغالي والرخيص كي يعرف ما حل بالأخضر . لكن القومندان، ومذ كشر عن أنيابه ذنباً يهم بالانقراض، بات أباً هول حقيقياً، غولاً مرعباً يكره حتى ذكر اسمه.. هو يعلم أن الذئب لم يهمله، هو وشمس، لكنه أمهلها.. سقوط فرنسا كان قد أوقع الآلة الاستعمارية كلها في بلبال.. جعل فرنسا كلها دجاجة قطع السكين عنقها، دمها ينزف وهي تتخبط.. وإذا ما عاد الرأس، وانتهى ذلك التخبط، ألن يتفرغ القومندان لهما.؟.

ألن يحاسبهما على ما سعى كثيراً للتأكد منه؟ هو نفسه هدد بذلك: "حساباً عسيراً سأحاسبكما ذات يوم." تهديده ما يزال يدوي في أذنيه، فكيف يفكر باللجوء إليه.؟.

- هه.. ما بك.. عزيز؟ تكلم.. عادت تحته فقرر أن يلف ويدور.
- لا أظن أن القومندان قادر أن يعرف..
- يمكنه أن يحاول.
- كيف؟

- ألم تقل عادت الدولة؟! تشكلت الحكومة؟ إذن يمكنه الاتصال.. إرسال برقية.. رسالة.. وتوقفت لحظة ثم تابعت: أليس كذلك؟

- ربما

- إذن.. اذهب إليه غداً..

- لا.. أنا أقسمت.. لا أطأ عتبة مكتبه.

- إذن أذهب أنا..

في اليوم التالي، فوجئ القومندان الذي صار كولونياً، وهو منهمك في قراءة تقاريره اليومية، بحاجبه يقرع الباب مستأذناً لامرأة غارقة في السواد..

- صباح الخير، سيادة الكولونيل، وألف مبروك، قالت شمس وهي تكشف عن وجهها، فلم يملك إلا أن يهب على قدميه يحدجها وعلى شفثيه ابتسامه ذات مغزى.

- صباح الخير - وشكراً لك!! أنت بنفسك؟ لا بد إذن، أن أموراً صعباً جاءت بك!! قال وهو يمد يده مصافحاً ثم يشير إليها بالجلوس.

- الحقيقة، نعم.. ردت شمس وهي تريد التسديد إلى الهدف مباشرة، ابني الأخضر... لكنها توقفت وكأنها لا تستطيع البوح بكل ما في نفسها دفعة واحدة.

- ماله، الأخضر؟ سأله، وقد جلس غير بعيد عنها.
- أكاد أموت عليه.. سيادة الكولونيل!! أشهر الآن وهو غائب، لا علم، لا خبر، أريد أن أعرف شيئاً عنه أرجوك..
- تريدين أن تعرفي شيئاً عنه؟ أجاب على مهل زافراً زفرة حرى..
- فقط إن كان حياً أو ميتاً.. فقط إن كان النازي قتله أم لا؟.
- ومن يستطيع أن يعرف؟
- أنت.. اسأل أصحابك.. .. أهلك. وهز الكولونيل رأسه، متهدداً.
- أصحابي! أهلي؟ وهل أدري أين هم؟ حتى زوجتي وابنتي لا أدري أين هما؟
- لكن اليأس لا يعرف طريقه إلى شمس.. هي جاءت بعد تردد.. إقدام وإحجام". قال: ما حالك للمر؟ قال له الأمر؟ "وكان ذلك الأمر قد حولها إلى كتلة من العزم والتصميم، لكن ها هو ذا يشكو المصاب نفسه، يتذمر من الانقطاع نفسه.. من جهله حتى بمصير زوجته وابنته.. مع ذلك سألته:
- معقول؟ حتى أنت لا تدري؟
- ومن يدري وقد ضاعت البلاد كلها؟ من يعلم ماذا هناك وقد أصبحت فرنسا جزيرة معزولة عن العالم؟.
- والآن وقد تشكلت حكومة جديدة؟
- هذه حكومة خائنة، لا اتصال لنا بها ولا علاقة.
- ماذا؟ لم أفهم!!
- وليس مطلوباً منك أن تفهمي، قال بخشونة مفاجئة جعل الزائرة تحديق إليه بحدة... المطلوب منك، وقد جئت برجليك أن تجيبيني على ذلك السؤال القديم...
- أي سؤال قديم؟ ردت متشنجة فجأة، محاولة أن تتجاهل..
- ما علاقتك بالكابيتان جيرار؟
- أجبنيك من أجل الأخضر، تسألني عن جيرار؟
- أجل، وعليك أن تجيبني الآن: ماذا تعرفين عنه؟ عن مقتله؟
- قلت لك.. لا علاقة لي به.. لا شأن لي بمقتله، لا أعرف شيئاً.. قالت وهي تهب ملء طولها كأنما تهرب من ألسنة النار..

- اسمعي.. جيرار كان صديقي.. وإن أنسى لا أنسى ما قاله لي ذات مرة..
- وماذا قال؟ سألت شمس، محاولة جهداً التماسك، متصنعة اللامبالاة.
- ذات مساء، كنا نسير على ضفة بردى وكان ساهم النظرات.. سألته ما بك؟ فقال "تخلب لبي امرأة هناك في حماة، لا أدري كيف الوصول إليها"..
- ضحكت منه آنذاك قائلاً: "دون جوان باريس، الكابيتان العظيم، صاحب السلطان المطلق في حماة لا يعرف كيف يصل إلى امرأة فيها"، فتنهد ثم قال: "هذه امرأة مختلفة يا صاحبي.. صعبة صعبة كأنها قمة ايفرست، عصية عصية كأنها أدغال الأمازون، عالية عالية كأنها الشمس.. بل هي نفسها.. اسمها شمس فكيف يمكن الوصول إلى الشمس؟".
- إي.. وماذا يعني هذا؟ قالت وهي تتصنع التماسك، مرتعدة في داخلها حتى العظم.
- يعني.. مذ جاؤوني بك يوم المظاهرة وأنت سافرة الوجه مكشوفة الرأس.. عاد إلى ذهني كلام جيرار.. تراءت أمام عيني تلك الصورة التي رسمها لك جيرار: فاحمة الشعر، بيضاء البشرة، فارعة القامة.. وحين قلت ان اسمك شمس رن صوته في أذني "اسمها شمس"، منذ نذ لم يفارقني الشك بأنك أنت شمس.. تلك الشمس التي خلبت لبي..
- أنت مخطئ!! قالت وهي تتذكر قولاً سمعته ذات مرة "مائة شك ولا يقين واحد".. أنا لم أخلب لب أحد ولم تكن لي علاقة بأحد..
- بل أنت المرأة التي أراد الوصول إليها بأي شكل.. جاءت فرصة هروب زوجك، فجاء بك إلى مكتبه..
- تحقيقاتي تجعلني واثقاً من ذلك.. واثقاً من أنك المرأة التي أرسلها إلى بيته، سائقه أوصلك بنفسه، هو الذي وصفك لي، ولا بد أنك أنت التي قتلته..
- ليس لديك دليل..
- الدليل تحت يدي.. فقط قشة، وسيأتي وقت أرفع فيه تلك القشة..
- هراء.. كلام بال عتيق أكل الدهر عليه وشرب.
- بل هو حي.. جيرار ما يزال هنا.. ودق على صدره، حياً يرزق ولسوف أثار له..
- تتأثر؟ بعد هذا الزمن الطويل تتأثر..

- البدوي عندكم يثار بعد أربعين عاماً ويقول بكرت..
- وهل أنت بدوي؟
- بل أكثر من بدوي. حين تتناول امرأة مثلك على كايبتان فرنسي، سيد عظيم من سادتها..
- سادتها؟ إذن.. نحن عبيد لديكم؟.
- ماذا أنتم إذن؟ لعلكم تظنون أنفسكم سادة.. مثلكم مثلنا؟ لا.. يا امرأة.. نحن نستعمركم، إذن نحن سادتكم..
- يا إلهي.. كولونيل.. كم تغيرت!! كم تبدلت!! أين كلامك عن الحرية، المساواة، الإنسانية..
- هراء، هراء، كل ذلك هراء
- الحمد لله إذن.. جاء من يستعمركم... جاء من يحولكم مثلنا إلى عبيد!!
- اخرجني من هنا.. اغربي عن وجهي.. قاطعها صارخاً وقد احتقن كل ما فيه.. اغربي.. وأقسم لتدفعين ثمن قولك هذا باهظاً..
- عادت شمس إلى المنزل وهي ترتعد..
- ماذا جرى؟ سألتها عزيز وقد ألقه شحوب وجهها،
- هذه المرة عقد الأنشوطة، وهم بدفع الكرسي من تحتي..
- وتحول عزيز إلى كتلة من التوتر والتشنج.
- ألم أقل لك؟ رفع القناع عن وجهه.. كثر عن أنيابه.. لكن احكي لي..
- ماذا قال.. ماذا فعل؟ وروت له شمس القصة من الألف إلى الياء.
- إذن كما قلت لك من قبل ليس أمامنا غير آخر الدواء، قال عزيز بعد أن أطرق طويلاً عاصراً صدغيه بين راحتيه..
- الكي تعني؟ قالت وهي تستعيد في ذهنها نقاشاً سابقاً.
- طالما هو يلاحق القضية بشكل شخصي، رد وهو يزفر زفرة الحقد إذن هو وحده، مصدر الخطر..
- صحيح..
- فإذا.. تابع عزيز مشيراً إشارة البتر من يده اليمنى، وكأنما يبتر عنقاً بسيف قاطع، ألا ينتهي كل شيء؟

- لا.. لا.. أخشى أن نصبح كالعائص في الحمأة، كلما خطا خطوة أكثر تورط أكثر..

- لا، شمس.. أنا أرتب الأمر.. بحيث نخرج كالشعرة من العجين..  
- كيف؟ قل لي..

- فيما بعد.. فيما بعد.. فقط أريدك أن تتخذي كل الاحتياطات في غيابي..  
- غيابك؟ أين؟

- إلى أصدقائي هناك، رد عزيز وهو يشير باتجاه الجنوب، لكن حذار أن يمسك بك الكولونيل.. حذار أن تدعيه يقترب منك.

الكولونيل لا يستطيع الاقتراب منها حتى لو أراد ذلك، اللاذقية شغله الشاغل.. مشكلتها أغرقته حتى لم يعد من مجال للتفكير بشمس أو قمر..

منذ أشهر كانت قد بدأت المشكلة.. بذرة صغيرة بذرت في التربة، هطل المطر فأنتشت، ثم شقت التربة فظهر رأسها يلوح ذات اليمين وذات الشمال، مهدداً بالويل والثبور وعظائم الأمور.. البذرة شكوى، وكيف لا يشكو الناس راعياً لا تهمة مصلحة الرعية؟ كيف لا يتذمرون من أب لكنيسة مهمل لأبناء الكنيسة؟ مطران ضد أتباعه؟ ارتكابات كثيرة أخذت عليه، عيوب كثيرة سجلت في حقه، حتى هب الكل يصرخون.. "الرعية بحاجة لراعٍ صالح أو هلكت الرعية..". المجمع الكنسي سمع الصراخ، أرسل يحقق، التحقيق أكد الشكوى، وصدر قرار كنسي بتعيين راعٍ جديد.

الراعي الجديد مناهض للاستعمار، مطالب بالحرية والاستقلال، يلتف حوله الشعب ويحبه الناس.. فرنسا تعلم ذلك، لكنها تغض النظر عنه، هو في بيروت نقطة في بحر، لكنه في اللاذقية مشكلة.. حاسمته، وطنيته، اندفاعه كل ذلك يثير العواصف الهوجاء على رأس فرنسا، فكيف ترضى به؟ طلب المندوب السامي من المجمع الكنسي استبداله، لكن المجمع الكنسي أبى واستكبر "نحن لا نعمل بإمرة الاستعمار، قراراتنا مستقلة وليس لأحد أن يتدخل فيها"، وصدرت أوامر جديدة تؤكد على المطران أبيفانيوس أن يلتحق بمطرانته في الحال... التحق المطران الشجاع وكله حماسة وتحدي.. حاكم اللاذقية أحس بالتحدي فأصدر الأوامر للمطران القديم "ابق.. لا تسلم المطرانية" وفرح المطران القديم "هي ذي فرصة، تأثر فيها لنفسي وكرامتي"..

ويبقى في كرسيه لا يتزحزح. المطران الجديد جاء، مطالباً بالامتثال، لكن

هيهات، الرجل يطيع السلطان لا الكنيسة، وبدأت حرب .. الخلف، معه الشعب والكنيسة، والسلف، معه الحاكم والجند، لا هذا يخضع ولا ذاك يتراجع.. إلى أن جاء عود الكبريت الذي أشعل الفتيل..

أحد أفراد الرعية مات، والميت يدفن بل إن إكرام الميت هو الإسراع في دفنه. قام المطران ابيفانوس بمراسم الجنازة، بطقوس الدفن ثم مضوا بالنعش إلى الكنيسة. لكن الكنيسة في قبضة السلف والسلف يأبى أن يدفن ميتاً صلى عليه الخلف، فاصطدم البطلان كأنهما جبلان وحام فوق رأسيهما غراب البان..

الهواتف أطلقت أجراس الإنذار في دمشق.. والبرقيات طارت زاعقة مولولة "فتنة في اللاذقية قد لا تتحصر بين المسيح والمسيح بل ربما تمتد إلى أحمد والمسيح.. فقد دقت نواقيس الكنائس، تعالت الأصوات من المآذن، وكلها تطالب بالوقوف وراء أبيفانيوس كي يدفن ميتة.

المفوض السامي هاج وماج، جنرالاته أرغواو أزيدوا "يجب كم الأفواه.. اجتثاث الفتنة" وصدرت الأوامر إلى الكولونيل بالإسراع إلى اللاذقية كي يجتث الفتنة.

وصل الكولونيل إلى اللاذقية، طلب إلى أبيفانيوس الامتثال أمامه.. لكن الراعي الخبير المجرب لا يسلم عنقه للذئاب.. "أمتثل" جاء الجواب "لكن بعد أن يدفن الميت، وينتقل السلف، وأستلم كرسي المطرانية.."

- يملني علي شروطه؟ صرخ الكولونيل بحامل الرسالة، ثم التفت إلى قائد الحامية.

- امنعهم بالرصاص والنار.. وائتوني بأبيفانيوس حياً أو ميتاً.

الوقت العصر وحراب الجند تمنع الدفن.. أبيفانيوس يخشى أن تتعفن الجثة، فيلومه البشر. تنفس بين يديه، فيعاقبه الرب.. وهو يكره اللوم والعقاب.

- اجتماع.. نادى بمن حوله من وجوه ليسوا للمسيح وحده بل لأحمد أيضاً.. عقد الاجتماع، وفي الحال وضعت خطته..

- لا يدعنا نصلي عليه في الكنيسة، إذن لنصلّ عليه في المسجد الجامع، قال المفتي المتتور الذي يؤمن أن الله واحد والدين واحد، لا فرق بين نبي ونبي ولا رسالة ورسالة، كلهم أنبياء الله، وكلها رسائل السماء..

في المسجد، صلى الرجلان معاً على جثمان الميت وقد بدأت الروائح تتطلق منه... فالذود الجائع لا ينتظر والجراثيم لا تعرف الصبر. بعدئذ سار الحشد

بالجثمان تختلط فيه تراتيل المسيح بنداءات أحمد "الله أكبر.. الله أكبر.." بدأت النداءات.. بعدئذ تطورت إلى هتافات "لا إله إلا الله.. أبيفانوس حبيب الله.." وفغر حاكم اللاذقية فاه، فيما جحظت عينا الكولونيل على سعتهما، وهو يسمع هتافات الجنازة "لا إله إلا الله... أبيفانوس حبيب الله..".

- كم عدد الشرطة المدافعين عن الكنيسة؟ سأل الكولونيل قائد الحامية إلى جانبه، فأجاب الكابيتان وهو يكاد ينفلق حنقاً..

- فان، مون كولونيل!!

- ابعثوا سرية من الجند برشاشات ومدافع..

بسرعة تحركت السرية التي استتفرت من قبل.. بسرعة أخذت مواقعها، حتى إذا ما وصلت الجنازة إلى مقربة من الكنيسة، كان مائة وعشرون من الجند والشرطة يتربصون في أماكن مشرفة على الشارع يمكنهم منها أن يحصدوا الناس حصداً.

لكن خطة أبيفانوس وصحبه أذكى.. بضعة عشر رجلاً كانوا قد جاؤوا ببواريدهم يرافقون الجنازة وبضعة عشر آخرون ببواريدهم التقوا حول الكنيسة. تسلفوا السور من خلف ثم انسلوا إلى أماكن يرون فيها الجند ولا يراهم الجند..

بهدوء ونظام كانت تقترب الجنازة.. الهتافات مازالت هي نفسها "لا إله إلا الله.. أبيفانوس حبيب الله..". الكابيتان يسمع من مكانه في الكنيسة فيشتد حنقاً.

- عودوا أدراجكم.. ارجعوا من حيث جئتم.. لن تدخلوا الكنيسة، جاء صوت المكبر ملعلعاً أمراً، لكن أبيفانوس أصم لا يسمع، جنازته تسير، صماء هي الأخرى لا تسمع... .

ومن جديد تعالي الصوت:

- عودوا أو أطلقنا النار، لعل صوت المكبر من جديد، لكن الجنازة لا ترد ولا تصد... بخطأ موزونة كخطأ عسكر في نظام منضم، تسير باتجاه الكنيسة.. أبيفانوس في المقدمة، أركانه من حوله.. شيوخ وكهان.. في عيونهم تحد وفي صدورهم عزم.. ولعل الرصاص في الجو. الكابيتان يرقب من عل بفرح.. وكل تصوره أن الجنازة ستفرق أيدي سبا، لكن الجنازة لم تتفرق، بل في اللحظة ذاتها اندفعت نحو الكنيسة سيلاً هادراً وبصوت واحد يصم الأذان: "لا إله إلا الله.. أبيفانوس حبيب الله..". فيما انطلقت من جانبيها كليهما لعلعة رصاص، ومن خلف الكنيسة والجند لعلعة رصاص، أجفل الكابيتان وهو يرى النار تشتعل من حوله

والموت يتهدده من كل جانب.. فالجنازة لم تكن مسالمة تماماً وأبيفانوس كان يعرف قيمة الرصاص.. في اللحظة التالية كان الكابيتان يجري مطأطأ الرأس محني الظهر إلى مبنى الكنيسة يحتمي فيه من الرصاص فيما التفت الجند إلى الوراء، إلى الأمام فوجدوا أناساً متمترسين خلف سياج المقبرة، خلف حائط الكنيسة، فوهات بنادقهم مسددة وأيديهم على الزناد.. كانوا بين نارين: نار من أمام ونار من خلف.. والرصاص يلعلع في الجو رشاً ودراكاً مهدداً بالانهيار عليهم وابتلاً من مطر.. فيما سيل البشر يندفع بالجنازة غير هياب ناراً ولا رصاصاً.. الاندفاع، لعلعة الرصاص، الأصوات الهادرة كلها تحولت في نفوس الجند إلى ذعر واضطراب، تحولاً بدورهما إلى بلبلة وهروب، خشي الكابيتان معه أن يجد نفسه وحيداً فولى هو نفسه الأدبار.. دخلت الجنازة الكنيسة، صلى المطران على الميت، عن يمينه الشيوخ وعن يساره الكهان وخلفه الحشود الغفيرة وقد اختلط فيها أحمد والمسيح، صلوا صلاة المسيح، بعد أن صلوا صلاة أحمد ثم مضوا بالميت إلى مثواه الأخير.

- قد دفنوه وانتهى الأمر!! قال مطران السلطة للكولونيل وهو يضرب كفاً بكف، أية هزيمة!! أي عار!!

- نخرجه ونلقي به في الطريق!!

- لا.. لا يصح إخراج الميت.. لا يصح الانتقام من الميت، سيرتد هذا وبالأعلى علينا من الناس، رد المطران وقد استيقظت فيه بقية من ورع وكثير من خوف.

- ماذا تريد أن تفعل إذن؟

- ننتقم منهم هم، نقتلهم.. أبيفانوس، الشيوخ، الكهان، وجوه المدينة، صاح المطران المهزوم بحماسة واندفاع لا يتأتيان إلا عن أشد الحنق..  
- أجل.. سأزجهم جميعاً في السجن.. سأعاقب المدينة كلها.. سأقصفها بالمدفعية..

.. هدر الكولونيل الهائج المائج الذي كان ذات يوم يتكلم عن الحضارة والمدنية، الإنسانية والأممية..

لكن قبل أن يقصف المدينة اتصل بالمفوض السامي يطلب منه الاذن، فأرغى المفوض وأزيد.

- قلت لك اجتث الفتنة فتزيدها ضرماً.. دع كل شيء وعد إلى دمشق.

حين وصل الكولونيل إلى دمشق حانقاً، وقد فاتته فرصة قصف اللاذقية،  
كان عزيز قد وصل إلى البطحيش، وكانا يجلسان معاً في عش النسر، ذاك الذي  
لا يستضيف فيه أحد غير عزيز، يتحدثان حول شغلها الشاغل: الكولونيل.  
- يحاصرك أنت وزوجتك؟ سأله البطحيش بعد أن روى عزيز قصته  
كاملة...  
- منذ سنين يحاصرنا، واليوم يحكم الطوق، يشد الأتسوطه حول عنقنا ولا  
ندري متى يدفع بالكرسي من تحتنا..  
رد عزيز مكماً شرحه.  
- خسى.. هو ودولته!! لن يستطيع ذلك.. قال البطحيش بحمية عالية  
وحماسة حامية، ففرح عزيز.  
- حياك الله.. أعلم أنك لها أبا حسن!! لكن.. ما أريده فقط هو خبرتك  
وخطك وأنا أكمل البقية...  
- لا والله!! هتف البطحيش بنبرة الزجر، لا يكفيك شره سوى هذا الزند،  
وشمر البطحيش عن زند أسمر مقتول العضلات. بهذا الزند سأدق لك عنقه..  
- بل ندقه معاً.. عملية مشتركة من عملياتنا تلك.. عقب عزيز بمزيج من  
الحسم والرجاء، هو الذي يعلم أن البطحيش إن قال فعل، وإن عزم على أمر نفذ.  
- حسن، قال البطحيش، وهو يهز رأسه مبتسماً، غداً نذهب معاً وننفذ معاً..  
- بل أذهب وتلحق بي.. أستطلع حركته، أدرس نظام حياته حتى إذا جئت  
نفذنا على الفور.  
في الصباح، وكانا يجلسان على مائدة الإفطار، سمعا الباب يقرع قرعتين ثم  
قرعة مفردة.. أجفل عزيز، هو الذي يعلم أن عش النسر لا يزوره أحد...  
- من عساه؟ سأل عزيز صاحبه وقد بدا شيء من الذعر في عينيه..  
- لا عليك، قال مطمئناً وهو ينهض، إنه التيناوي..  
- أي تيناوي هذا؟ سأله عزيز محتجاً وقد غاب عن ذهنه ما رواه له عواد  
ذات يوم..  
- صاحب جديد.. اطمئن.. هو منا.. سأعرفك عليه..  
- أوه!! ذاك الدركي الذي حبسه الفرنسي ساوي وسرحه، قال وقد تذكر القصة  
فجأة..

- أجل.. لقد صار صديقي المخلص..

- لا.. أرجوك أبا حسن.. لا تدخله..

- قلت لك اطمئن يا رجل!! هو وطني مخلص.. سأحكي لك تفاصيل قصته، وكيف تعرفت عليه فيما بعد.. لكن الآن يجب أن تتعرف عليه أنت.. وتخلص البطحيش من يد عزيز الممسكة بثوبه، ثم اندفع خارجاً، وقد جاءت القرعات الثلاث كسابقتها، قرعتين معاً ثم قرعة مفردة.

موجة من القلق اجتاحتها وهو يصيح السمع لخطا البطحيش تبتعد حتى الباب ثم صوت الباب وهو يفتح، ثم همساتهما كليهما وهما يعودان صديقين حميمين يتبادلان الترحاب. "أيعقل هذا!! البطحيش يعطي سره لأحد؟ يأمن لأحد؟ لكن وجه البطحيش الهاش الباش، وهو يدخل بصاحبه أوقف كل تساؤل.

- محمد التيناوي من دمشق.. صديق عتيدي ومكافح عنيد.. بدأ البطحيش التعارف مازحاً، مشيراً بيده إلى التيناوي الذي كان يسد الباب بقامته الطويلة ومنكبيه العريضين ورأسه الكروي الضخم، عجباً أحسنت تغذيته.

- أهلاً، بدأ عزيز وهو يمد يده مصافحاً، ثم لمعت في رأسه فكرة، فبادر مستيقاً صاحبه: محسوك أبو العز الدهمان من عقيدات حمص، قال بلهجته البدوية التي يتقنها جيداً، ثم نظر إلى البطحيش فرآه فاغر الفم وكأنما أدهشته الكذبة.

- أهلاً وسهلاً سيد أبا العز، رد التيناوي بلهجته الشامية الرقيقة، وهو ينقل نظره بين المضيف وضييفه، لم أكن أعلم أن لك صاحباً يأتي إلى عش النسر سواي. تابع بشيء من الضحك، ربما ليدلل على مكانته لدى النسر نفسه..

- تفضل، شاركنا إفطارنا، قال البطحيش وهو يتحاشى متابعة التعارف، كأنما انتقل إليه توجس عزيز وحذره!!

على طبق الطعام، كان ثمة بيض مقلي، لبن، وبضعة أرغفة من خبز التتور المحمر المقمر.. لم يدعه يعيد الكلمة، بل سارع يجلس الربعة بين البطحيش وضييفه، وبتباسط شديد ورفع كلفة ظاهر، هشم التيناوي الرغيف وشرع يأكل. نظرة متسائلة وجهها البطحيش لعزيز، فردها عزيز استهجاناً وتحذيراً...

- العقيدات!! بدأ التيناوي حديثه وقد ألقم فمه لقمة مزج فيها البيض باللبن، أنا أعرف العقيدات كلها.. من أي فخذ أنت؟

لحظة من الزمن، أرتج على عزيز متملماً في جلسته، متلفتاً حوله، وكأنما

يستتجد بصاحبه..

- أبو العز من البوصلبيي.. أنجده البطحيش في الحال فتنفس عزيز الصعداء.

- عجيب!! ابن مدينة وتعرف القبائل والأفخاذ؟ تابع عزيز بنبرته البدوية نفسها وقد تماسك تماماً...

- المهنة يا صاح.. المهنة تعلمك.. والترحال يوسع دائرة معارفك.. رد التيناوي هازاً رأسه ضاحكاً.. رأى البطحيش صاحبه يزداد استهجاناً واستغراباً فتدخل:

- لعلمك، محمد كان في سلك الدرك، والدرك ينتقلون..

- كل شهرين، ثلاثة في مخفر.. تابع التيناوي قبل أن يبدي عزيز المزيد من الاستغراب: حمص، حماه، دمشق، السويداء، درعا.. كلها أعرفها.. مخافرها، أهلها، قبائلها.. مهنة سيئة، لكن لها محاسنها ولا شك...

- لكنني لا أفهم، بدأ عزيز من جديد متجاهلاً معرفته بأي شيء، ينتقل بناظره بين البطحيش وصاحبه الجديد، دركي سابق وصديق البطحيش!!؟

- لا.. لا تعجب، رد البطحيش نفسه متضاحكاً. لهذه قصة طويلة سأرويها لك.. لكن تأكد.. التيناوي مأمون مضمون كاليد اليمنى لليسرى...

ضحك التيناوي ضحك الفرحان بمديح مس شغاف قلبه، فيما اكتفى عزيز بفتح عينيه أكثر وفغر فيه أكثر، وربت البطحيش كتف صاحبه ثم سأله: اي.. قل لي.. ما الأخبار؟

- ليس هناك سوى أخبار اللاذقية.. بدأ التيناوي على مهل وكأنما يريد استنفار الأسماع وإثارة السامعين.

- اللاذقية!! هتف الرجلان كلاهما معاً لينفرد عزيز، ماذا في اللاذقية؟

- تمرد.. ثورة.. شيء هز الحكومة هزاً.. ثم روى لهما كل ما يعرفه عن ذلك الشيء الذي هز الحكومة هزاً.

- ماذا؟ الكولونيل رينو بنفسه ذهب إلى هناك.. علق عزيز وهو يسمع الخبر المفاجئ، ناظراً إلى البطحيش نظرة استغراب ودهشة.

- ويقولون: هو خائف غاضب يخطط لقصف المدينة، لقلب عاليها سافلها..

- يفعلها الوغد، علق عزيز وقد عجز عن كظم ما في نفسه من غيظ.
- أنت تعرفه؟! سأل التيناوي بصورة مفاجئة جعلته يجفل متبهاً...؟!...
- يعرفه؟ بادر البطحيش مستبقاً صاحبه، من أين؟ لكن أبا العز يعرف سفالة هؤلاء المستعمرين، يعرف نذالتهم..
- كلنا نعرفها.. قال التيناوي وهو يتهدد، ناظراً إلى عزيز. إيه!! لو تعرف ماذا فعلوا بي!! التعذيب، الضرب، السجن، مجرمون هؤلاء المستعمرون، سفاكو دماء..
- دعك من هذا.. تيناوي.. قاطعه عزيز وقد صار كتلة من الاستطلاع. وقل لي.. ماذا تعرف أيضاً عن اللاذقية؟.
- ماذا عن اللاذقية؟ رد وهو يمسح آخر لقمة من صحن البيض، فتنة..
- لا تقل فتنة يا رجل، احتج عزيز بانزعاج واضح.. طالما الناس كلهم وراء ايبفانيوس وضد المستعمر.. إذن هي ثورة..
- ثورة.. بالتأكيد.. رد التيناوي منخفض النبرة، مطأطئ الرأس. أجل.. هي ثورة مباركة لا تواخذني..
- والكولونيل!!؟ أمتأكد أنه ذهب إلى هناك؟ سأله البطحيش من جديد، مستغرباً أن يكون القدر قد تدخل ففر به إلى اللاذقية..
- طبعاً، متأكد.. كلهم يقولون ان المفوض لا يثق إلا به، لهذا أرسله يحل المشكلة وينهي الفتنة.. عفواً الثورة..
- تقصد سيظل في اللاذقية.. لن يعود؟ سأله البطحيش بانزعاج..
- لا أدري.. ما أدريه أنه ذهب وحسب..
- تبادل عزيز والبطحيش النظرات على عجل وكأنما يقول واحدهما للآخر "هذا الطارئ يقتضي إعادة النظر بالخطة فيما بدا التيناوي منشغلاً بجرع كأس الشاي حتى الثمالة..
- اسمح لي، قال وهو ينهض فجأة، خير لي أن أذهب..
- تذهب؟ أين ولما تأت بعد؟ سأله البطحيش دون أن يقف.
- لا.. لا.. رد التيناوي متضحكاً، مشيراً إلى عزيز، يبدو أن بينكما أسراراً لا تريدانني الاطلاع عليها.. أراك فيما بعد، معلمي! خاطب البطحيش وقد صار عند العتبة ثم مضى دون أن ينتظر الرد.

- كيف تثق برجل كهذا؟ سأل عزيز وهو يهيب محتدماً غاضباً، ما إن سمع صوت الباب الخارجي يغلق.

- لهذا غيرت اسمك وشخصيتك؟

- ماذا تريدني.. أن أعرفه بنفسي على حقيقتها؟

- لكنه موضع ثقة، أنا سألت عنه ودققت، رد البطحيش وقد فاجأه غضب عزيز المباغت..

- دركي خدم الاستعمار سنين وتثقل في رحاب عمالته سنين يصبح فجأة موضع ثقة؟ لا.. لا.. أنا أشك به كل الشك وأحذر منه كل التحذير.. قال وهو يشير بسبابته إشارة التحذير، ثم انحنى فجأة على البطحيش.. بل قم الآن.. انهض، ما أظنه ذهب إلا ليأتي لنا بجلاوته.

- ماذا تقول يا رجل؟ رد البطحيش وكله شك وعجب.

- أقول لك انهض.. يجب أن نخلي البيت في الحال.. قال عزيز وهو يشده من يده منهضاً إياه، مسرعاً به خارج الغرفة لكن عند العتبة فقط، ثبت البطحيش قدميه في الأرض متسماً في مكانه ثم قال:

-أذهب أنت.. أما أنا فسأبقى..

- سيمسكون بك...

- لا تخف علي.. ثمة مخبأ هنا يمكنني أن أراقب منه دون أن يعرف بمكاني أحد.. فإن جاؤوا، صدق ظنك، أما إن لم يجيئوا..

- جاؤوا.. لم يجيئوا.. أنا واثق أنه عميل.. فاحذر منه.. واقطع كل صلة لك به..

- سأقطع عنقه إن كان ذلك صحيحاً.. اسبقني إلى دمشق.. تأكد فقط من مكان وجوده. الخطة قائمة ولسوف تنفذ.. هيا.. سافر.. ألحق بك في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم.

ومضى عزيز إلى محطة القطار، عين إلى الورا وعين إلى الأمام، كأنما ينتظر أن يظهر له في كل لحظة رجال الأمن المقتنعون بأفئعة المدينة والحضارة، ثم وصل إلى دمشق وهو مشغول البال على البطحيش، فقد أثار التيناوي في نفسه عاصفة من الشك والارتياب لم يعرفها من قبل..

لكن دمشق بحر من الشواغل والهموم، ما إن دخل فيه عزيز حتى غسلت

أمواج شكه وارتياجه، وطردت شواغله الجديدة شواغله القديمة، مثلما يطرد دائماً  
الجديد القديم:

مناف رسب في شهادة البكالوريا للمرة الثانية.. هو يكره الفرنسي، يكره  
الرياضيات، لا يفقه شيئاً في الفيزياء، فكيف ينجح؟. أول سنة سامحه عزيز..  
معظم الطلاب لا ينجحون من السنة الأولى.. لكن سنة ثانية ويرسب؟ عواد ظل  
معه طوال السنة، يدرسه الفرنسي، الرياضيات، الفيزياء، لكن ها هو ذا يرسب.  
"هو لا يحب الدرس" كانت أمه قد نيهته أكثر من مرة "لكنه كان بارعاً في  
المدرسة". "حتى الصف العاشر وقبل أن يراهق". "إلى هذه الدرجة تغير المراهقة؟"  
"لم لا، وقد صار عقله في مكان آخر؟" بدأت تشرح له.

كان عزيز قد علم، من هنا وهناك، أن عقل الولد عند خيرية، ابنة أم  
روضة، التي تفوق روضة جمالاً ودلالاً. من الكوى يختلس واحدهما النظر إلى  
الآخر، عند الباب، على السطح، عبر الشبايبك يلتقيان، هما دائماً في شغل  
شاغل خلاصته "كيف يلتقيان؟"، ولا يعدمان وسيلة لذلك.

..فكيف لا يرسب مناف؟.

- سيظل يعيدها إلى أن ينجح، قال عزيز لشمس وقد احتقن وجهه غضباً.  
-وما الفائدة؟ ردت شمس هازة رأسها يأساً، إن كان الولد لا يطبق الكتاب  
ولا الدرس، لماذا نرغمه على ذلك؟ دعه يتفرغ للعمل، زوجه وارث من همه...

وأطرق عزيز يفكر دون أن يجد فرصة لاتخاذ قرار.. بدور نجحت في  
"البروفيه"، لكن المشكلة: هل تقعد في البيت أم تتابع الدراسة؟ بنات الجيران كلهن  
يقعدن في البيت، بل معظمهن لم يذهبن إلى المدرسة وإن ذهبت واحدتهم فلكي  
تتعلم القراءة والكتابة فقط. ولماذا وجع القلب؟ "كان سؤال أم روضة الذي يلخص  
موقف حريم الميدان.

"البنات للبيت ولشغل البيت فلماذا المدارس والتعب؟" بدور من القلة القليلة  
التي عرفت طريقها إلى المدرسة. الأعين تلتهمها في الغدو.. والذهاب، الألسن  
تسلقها في الأزقة وخلف الحيطان، فهل يستطيع عزيز التحمل أكثر أم حسبه؟  
شمس طموحة... منذ البداية أرادت أن تكون بدور امتداداً لها، تجسد كل ما  
ينقصها، تحقق كل ما لم تستطع تحقيقه ودفعت بها، مشجعة دائماً حاثثة دائماً،  
فكيف تهن عزيمتها الآن؟.

- اسمعي مني، الناس كلهم يقولون حسبها "البروفيه".. قال عزيز وهو

- يخشى أن يكون قد بلغ آخر حدود الاحتمال..
- أسمع كلام الناس؟ أتقت في عضدك ثرثرات الناس؟.
  - لا أدري.. رد بشيء من تردد وحيرة، أخشى..
  - لا.. لا تخش شيئاً، قاطعته شمس وقد عادت لها ثقته بنفسها وشدة إصرارها. دعها تكمل تعليمها.
  - على العشاء تداولت الأسرة في الأمر.
  - بدور، حبيبتى، سألها الأب وهو يشد كتفها بذراعه حباً وحناناً: أخبريني، تريدان أن تستريحي أم تكلمي تعليمك؟
  - بل أكمل.
  - كيف ومدرسة البنات بعيدة؟
  - أنا أحب التعليم.. دعني أذهب إلى دار المعلمات..
  - معلمة؟! رددت الأم بإعجاب وفخر.. تعجبني المعلمة!!
  - وعملها رائع، تدخل عواد الذي كان منذ زمن طويل يعامل فرداً من أفراد الأسرة. بل ليس هنالك أسمى من عمل المعلم. ألم تسمعوا قول الشاعر "كاد المعلم أن يكون رسولاً"؟ ومضى عواد يشرح ببلاغة منقطعة النظير فوائد تلك المهنة وعظمة أصحابها، محامياً لا يشق له غبار..
  - ماذا؟ وجدتها مناسبة ترافع فينا حضرة المحامي؟ سألته شمس ضاحكة، إذ لم يكن يفوت فرصة يستطيع فيها المرافعة عن شيء إلا وينتهزها، لكننا هي طبع متأصل في كل محام: يجرب عزمه في ساحات القول والكلام...
  - محام!! وأنى لي المحاماة؟ قال عواد، وهو يتهد حسرة على سنتين ضاعتا منه في كلية الحقوق، دون أن يتجاوز السنة الثانية.
  - لا تخف، ستصير محامياً.. لسانك يؤهلك لذلك، تابعت شمس وهي تضحك، فيما كان عزيز يفكر بالاقتراح الذي يحمل له جملة من الشواغل والهموم الجديدة، فالقبول في دار المعلمات لا يأتي على طبق من فضة، بل لا بد من تدخل شخصية من الشخصيات أو واسطة من الوساطات.
  - نواف جاءه توعم من البنات، هكذا جاء الخبر من القرية.. دملجة، كأمها، خصبة معطاء.. ربما ستصنع له خلال عقدي سنين عشيرة من.. البنات والبنين.
  - يجب أن نذهب إليهم، نبارك ونرى الأحفاد.. اقترحت شمس وقد ضمهما

مخدع النوم، فهز عزيز رأسه نفياً..  
- مستحيل.. أنا بانتظار صاحبي.. غداً يأتي ونفذ المهمة، قال شبه هامس  
وكأنه يخشى أن تكون للأذان حيطان.  
- لا تدعه يأتي هنا.. ردت وقد عرفت كل ما اتفق عليه مع البطحيش..  
الحي مزروع برجال الكولونيل..  
- ماذا تقولين؟  
- الكل يؤكدون: ثمة عيون في الحارة.. غرباء يأتون ويذهبون وكأنهم  
يراقبوننا.

- الخطر يشتد إذن، والأنشطة تضيق؟  
- لهذا.. خير لنا أن نبتعد.. اقترحت، هي التي مازالت تفضل فكرة الهرب..  
- بل خير لنا أن نخلص منه.. قال وهو يركز على أسنانه مؤكداً كل  
حرف..

- لكنني خائفة.. أخشى أن نقع في ورطة أشد..  
- لا تخافي.. أنا سأظل بعيداً.. هو سيفعل كل شيء، قال وهو يشير إلى  
صاحبه البعيد، الذي لم تكن شمس قد رأته أو عرفتة.  
- لا أخاف؟ كيف، والخطر يحرق بي من كل جانب؟  
- أين إذن الفارس المثلث؟

- إيه! ردت شمس متتهدة وعيناها تشردان بعيداً. يالثلثك الأيام!! الخوف،  
الحزن، الهم، الغم، كلها لم يكن يعرفها الفارس المثلث.. أما اليوم فما الذي منها لم  
تعرفه شمس؟ أي قلق لم تعشه وأولادها قريبا أو بعيدين عنها: مناف، نواف،  
بدور.. بل حسبها الأخضر ذاك الذي جرفه سيل هتلر وهو يكتسح باريس. خبر  
صغير كان قد أوصله الكولونيل: "الأخضر رحل إلى الجنوب مع أهلي". ثم ماذا؟  
لا أحد يعلم، كانت فرنسا ما تزال بحراً من الاضطرابات والقلقل. وكان عزيز  
نفسه قلقاً، لكن إحساساً ما في داخله يؤكد له أن الأخضر رجل، والرجل لا يخشى  
عليه... هو يصرح لها بأحاسيسه تلك، لكن كبد الأم تأبى إلا أن تنفطر على  
فلذتها وقد ضاعت آثارها.

"إيه!! يا للزمان!!" همهم في سره وهو يرى الدموع على خديها. "كم تتبدل  
مشاعر الإنسان!! كم يتغير الإنسان!!" وألقى عزيز بنفسه إلى جانبها فلم تحرك

ساكناً، كفاه تحت رأسه، عيناه إلى السقف، وهي جامدة في الفراش، خامدة.. حين كنت أعود من غياب كنت أجدها على أحر من الجمر، تنتظرنى وكلها لهفة وشوق، فلماذا لا جمر اليوم ولا حر؟ لا لهفة ولا شوق؟! أمات حبها لي؟ أحمدم الجسد فلم يعد فيه حر الحب ولا جمر الشباب؟" يتساءل وهو يتطلع إلى نفسه في مرآة الخزانة.. هو نفسه خامد بارد" لا... مازال حبي لشمس راسخاً قوياً.. روحي معلقة بها حتى ليخيل إلي أنها إن قطعتي مت.. لماذا الخمود إذن؟ لماذا الهمود؟ أنا نفسي لا أشعر بما يدفعني لأن أهصر الجسد.. لأن أضمر وأشم، أقبل وألثم.. أهو العمر إذن يفرغ العظام من نقيها؟ الشرابين من دمائها؟ أهى الكهولة تسحب أشواق الجسد حتى تجعله خواء إلا من المشاغل والهموم؟"

- بماذا تفكر؟ سألته دون أن تنتظر إليه.

- بماذا تفكرين؟ غمغم وهو يقترب بيده من صفحة خدها التي طالما سحرته؟.

- وهل هناك شيء لا أفكر فيه؟! الأولاد وهموم الأولاد؟

- أترين؟ نخلف الأولاد ليلتهمونا.. عناكب تأكلها فراخها..

- لعل هذه هي سنة الحياة، غمغمت وكأنما تحدث نفسها، دون أن تعير انتباهاً لليد التي كانت تمسك صفحة الخد، فقد كان كل ما فيها هامداً بارداً كطين الشتاء.

في اليوم التالي، رحلت شمس إلى ابنها نواف.. كانت دمشق قد أصبحت بالنسبة إليها شبحاً مخيفاً لا يفتأ يحوم أمام عينيها هنا وهناك، باثاً في قلبها الذعر. وكان نواف، القرية، البادية، كل ما هو خارج دمشق يفتح لها باب الحرية على مصراعيه، باب الأمن والأمان، فكيف لا تسرع إليه؟.

- الحق بي بأسرع ما تستطيع، نصحت عزيزاً وهي تودعه، لكن عزيزاً لم يكن بحاجة لنصيحة.. كان هو الآخر يريد الخلاص.. يريد الحرية، لكن كيف، وسيف الكولونيل مسلط فوق عنقه؟

- أنني المهمة والتحق بك، وعداها وهو يعلم أن قتل كولونيل فرنسي في قمة الهرم من السلطة أمر دونه خطر القتاد.. صحيح أنه فكر بالأمر دون أن يرف له جفن. خطط له، دون أن يساوره خوف، لكن التخطيط شيء والتنفيذ شيء آخر..

مهمات كثيرة كان قد قام بها من قبل: جند، سرجانات، أجناسات. لكن هذا كولونيل، .. وما الفرق؟ "راح يتساءل وهو في طريقه إلى المحل. الرجل الذي

تكن له ثم تغمد في صدره خنجرك أو تزرع في جسده رصاصك هو رجل سواء أكان نفعاً أم جنراً.. لا.. عزيز لا تخف"، في المحل روى صبري له قصة اللاذقية أيضاً، لكن بعد أن أضاف "المفوض السامي ناظم على الكولونيل.. سحبه من اللاذقية في ليلة لا ضوء فيها، والكولونيل يا كباه!! يا تعساه!!" ورفرف قلب عزيز فرحاً.. ثم أسرع يغادر المحل..

بأعصاب باردة ذهب يسأل عن الكولونيل. يستطلع حركته.. نظام حياته. الحراس حول بيته تحاشى نظراتهم، العيون في حارتهم راوغهم، فعليه حين يأتي البطحيش أن يكون قد عرف كل شيء.

- مساك الله بالخير، أستاذنا! بادر عزيز الأستاذ، وقد دخل المقهى الذي بات لا يفارقه.

- أبا الأخضر! رد الأستاذ شبه شاهر، أين أنت يا رجل؟ إني والله لمشتاق! عزيز معجب بلغة الأستاذ وفصاحته، بعلمه وضلوعته، إعجابه بفهمه في الحياة وكفاحه في ميدان السياسة.

- ماذا؟ أراك وحيداً، قال عزيز وهو يتلفت حوله. بل أرى المقهى شبه خاو: .. تابع وهو يرى جاسوس الكولونيل يحتل إحدى الطاولات القريبة.. مارأيك. نذهب إلى البيت؟

- نذهب.. رد الأستاذ وهو ينهض ضاحكاً، غامزاً باتجاه الجاسوس، ولم لا نذهب؟

على جناح السرعة أعدت لهما وضحة العشاء، وعلى العشاء راح الأستاذ يصول ويجول.

- صارت الحرب عالمية حقاً.. روسيا، أمريكا، أوروبا، أفريقيا، آسيا، كلها بلغت نارها..

- لو تبلغنا هنا فتحرق بلهيبها هؤلاء الفرنسيين..

- هي بالغة.. كن على يقين، أكد الأستاذ الذي يتابع أخبار السياسة لحظة بلحظة ويكتب عن السياسة يوماً بيوم ويشارك في صنع السياسة على الدوام. بعدئذ حدثه عن اللاذقية التي كادت تشعل فتيل الثورة في البلاد، ثم انتقل إلى العراق حيث اشتعلت ثورة هناك، وحيث رشيد عالي الكيلاني يهز بيده عرش بريطانيا العظمى أو يكاد.

- كم ذا يبشر بالخير!! هتف عزيز فرحاً.

- ما يبشر بالخير، الشفاق الخطر الذي دق اسفينة بين الفرنسيين أنفسهم.
- تقصد ديغول.. بدأ عزيز فتابع الأستاذ.
- طبعاً!! طبعاً!! ديغول وحكومة فرنسا الحرة.. وبيتان وحكومة فيشي.
- بعد نذ اقترب هامساً بكثير من الفرع، يقولون ان حرباً في كل مكان ستقوم بينهما.
- يا إلهي!! أي نبأ مفرح أستاذ!! كم أنا سعيد به!!
- ولسوف تكون أسعد حين تسمع الخبر الطازج.. قال الأستاذ ثم توقف متحسباً عزيز، وكأنما يبحث عن أثر من الإثارة عليه.
- أي خبر طازج!؟
- الديغوليون والإنكليز يريدون وضع يدهم على سورية..
- كيف؟
- المفوض السامي أعلن ولاءه لحكومة فيشي، لكن ضباط الجيش منقسمون.. بعضهم ديغوليون وبعضهم فيشيون..
- عظيم.. وماذا بعد؟
- الإنكليز وجدوها فرصة سانحة.. يضرّبون بديغول هتلر وحكومة فيشي ويستولون على مستعمراتها..
- كم هم ثعالب مأكرة هؤلاء الإنكليز! علق عزيز ملوحاً برأسه..
- هذه الثعالب المأكرة قادمة إلينا هنا!!
- حقاً.. أستاذ!!
- حقاً وصدقاً!! المعلومات تقول: قريباً.. .. سنتطلق الشرارة هنا، ويقتتل الفيشيون مع الإنكليز والديغوليين على سورية..
- ومن تحسبه ينتصر أستاذ، الفيشيون أم الديغوليون؟.
- أياماً ظل ذلك السؤال دون جواب، وأياماً ظل الشغل الشاغل لكل مهتم بالسياسة في دمشق.. أينتصر الجنرال ديغول وإنكليزه، أم المارشال بيتان ونازيوه؟ كان ديغول قد أعلن فرنسا الحرة حليفة لبريطانيا العظمى، داعياً الفرنسيين للالتحاق بجيشه ذاك الذي سيقا تل النازي حتى آخر رمق، يحرر فرنسا، مهما كان الثمن.. صوت ديغول بات يسمعه العالم كله، وهو يهدر من لندن مهدداً بالانتقام من النازيين، منادياً بالثأر لكرامة فرنسا الجريحة. حكومة فيشي، رفضت نداءه،

بل اعتبرته متمرداً خائناً، وبدأ الفرنسيون ينقسمون: أناس يريدون القتال مع ديغول، وآخرون يريدون الاستسلام مع فيشي..  
.. الانقسام بين الطلاب، العمال، الفلاحين، بل هو في الدولة، الإدارات، الجيش...

جيش الشرق نفسه منقسم على نفسه. شرح عامودي شطر الضباط، الجند، القادة شطرين: كلاهما متحمس لصاحبه، مدافع عن موقفه.. المفوض السامي شطر والكولونيل شطر آخر. أحداث اللاذقية زادت الشرخ بينهما، توبيخ المفوض السامي وتهديده له زاد في قلب الكولونيل الحق.. ومع بوادر تحرك الإنكليز من فلسطين وشرقي الأردن، عقد المفوض السامي اجتماعاً لأركانها.. ظهر الانقسام فيه على أشده.. المفوض السامي يريد قتال القادمين والكولونيل يريد الانضمام إليهم.. الاجتماع بدأ بكلام وجدال، ثم انتهى بصراخ وصدام، أعقبه فجر اليوم التالي برقية عاجلة طيرتها حكومة فيشي إلى دمشق؛ "اعتقلوا الضباط الديغوليين جميعاً"..

في الهزيع الأخير من ذلك الليل، وصل البطحيش إلى بيت الميدان.. ومع الفجر، مضى مع عزيز إلى الكولونيل، ينفذان المهمة. لكن ما إن وصلا قرب منزله حتى فتحا عيونهما على سعتها: كان ثمة مصفحة وكان الكولونيل يحشر فيها أشعث الشعر موثق اليدين، مكبل الرجلين، ثم بسرعة البرق تتطلق به على طريق بيروت... "الفيشيون ينتصرون" جاء جواب السؤال، فلم يملك عزيز إلا أن يطلق تهيدة طويلة وكأنه يتنفس الصعداء...

- البشرى لك. قال عزيز شبه هامس وهو يأخذ زوجته بين أحضانه.  
- خير؟ أية بشرى؟ سألته شمس شبه هامسة أيضاً، وهي تستقبله عند باب دار القرية العريض العالي الذي تدخل منه سيارات وعربات بخيولها.  
- بشرى تفرحك كثيراً، بل قل لي هي بشرى مزدوجة.. بدأ عزيز على مهل لكنه لم يستطع أن يكمل فقد ازدحم من حوله المستقبلون: أخوه يونس، ابنه نواف، عليا، حفيفة، دملجة، أولاد يونس، أولاد الجبران، جبران الجبران، فالغريب حين يصل إلى القرية يستقبله كل من القرية.. هم يعرفون مواعيد "البوسطة" التي تذهب باكراً إلى المدينة محملة بكل ما في البادية، القرية من منتجات وغلل: خضار، بيض، حنطة، شعير، غنم، دجاج، صوف، أسمان، ألبان.. والقائمة تطول، لكنها حين تعود عصراً تكون محملة بأشياء أخرى كلها للاستهلاك: سكر، شاي، قهوة، أقمشة، معدات، مصنوعات.. والقائمة تطول أيضاً. الكل في القرية فرحون بـ"البوسطة" التي حلت محل العربات والدواب.. عزيز يتذكر كيف كان يسافر على فرسه الشقراء من حماة إلى القرية وبالعكس. يونس يذكر جيداً كيف قطع جنزير العربة اصبعه حين هاجت خيول العربة وكادت توديه في داهية.. الآن لا عربة ولا خيول.. لم يعد هناك حاجة لأن يقضي واحدهم الليل بطوله وربما نصف النهار كي يقطع المسافة بين أم العيون وحماة!!.. ساعتان أو ربما ثلاث ساعات، ثم تجد نفسك في المدينة: "هذا هو العلم: اختصار للزمن وتوفير للوقت والجهد".. في الصباح خرج من دمشق وها هو ذا العصر في القرية.. فأى إنجاز حققه العلم!! أي تقدم حققه الإنسان!!

السلامات الحارة، القبل، الأخذ بالأحضان، كلها شغلت عزيزاً عن شمس وعن بشره المزدوجة، لكن ما إن وقف على طرف الجرن الأزرق حتى عادت

تسأله. كان يغسل يديه ووجهه من ماء البئر التي لم يحفرها علي المر، بل وجدها محفورة منذ عصور خلت ومغطاة برقاقة حجرية، رفع الرقاقة عنها فوجد الماء، كما وجد في إحدى التباب التي حفرها ذات يوم الجرن المصنوع من حجر أزرق والذي يتسع لبرميلي ماء. نقله إلى جانب البئر ليصبح مغسلة ومنهل ماء للإنسان والحيوان.

- الكولونيل طار.. أجابها فرح في صدره كان ما يزال يتواثب مذ تنفس تلك الصعداء.

- طار؟ ماذا تعني؟ قتلتماه؟ سألته بأخض نبرات الهمس والخوف.

- كنا على وشك ذلك.. لكن ربك كريم.. لوح عزيز برأسه وهو يرد ضاحكاً ثم روى لها القصة من الألف إلى الياء...

- يا إلهي! ما أعذك وأرحمك!! هتفت شمس متنفسة هي الأخرى الصعداء...

- ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أخالها لا تفرج. ردد عزيز بيت الشعر دون أن يذكر كيف أو متى حفظه...

- تقصد.. قضيتنا انتهت؟! هز عزيز رأسه بالإيجاب وهو يرشق وجهه بالماء فتابعته! لن يتابعها أحد؟.

- لا.. لا أظن.. ثم شرح لها عزيز كيف تغير كل شيء بعد ذهاب الكولونيل...

العيون التي كانت ترصد الحارة، الجواسيس الذين كانوا لا يبرحون أزرقة الحي وعيونهم على منزلنا.. جميعاً اختفوا ما إن حملت المصفحة كولونيلهم إلى بيروت..

- الله!! هتفت شمس فرحة.. كم كنت سأسر لو رأيتهم يحشرونه أشعث الشعر، موثق اليدين، مكبل القدمين في المصفحة..

- أنا رأيته وفرحت عني وعنك..

- والحارة؟ سألته شمس بإشارات معينة من يديها.

- طوال خمسة أيام ظللت أنا والبطحيش نرقب ونرصد، لكن كل شيء كان هادئاً. الحارة خالية، لا غرياء ولا عيون.

- إذن، انطبق عليه المثل "صياد وصادوه". علقت شمس ضاحكة، فضحك

عزيز. "التعليق نفسه علقه البطحيش"، فكر عائداً بذهنه إلى أيام خلت.. كان تعليق البطحيش قد ذكره بصياد آخر. "أخشى أن يكون قد خلف وراءه من يصطادنا نحن؟" عقب حينذاك وهو ينظر إلى البطحيش نظرات عاتبة، ملمحاً إلى الرجل الذي أثار توجسه وشكّه في عش النسر.

"أرأيت؟ ظلمت الرجل!" رد البطحيش بنبرة المنتصر. "من يسمع كلامك حينذاك، يظن أن التيناوي سيأتي بهم لاعتقالنا في التو واللحظة.. لكن.. صدقني.. ظللت طوال ذلك النهار والليل أراقب الأزقة، الحارة، لم يأت جندي إليها ولا اقترب غريب من عش النسر" "عجيب!! لماذا توجست منه شراً إذن، أخيبي حدسي؟" "الرجال يشتغلون بالعقل.. أما النساء فيشتغلن بالحدس، أتريد أن تصبح كالنساء؟" ولم يستطع عزيز أن يتابع جداله. أحس أن في فيه ماء. "البطحيش واثق بالتيناوي كل الثقة، تجربته معه طوال سنة أو يزيد زادتته ثقة واطمئناناً، فلماذا نظلم الرجل إن كان وفيماً مخلصاً؟ لماذا نخسره إن كان بالإمكان كسبه وطنياً مقاتلاً، عوناً لنا ومساعدة؟" ولم يملك عزيز إلا أن يطرق برأسه صامتاً..

- إيه.. هتقت به شمس محرّكة كفها يمّنة وبسرة أمام عينيه، أراك، شردت؟.

- البطحيش عاد إلى درعا حزينا، رد عزيز هازماً رأسه، أتعرفين لماذا؟

- لماذا؟.

- لأنه لم يستطع الانتقام من الكولونيل، وقهقه ضاحكاً.

- احمد ربك أنه وفر عليك مخاطرة كهذه.

- هكذا قلت، عقب عزيز ضاحكاً. حين رأيتهم يحشرونه في المصفحة قلت

له كما قال ذلك الأعرابي: الحمد لله الذي مسحك كلباً وكفانيك حرباً..

ضحكت شمس ضحك الفرح والسعادة ثم قطعت ضحكتها فجأة وكأنما

تذكرت شيئاً..

- هذه هي البشرى الأولى فما الثانية؟

كان عزيز قد أنهى غسل وجهه ويديه، وكان ينشف بالمنشفة وهو يتأملها

بأناسة وروية، كأنما يبحث عن أفضل السبل لمفاجأتها، تأبط ذراعها إلى ركن

الدار، فحثته..

- هيا.. قل.. تكلم..

- الأخضر بخير.. بدأ، لكنها سرعان ما قاطعته بلهفة مجنونة:

- الأخضر!!؟ ابني؟ حقاً؟ كيف؟  
وشرح عزيز يضحك من لهفة الأم العجيبة على فلذة الكبد.  
- جندي جزائري جاء مع القوات الجديدة إلى دمشق.. شرح لها عزيز  
فراحت تحته برأسها، يديها، مهماتها...  
- إي.. إي..  
- تعرف إلى الأخضر قبل أيام فقط في باريس، تابع عزيز الشرح، فأرسل  
معه الأخضر رسالة..  
- رسالة!! هتفت شمس تكاد تطير فرحاً.. أين هي؟ هاتها..  
- تفصلي!! اقربي بنفسك!! قال وهو يخرج ورقة مطوية بعناية في محفظته  
الجلدية. خطفها شمس من يده ثم غرقت للتو في الأسطر التي طال انتظارها  
لها.  
"أبي الحبيب، أمي الحبيبة..  
قبلاتي الحارة وأشواقك الكبيرة لكما، يا أعلى من لي في هذه الدنيا، لأخوتي،  
للأهل جميعاً، للوطن الغالي.. أرجو أن تكونوا جميعاً على أحسن ما يرام!!  
أنا هنا بخير.. ابتعدت بضعة أشهر عن باريس، ثم عادت المياه إلى  
مجاريتها. النازي يمسك البلد بقبضة من حديد.. النظام سائد، الأمن مستتب.  
حكومة فيشي تمتثل خاضعة طائعة لأوامر المحتل، لكن مالي؟ أنا هنا أجنبي لا  
شأن لي بالنازي ولا بالفرنساوي...  
لي مهمة وعلي أن أنجز هذه المهمة. اطمئنوا لقد عدت إلى كليتي  
ودراستي.. كل شيء على ما يرام.. لا تأكلوا همي.. أنا أدبر رأسي ولن أعود إلا  
ومعي شهادتي الكبيرة.. زودوني بالمال فقط، ولن تعدموا وسيلة لتأمينه لي  
وتزويدي بأخباركم.. أحبكم جميعاً.. أقبلكم جميعاً.. وإلى اللقاء.."  
سواقٍ من ماء أزرق جرت على الورقة، وشمس تقرأها.. لم تكن تدري كيف  
تتبع من عينيها الدموع، فرحاً أم حزناً؟ طمأنينة أم قلقاً؟ ففي الرسالة الكثير مما  
يطمئن، وفي الوقت نفسه الكثير مما يثير الهواجس...  
- تبيكين؟ سألتها عزيز وهو يعود بنظره إلى غرفة المضافة، حيث كان أخوه  
يونس، نواف، النسوة، الأولاد، كلهم قد تجمعوا بانتظاره..  
- لا أدري!! أخشى عليه من النازي..

- لا.. لا تخشى عليه.. هو نفسه يقول ذلك، قال بنبرة ارتياح ثم تابع،  
بالعكس، أنا أخشى عليه من الفرنساوي..

- الفرنساوي.. عسى أن يسحقهم هتلر كالقمل...

وأطلق عزيز ضحكة تشفٍ وهو يسرع بشمس إلى المنتظرين رغم كل الشوق الذي كان يمضه وقد غابت عنه أربعين يوماً. نواف فرح بأبيه، فرح بأخبار أخيه، فرح حتى بتوعم البنات الذي جاءه رغم أنه يود لو كان توعم صبيان. سمى الأولى باسم شمس، فسمت دملجة الثانية باسم عليا، "وما أحد أحسن من أحد". سمع عزيز فبارك الإسمين جهاراً، لكنه لم يملك إلا أن يضحك خفية، شمس وعليا!! إيه!! لكأن نجميهما مقترنان معاً في السماء لا يباينان الافتراق جيلاً بعد جيل.. "تلقي عزيز حفيدتيه وهما في اللفائف، واحدة بعد الأخرى قبلهما، واضعاً ليرة من الذهب "نقوطة" في لفافة كل منهما.

بعدئذ تفرغ لأخيه يونس ولم يكن أقل شوقاً إليه من شمس.. "إيه يا زمان!! تمر سراعاً لهائناً، حتى لا يرى الأخ أخاه ولا الابن أباه!!" وحدث عزيز ملياً إلى الشيب يغزو أخاه الأكبر غزواً مبيناً.. كانت سنتان وبعث السنة قد مرت على آخر مرة زار فيها عزيز القرية، وكان قد طلب إلى يونس أكثر من مرة أن يزوره في دمشق، لكن يونس كثير الأشغال، متعدد النشاطات، متعدد المهام حتى ليمرق الشهر مروق السهم فلا يشعر به.

أراضيه الممتدة في قرى ثلاث بحاجة إلى عمل، إلى متابعة، كل يوم. لم يكن يونس منذ عشر سنوات ونيف، يعمل بيده.. فما حققه علي المر خلال عشرين عاماً، كان قد غدا بحاجة إلى فلا حين يفلحون ويزرعون، عمال يحصدون ويدرسون.. وكانت هجرة خفية قد بدأت منذ زمن طويل إلى القرية.. من الغرب، من الشمال، بل حتى من الشرق حيث البدو والرعاة. كان الناس يتوافدون على أم العيون بحثاً عن الرزق، وكان علي المر يستقطب هذه العائلة أو تلك، يعطيها المأوى، يفتح لها باب العمل، يستفيد ويفيد.. على سنة أبيه سار يونس: عائلتان لديه الآن في أم العيون، عائلة في أم الرجوم وأخرى في قليب الثور، ويونس دولاب هواء يتحرك، يساعده إبراهيم، نواف... هو هناك يتحرك، يدور.. موجهاً، مرشداً، مراقباً، مدققاً. قطيع الغنم لديه ثلاثمائة رأس، الأبقار اثنتا عشرة وعجولها، الخيول، العربات.. وفي كل موسم تأتيه غلال الشعير والحنطة أكداً أكداً.

لم يعد يونس يخشى من بدوي يريد عدلاً من حنطة.. الحنطة كثيرة، الشعير

كثير، بل حتى العدس، الحمص، الذرة.. أرض أم العيون خصبة، كذلك الأراضي الأخرى والغلل وفيرة تتحول كلها إلى ذهب يكثره يونس، مواشي وأرزاقاً تفتقاً كالحصرم عين الحسود.

عزيز فرح بالعائلة التي نمت وتكاثرت حتى غدت عشيرة: أولاد يونس من حفيظة، من عليا، أولاد ابن عمران، أولاد نواف.

"ياالله!! كم يتكاثر الإنسان!! ما أسرع ما تنمو الذرية وتتناسل!!" كانت قد مضت ثلاثون عاماً على رحيلهم من الريحانة.. أسرة علي المر لم تكن تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

.. وأصابع يد واحدة انخرطوا في الركب الذي انطلق على عجل باتجاه الشرق.

عزيز يستعيد مع أخيه يونس ذكريات تلك الأيام، يتذكران الأم الطيبة التي رحلت قبل الأوان، يتذكران الأب الشجاع الحكيم، الذي قاد الركب يومذاك، ونصب عينيه أراضٍ على أطراف البادية، لا تطولها يد العصملي ولا سوط أبي شعيب...

عزيز سعيد بإنجازات العائلة، بالمواشي، بالأغنام، بالأراضي التي لم تعد تزرع حنطة وشعيراً وحسب، بل دخلت زراعات جديدة لا يدري أحد كيف؟ الكروم باتت تشغل واجهة أم العيون كلها.. عزيز تجول مع يونس هناك.. رأى دوالي الكرمة وهي تنتصب خضراء زاهية، حاملة بقية من عناقيد، أعنايبها بلون الذهب...

القطن.. حقول صغيرة باتت تنتشر هنا وهناك في أم العيون. تسقيها مياه القنوات، الينابيع الكثيرة الغزيرة، السواقي التي حفرها أهل القرية لتصرف مياه المستقع.. شجيرات عالية متفرعة، كثيرة الجوز يصبح هذا النبات ومن الجوز يفتح القطن الأبيض غلالة ناصعة كالتلج على جذع أخضر كالمرج.. "أي جمال يصنعه هذا!! أية لوحات زاهية ترسمها يد الطبيعة!!"

-أرأيت؟ كم تطورت أم العيون!! قال يونس، وهما يتجولان بين الكروم والأقطان..

-هي ذي سنة الحياة: التطور والتغير: لا شيء في الكون يبقى على حاله، فإما أن يتقدم أو يتأخر...

-صحيح، الماء ان لم يتقدم أو يتأخر أسن وأنتن.. قال يونس وقد وصلا

إلى طرف المستنقع، حيث الصفصاف متشابك الأغصان يتدلى بأطرافه حتى الماء، إبلا تمد أعناقها لترشف من المنهل. أصوات الضفادع تملأ المكان جوقة تعزف سمفونية الحب الأبدية نداء الذكر للأنثى.. ودون أن يشعر عزيز وجد نفسه يشرد بعيداً موغلاً في الزمان حين كان الجوع ينهش أحشائه فيسارع إلى المستنقع، يصطاد الضفادع والحيات يأكلها وحيداً وبالسر، وكأنما يرتكب إثماً عظيماً.

رأه يونس شاردأ فضحك:

-تذكرت أيام الجوع؟

-والوجبات الشهية التي كان يطعمني إياها هذا المستنقع، قال ضاحكاً وهو يشير بيده إلى المستنقع الكبير الممتد وقد ازداد قصبه وصفصافه، حتى بات من المتعذر ولوج أماكن كثيرة منه وكأنها في طريقها لأن تتحول إلى غابات عذراء.

-ظننتك نسيت القرية؟ نسيت الماضي؟ قال يونس وهو يشير وراءه إلى القرية وإلى نقطة بعيدة في الزمان.

-أنسى؟ كيف والقرية هي التربة التي تنغرس فيها جذورك عميقاً تستمد منها النسغ كله، الماء والغذاء؟ كيف والماضي هو مسرح الذكريات ومنبتها دائم التدفق.. لا تذهب ذكرى إلا وتأتي أخرى لتجد نفسك أبداً مشدوداً إلى حيث الجذور والذكريات.

-لو تعود فنمضي بقية العمر معاً، يشد واحدنا أزر الآخر ويمد واحدنا يد العون للآخر..

-ربما أعود.. من يعلم؟ قال عزيز بعد أن تفحصه ملياً، فالفكرة لم تكن قد خطرت بباله. لكن ما إن نطق بها يونس حتى بدت مغرية: "حقاً لم لا أعود إلى القرية؟ كان عزيز على مشارف الخمسين، والخمسون سن الكهولة والاستقرار.. يبدأ المرء فيها بوضع رحاله استعداداً لشيخوخة هادئة يحصد فيها المرء ما زرع أيام الشباب والقوة ويهنأ بما جنى بعد رحلة التعب والشقاء.

-حقاً؟ سأل يونس بلهفة مفاجئة وقد حسبها مجرد رمية في الهواء، أتفكر في ذلك؟

-تعلم يونس؟ حنين لا يوصف يشدني دائماً إلى هذه المروج، الغدران، أفنية المياه، بل حتى إلى الكهوف التي أوتنا أول ما جننا إلى أم العيون.. الآن العمران انتشر، القرية صارت كبيرة فيها خدمات، محال تجارية فلم لا أعود؟

-حقاً، لم؟ قال يونس فرحاً مشجعاً، العسكري يخدم في الجيش سنين طويلة، الموظف في الدولة، الدركي في المخافر ، ثم يتقاعد واحدهم فأين يذهب؟ يعود إلى موطنه.. المغترب نفسه يرحل بعيداً، يهاجر سنين وسنين ثم لا يجد نفسه إلا وهو يشد الرحال إلى مسقط رأسه.. فافرض نفسك موظفاً متقاعداً أو مغترباً عاداً.. -أجل.. لهذا أقول لك ربما.. لم أفكر بالأمر من قبل، لكنني سأفكر فيه بالتأكيد. قال وهو يزفر زفرة تحمل أكثر من معنى. شعوري يونس، أن الرحلة قد أوشكت على الانتهاء.

ذلك الشعور كان قد بدأ يساوره خفية دون أن يصرح به حتى لشمس. هو مع شمس يكره أن يعترف بمرور الزمن، يود لو يظل شاباً دائماً. شمس أحبته هكذا: رجلاً ملؤه الشباب والحياة، فكيف تراها تنظر إليه وهو كهل ينحدر إلى الشيخوخة؟

أحياناً يخطر بباله أن يناقش معها الأمر، أن يسبر غورها فيرى ان كانت تنتظر على حبها إن ضعف أو عجز، لكنه لا يجروء.. دائماً يتوقف قبل خطوة واحدة فلا يقرع ذلك الباب: "شمس امرأة والمرأة كالدنيا لا تحب إلا الشباب والقوة" لكن ذات صباح أفاقت شمس قبل طلوع الشمس، فالديوك في القرية تتولى مهمة إيقاظك رغماً عنك.. هي نشطة تسيق نور الشمس وتريدك أن تسيقه معها، فتطلق العنان لحناجرها تصيح وتصيح إلى أن تفتح عليا الخم وحفيظة باب المغارة، فتخرج مرفرفة بأجنحتها، ساعية في الأرض بحثاً عن رزقها وإليه النشور.

-عزيز، قالت شمس بعد أن قبلته قبلة الصباح، طوال الليل وأنا مع أمي، أخشى أن يكون قد أصابها مكروه.

-لا مكروه، بإذن الله.. رد وهو يجلس في الفراش فاركاً عينيه متثائباً.

-لكنه حلم فطيع.. بدأت متخوفة فقاطعها للتو:

-إن هي إلا أضغاث أحلام.. ألم نتفق على ذلك من قبل؟ كان عزيز يكره الأحلام وتفسير الأحلام وكان كثيراً ما يشتبك مع شمس من أجل هذا الحلم أو ذاك، لكنها اليوم مصرة.

-يجب أن أطمئن عليها.

-قولي ذلك منذ البداية، قال ضاحكاً وهو يتذكر أنها كثيراً ما باتت تلف حول الغرض الذي تريده وتدور، شأن النساء كلهن. تريدين أن تطمئني عليها؟ لكن هل تعرفين أين ينزلون؟

-في سفوح البلعاس.. قالت، هي التي أرسلت قبل أيام من يستطلع لها أخبارهم، فجاءها منهم من يطالبها بالزيارة.

-إذن، نذهب إلى البلعاس، حسم عزيز الأمر وغاية ما يتمناه أن يوفر لها الراحة، يحمل لها ما يستطيع من سعادة. شمس، بالنسبة إليه، هي الشمس المشرقة التي ما يزال يعبد.. يترنم بجمالها كلما انفرد بها، يرتل لها الأناشيد كلما وجد نفسه في محرابها فكيف لا يلبي لها اليوم رغبة؟ هو أيضاً يشعر بالحاجة لأن يذهب إلى الفلاة، يستعيد أيام زمان، يوم كان يزور الفارس المثلث فيقضي أياماً وأياماً في المضارب، يطاردان معاً على الخيل، يصطادان الأرنب والغزلان، يصلولان في السهوب ويجولان.

هو أيضاً يشعر بالحنين لأم شمس، المرأة التي طالما سقته وأطعمته، شملته بحنانها ورعته.. يشعر بالحنين لسلطان.. الأخ والصديق، ترى ألا ينبغي أن يزوره هو الذي لم يزره مذ أصبح شيخ القبيلة؟.

كان الشيخ نواف قد مات، هكذا ميتة مفاجئة، لم يتوقعها أحد، وفي مكان بعيد.. حيث تدمر وأطراف بادية الشام. ذهب عزيز يعزيهم هناك ومضت شمس تبكي أباهما وقد حملت جثمانه ناقته البيضاء كي يدفن في موطن القبيلة.. لكن هل ينسى الشيخ نواف؟ هل ينسى أهله وذويه؟ وشد عزيز الرحال إلى جبل البلعاس.

البلعاس شيخ أصلع لم يبق الزمن شعرة في رأسه.. أشجار البطم التي كانت تتشابه غابات على قمة رأسه ذات يوم لم يبق منها أثر. قطعها "العصملي" والحطابون، ثم أتى على البقية الباقية منها الأغنام والرعاة.. مع ذلك يلحظ عزيز وهو في سيارة البيك أب التي استأجرها خصيصاً، قزعات شعر متفرقة حيث الصخور التي لا يستطيع تسلقها إنسان، والجرود الوعرة التي لا تصلها شاة أو معزاة، فتتهلل روحه، يطرب شيء في داخله. جبل البلعاس قد يعود ذات يوم جبلاً أشم.. تكلم هامته غابات البطم الخضراء.. ومع السفوح الجرداء يعود عزيز للتذكر ثم يلتفت إلى شمس متتهداً، مشيراً:

-هناك، لقيت ذات يوم رشاً الغزال، أتذكرين؟

-أنا التي تذكر، ردت شمس مبتسمة، فقد كنت ذات يوم أشعر بالغيرة منه..

-حقاً، لا يمكن للأنثى إلا أن تكون أنثى.. تغار من أية أنثى.

-والذكر هل يكون إلا ذكراً يغار من أي ذكر؟ أم نسيت غيرة الذكر إن

غازل ذكر آخر أثناءه؟ عزيز لم ينس، وإن نسي فقد كان حرياً به أن يذكر القصة

التي رواها لهم أحد المسنين بالأمس في مضافة يونس.. هي سمعتها، وهي بالتأكيد تريده أن يتذكرها" أخذني العصملي إلى حرب اليمين "بدأ الرجل قصته." هناك استطعت الهرب صاعداً أحد الجبال مختبئاً في إحدى الغابات.. جائعاً عطشان وصلت لكن متعباً محطماً حتى إذا ما شعرت قليلاً بالأمان أسلمت نفسي للتراب ورأسي لصخرة ملساء، فلم أفق إلا وقد طلعت الشمس.. نظرت حولي فإذا بسعدان وأنثاه يقعيان قربي.. انكمشت في البداية وقد سرت في جلدي قشعريرة، لكنني تماسكت. "لأراقبهما فأرى ما يفعلان". كانت بندقيتي معي وكان باستطاعتي الدفاع عن نفسي، فلزمت الصمت والسكينة.. فيما بدا السعدانان مشغولين بمراقبتي ومعرفة شأني.. كان في أعينهما فضول وفي وجهيهما استغراب لكأنهما لم يريا إنساناً من قبل ولم يعرفا شره وبطشه.. تبادلنا النظرات.. كان العطش والجوع قد اسبدا بي وكنت متلاشي القوى حتى خيل إلي أنني عاجز عن الحراك وأني لا محالة هالك.. نظرت إلى اليمين، إلى الشمال، أبحث عما يؤكل، يشرب.. لا شيء، هل عرف معنى نظراتي وبحثي؟ لا أدري.. كل ما أدريه أنني، بعد لحظة واحدة رأيته يقفز صاعداً أقرب شجرة، واثباً من واحدة إلى أخرى إلى أن غاب عن ناظري... الأنثى ظلت مقعية على مقربة.. وأنا أفكر "ما تراني أفعل؟ من أين آتي بالطعام؟" بهدوء انسلت الأنثى مبتعدة لكن في اتجاه آخر غير اتجاه الذكر.. تتبعتها بناظري قليلاً إلى أن غابت هي الأخرى، فتنفست الصعداء.. أنا لا أخفيكم، قال الهرم العجوز، كنت ما أزال منكمشاً من منظرها، خائفاً من غدرها.. قلت في نفسي "الآن يمكنني أن أبحث عن طعام وشرعت ألملم أطراف قوتي.. لكن قبل أن أفعل رأيت السعدان يعود وهو يحمل في فمه أرنباً ما يزال دمه حاراً ينزف.. وضعه أمامي مهمماً بشيء، فهمت ما أراد قوله، فشكرته على حسن ضيافته.. لكنه انشغل عني في الحال، باحثاً بعينه عن أنثاه. هنا، هناك راح يبحث، وجهه يشتعل غضباً وعيناه تقدحان شرراً.. نظر إلي فأدركت سر غضبه وانشغاله، نظرت في الاتجاه الآخر الذي ذهبت فيه أنثاه، فأسرع حيث نظرت، وانكبيت أنا على الأرنب.. الأرنب وجبة شهية لا يحلم بها رجل جائع واهن القوى مثلي، فأسرعت أسلخ جلده والتهم لحمه نيئاً ليس مثله الشواء.. ولشدة جوعي، انشغلت بوجيبي عن السعدان وأنثاه.. لكن ما هي إلا دقائق حتى سمعت زعقة بعيدة تصم الآذان. جررت نفسي إلى جهة الصوت، فإذا بالسعدان يمسك بأنثاه.. ثم يبدأ بتمزيقها وهي تزق خائفة متوسلة، فيما كان ذكر آخر ينسل هارياً بأقصى سرعة، وقد أربعه بطش الذكر بأنثاه".

تبسم عزيز لشمس، وقد عاد من قصة العجوز، كما تبسمت له شمس، وكأنما يقول واحدهما للآخر "الذكر كالأنثى" والغيرة شعور طبيعي، لا يقتصر على الإنسان فقط، بل يشمل الحيوان أيضاً... لكن وصولهما إلى المضارب أنساها الغيرة والسعادين وكل شيء آخر.

بحفاوة بالغة استقبلهما الشيخ سلطان والأم، الزوجة والأولاد، الأخوة وأبناء العم.. شمس حكاية خرافية يتداولها أفراد القبيلة جميعاً مذ كانت فارساً ملثماً إلى أن أصبحت شيئاً مهماً في دمشق تفك المشنوق من حبل المشنقة، هي تسمع ذلك وتضحك.

-صحيح، تعرفين الوزراء والمدراء؟

-حقاً، يزورك الضباط والجنرالات؟

-معقول شمس؟ كلمتك لا تصير اثنتين في دمشق؟

كانت تتصب عليها الأسئلة كلما تحلقت حولها النسوة والفتيات، يثيرهن فضول عجيب لتلمس الحكاية الخرافية عن قرب، ورؤية الشمس التي لم تبلغ منزلتها فتاة في القبيلة.

في المضارب حاول الزوجان استعادة أيام الصبا، ركبا الخيل، تجولا هنا وهناك، فكلاهما كان يتحمل أعباء على كتفه يريد التخلص منها. كان الخريف قد انتصف وكانت بواكير مطره قد أنبتت الكأ في سهوب البادية الواسعة الخصبة، وكانت السنة تبشر بالخير.

قطعان الغنم تسرح وتمرح، النوق زرافات وفرداناً تملأ الفلاة.. كان الشيخ نواف قد ترك منها الكثير فسنوات الخصب الأخيرة، والأمان الذي لم يعد فيه غزو ولا غاراتٍ كانا قد تركا بصمتهما: آلافاً من الشياه ومئات من النوق يملك الشيخ نواف وحده، لكنه قبل أن يموت أوصى بأن تعطى البنات مما يملك وفق شريعة الإسلام: للذكر مثل حظ الانثيين فكانت حصة شمس قطيعاً من الأغنام وآخر من النوق مرت بهما ذات يوم تنفقدهما.

-ألا تأخذين قطيعك هذا؟ سألها سلطان، وهو يشير إلى الأغنام المنتشرة هنا وهناك.

-إن عدنا إلى القرية أخذناه، ردت شمس وهي تنظر إلى عزيز كأنما تريده أن يؤكد قولها.

-وهل تفكر بالعودة؟ سأل سلطان عزيزاً هذه المرة.

-حين يكبر الموظف تحيله الدولة إلى التقاعد، أجاب بشيء من دعابة وهو  
ينظر إلى شمس، فهل تحيلني شمس إلى التقاعد؟  
-لو كان الأمر بيدي ما عدت إلى المدينة، ردت شمس متتهدة، لكنهم  
الأولاد.

-الأولاد؟ قاطعها سلطان عاتياً، حيف عليك شمس، الأولاد فروع لنا ونحن  
الأصل.. والأصل تتبعه الفروع.. وليس العكس..  
-ذلك كان أيام زمان أخي سلطان!! لكن اليوم تغير كل شيء..

-بيدها حق سلطان، تابع عزيز وهم يسيرون الهوينى على خيوط أصيلة يود  
لو يطير بها لكن جسده لم يعد يسمح له. يتبعك الأولاد صغاراً لتتبعهم أنت كباراً.  
-لكن .. كيف.. أليس أولادكم كأولادي؟ ها هم يتبعونني أطوع من بناني..

-هم يعيشون كما عشت دون تغيير أو تبديل.. لكن وقد تغيرت ظروفنا،  
الأمر يختلف سلطان، شرحت له شمس من جديد.. الأخضر الآن في باريس،  
يعيش في عالم غير عالمنا.. له حياته واستقلاليته فماذا نملك من أمره؟ قلنا له  
عد وقد هددته خطر النازيين لكنه أبى وأصر: لن أعود إلا ومعني شهادة الطب،  
فماذا تفعل؟ نواف هنا في القرية له عالمه هو الآخر، مناف في دمشق، بدور  
تدرس، ولا نملك إلا أن ننتظر أن يحقق كل منهم غايته..

-حالة صعبة.. رد سلطان ملوحاً برأسه، الصدق، حالة صعبة.. أصير تابعاً  
لأولادي لا.. لا.. حالة لا أرضى بها لنفسي.

ومن جديد عادت شمس تسهر في المضافة، لا ملاءة ولا حجاب تجالس  
الرجال، تماماً كأيام الفارس المثلث لكن دون أن تضطر أيضاً للتلم أو التزيي بزي  
الرجال. كان كل من في القبيلة يحمل لها الاكبار والإعجاب.. يسألونها وكلهم  
فضول، شأنهم شأن النساء، لمعرفة مكنون المرأة التي بدأت فذة متفردة وما تزال  
فذة متفردة، حتى ابن عمها معجون كان قد أصبح يحمل لها الإعجاب والود..  
هي تنظر إليه وتذكر حقه عليها، حبه لتملكها، تتذكر اصراره على الزواج منها  
والمبارزة بالسيف التي أرغمتها عليها. "أتره نسي كل شيء؟ أتره صفح عني  
وغفر؟" لم تكن لتثير معه تلك الذكريات، لكنها كانت حريصة أن تعيد معه رابطة  
القرابة والمودة.

أمها، التي طعنت بها السن كانت تحمل لها الراحة وهما تجلسان وحيدتين،  
تسهران أو تتامان معاً في الفراش لتستعيدا الماضي وتطفئاً الأشواق.. ذلك الصدر

الذي ذبل ويبس كم كان ممرعاً ذات يوم مترعاً بالدفع والخير تنهب منه نسغ الحياة. شمس تضم أمها، تحضنها، تضاحكها، فهي تعلم كم ترك غياب الشيخ نواف من حزن وحسرة في قلبها ذاك الذي كان يستمد دماء الحياة من دمائه، صدرها الذي كان يأخذ الهواء من هوائه.. أختها فوز لم تكن تفارقها، صديقاتها، لداتها، كلهن كن يردهن معهن.. فيولمن لها الولايم ويذبحن الذبائح..

عشرين يوماً أمضت شمس في المضارب التي استبد بها الحنين لحياتها، لطلها وترحالها، لفلواتها الواسعة تصول فيها وتجول، لكن حنيناً آخر كان ينمو.. هناك في الأعماق للفروع الغضة التي تشغل دائماً بال الأصول.

محملة سيارتهما خرجت من المضارب، ومحملة أكثر خرجت من القرية وقد ودعا الأهل والأحباب، يطلقان الزفرات وتسيل على وجنتي شمس الدموع.. هي المرة الأولى التي بكت فيها: "أتراني ضعفت؟ صرت أكثر عاطفة ومشاعر؟ إيه!! لقد مضى عهد الفارس المثلث ذاك الذي لم يكن يعرف البكاء".

لكن ما إن وصلا إلى البلدة الهاجعة عند أطراف البادية حتى وجدا الدنيا قد خربت..

-ماذا هناك؟ سأل عزيز أول عابر شمر ثوبه عن ساقيه وأطلق لهما العنان.  
-الشرطة تطلق النار!! فرنسا وي يقتلون الناس.. وأسرع إلى منزل صديقه أبي مصطفى حيدر بعيداً عن شارع البلدة الرئيسي حيث مواطن الخطر.  
هناك سمع الزوجان القصة.

-في الصيف، ومع طلوع الموسم، بدأ أبو مصطفى الكهل المتعب من الحياة ومشكلاتها قصة المظاهرات، تصادر الحكومة الفرنسية غلال الأرض بحجة الميرة والحرب وحاجة الجند في فرنسا ومستعمراتها للحنطة والشعير..

-صحيح، أعلم ذلك رد عزيز وهو يستعيد في ذهنه صورة حوران وأهله وهم ينوون تحت أعباء الميرة ويعانون من عنيت المستعمر. لم يكن في ذلك الموسم قد استطاع أن يأتي بأكثر من قافلتين أو ثلاث قوافل إلى محله في الميدان.. الدرك يضرّبون خيامهم على البيادر، يرصدون الدراس والدراية حتى إذا ما جهز الفلاح بيده صادروا ثلاثة أرباعه أو يزيد فلا يتركون له إلا قوت اللا يموت ومقدار البذار الذي يريد بذره العام القادم محسوباً بالمكيال..

-لكنك لا تعلم، تابع الصديق بنبرة من حزن شديد، مقدار البلوى التي حلت بالناس.. المواسم هذا العام كانت سيئة هنا والحكومة فرضت قدراً معيناً من

الحنطة والشعير يجب تحصيله.. بلا شفقة أو رحمة، حصل الدرك الكمية حتى لم يتركوا مؤونة للناس فلم يأت الخريف إلا والناس جياع. احتج الناس ورفعوا العرائض، أرسلوا الطلبات فقررت الحكومة تقديم معونة من طحين الحنطة والذرة كي تأكل البلدة وكادت أن تصل المعونة، لولا أن "المير" عطل كل شيء..

- "المير" عطل وصول المعونة إلى الناس؟ هتف عزيز وقد فغر فاه دهشة.  
- تصور. ملكي أكثر من الملك.

- وماذا فعل؟ أكمل.. قال عزيز وقد صار كلها فضولاً..

- ذهب إلى الحاكم، قال له لا تصدق الناس.. إنهم كذابون. ليسوا جياعاً ولا هم بحاجة إلى معونة.. جندكم أحوج إليها، بلدكم في حالة حرب أما نحن ففي سلام.. ومن هم في حالة حرب أحوج للمعونة ممن هم في حالة سلام.. لا نريد المعونة. خذوها.

- وأخذوها؟

- بالطبع، إن كان المير نفسه يطلب ذلك فلماذا لا يلبي؟ إن كان ممثل الشعب لا يشفق على الشعب فكيف يشفقون هم؟

- يا إلهي!! شيء لا يصدق العقل.. ابن الشعب لا يشعر بشعبه ورأس القوم لا يشفق على قومه

- هذا إن كان هو ابن الشعب فعلاً أو رأس القوم حقاً!! علق أبو مصطفى الذي خبر الحياة كثيراً وعرف منها كثيراً..

- معك حق.. مثل هؤلاء الناس دخلاء غرباء غرسهم العصملي ذات يوم في ظهرانينا... لا شأن لهم بالشعب ولا علاقة لهم به فكيف يتعاطفون معه أو يحسون بوجعه؟

- هو ذاك، والويل لشعب رأسه ليس منه، قال وهو يتتهد. بعدئذ تابع: صدقني كل ما يهم هذا "المير" هو الحفاظ على منصبه، ترسيخ علاقته مع الحكام ودعمهم له..

وليزهد الشعب إلى الجحيم..

- تعني.. المظاهرات اليوم موجهة ضده؟

- ضده وضده الحكام.. أبو عوض الشعار تعرفه؟

- هو صديقي. ما له؟

-أمس، شكل وفداً وذهب إلى السراي، يبين الظلم الفادح الذي نزل بأهل البلد الجياع، لكن المير تدخل أيضاً وطرده من السراي.

-طرده؟ كيف؟ لماذا؟

لا يريد أن يعطي صورة قبيحة عن أهل البلد "نحن أكثر كبرياء وعزة نفس من أن نشد لقمه خبزنا من السلطة" قال له "فلاتسود وجهنا.. نحن أصحاب إباء وشمم، نموت ولا نأكل بأثدائنا.."

-ويماذا رد الشعار؟

-نزل إلى البلدة، يستنفر الناس واحداً واحداً، يشد همهم واحداً واحداً. هم يسلبونكم قوتكم وعليكم أن تطالبوا به ، هيا.. هيا.. هيا.. والله.. ما مات حق وراءه مطالب.. "امتألت الشوارع منذ الصباح بالناس تصيح وتهتف: "جوعانين بدنا ناكل جوعانين.. المعونة.. المعونة.. يدنا طحين معونة.. جوعانين.. بدنا طحين" راح أبو مصطفى يردد بحماسة وانفعال واضحين كأنما أخذ الحال.

-وواجهتهم الشرطة بالرصاص؟

-وبالاعتقال أيضاً.. عشرين رجلاً ساق الدرك مكبلين بالحديد وعلى رأسهم صديقك الشعار وابني مصطفى.. أكمل بكثير من الانكسار والحزن.

-ابنك مصطفى أيضاً؟

-وابن أختي.. كذلك..

-اللعنة!! قد وقعوا في براثن الذئب إن!!

-برائن الذئب؟ ماذا تعني؟

-البلد الآن في حالة حرب أي حالة طوارئ قصوى ولا يسمح معها بتجمعات أو مظاهرات، هذه كلها تعتبر فتنة وشغباً.. وكل من يشارك في فتنة أو شغب يحال إلى المحكمة ومن يعلم؟ قد تحكمهم المحكمة بالإعدام.

-ماذا إعدام؟ هتف أبو مصطفى مقاطعاً فزعاً.

-مممكن!! لهذا يجب تخليصهم قبل أن يحالوا إلى المحكمة.

-كيف؟

-نهجم على السجن فنحرهم..

لكن الفرنسيون يضع الاحتمالات كافة، وقد وضع ذلك الاحتمال في حسابه، فحشر المعتقلين في شاحنة عسكرية، وأسرع بهم إلى حيث لا يمكن لأهليهم أن

يهجموا على السجن أو يحرروهم.

في حماة استقبلهم السجن بوجهه الكالح وحجارته العتيقة لكن نزلاءه استقبلوهم بالأحضان.. إذ ما إن وصلوا حتى انتشر الخبر في أنحاء السجن كله: مناضلون شرفاء تصدوا للمستعمر، رشقوه بالحجارة، واشتبكوا معه بالعصي والهرارات فاستخدم معهم الرصاص والنار وساق رؤوسهم إلى السجن. وأسرع السجناء يحتضنونهم ويواسونهم، يتعاطفون معهم ويشدون من أزهرهم. في الأيام التالية نشط النشطاء وتحرك الخطباء يحضون الناس على الوقوف إلى جانبهم ومد يد العون لهم: مناسف لحم حملت إلى السجن، أطباق حلويات، ملابس جمعت، مال قدم لهم، فليس أحب على قلب حماة المناضلة المقاتلة من مؤازرة المناضلين المقاتلين ..

حركة حماة تلك أزعجت حاكم حماة بل ربما أثارت في قلبه الذعر.. سجل المدينة حافل، ثورتها ما تزال ماثلة في الأذهان، ماثلة في السجلات، حسبه أن يعود قليلاً إلى الورا ليرى كيف هبت المدينة هبة الرجل الواحد لتصلي أسلافه ناراً حامية. إذن هي ما تزال هشياً يابساً حسب شعلة من نار حتى يشتعل فلماذا لا يبعد الشعلة؟

مساكين البلدة القريبة هم الشعلة.. بأم عينيه رأى الحاكم كيف استتفر السجن من أجلهم، الشارع، الأحياء.. كل من في حماة لا يتكلم إلا عن البلدة الجارة التي خرجت عن بكرة أبيها تصب جام غضبها على المستعمر الذي نهب قوتها ثم رفع عنها المساعدة، فلماذا لا تهب حماة أيضاً؟

الحاكم الفرنسي يضع الاحتمالات أيضاً، يعرف الحساب والضرب كذلك، وبحسبة بسيطة توصل إلى نتيجة، وجد السجناء أنفسهم إثرها يساقون مرة أخرى إلى دمشق.

عزيز يترصد أخبارهم. وصلوا إلى سجن القلعة فبدأ يسعى لرؤيتهم.. صديقه الشعار وابن صديقه مصطفى بينهم فكيف لا يسعى لمساعدتهم؟ بعد ثلاثة أيام تكلمت مساعيه بالنجاح: مناسف طعام، ألبسة، مال، كلها تدفقت عليهم بل هو نفسه استطاع أن يزورهم. التقى بأبي عوض، أخذه بالأحضان، بدأ تشجيعه فوجده مشعاً للشجاعة والتشجيع.. كانت معنويات أبي عوض عالية. رغم محاولات الفرنسي التضييق عليه ظل صلب القناة لا يهون، رغم كل ما بذلوا لتخيفه ظل شجاعاً لا يخاف. عزيز سعيد به، يتأمله بإكبار وهو يحدثه عن سجن القلعة، عن سجن حماه فيتذكر أيام السجن في حماة، الكابيتان جيران وجلا وذته، غرفة

التعذيب وصنوف التعذيب التي تعرض لها، لكنه يشيل برأسه فخاراً وهو يستعيد ذكرى الليالي التي كان يقضيها في حفر النفق إلى أن خرج مع أذان الفجر إلى الفجر، مع بشائر النور إلى الحرية والنور.

- لا عليك، دمشق كلها ستكون معك كما كانت حماة. طمأنه عزيز بعد أن استمع لأخباره.

- لكنهم سيحاكموننا.. اليوم بلغونا موعد المحاكمة.. وكل ما نخشاه أن تكون محاكمة صورية، أحكامها متخذة مسبقاً.

- لا تخافوا.. سنقيم لكم أكبر المحامين..

- ومن يضمن أن تجري محاكمة عادلة؟

- سنقيم الدنيا على رؤوسهم: الشارع، الصحف، الأحزاب، كلها ستكون معكم. فقط اصمدوا. وصمد الشعار، حيدر، محفوض، مقصود.. والسجناء البقية الذين اعتبرهم الفرنسيون رؤوس الشغب في البلدة الهاجعة بين البادية وجبال العلاء.

نحلة في حقل أزهار، صار عزيز في الأيام التالية. من مكان إلى آخر ومن شخصية إلى أخرى راح ينتقل عزيز، يشرح قضية المساجين، يثير حمية المناضلين، حتى إذا حان موعد المحاكمة كان هنالك أكثر من عشرة محامين تتطوعوا للدفاع عنهم. عواد الذي كان وثيق الصلة بأساتذة القانون ورجال الحقوق، أسهم في ذلك أكبر إسهام. الأستاذ صبري، الرجالات الكبار كلهم تحمسوا واندفعوا: أليس المساجين أبناء وطن سجنوا دفاعاً عن حرية الوطن؟

افتتحت الجلسة فانبرى المحامون للدفاع: السنة ذرية، وخطبا بليغة وحججاً دامغة، حتى بدا لعزيز أن القاضي الفرنسي يتصعب عرقاً لضعف موقفه وخزي بني جلدته.. كما بدأت الهمهمات تتصاعد "قد أفحم الفرنسيون، مرغماً سيطلق سراحهم" لكن فجأة ظهر المير نفسه، بوجهه الأحمر النمش وكرشه الكبير المنتفخ، وفي يده عريضة.. طلب القاضي منه قراءتها فجمد الدم في عروق عزيز: أهل البلدة يطالبون بإعدام المشاغبين أصحاب الفتنة. مئات التواقيع ترصع العريضة.. المير يقرأ الأسماء.. بعضها يعرفه عزيز وبعضها الآخر لم يسمع به.. ران السكون على السجناء، المحامين، الحضور، ذهولاً ودهشة.. لم يكن واحد منهم يصدق ما قرأه المير في عريضته:

-كذب!!-

-تدجيل!!

-تأمر!!

-خيانة!!

بدأت تتعالى الأصوات من داخل القفص وقاعة المحكمة، حتى بدا وكأن الزمام سيفلت من يد القاضي.. الأصوات غدت صياحاً وصرخات، لكن مطرقة القاضي أسرع تدق بقوة وعنفة، حركة بواريدي وجند نشطت هنا وهناك فران الصمت من جديد.

-إن كان أهلوكم يطالبون بإعدامكم، ماذا تنتظرون؟ توجه إليهم محامي الإدعاء بصوت جهوري حاقده، وإن كان أميركم نفسه يحمل تلك المطالبة، فماذا تتوقعون؟

-هو كاذب!!

-متأمر!!

-عميل!! تعالت الصيحات من جديد ومن جديد تعالت دقات المطرقة ترافقها قعقة السلاح وطققة أذية الجند.

-سيدي القاضي!! انبرى أحد محامي الدفاع وقد عاد الهدوء للقاعة، هل تأذن لي بالكلام؟

-ولماذا الكلام، إن كان أهل بلدهم أنفسهم قانعين بذنبهم مصرين على حكمهم بالإعدام؟

-فقط لنا طلب واحد سيدي القاضي، وقف محام آخر للدفاع يدعم بصوته الجهوري زميله.

-تفضل.. قل ما هو طلبك؟

-أن تأتوا بعشرة لا على التعيين من أصحاب هذه التوقيعات شهوداً. وأطرق القاضي لحظة ثم التفت إلى اليسار فاليمين، هز كلاهما رأسه بالإيجاب فعاد القاضي إلى محامي الدفاع.

-طلبكم مقبول.. يؤتى بالشهود، عشرة من أصحاب التوقيعات لا على التعيين. رفعت الجلسة.

في الجلسة التالية سألهم القاضي:

-أهذه توقيعاتكم؟

-نعم.. أجاب الشهود العشرة وهم يستعرضون العريضة التي تحمل توقيعهم  
-أرأيتم؟ توجه القاضي من جديد للمحامين وعلى محياه سيما النصر .  
-أتسمح لي بسؤال أوجهه لهم سيدي؟ سأل المحامي جهوري الصوت، أستاذ  
الحقوق في كلية عواد، البارع في حقوق الوطن والإنسان المتبرع دائماً للدفاع عن  
حقوق الوطن والإنسان.

-تفضل أسأل.

-على ماذا وقعت؟ سأل المحامي أحد الشهود وقد صار قبالتة.  
-لا أدري سيدي القاضي، أجاب الشاهد، فجحظت عينا القاضي وانكمش  
المير في مقعده.

-ماذا في هذه العريضة؟ سأل الشاهد الثاني.

-أنا أمي، لا أعرف القراءة والكتابة سيدي القاضي!

-كيف توقع على عريضة تجهل ما فيها؟ سأله القاضي.

-المير أمرني أن أوقع فوقعت سيدي القاضي.. وجحظت عينا القاضي أكثر  
فيما انكمش المير أكثر وأكثر حتى بدا كرشه أشبه بإطار سيارة يفرغ شيئاً فشيئاً  
من الهواء..

الشهود العشرة كلهم أجابوا الإجابة نفسها "لا ندري ما في العريضة"، لم  
نقرأها" لم نسأل المير عنها" هو أمرنا أن نوقع.. ويشير كل منهم إلى المير.

-إذن، أنت ترى يا سيدي القاضي أن العريضة مزورة لا تعبر عن إرادة  
الشعب ورجبته، بل عن إرادة هذا المفتري ورجبته، وأشار المحامي إلي المير.

حاول المير أن يحتج رافعاً صوته، لكن المحامي الجهوري تابع طاغي  
الصوت: أنت ترى سيدي القاضي أن الدعوى كاذبة وأن أصحاب التواقيع لا  
يطالبون بإعدام أبناء بلدتهم. أليس كذلك أيها الشهود؟

-لا.. لا..

-بالعكس..

-نحن نطالب بإطلاق سراحهم، تعالت صرخات من الرجال الذين وقعوا على  
عريضة لا يعرفون محتواها.. ثم تابع أحدهم بصوت أعلى: بل أهل البلدة كلهم  
يطالبونكم بإطلاق سراحهم. إنهم أبرياء، لم يطالبوا إلا بحقهم في لقمة العيش..

التفت القاضي إلى صاحبيه كليهما كالعادة ثم علا صوته: براءة.. يطلق

سراهم..

فلم يشعر عزيز إلا وقد هب ملء طوله، وصوته ملء القاعة:

-يحيا العدل!! يسقط الخونة، أعداء الشعب!!-

فرحة عظيمة عمت القاعة. الرجال هتفوا، النساء زغردن، ثم اختلط الحابل بالنابل وقد اندفع الكل باتجاه السجناء الذين أطلق سراهم يعانقونهم ويحتضونهم. بعدئذ اتجهوا جميعاً نحو الخارج في ما يشبه المظاهرة، لولا أن سارع الجند يفرقون الناس بالحراب، فحالة الحرب والطوارئ لا تسمح بالمظاهرات.

لم تكن الحرب قد تركت آثارها على السلمية وحسب فخرج أهلها يتظاهرون ويحتجون مطالبين برغيف الخبز، بل كانت آثارها في كل مكان من البلاد: فقدان مواد أساسية، نقص مواد أخرى حتى لبيحت المرء عن كيلو من السكر فلا يجده، عن زيت الكاز وقوداً لطباخه فلا يعثر منه على قطرة، ثم غلاء أسعار حتى ليحسب المرء أن القيامة ستقوم.. الحبوب، الأقمشة، البين، المصنوعات، المستوردات كلها اختفت من السوق وكأن جنأ شفتها حتى لم يبق لها أثر. تسأل التاجر عن حاجة فيهز رأسه "سقى الله أيام زمان". تطلب منه شيئاً فيقول لك" من أين والعالم يشتعل حرباً؟" كانت الغواصات الألمانية تسرح وتمرح في البحار مدمرة هذه السفينة، حارقة تلك حتى بدأت السفن تختبئ في مرافئها فنرانا في جحور. انقطعت الطرق البحرية وتوقفت التجارة، فلا أحد يضمن وصول سفينة إلى وجهتها ولا أحد يغامر بشحن سفينة ستقطع البحار.. الجو أكثر خطراً: طائرات هتلر تهيمن على أجواء أوروبا من الجزر البريطانية شمالاً حتى شواطئ المتوسط جنوباً ومن المحيط الأطلسي غرباً حتى موسكو ولينينغراد شرقاً.. في البر: جنود هتلر في كل مكان، مارشالات يكتسحون سهوب الشرق وصحارى الشمال الافريقي حتى بدا هتلر وكأنه يقبض على العالم قبضة عملاق على عنق قزم. تشرشل يصرخ من لندن ويستغيث.. طائرات هتلر لا تتفك تغير في الليل وفي النهار، تقصف وتذك حتى غدت شوارع لندن خراباً وعماراتها يباباً.. رومل يجتاح سواحل افريقيا العربية وصحاريها داخراً الفرنسيين في الغرب، داخراً الانكليز في الشرق حتى بدا ثعلب الصحراء، وكأنه يطبق فكي الكماشة على أعدائه من الجنوب والشمال. موسكو مدينة ساقطة والجنود النازيون يدقون أبوابها. لينغراد محاصرة ستالينغراد على شفا الهاوية والسوفييت يقاتلون. بالنواجذ، بالأظفار يقاتلون. يائسين يقاتلون. لولا رهان واحد راهنوا عليه: الجنرال الشتاء. جاء الجنرال - الشتاء فلم يخذلهم. الطبيعة أم رؤوم.. أرسلت لهم شتاء كما بينغون: صقيعاً

وجليداً قرصاً وتلجاً، أمطاراً وعواصف، حتى بدأت عظام الجند الهتلري تتقصف وتتفتت، وبدأ قبس من أمل يطل من كوة الشتاء. كبر ذلك القبس ثم كبر حتى إذا انتهى الشتاء كانت الكوة كلها تشع بالنور وكان السوفييت قد ربحوا الرهان.

في الجبهة الغربية أجدت صرخات تشرشل واستغاثاته.. الدم لا يصير ماء، وأنجلو - ساكسون أمريكا لا يتخلون عن أنكلو - ساكسون بريطانيا.. هم من دم واحد ولا يهون عليهم أن يحتل هتلر لندن مسقط رأس الأجداد ومنبت الجذور والأصول.. تحركت أمريكا ذلك الوليد الذي ظهر في غفلة من الزمان ثم نما وكبر حتى بدا فجأة بقامة العملاقة.. الأغذية، الأسلحة، العربات، الطائرات، السفن.. الذهب، الفضة.. كل ما يحتاجه أنكلو ساكسون الشرق بات يرسله لهم أنكلو ساكسون الغرب.. وتنفس تشرشل الصعداء.. كان منذ البدء قد راهن على جر أمريكا إلى الحرب.. ذهب إلى روزفلت.. مسد الضرع.. المرة تلو المرة حتى در الضرع وبدأ الحليب بالجريان. الهدف التالي لتشرشل أن يدفع بالعملاق إلى آخر المطاف: ساحة الحرب.. حين ذاك يكون على يقين من أنه سينتصر.. بسيجاره الضخم الشهير كان تشرشل يتحدى هتلر ولا يفتأ يتهدد ويتوعد، ضارباً أكثر الأمثلة صلابة وإصراراً.. في بيانه الوزاري لم يعد بريطانيا بالرفاه والنعيم، بالبهجة والسرور، بل وعدّها بكل ما تجره الحرب من ويلات وأهوال، فظائع ومأس لكنه وعدّها بالنصر. ولكي ينتصر، كان تشرشل يعلم أن النسر البريطاني لا يطير إلا بجناحين: أمريكا وفرنسا.. أولهما خامل ساكن فبدأ بتحريكه، والثاني قصه هتلر فبدأ بإنبات ريشه من جديد، وكان ديغول القادمة الأكبر في ريش ذلك الجناح.

-كيف الوضع أستاذ؟ سأل عزيز الأستاذ المناضل الذي لا ينفك يتحسر على لوائه السليب، وقد دعاه وأخته للعشاء.

-من سيء إلى أسوأ، رد الأستاذ بنبرة حزن وتجهم محيا.

-ارتح قليلاً من السياسة أستاذ، وقل لي الثريد ناجح؟ سألت شمس مداعبة محاولة تخفيف التجهم في وجهه.

-ليت العالم ثريد وأنت تصنعينه بيدك البارعة هذه، رد الأستاذ مبتسماً مطرباً السيدة الفريدة من نوعها التي كانت تعلم أنه يحب الثريد فلا تدعوه إلا وهو على مائدتها. دلال، لماذا لا تتعلمين كيف تطبخينه؟ خاطب أخته التي صارت صديقة حميمة لشمس.

-كرمي لعينيك سأتعلمه، قالت الأخت المتعلقة بأخيها حتى العبادة.

-أستاذ!! عاد عزيز للتدخل دعنا الآن من التريد والطعام وقل لي لماذا من سيء إلى أسوأ؟

-كنا نأمل أن تنتهي هذه الحرب فرنسا، فإذا بها تعود للحياة وتتجدد.

-هل انقلبت حكومة فيشي على هتلر؟

-بل حكومات المستعمرات تنقلب على حكومة فيشي.. ديغول وتشرشل يقصان أجنحة بيتان. ريشة ريشة. وها هي ذي المستعمرات تعلن ولاءها لديغول الواحدة بعد الأخرى

-لكن في سوريا ولبنان ماتز... بدأ عزيز لكن الأستاذ لم يدعه يكمل:

-في سوريا ولبنان ستنتهي حكومة فيشي أيضاً.

-ويعود الكولونيل رينو؟ تدخلت شمس مقاطعة شبه خائفة،...

-يعود الكولونيل؟؟ لا يعود!! أمر لا يستطيع أحد البت فيه.. لكن الشائعات ملء البلد وكلها تؤكد أن ديغول سيدخل سوريا ولبنان.

-إذن عاد رينو!! يا إلهي!! أي خبر مشؤوم هذا! هتفت شمس بصوت أشبه بالندب..

-من هو رينو هذا؟ وماذا يعني أن يعود؟ سألت دلال باستغراب واضح.. لكن لم يكن باستطاعة شمس ولا عزيز أن يشرحا لها من هو رينو وماذا يعني بالنسبة إليهما أن يعود. كل ما كانا يستطيعان شرحه أنهما مذ تم ترحيله، أحسا وكأن صخرة كبيرة انزاحت عن صدريهما. حاولا بعد ذهابه أن يتقصيا أخباره. الأخبار المؤكدة الوحيدة أنه صار فيشي.. تحت تصرف الحكومة. لكن ماذا فعلت به تلك الحكومة؟ ماذا جرى له، لم يكن أحد يدري ولم يكن عزيز وشمس معنيين إلا بشيء واحد: طي ذكراه فلا يسمعان باسمه أبداً.

-لا يهم رينو هذا، لا يهم!! دعنا منه. عاد عزيز من شروده يرأب صدع الحديث الذي كان يعنيه كثيراً ثم توجه إلى الأستاذ: كيف سيدخل ديغول؟

-مع القوات الانكليزية

- أنا لا أصدق قاطعه عزيز هازاً سبابته.. منذ زمن طويل وهم يقولون.. تحركت القوات الانكليزية... سوف تتحرك...

-لكن هذه المرة، صدق. هي تتحرك الآن باتجاه درعا على رأسها الجنرال نفسه وكل ما استطاع تجميعه من قوات فرنسية.

-إذن هي الحرب، علقت دلال فزعة.. فيما تابعت شمس في الحال:  
-وإذا اقتربت الحرب، على الناس أن يبتعدوا.  
-شمس، علق عزيز على الفور متعجباً ضاحكاً في الآن نفسه، أنت تخشين  
الحرب؟ أنت تهريين!؟

-لم لا؟ تدخل الأستاذ مدافعاً، المرأة والحرب عدوان لدودان لا يلتقيان أبداً..  
-إيه يا أستاذ! عقب عزيز متتهداً، لو رأيتها يوم كانت فارساً ملثماً، يبارز  
بالسيف ويطارد على الخيل.  
-لا.. أنا لا أصدق.. قاطعته دلال نافية برأسها.. شمس المرأة الجميلة  
الناعمة تبارز وتطارد.

-لا.. صدقي دلال، تدخلت شمس مبتسمة ملوحة برأسها اثباتاً.. يومذاك  
كنت في ميعة الصبا.. وكنت أعيش في الفلاة ولم أكن قد صرت أما ولا عشت  
حياة المدن..

-تذكريني بميسون.. بدأ الأستاذ معلقاً مبتسماً، فقاطعته شمس:  
-ومن ميسون هذه؟

-زوجة معاوية.. حين ضاقت بحياة القصور والمدن فقالت:

لبيت تخفق الأرواح فيه.. أحب إلي من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني.. أحب إلي من لبس الشفوف

وكلب ينبح الأضياف دوني.. أحب إلي من قط أليف

-أي والله أحب وأحب.. هتفت شمس مغتبطة فرحة، ثم انقلب الحديث إلى  
الأدب والشعر: ميداناً يبرع فيه الأستاذ براعته في السياسة وتحبه شمس حبها  
لذكريات الفارس المثلث.

عند القيلولة، رن الهاتف الذي بات جزءاً لا يتجزأ من حياة دمشق فنهض  
إليه عزيز:

-ألو!! مناف؟! أهلا بني!

-هنا في المحل رجل يسأل عنك، جاء من الطرف الثاني صوت مناف، يريد  
أن يراك.

-من هو؟

-محمد التيناوي..

-ماذا؟ قاطعه بما يشبه الصياح، وقد قف شعر رأسه.

-التيناوي، وهو أت من درعا... هل أتيتك به؟

-لا.. لا.. أنا أت.. انتظرنى، وللتو انطلق. شتى الأسئلة تدق أبواب جمجمته: كيف عرف عنواني؟ كيف عرف اسمي؟

دخل عزيز المحل، فهب التيناوي واقفاً:

-لا تؤاخذني، أرجوك.. صاحبنا قال لي أين أجدك.. وأشار إلى البعيد والوراء فتوقف في الحال دق الأسئلة لأبواب جمجمته.

-لكن ما الأمر؟ ماذا هناك؟ سأله عزيز.

-هو مريض، يريدك في الحل.

-مريض؟ ماذا به؟

-لا أدري.. حمى شديدة أصابته منذ ثلاثة أيام.. أتيت له بالطبيب فقال: "التهاب مرارة لا بد من إجراء عملية جراحية له.. لا بد من نقله إلى المستشفى.

-هنا.. في دمشق.

-بالتأكيد.. في درعا لا يوجد مستشفى.

-لماذا لم تأت به معك؟ سألت عزيز وقد اضطرب كل ما فيه.

-ينبغي تدبير المستشفى أولاً

-المستشفى!! لا يهم.. المهم نقله..

-وبأقصى سرعة، أكمل التيناوي، بأقصى سرعة.

-ماذا تنتظر إذن؟ هلم نذهب..

في السيارة إلى درعا، حاول عزيز أكثر من مرة أن يسأله عن المرض، عن الحمى، عن آخر أخبار درعا، لكن الرجل كان لا ينطق بكلمة أو كلمتين جواباً، حتى يعود فيلوذ بالصمت.. "أتراه ما يزال متشجناً مني؟ ناقماً علي؟ عرف موقفي منه وشكي فيه فلزم الحذر والبعد".. وعاد عزيز بذهنه إلى الوراء يوم التقى به في عش النسر، فوجف قلبه وساورته الشكوك.. كان قد أنحى باللائمة على البطحيش، لوثوقه برجل كان يعمل لدى المستعمر، لكن صاحبه دافع عنه أكثر من مرة. بعد ذلك تجادلا وتجاوزا حوله لكن الرجل كان قد قرر.. "أتحسبني أهبل، يضحك علي رجل كالتيناوي؟" قال له ذات مرة. "وضعت على المحك عشرات

المرات وعشرات المرات ثبت لي إخلاصه"، "مع ذلك ينبغي أن تبقى على حذر منه". "وهو كذلك أم تحسب أن ذنباً يعطي ظهره لذئب؟" لكن أياماً وليالي مرت والتيناوي يرافق البطحيش.. صحيح أنه لا يراه مرتين في مكان واحد ولا يعطيه البطحيش ظهره، لكنهما يلتقيان. هنا، هناك، يلتقيان - يذهبان، يأتیان، يأكلان، يشريان، حتى بات ضمير البطحيش يوبخه إن مرت به ظلال شك فيه.. "إنه لجدير بالثقة وإنك لظلمته بشكك وارتياك" قال لعزیز آخر مرة "يمكنك أن تضعه في عب اللحم. آمن من حية في صقيع". وضحك البطحيش باطمئنان وثقة ناسلاً من صدر عزيز آخر خيط للشك. هذه المهمة تؤكد ثقة البطحيش بالرجل "لو كان في نيته شيء إذن لنفذه، طالما الرجل محموم طريح الفراش لو لم يكن يثق به ثقة مطلقة لما أعطاه عنواني". و كاد عزيز أن يعتذر من التيناوي. نظر إليه متفحصاً فوجد أصابعه تتراقص على فخذة. "الرجل ملهوف قلق". وعلى الفور أحس بحاجة للتواصل، للمزيد من الإيضاح:

-أهو في خطر؟

-كبير، رد التيناوي باقتضاب.

-كان على الطبيب أن يتدبر أمره.

-كيف، وهو ليس بجراح؟

وهز عزيز رأسه:

-بيدك حق. لكن خسارة، الوقت الذي ضاع!!

-قلت له، لكنه أصر قائلاً "ليس لي سوى عزيز. عزيز المروءة، عزيز النخوة.. ثم هو لا يثق إلا بك"، وشعر عزيز برعشة فخار تسري في أوصاله.. رعشة طرب لها، وهو يتصور نفسه ملاذ كل خائف، غوث كل طريد، لكن خاطرة لمعت في رأسه أوقفت الرعشة وجعلته يعيد التفكير "البطحيش محبوب في درعا.. محترم، موضع تقدير. بل الناس كلهم يلتفون حوله، يساعدونه. أكله، شربه، نفقاته كلها ممن حوله.. أقرباؤه كثر، أصدقاؤه يمدون له يد العون.. بل هو سمكة وكل من حوله بحر، يسبح فيه على هواه يستمد منه غذاءه وشرايه.. فكيف لا يمد له يده وهو على فراش المرض؟ ومن جديد أحس عزيز بصدمة خفيفة من شك.. نظر إلى يساره فأمسك بالتيناوي ينظر إليه خلصة.

-ماذا؟ بادره عزيز على الفور، أهنالك ما تريد قوله؟

-لا.. لا.. أجاب الرجل وهو يبتعد بناظريه ويللم يديه، حية تنكمش على

نفسها وقد أحست باقتراب نمس.

عند أول الكرك، أوقف التيناوي السيارة معطياً السائق أوامره بالانتظار. كان الظلام قد حل وكان المارة قلة. تلفت عزيز حوله بحذر قبل أن يدخل الزقاق الضيق يتقدمه التيناوي.. شاب وفتاة فقط كانا يمران، خوار بضع بقرات من الطرف الآخر كان يجيئ متقطعاً.. خطا التيناوي متعجلة، ظهره منحني، رأسه لا يلتفت يمينا ولا يسرة وكأنما كل حركة منه تقول لعزير "هيا.. أسرع.. الرجل يحتضر".. وأسرع عزيز وراءه.. وصلا إلى الباب الخشبي المصفح بالتوتياء. تلفت التيناوي يمينا، شمالاً.. لا أحد.. أخرج مفتاحاً من جيبه. "ها هو ذا دليل ثقة آخر"، ثم فتح الباب.

-تفضل، بكل احترام أشار لعزير مفسحاً له في الطريق. أسرع عزيز بالدخول بعد أن تلفت بدوره.. أيضاً، لا أحد، لكن قيل أن يمضي عزيز أبعد جاء صوت التيناوي.

-سأتي ببعض حاجياتي.. بضع دقائق فقط وأعود. ثم أغلق الباب قبل أن يتسنى لعزير الرد. صدمة خفيفة أخرى مصحوبة برعشة سرت في أوصاله.. لكنه تابع.. الغرفة منارة.. إذن، لا بد أن صاحبه في الداخل.. غذ عزيز خطاه وحين اقترب من الباب صاح:

-أبا حسن!!

-يا عونك!! جاءه الصوت من الداخل قوياً فرحاً.. ثم لم يلج عزيز الباب حتى كان البطحيش بنفسه يستقبله محتضناً إياه، مؤهلاً به:  
-يا هلا بالرفيق. قال بلهجته الحورانية التي كان عزيز يحبها كثيراً فلا يتكلم معه إلا ببديوته.

-لست مريضاً إذن؟ سأله بسرعة؟ متخلصاً من أحضانه بسرعة واندهاش أشد، ليس معك التهاب مرارة؟

-مريض؟ التهاب مرارة؟ ها أنا ذا كالحصان، قال وهو يستعرض عضلات عضديه وصدرة ضاحكاً: من قال لك ذلك؟

-التيناوي، ولست مريضاً فحسب، بل أنت صريع الحمى، لا بد لك من عملية جراحية في المستشفى وقد جئت من الشام لإسعافك.

-ماذا؟ هتف البطحيش فاغر الفم جاحظ العينين. حمى؟ عملية جراحية؟ مستشفى؟ الكذاب الغادر!!

-ليس كذاباً غادراً وحسب بل عميل خائن، رد عزيز وقد استنفر كل ما فيه.. أرأيت؟ حدسي كان يقول لي ذلك وقد حذرتك منه..  
-اللعنة!! بعد كل هذه المدة؟ صاح وهو يلطم جنبيه ثم يضرب يديه الواحدة بالأخرى.

-لا بد أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة.

-للإيقاع بنا كلينا، عقب البطحيش وقد اشتعلت عيناه ندماً وغضباً.  
-وها قد جاءت.

-أجل.. قد نصب لنا فخاً عزيز. جاء بك من الشام كي يطبقوا علينا نحن الاثنين. أسرع عزيز.. انجُ بنفسك، عزيز، هتف وهو يسرع إلى بندقيته.  
-لنسرع نحن الاثنين. لننُج نحن الاثنين. صاح به عزيز وهو يسرع إلى بندقية أخرى كانت معلقة على الحائط ثم اندفعا كلاهما باتجاه الخارج.

مع اندفاعتهما، كان هناك رجال آخرون يندفعون راكبين باب الدار ظاهرين برؤوسهم فوق الحائط، فأدرك الرجل بأن الفخ قد أطبق وأن أوان النجاة قد فات.

-ألق السلاح بطحيش، سلم بطحيش!! جاء صوت أمر يشق عنان السماء، لكن البطحيش لم يعرف يوماً التسليم. كان ديدنه القتال ومبدأه "المنية ولا الدنية" وأدنى دنية عنده الاستسلام للعدو، فجاء رده رشة من رصاص خرس أثرها الصوت الأمر، فيما لعل رصاص.. منبطحاً، زاحفاً إلى ساتر أعده من قبل، أطلق البطحيش الرصاص، فهوى من أعلى الحائط رجال.

-اهرب عزيز، تسلق الحائط الآخر عزيز.. أسرع أحم ظهرك.. صاح بعزيز الذي زحف مثله إلى الساتر دون أن يلتفت إليه، فقد كانت عيناه ترصدان الحائط..

-وأتركك؟ رد عزيز مصوباً بندقيته إلى جندي ظهر رأسه، ثم أطلق فاخنتي الرأس من جديد.

-هي غلطي عزيز.. وعليّ أن أتحمّل عاقبة غلطي.. أنا وحدي.. أتحمّل الوزر.. صاح بعزيز صياح الهمس، فيما فوهة بندقيته تتحول إلى نبع من نار ينصب على آخرين ظهروا في الجانب الآخر من حائط الدار. عزيز لم يرد.. كانت ركلة قوية للباب قد فتحته وكان رجل أو اثنان يندفعان، عاجلها رصاص عزيز فهو يا على الأرض منكبين على التراب.

-اهرب عزيز، أسرع، ما تزال الفرصة سانحة عزيز، جاءت صرخات البطحيش أقوى هذه المرة.

-أبدأ.. لن أتركك.. نعيش معاً أو نموت معاً، رد عزيز دون أن يتوقف عن إطلاق النار، فالباب كان ما يزال مفتوحاً وجنود آخرون كانوا يحاولون اقتحامه.

-أرجوك عزيز، بحق المحبة، بحق الأخوة.. اهرب.. من أجل أن تنتقم لي، اهرب. كان صوت البطحيش قد تحول إلى توسل وبدت أكثر من رعشة تخالج صوته.

-لا، لا، أستطيع، رد عزيز وقد ازدادت كثافة النيران من فوق الحائط وعلى باب الدار.

-بل تستطيع، صاح برعشته نفسها. من أجل أبنائك، من أجل شمس، من أجل هذا الوطن.. اهرب.. أسرع.. أسرع. لحظة تردد عزيز لكن ليس صوت البطحيش فحسب، بل يده بدأت تدفعه باتجاه الحائط الآخر، فلم يملك إلا أن يندفع.. زاحفاً إلى الوراء.. رش رشة طويلة من بندقيته ثم جمع نفسه قاذفاً بها إلى أعلى الحائط. يده أمسكتا الطرف الثاني، رجلاه علقتا في منتصفه، ظهره يدفع به إلى الأعلى.. دفعة واحدة وينطلق إلى الطرف الآخر. قلبة واحدة وينجو.. رصاص البطحيش يحميه، غزيراً سريعاً كأنما هو رصاص جبهة "هيا.. اقذف بنفسك عزيز" لكن قبل أن يقذف بنفسه دوى انفجار، أحس به عزيز يرفع الحائط من تحته ممزقاً حجارتة محولاً إياها إلى شظايا. هو نفسه شظية من تلك الشظايا، تطير عالياً في الهواء ثم ترتمي كتلة من حجر أصم إلى الجانب الآخر من الحائط.

الفرش بغيض، السقف، الجدران، الباب، النوافذ، كلها بغيضة تثير الكراهية في نفس عزيز، وتولع حفيظته، لكن الأبعد والأشد إثارة للكراهية والحفيظة، ذلك العكازان اللذان يستندان إلى الحائط في الزاوية البعيدة متربصين به، مخرزين يهددان بفقء عينيه:

-لماذا هذان العكازان؟ سأل عزيز الطبيب حين جاء بهما قبل أيام.

-يجب أن تمشي عليهما.. أجاب الطبيب.

-أنا أمشي على عكازين؟ صاح عزيز حانقاً محتجاً.

-يجب أن تدرب طرفيك السفليين.

-ليسا بحاجة إلى تدريب.

-كيف وهما منذ أكثر من سنتين لم يمشيا ولم يتحركا؟ قاطعه الطبيب بلطف ومرح.. عضلات رجلك ذبلت، أعصابك تيبست، بل العظم نفسه ربما لان، صار هشاً.

-لا.. لا.. عظام عزيز لا تلين، عضلاته لا تدبل.. فقط طمئنني دكتور..

الفخذ الأيسر تعافى.. عظام الحوض جبرت؟

-يفترض ذلك.. لكن لا بد من المحك.. والمحك هو المشي.

-أمشي إذن، وهم عزيز بالنهوض من فراشه البغيض الذي مل النوم عليه، سئم الاستلقاء على ظهره اللبالي الطوال تمر شهراً بعد شهراً حتى بلغت التسعة والعشرين شهراً.

-لا.. لا.. أوقفه الطبيب قبل أن ينهض. لا تتحرك قبل أن آتي إليك

بالعكازين. ثمة خطر شديد إن لم تكن العظام قد جبرت، ربما استنادك الكامل عليها يعيدنا إلى نقطة الصفر..

-إذن، لا أريد العكازين.. لا أريد أن أمشي.. دعني وشأني..

-بل يجب أن تمشي، وعلى هذين العكازين، قال الطبيب وهو يضع العكازين أمامه.

-اسمع كلام الطبيب، عزيز!! تدخلت شمس وهي تدخل الغرفة ذات السقف العالي والزجاج المعشق. لكن، عزيز يكره المرض والأطباء، يكره حتى سماع كلامهم.

-لا.. لن أمشي على عكازين.. دعوني وشأني.. دعوني وشأني.

تبسم الطبيب وهو يشير إلى شمس بأن تدعه وشأنه، ثم خرجا دون أن يراهما عزيز، فقد كان يطرق واضعاً كفيه على عينيه محتقاً من نفسه، مغيضاً من العالم، رافضاً حتى رؤية أحد.

صدره مرجل للقهر والغيط.. مذ ألقى على هذا السرير وهو مرجل للقهر والغيط "أنا أفعد في السرير لا أستطيع الحراك؟ أنا أصبح عاجزاً لا أستطيع الوقوف أو السير؟" كان لا يفتأ يسأل نفسه، يسأل القدر الذي لا يرى له وجهاً ولا يلمس له يداً، يسأل دقائق الزمان والمكان من حوله وهو يعلم أن الزمان والمكان أصمان أبكمان.. لكنه يأبى إلا أن يسأل وهو يتذكر كيف كان بقامته العالية ومنكبيه العريضين يزحم المارة في الشارع، يرفع الشيلات الثقيلة التي لا يستطيع سواها من شبان الريحانة رفعها.

.. يستعيد في ذهنه حيويته وقوته وهو يجري على الخيل، يقاتل في ساحات المعارك، يقف في وجه أبي شعيب متحدثاً ساحباً إياه من سوطه ليلقيه أرضاً.. فكيف يذهب ذلك كله؟ كيف يسحب البساط من تحت رجليه، ليجد نفسه أرضاً لا تنهض له هامة ولا تنتصب قامة؟ العجز.. وحش مخيف.. كان دائماً يتمثله أمامه فيدب في قلبه الرعب.. كم من مرة رأى كسيحاً مقعداً فأرعبه ذلك، لكن المقعد غالباً ما يكون قد أصيب في ظهره: فقرة انكسرت، عمود فقري انهرس، نخاع شوكي انقطع، فسقط الرجل عاجزاً عن الحركة. كان عزيز يعرف قيمة الظهر". يضرب المرء على بطنه فيصيح آخ يا ظهري! ألا يقول المثل: "الويل كل الويل لمن ليس له ظهر". الجسم كله يقوم على الظهر، عموده الفقري إن ضربت فقرة واحدة منه تهدم الجسد كله. لكن ظهره سليم، فقراته كلها صحيحة لم تكسر ولم

تهرس!! مع ذلك هو عاجز ، لا يستطيع وقوفاً أو مشياً.. الحوض ؟ من تراه يهتم بالحوض؟ كان مذ سقط طريح الفراش لا يفتأ يتساءل "من في حياته يفكر بعظام الحوض؟" ويشعر عزيز بالقهر أكثر كلما فكر بحوضه أكثر. "صحيح كل ما في الجسد هام.. صغيره، كبيره، عاليه، سافله كله هام.. ليس الحوض الذي هو ركيزة العمود الفقري وقاعدته وحسب، بل حتى عظم العص، حتى الإلية.. هذه الإلية التي لا يبالي بها أحد، شيء في غاية الأهمية.. بغيرها لا يستطيع المرء أن يقعد وإن لم يستطع القعود، تحولت حياته إلى جحيم، فكيف لم أفكر بهذا من قبل؟".

شيئاً فشيئاً بدأ عزيز يكتشف أهمية الإليتين اللتين أصيبتا لديه، عظم العص الذي ما يزال خدر شديد يسري فيه، حتى لكأن الإصابة وقعت بالأمس، الضلع السائبة في الصدر وقد ظلت منخساً يوجعه كلما تحرك حركة خاطئة لا يستطيع لها طب علاجاً ولا تعرف هي الشفاء.

لكن ذلك كله يهون أمام البلاء الأعظم، والبلاء الأعظم ذلك الحوض الذي لا يتحدث عنه الناس ولا يفكرون به، كمأ مهملاً كأنما لا وجود له. مع ذلك هو كل شيء في الجسد، يستند عليه الجذع من أعلى وينشد به الطرفان من أسفل.. هنا حيث يتمفصل الفخذ الأيسر مع قاعدة الحوض.. وحيث يدور عنق الفخذ في مجرى الحوض جاءت الشظية فحطمت المجرى والقاعدة والعنق ممزقة الإلية اليسرى راضة عظم العص، مطيحة بجسده كله أرضاً.

عزيز لا يعرف كيف سقط على الجانب الآخر من الحائط. كل ما يذكره صدمة هائلة جاءت من خلف وشرارة كشرارة الكهرباء خرجت من عينيه ثم غاب عنه كل شيء: الرصاص، القنابل، الصراخ، الزعيق، كله خمد كأنما هي عاصفة مرت فهدمت وخربت، قتلت وصرعت ثم هدأ كل شيء.

ما يذكره بعد ذلك هو غرفة كالجر، ملؤها البؤس والعمته وفراش وسخ أرق من لحاف يستلقي عليه.

كانت قد مرت أيام.. ربما سبعة، ربما عشرة وهو على ذلك الفراش. نظر حوله يتفحص، يستطلع فلم يجد ما يفيد به شيء.. تلمس أول ما تلمس رأسه، جذعه، فوجد رأسه وجذعه سليمين. نزل بأصابعه وراحتيه إلى الأسفل فوجد عيداناً وأحزمة و شيئاً كاللفائف يشد فخذ الأيسر. حاول أن يرفع جذعه لكن جذعه ثابت لا يستجيب وانجس في قلبه الهلع: "أنا مقعد؟ صرت عاجزاً؟" ودون أن يعرف كيف، أحس بحرقه الدموع، وهي تنحدر على خديه.. تلفت يمنة، يسرة من جديد لكن لا أحد. الباب مصراع واحد من خشب عتيق تتخلله الشقوق والفتحات. هو

مغلق كالمفتوح ومفتوح كالمغلق.

"إيه.. أنتم.. يا من هناك!؟" صاح بأقوى ما لديه من صوت، لكن الصوت خرج ضعيفاً واهناً لم يصل إلا بالكاد إلى أذني صاحبة الدار. "صبحك الله بالخير!! وألف حمد لله على سلامتكم، همهمت عجوز أكل الدهر عليها وشرب وهي تلبني نداءه دافئة الأرض بعكازها، سائرة حتى فراشه.

"من أنت؟ أين أنا؟" غمغم عزيز وهو لا يصدق عينيه.

"ما يهم.. من أنا يا وليدي أو أين أنت؟ المهم عاد وعيك..

وكأنما أشعلت نور مصباح في غرفة معتمة.. اشتعلت الذكرى في ذهنه.

"صحيح... عاد وعيي... نجوت... يعني نجوت؟ لكن ماذا عن أبي حسن؟ ماذا جرى للبطحيش؟"، "لا تسألني يا وليدي". ردت العجوز بوهن وهي تقرص مستددة على عكازها غير بعيدة عنه. أنا ما سألت عن شيء وما أدري بشيء.. كل ما أدريه أنهم جاؤوا بك هنا، ملاذاً آمناً يخفيك عن أعين الجندرمة.. "الجندرمة!؟؟ أجل.. الجندرمة دائماً أس البلاء.. فكم فعل الآخرون كي يخفوني عن أعينهم؟" وشرد بذهنه إلى البعيد، حين بدأ منعطف حياته بهم. اصطدم مع أبي شعيب فانقلبت دنياه رأساً على عقب.

"لكن من جاء بي هنا؟"

"ناس رأوك تتقلب عن حائط دارهم فحملوك هاربين بك من مطارديك.. "آ.. الآن فهمت!! وما الذي أصابني خالة؟ عاد لسؤال العجوز التي أكل الدهر عليها وشرب. فيما يدها تتلمسان الحوض المثبت والرجل اليسرى التي لا يستطيع لها حراكاً. "عظام الحوض.. أنا سألت الحكيم يا وليدي!"

"جبرني حكيم هنا؟" سأل وهو يتفحص الجحر، ملء ناظريه الاستغراب.. "ما كان من ذلك بد يا وليدي.. أنت مكسر.. فاقد الوعي ودمك ينزف.. يا حبة عيني.. ملء الطست دم راح منك.. أشطر حكيم عربي جاؤوا به.. لو كانت الساق، عظم اليد، لكان جباره يشفى بثلاثين يوماً.. لكن الحوض والحوض ماله جبار يا وليدي".

"ما هذا إذن؟" تساءل، وهو يتلمس العيدان الخشبية التي شددت إلى أسفله كأنها القفص.

"هذه.. ما أدري ايش قالوا.. يمكن حتى لا تتحرك.. كيف ستجبر كسور الحوض، إذن؟" سأل العجوز من جديد.. "هي تشفى لحالها... بعون الله تشفى يا

وليدي.."

لكن موجة من صقيع بارد، أشبه بصقيع القطب، اكتسحته في الحال. "تشفى لحالها!؟" يعني الطب لا يستطيع علاجها!؟ إذن راحت عليك يا عزيز.. صرت كسيحاً عاجزاً يا عزيز!! ومن جديد أحس بحرقه الدموع على وجنتيه وبهاوية حزن أسود تتفتح تحت قدميه وقوة هائلة تدفعه من خلف كي يسقط فيها.

"خالة.. أرجوك.. قل لي.. هل عرف بي أهلي؟ هل جاء أحد منهم؟ قلت لك" أنا عجوز كبيرة، سمعي ثقيل.. نظري خفيف.. ما أعرف من شيء... ما أدري يا وليدي.."

"من يدري إذن؟" سأل بمزيج من الغضب والقهر... "عواد يا وليدي..."

"عواد.. من؟" سأل وهو لا يصدق الظن الذي خطر بباله في الحال.

"ابن حمولتي.. عواد العوايدة.."

"حفاً" هتف بفرح الأطفال..

"ومتى يأتي عواد؟ كيف أراه؟"

"الليلة يا وليدي.. هو قال لي.. مع أذان المغرب أجيء"

حين جاء عواد مع أذان المغرب، شهق عزيز، وهو يفتح يديه له، ناسياً نفسه هاماً بالنهوض لكن موجة عارمة من الألم أعادته إلى الاستلقاء ودموعه تتهمر على خديه. أسرع إليه عواد يحتضنه ويقبله: "عمي، حمداً على سلامتك، عمي".

وطوال تلك الليلة لم يرقد لعزيز جفن وهو يستمع لعواد يروي له كل شيء.

كان طوق من رجال الأمن الفرنسيين قد أحكم حول الكرك.

حين وصل إليه عزيز مع التيناوي، لم يرههم فالكل كانوا يتسترون بالأشجار، يتدروون بالحيطان. أدخله التيناوي دار البطحيش ثم أسرع إلى سيده: "اضرب الآن.. العصفوران في الفخ، وأسرع الكابيتان إلى دار البطحيش، يضرب العصفورين بحجر واحد.. لكن البطحيش ليس مجرد عصفور.. هو أسد هصور.. يدافع عن عرينه.. وخيل للكابيتان أن التيناوي خدعه.. رصاص عزيز كان يواجهه، معركة ضارية اضطر لأن يخوض.. كان في الدار أكثر من فوهة رصاص.. أكثر من مقاتل.. فالبطحيش لم يفتأ يغير من مواقعه في الدار.. يستفيد من السواتر فيها، قتل تسعة وجرح ستة عشر من الجند الفرنسيين قبل أن

يسكت رصاصه. أطول أمد حاول أن يستمر، ربما ليغطي عزيزاً وهروباً، لكن عزيزاً لم يستطع الهرب. كانت إصابته على الحائط رصاصاً في الكتف، رصاصاً في الفخذ وشظية أو أكثر في الإلية والحوض، فلم يهو إلى الجانب الآخر من الحائط إلا وهو فاقد الوعي.. الجيران، الذين أفرعهم الرصاص أسرعوا باتجاه دار البطحيش، هناك وجدوا رجلاً ينزف، متكوماً على الأرض.. بلمح البرق حمله اثنان ثم أسرعوا به خارج الدار.. كانوا يعلمون أن معركتهم خاسرة. عزل وليس بمستطاعهم مواجهة الجند. إذن عليهم الهرب والاختفاء. ما قدره حصل.. إذ ما ان صممت بارودة البطحيش حتى انداح الجند في الدار يفتشون ويبحثون.. لم يكن هناك سوى جثة واحدة. "أين الجثة الثانية؟" هم على ثقة أن إصابتهم كانت قاتلة وأن طوقهم محكم لا يمكن أن ينجو منه أخو العقيدات الذي حدثهم عنه التيناوي.. بحثوا في الدار، قلبوا عاليها سافلها، لكن لا أحد. فانداحوا في الدار المجاورة يفتشون ويبحثون.. أيضاً لا أحد.. وطار صواب الكابيتان: "أين المجرم؟ كيف فر؟ أريده هنا، اخلقوه خلقاً." راح يصيح وهو ينهال بسوطه على كل من يجده في طريقه، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً.

عواد في درعا تلك الليلة، ودرعا صغيرة. تطلق رصاصاً في المحطة فيسمعها كل من في البلد، فكيف ان نشبت معركة في الكرك حامية الوطيس؟ "كنت في مكتبة ابن الشرع، أنت تعرفه؟" تابع عواد روايته، فهز رأسه. "ومن لا يعرف ابن الشرع الذي يحب العلم إلى درجة يضحى بكل ما يملك كي ينشر بين أهليه العلم؟"

أجابه عزيز وهو يتنهد. "هو ذاك.. كنت أناقش معه كتاب "الأيام" لطف حسين.. وكنت قد استعرت منه، كالعادة، قبل أسبوعين.. فجأة سمعنا لعللة رصاص، فوثب قلبي في صدري.. إحساس ما جعلني أنتفض وكأن الرصاص أصاب مقتلاً مني. "الرصاص في الكرك" حدد صاحبي المكان، فقلت للتو "لا بد أنه البطحيش إذن" وافقتني فتركته وأسعدت إلى حيث دار البطحيش.. لكن قبل أن أصل كان الناس قد تجمهروا.. أهل الكرك كلهم كانوا قد تجمعوا.. الذعر في عيونهم والغضب في صدورهم.. كانت المعركة قد انتهت، وكان الرصاص قد سكت، فيما كان الجند قد انداحوا يفتشون الدور والمغاور.. "رحم الله البطحيش"، قتل البطحيش "فاز الرجل بالشهادة"، "إلى الجنة أبا حسن" كان الكل يقولون وهم يتأسفون مترحمين على الرجل الذي كان قد اختزل الرجال جميعاً.. حمل باسمهم السلاح، ووقف صامداً يقاتل المستعمر.. سنين طويلة يقاتله وحده، أنى ثقفه

قتله!! كلهم يحبونه وكلهم يشدون من أزره فكيف لا يتجمعون على موته ويحزنون؟ إيه!! رحمة الله عليك يا أبا حسن "همهم إذ ذاك عزيز وهو يزفر أحر الزفرات". كم نيهتك منه! ذلك الخائن الغادر عرفته مذ رأيتة.. قلت لك حذار منه.. ابتعد عنه، لكن وأسفاه!! غلظت يا أبا حسن فوثقت به!! وغلطة الشاطر بألف "بعدئذ تابع عواد مؤامرة فظيعة دبروها له، مكيدة خسيصة حاكوها، خدعوه فانطلت عليه الخدعة!!" و"التيناوي؟" أما يزال هنا في درعا؟" سأل عزيز وعيناه تقدحان شرراً.. "التيناوي في جهنم وبئس المصير أجابه عواد ملوحاً برأسه كازاً على أسنانه ثم تابع روايته. "كان بعضهم قد رآه يوصلك إلى دار البطحيش وكان الكثيرون يشكون فيه، وسرعان ما صار لديهم يقين تام أنه هو الواشي المفسد.. في الليلة نفسها، قررت حمولة البطحيش الانتقام له وتبرج اثنان من أبناء عمه بتنفيذ ذلك.. في الهزيع الأخير من الليل تسلقا جدار منزله، دخلا غرفته، وعلى فراشه نفسه أطبقا عليه. أحدهما كم فمه والآخر أعمل في عنقه الخنجر.. ذبح الخروف ذبحه، ثم انسلا دون صوت، دون أثر.. وعند الضحي خرجت من درعا جثتان: جثة التيناوي في سيارة عسكرية تنقلها إلى دمشق، وجثمان البطحيش وقد خرجت درعا كلها تشيعه بطلاً تحمله راحات الرجال وترافقه زغردات النساء.

"لكن.. كيف عرفت بي أنا؟ كيف وجدتي؟" سأله عزيز بعد سيل من الرحمات صبها على روح صاحبه، ذلك الذي ضحي بنفسه كي ينجو هو.. "كلهم كانوا يعرفون أن أحداً كان معه" أجابه عواد متابعاً، "وأن الفرنسي كان يبحث عنه الناس. كلهم كانوا يتساءلون عن مصيرهاط..

"شك كبير ساورني في تلك اللحظات.. أهو عمي عزيز؟" وشرعت أسأل، أبحث إلى أن وقعت على من أنقذك.. كانوا قد نقلوك إلى مغارة في الطريق الجنوبي من الكرك وكانوا خائفين، وأنت مصاب إصابات خطيرة. دمك ينزف وأنت فاقد الوعي وليس من طبيب يمكن الوثوق به.. بل في درعا لا يوجد طبيب عظام كما تعلم فمن يجبرك؟

أوه!! يا لها من لحظة!! "ولم يستطع عواد أن يكمل، فجيشان مشاعره هول الذكرى المؤلمة جعلاً حنجرته تغص وعينيته تغرورقان بالدموع. "في الليلة نفسها" تابع عواد روايته، "نقلتك إلى هنا، وجنتك طبيب عام ومجبر عربي. في الصباح التالي توقف النزف، لكن حرارتك ارتفعت وكنت ما تزال في غيبوبة، خشينا معها أن تكون قد فقدت الذاكرة لكن الطبيب كان بارعاً. خلال سبعة أيام هبطت حرارتك وبدأت بالتململ. لكن في كل مرة كان الألم يوقفك مع صرخة مكتومة.. لم تكن

تعلم أن جسمك كله كسور ورضوض وكنت وأنت في غيبوبتك، تحاول التحرك فتتوجع وتصرخ.. وها أنت الآن تفتح عينيك، تستعيد وعيك، فكم أنا سعيد! كم أنا سعيد!!"

وانكب عليه يعانقه ويلثمه.. بينما كان عزيز يتمتم مشغول البال. "شمس، هل عرفت بي؟ أولادي هل أخبرتهم؟" اطمئن "قاطعته عواد على الفور، ممسكاً يده مهدئاً. أنا عائد للتو من هناك.. كانوا قلقين يكادون يجنون عليك وقد غبت عنهم هذا الغياب.."

قلت لهم إنك مشغول قد تتأخر عنهم بعض الوقت وإنك أنت الذي أرسلتني إليهم أطمئنهم". "يعني.. لم تخبرهم بإصابتي؟" سأل عزيز بمزيد من التعجب والإعجاب "ولماذا أخبرهم؟ هذا سيزيد الطين بلة.. فقلت أموه وأماطل، علني أكسب بعض الوقت". ولم يملك عزيز إلا أن يمد يده السليمة الكتف فيشده إلى صدره "الحمد لله، لم يخب أمني فيك!!"

كان عواد قد دخل قلب عزيز مذ بدأ، وهو فتى طويل ناحل لم يتجاوز السادسة عشرة، ينقل معه أحمال الحبوب على جملة العجوز الهزيل... وحين اكتشف فيه ذلك الطموح لأن يصبح محامياً ازداد له حياً، وبه تعلقاً. "ربما أتأخر بعض الوقت، لكنني سأصل آخر الوقت." كان الطالب الذي يعمل ويدرس بيرر رسوبه. وكان عزيز يكبر فيه تصميمه وعزيمته، بل يثق به إلى درجة بدأ ييوح له بما يشغل باله وما يكنه من أسرار. من تلك الأسرار، كان عزيز قد أطلعته على معرفته بالبطحيش، وعلى طرف من علاقته به.. ذلك نفسه ما جعله يشك بوجود عزيز في معركة الكرك، بعد أن سمع همسات عن رجل ثان كان مع البطحيش فمضى يبحث عنه إلى أن وجدته. لكن ما تراه يقول لشمس؟ هو يعلم أن عزيزاً ما يزال في خطر.. الشرطة ما زالت تفتش عنه.. كان التيناوي قد حاول جاهداً أن يعرف هويته، لكن تكتم عزيز وتحذيره الشديد للبطحيش جعل هذا يمتنع عن إفشاء سره، فظل التيناوي لا يعرف غير أنه أبو العز وأنه من العقيدات.. مهمته في دمشق دامت تسعة أيام وهو يسأل ويراقب إلى أن عرف محل عزيز.

الخطة التي رسمها له صديقه نجحت، فقد ألقى لعزيز طعماً لم يستطع إلا أن يلتقطه". أبو حسن على فراش الموت.. هو محموم يهذي منادياً باسمك مطالباً بك"، فكيف لا يلبي عزيز نداءه، لا يستجيب لطلبه؟ بعد ذلك لم تسنح الفرصة للتيناوي، كي يضيف شيئاً لمعلومات الفرنسي عن رجل البطحيش الثاني، فالمعركة احتدمت على الفور، ومع الفجر كان التيناوي ومعلوماته يسيلان

دما حاراً على الفراش.

شيء من شفاء الغل أحس به عزيز، وهو يسمع نهاية التيناوى. لكن الألم الذي كان يقبض بيد من حديد على جسده، الخوف من العجز، الحزن على البطحيش، الهم والتفكير بشمس والعائلة، كل هذا جعله ينسى التيناوى ويفكر بالمستقبل. "انقلني إلى دمشق". طلب إلى عواد لكن عواداً جاء له بالمجبر والطبيب ليخبراه معاً. "من المستحيل نقلك وأنت في هذه الحالة. فكبس عزيز الجرح على الملح ولاذ بالصمت يجتر الأفكار والهموم.

بعد شهرين بلغ سيل الزبي.. "لم أعد أطيق صبراً. أنت لي بشمس"، كانت شمس توشك على الجنون. عزيز غائب يرسل لها عبر عواد الرسائل، يطمئنها بخط يده أنه بخير لكن أيكفي هذا؟ شمس التي أحبته حتى العبادة عاشت معه السنين الطوال مقيمة على حبه، ترى الحياة بعينيه، تسمعها بأذنيه، كيف تتحمل غيابه شهوراً دون أن تعرف مسوغاً لذلك الغياب؟ صحيح أنه كان يقدم السبب تلو السبب، والمبرر إثر المبرر لكن حتام وهي تعلم أن حبهما الراسخ العظيم لا يقبل مثل ذلك الغياب؟ قلبيهما لا يطيقان مثل ذلك البعاد..؟ هي تعلم أن المحب لا يرضى بغير لقاء الحبيب، العين تظل بحاجة لرؤية الحبيب، الأنف لرائحته، الأذان لسماع صوته، والأنامل للمسته، فكيف يتحمل عزيز كل هذا الفراق؟ كانت شمس تتساءل، وكان الكل يتساءلون: صبري، الأستاذ، الجيران في الميدان، الأهل في القرية، كلهم يسأل أين عزيز؟ ماله عزيز لا يظهر؟ بل نسوة الحي كن يسألن عنه بطالين برؤيته فماذا تقول لهن؟ أم روضة، أم فريد، أم محمود كلهن يستغرين، "غير طبيعي.. لا بد أن في الرز بصلاً" بدأن يتقولن بل إن أم روضة قالتها صراحة: "أختي شمس.. إلى متى تظلين ساكنة؟ غياب عزيز لا يعني إلا شيئاً واحداً". "ما هو؟ سألتها شمس بلهفة وقلق" متزوج من جديد.. اتخذ لك ضرة خلبت لبه فأقام لديها لا يفارقها". وللتو عاضدتها الأخريات.

"يا أختي.. لا تنسي.. الرجال ما لهم أمان".."يا أختي.. انقطاعه عنك لا يعني إلا انشغاله بامرأة أخرى" "يا أختي.. المثل يقول يا مؤمنة على الرجال يا مؤمنة على الماء بالغربال".

في ذلك الليل داهمتها الشكوك واستبد بها الأرق "حقاً. لم لا يكون متزوجاً؟ ألا يتحدثون عن جهل الأربعين والخمسين؟ هو في هذه السن فما أدراني أن جهلها داهمه؟ رأى فتاة صغيرة السن فأغوته أو ورطته.. من يدري؟".."لا.. لا.. لا.. مستحيل.. ظهر صوت آخر يجادل "لا.. مستحيل.. عزيز يحبني.. حبنا أعظم

من أن يجعله يغدر بي.. أرسخ من أن يسمح له بالتفكير بسواي." مثلما أحبك قد يحب أخرى. الرجال يملون ويسأمون.. ولعله هو سئمك وملك أم نسيت أنكما تزوجتما منذ ربع قرن؟ نسيت أنك صرت كهلة في الخمسين؟"

وفي الصباح أطلقت بوق النفير طلباً لعواد. "أين عزيز؟ أريد أن أراه. وفوجئ عواد مفاجأة تركته ثواني لا يحير جواباً. "مستحيل الآن." لماذا مستحيل؟ هو يمنعك من إخباري بمكانه؟ يتذرع بالحجج كي يسوف ويماطل؟.. إذن صحيح ما سمعت؟! هو متزوج من درعا.. فتح بيتاً لها هناك!!"

وأدرك عواد أنه لا جدوى من النقاش. هي في خضم الغيرة، والمرأة في خضم الغيرة تصبح صماء عجماء لا تسمع كلاماً ولا تعرف حواراً.. ومضى بها إلى جحر العجوز حيث الملاذ الآمن الذي لم تفكر بتفتيشه الشرطة.

في الطرف القصي من بيوت واطئة السقوف كالحة الجدران، شبه متداعية، كان الجحر يقبع. وفي الزاوية المعتمة من ذلك الجحر كان عزيز يستلقي على فراشه.. دون أن يخطر بباله أن الرياح تجري على غير ما تشتهي سفينته.. كان عواد لا يغيب عنه يوماً إلا ليقيم معه يومين وثلاثة. وكان قد وفر له شروط الرعاية والعناية كلها. العجوز في خدمته، الرجال الذين أنقذوه لم يتخلوا عنه، بل ابن الشرع صاحب المكتبة العجيب كان يأتي إليه، محملاً بالجرائد والمجلات، بالكراريس والكتب. لقد اكتشف عزيز، وهو على فراش المرض أن خير جليس في الأنام هو الكتاب.. وأن خير مؤنس في الوحدة وطارد للوحشة هو الكتاب.. ولعواد الفضل، فهو الذي اقترح عليه ذلك. لم يكن الألم، في البداية يسمح له بمجالسة كتاب أو الاستمتاع بمجلة أو جريدة. لكن شيئاً فشيئاً بدأ الألم يخف وأوجاعه تستقر، وبدأ يشعر بالمتعة وهو يطالع أخبار الصحف ويغوص في أعماق الكتب مستمتعاً بدافئ المعرفة ولذيق العلم.

ذلك الأصيل كان يقرأ في مجلة الرسالة، وكان قلم إبراهيم المازني السيلال يسحره.. بعفوية وبساطة يكتب المازني لكن بعمق وفهم يكتب. فلا يملك عزيز إلا أن يتابعه بتلهف واستغراق.. ولأنه كان في بحران استغراقه لم يسمع وقع خطا ولا شعر بعواد وهو يدخل ليقف إلى جانب العتبة مفسحاً في الطريق لشمس تحني ظهرها وتطأطئ رأسها كيلا يصطدم بعتبة الباب.. في تلك اللحظة فقط أحس عزيز بقلبه يثب من مكانه.. هي رائحة شمس؟ أهي موجتها الكهرطيسية؟ عزيز لا يعلم، ما يعلمه فقط هو أنه أحس بجاذبية مغناطيسية هائلة تجذب عينيه نحو الباب.. في عتمة الجحر التقت الأعين وفي فضائه الضيق وثب القلبان، طارا

ليلتقيا هناك في المنتصف تحت السقف، حيث عيدان الخشب وصفيح التوتياء "شمس" "عزيز" هتف كل منهما ثم اندفع الجسد المنتصب إلى الجسد المستلقي ينكب عليه يأخذه بأحضانه، يلتهمه ولا يشبع، يشربه ولا يرتوي. العالم كله ظمأ وجوع وشمس ظمأى، جائعة.. تائهة في بيداء لم تعرف طعاماً ولا شرباً أياماً وليالي.. "يا إلهي!! أنت هنا طريح الفراش وأنا أظن بك الظنون!! رياه!! ما أظلم الإنسان للإنسان!!" وروت له كيف زرعت النسوة في رأسها الأشواك والقتاد ليروي لها هو وعواد كيف سقط الفارس عن ظهر فرسه فتهدمت عظام وتحول الجسد إلى حطام.

"لا.. لا أصدق" قالت وهي تتلمسه بيديها، متحصه إياه بعينين تكادان تخرجان من محجريهما.. "عزيز لا يتحول إلى حطام.. هذا الجسد الذي عشقت، هذه الروح التي عبت، لا يمكن إلا أن يظلا ملؤهما الحياة والقوة.. لكن الحقيقة المرة كانت واضحة كعين الشمس.. كانت الكتف رغم مرور ثلاثة أشهر، ما تزال تؤلمه، ان حركها. وكانت عظمة الفخذ ما تزال في جبارها لم تلتئم، فكيف بالحوض وعظامه التي لا يعرف المجر لها دواء ولا يستطيع علاجاً؟! القفص المثبت كان كل علاجه.. لكن هل يشفي القفص الحوض؟ هل تلتئم به عظامه؟ ذلك ما كان يجير عزيزاً بل ما يجعله أقرب إلى القنوط.

طوال تلك الليلة لم تجف لها عين. كانت الدموع تتحدر رغماً عنها. إن نظرت إليه انحدرت دموعها، إن أبعدت عينيها عنه انحدرت دموعها، إن أغمضت، إن فتحت، لم يكن ذهنها يستطيع تصور عزيز وهو طريح الفراش عاجز عن الحركة.. عزيز الذي كان يملأ حياتها حيوية ونشاطاً، مشاعر وعواطف، حباً ووجداً، تراه أمام عينيها ملقى على ظهره لا يملك من جسده سوى العينيين ينظر... الأذنين يسمع.. جسده المثبت في القفص أشبه بمسيح مصلوب، المسامير في كفه، المسامير في قدميه، فكيف لا تبكي شمس؟

عواد والعجوز تركاهما تلك الليلة.. أمنا لهما الشراب والطعام ثم مضيا.. طوال ليال سبع لم تنم العجوز في جحرها.. وطوال ليال سبع لم تستطع شمس النوم.. حتى تورمت أجبانها، واحمرت عيناها واصفرت وجنتاها عصفراً على طبق من أرز.. "لا.. هذا مستحيل.. سنقتلين نفسك إن مكثت على هذه الحال". ليتني مت ولم أرك على هذه الحال"، ردت شمس وكل ما في صدرها هشيم يحترق بالنار.. "أرأيت لماذا كتمت عنك حالي؟" "قتلتني أكثر..، "إن مات أحدنا يجب أن يبقى الآخر". بل نموت معاً كما عشنا معاً" و"الأولاد؟" لهم رب يرعاهم، أما نحن

فروح في جسدين، يصاب أحدهما فيصاب الآخر، يعيش أحدهما فيعيش الآخر.. ولا حياة لأحدهما بغير الآخر". "الهدية الدرجة تحبيني؟" "بل قل أية درجة لا يبلغها حبي لك؟ قل ليس هناك درجة لا يبلغها حبي لك.. يا مهجة روحي وحببة قلبي وكل وجودي". "وتستمرين في حبي حتى لو صرت عاجزاً؟" بل يزداد حبي، حتى تعوض روحي ما تحتاجه روحك، ويعوض جسدي ما ينقص جسدك.. ألسنا فلقتي حبة؟ ألسنا كلا واحداً من شطرين، فكيف يعيش شطر بغير شطره الآخر؟ كيف يتخلى شطر عن شطره الآخر؟ "واطمأن عزيز بعد خوف". كيف يقولون المرأة غادرة إن وهن الرجل أو عجزت بحثت عن آخر؟ كيف يقولون انها لا تستطيع العيش بلا رجل فإن ولى رجلها كان همها أن تجد البديل؟ أياماً شغلته تلك التساؤلات" ها أنذا عاجز، قد لا أتحرك أبداً ولا أنهض أبداً، أن يموت حب شمس لي؟ أن تتصرف عني سقط متاع؟" شمس تلتحم به أكثر وهو مثبت في قفصه.. الليل والنهار لا تفارقه.. رغم قبح الجحر، رغم ضيق المكان، رغم العفن والنتن، لا تتحرك شمس من جانب فراشه، لا تنام، لا تأكل.. حتى صارت كأنها هي طريحة الفراش، صريعة السقم. شمس، يجب أن تعودى إلى الأولاد، قال لها وهو يخشى عليها المرض "أعود وأتركك؟ لا.. لا.. نعود معاً أو نمكث معاً". لكن انتقالي مستحيل وأنت تعلمين ذلك. "وانتقالي أنا مستحيل". "كيف؟ لماذا؟" "إن كان عظم حوضك قد كسر فأنا ظهري نفسه قد كسر.. انظر، فقرات ظهري كلها محطمة فكيف أستطيع الحراك؟" وبدأت تتناشج باكياً.. كان المصاب يعظم في عينيها يوماً بعد يوم. هي تشعر أنها بغير عزيز جسد بلا ظهر، بلا فقرات، بلا حتى هيكل عظمي.. هو يرى قلبها المفتت، روحها المسحوقة ويزداد وجعاً "أين الفارس المثلث وهو على ظهر فرسه يطل فيوقف بإشارة من يده وصرخة من صوته بدوياً كان يسدد بارودته ليطلق عليه النار؟ أين شمس وهي تبارز ابن عمها معجون فتلحق به الهزيمة، تصارع الكابيتان جيران فتريه سريعاً؟" مع ذلك، كان عليها أن تعود عزيز. يعلم أن الحال لا تسمح بغياهما كليهما، فكبس الملح على الجرح من جديد ثم قال بنبرة الجزم "شمس" أنا أمرك أن تعودى". وبغير نقاش عادت شمس.. هي تحب أن يكون الرجل دائماً، يأمر وينهى، تحب أن تكون المرأة دائماً تسمع وتطيع، فكيف لا تطيع أمره هذه المرة؟ كيف يخطر ببالها أن تعصاه وهو سطيح طريح، لا يملك قدرة على تنفيذ أمره إن عصته؟ شمس عشقته رجلاً وعبدته رجلاً، فكيف لا تكرس فيه الرجولة التي عشقت؟ كيف تجرح فيه الرجولة التي عبدت؟ في دمشق طمأنت الجميع. "عزيز بخير.. أصيب بحادث سيارة إصابة تحول بينه وبين الانتقال إلى دمشق.. الأصدقاء، الأهل،

الجبران، كلهم حدثتهم عن حادث السيارة اللثيم الذي أصابه بكسور لم تشف بعد. والنسوة ردت لهن سوء ظنهن لوماً وعتباً "المرأة، أليست عدوة نفسها بجعلها وقصر نظرها؟! بغيرتها وسوء ظنها، ألا تخرب بيتها أحياناً بسوء تصرفها، ألا تدمر كل ما بنته أحياناً أخرى.؟"

الأولاد يريدون رؤية أبيهم. الأصدقاء، الأهل، لكن أوامر عزيز صارمة. "لا يأت أحد إلى هنا." وانتظر الجميع ستة أشهر أخرى إلى أن يسمح الطبيب بنقله إلى دمشق، ثم مضت عشرون أخرى من الشهور قبل أن تسمح له الطبيب بأن يحاول التحرك.. "وكيف؟ على عكازين؟" عاد عزيز يفكر بحلق وغيظ ثم يقرر "لا.. لن أسير على عكازين.. أجز رجلتي جراً وأشلق نفسي شلحاً فيهبزاً بي الناس" لكن الطبيب، الأولاد وحتى شمس نفسها كانت تريده أن يسير بأي شكل وكيفما كان. تريده أن ينهض، يقف منتصباً، على رجل، رجلين، عكاز، عكازين، المهم أن تراه يفارق السرير، يغادر الغرفة، يرى النور.. لكنه يأبى.. عزيز يشعر بغيظ لا يسمح له بأن يقبل السير على عكازين، كانت عضلات الرجل اليسرى قد ضمرت ومفصل الفخذ ما يزال يؤلمه إذا ما احتك العظم بالعظم. مع ذلك يقول الطبيب "لا بد من التدريب.. الحركة تفيدك، تنشيط الجسم، تعيد للعضلات حيويتها وقوتها، تبين إلى أي مدى تم شفاء الحوض ومفصل الفخذ. لكن عزيزاً يكره أن يسير على عكازين ويرفض: في أعماقه خوف من حقيقة قاتلة ان تأكدت.. كان أطباء دمشق قد طمأنوه "ستشفى". لكن ماذا إن كان كلامهم كذباً وتدجيلاً؟ ماذا ان ثبت بالدليل القاطع أنه سيظل كسيحاً مدى الحياة؟ أعرج، رجله عاطلة مدى الحياة؟ ألا تكون الضربة القاضية؟ "إن.. لأصبر.. إلى أن أتأكد من الشفاء"، وأبى أن يستخدم العكازين.

كان قعوده في الفراش يعذبه مع ذلك كان قد اعتاد، والاعتقاد أقصر الطرق إلى التكيف.. عزيز تكيف مع ظروفه الجديدة. هو يقرأ، يستقبل الأصحاب، يسمع المذيع، يتابع الأخبار، وفي كل يوم جديد من الأخبار يثير اهتمامه ويشد انتباهه. كانت الحرب قد دخلت منعطفات وبدلت مسارات: في الصحراء انكفاً ثعلب الصحراء بجيوشه حتى خرجت جيوشه من افريقيا ثم تورط في مؤامرة دفع حياته ثمناً لها. في الشرق كان المارشال جوكوف يدحر جند هتلر الدحرة تلو الأخرى، معيداً إياها إلى الغرب، مقطعاً أوصالها، ممزقاً شرايينها وأوردتها، مندفعاً في رومانيا، هنغاريا، مخترقاً حدود ألمانيا نفسها ونصب عينيه هدف واحد: برلين في الغرب. الجيوش الحليفة قامت بإنزالها في النورماندي، حطمت دفاعات هتلر،

أيزنهاور وياتون حطما قوات النازية في الأراضي الواطئة، ديجول حرر فرنسا ثم اندفع الكل باتجاه الشرق ونصب أعينهم أيضاً هدف واحد: "برلين". عزيز يعجب "لم لا يسقط هتلر إزاء هذه الاندحارات كلها؟ كيف لا يتحطم الصنم النازي ومطارق فولاذية هائلة الحجم تكيل له الضربات واحدة إثر الأخرى؟" لكن المذيع يجيب "ثمة سلاح سري سيستخدمه هتلر.. قنبلة ذرية سيفجرها اليوم أو غداً فينطلق العفريت من قممه يحطم الأعداء دفعة واحدة، وسيسيطر هتلر على العالم من جديد"، يسمع عزيز ذلك فيساوره الخوف.. الأستاذ نفسه ساوره الخوف، كانت ارتكابات هتلر قد غيرت آراء وبدلت آراء.. فظائعه أوضحت أنه الشيطان الرجيم الذي لا يرجى منه خير ولا يؤمل بخلص.. "هذه الحرب قذرة.. ينبغي أن تنتهي في الحال،" كان الأستاذ قد بدأ يردد منذ حين، "الاستعمار الفرنسي شر وهتلر شر، لكن الأول أهون الشرين. لماذا أستاذ؟" سأله عزيز ذات مرة "من يعلم ما تراه يفعل هتلر إن سيطر على العالم؟ إن ملك ذلك السلاح الفتاك الذي يتحدثون عنه، ما الذي لا يفعله بالعالم هتلر؟. كان جنون الفوهرر قد تجلى في أكثر من مكان: التجويع، الاذلال، السحق، المجازر الجماعية الإبادة، كلها كانت قد غدت معروفة للقاصي والداني ولماذا؟ كرمى لعيني التعصب للأرية وللعرق الآري العظيم الذي لا يضاهيه عرق في العالم. "إذن استعمار بغير تعصب عرقي خير من استعمار بتعصب عرقي وشعور بالتفوق والفوقية"، كانت تلك هي الخلاصة التي توصل إليها الأستاذ خاصة وقد جاء الجنرال كاترو ممثلاً لقوات فرنسا الحرة وجرناها ديجول فاتحاً صفحة جديدة من الدبلوماسية والكياسة السياسية واعداً سورية ولبنان باستقلال قريب، رابطاً بينه وبين وضع الحرب أوزارها فكيف لا يكبر أمل عزيز بالاستقلال؟ وكيف لا يتمنى أن تضع تلك الحرب القذرة الأوزار؟

النهاية تقترب، عزيز يتتبع الأخبار.. مستلقياً على الفراش يستقبل الزوار ويستمع إلى المذيع. المذيع رفيق دائم، لا يفرغ من زائر إلا ويسرع إلى المذيع. "أي اختراع عجيب تفتق عنه الذهن البشري!!؟ تدبير دولاباً صغيراً هنا فيتحدث إليك رجل من لندن أو برلين.. يا إلهي!! ما أعظم العقل البشري!!" المذيع يأتي كل يوم بجديد.. المارشال جوكوف يتقدم نحو برلين من الشرق، الجنرال ايزنهاور يتقدم نحوها من الغرب.. فكا الكماشة العالمية الجديدة ينطبقان على هتلر.. روسيا وأمريكا قوتان عظيمتان أفرزتهما الحرب جيوشاً جرارة وقوى بشرية هائلة وإمكانات اقتصادية عظيمة، أين منها بريطانيا وفرنسا؟ لا.. بريطانيا وفرنسا تتزاحان منحدرتين على السفح، ألمانيا وإيطاليا تتسحقان لتظهر القوتان

الجديدتان، المارشال جوكوف يتوج انتصاره بدخول برلين، المذيع يعلن نبأ انتحار هتلر وعشيقتة إيفا براون.. الفوهرر يموت، الرايخ يسقط والحرب تضع أوزارها فيفرح العالم كله ويرقص العالم كله طرباً وسروراً.

الأخضر نفسه فرح يرقص طرباً. "فرحة لا يعادلها سوى فرحة التحرير" كتب في رسالته يصف فرحه، ثم فرح باريس وسرورها. "يوم دخل ديغول على رأس قوات الحلفاء،

خرجت باريس كلها من إهابها.. الناس ملء الشوارع، الساحات، الحدائق، يهزجون، يرقصون، يغنون، يبكون، يضحكون.. نسي الناس مآسي الحرب، فظائعها، هم لا يذكرون سوى شيء واحد "ولى شبح الحرب.. حل السلام". كانت رسائل الأخضر قد بدأت كالعادة تتوارد.. الانقطاع الطويل الذي سببته الحرب والاحتلال النازي انتهى، لتعود رسائله منتظمة مطمئنة تبشر بالخير. كانت الحرب قد ضيقت عليه بعض الوقت، وكان قد تعذب، عانى، تعرض للكثير من السنين والجيم، للكثير من مشاكل النازي وتحقيقاته لكنه كان قد تعلم مكر الثعلب ودهاءه وكان مصمماً أن يعوض بجده واجتهاده ماضيته عليه الحرب. رسالته الأخيرة جاءت تحمل بشرى أكيدة: في هذا الصيف أخرج.. وحين استلم شهادتي أعود..

-حقاً عزيز، أيعود الأخضر حقاً؟ سألته شمس وكأنها لا تصدق ما تسمع.

-الأخضر يعد.. وإن وعد الأخضر وفى!

-إذن طبيباً سيعود!! الله!! ها هو ذا أجمل أحلامك يتحقق يا شمس!!

سنون طويلة كانت قد مرت على فراقها لابنها البكر، وحنين عظيم بطول تلك السنين كان يعج في صدرها ويضج فكيف لا تتهمر الدموع من عينيها فرحاً وهي تسمع الرسالة ثم تقرأ كلماتها بعينيها ليطمئن قلبها أكثر؟ هي أم.. شمس باتت مجرد أم. لم يعد لها أفراحها الخاصة وأتراحها، بل أفراح أبنائها أفراحها، أتراحهم أتراحها. تعيش بهم وتموت بهم فكيف إذا كان هذا الابن هو ابنها البكر، حبيبها الأول؟

في بداية الحرب كانت قد عرفت اليأس. أخبار الأخضر كانت قد انقطعت ولم يكن أحد يعلم عنه شيئاً.. الكولونيل رينو نفسه كان قد أضاع أهله.. لكن بعدئذ فرجت.. ووجدت الوسيلة للتواصل معه، لإرسال المال له.. كان الكل حريصاً على ألا يعود الأخضر إلا بشهادة الطب، وكان الكل يشعرون أنها

الهزيمة الساحقة إن عاد بغير تلك الشهادة. صحيح، كانت الحياة صعبة وباريس تحت نير النازي، لكن الأصعب أن يخفق الأخضر.. أن يعود إلى بلاده بخفي حنين، وكان قراره: "أموت هنا ولا أخفق".

كانت الغربة قد عركته بمرارها والحرب حرقتة بأوارها ثم سقته بمائها فحولت حديده إلى فولاذ من لا يكسر، صلب لا يعصر، وكان مع الأيام قد أصبح أعرف بباريس من أهل باريس.. هو يعرف الأحياء الآمنة والأخرى الخطرة، الشوارع التي يرتادها والأخرى التي يتجنبها.. وكان له معارف وأصحاب.. عزوة وأصدقاء.. من الجزائر، من تونس، من المغرب، كان العمال المهاجرون يصنعون تجمعات وتجمعات وكان قد تغلغل إلى هذا التجمع وذلك.. رفاقه في الكلية هيئة أمم.. هذا من لبنان، ذلك من السنغال.. ثالث من فيتنام، رابع من إيران، وكان يجد في العروبة أواصر وفي الإسلام أواصر، وكان الأخضر بارعاً في عقد المزيد من الأواصر كل يوم. الشبان، كان باستطاعة الأخضر دائماً أن يعقد معهم الأواصر.؟؟ الشابات هن أنفسهن كن يسعين كي يعقدن معه الأواصر. جانبيت في البداية.. خلصته من خجله.. بعد ذلك كانت هناك فيوليت، جورجيت، أنطوانيت، بريجيت وأخريات. كانت الحرب قد صنعت شرائح من المرشدين والمشردات، الضائعين والضائعات، وكانت الشوارع تعج ببنات الهوى يصطدن الجند ويصطادهن الجند.. وكان الأخضر يتعرض لمشاكساتهن وملاحقاتهن.. لكنه كان يفر دائماً فليس أبغض على نفسه من بائعة هوى.. المرأة بالنسبة إليه صديقة، رفيقة، إنسانة، أما بائعة هوى فلا.. ثم ما حاجته لبائعة هوى وهو في باريس؟ الفتيات في الجامعة يتوددن إليه. في الصف، في البوفيه في المطعم، دائماً يجد من يرافقها وترافقه، يدعوها إلى وجبة غداء أو تدعوه إلى فنجان قهوة أو ساندويشة سريعة، ثم يذهب إلى شقته الصغيرة يمضيان الليل. كانت جانبيت مذ أردت أن تخلصه من الخجل والحزن قد صارت الصديقة التي تلمي حاجته كلما احتاج.. وحين فر إلى الجنوب هرباً من جند هتلر ظلاً أشهراً معاً لا يفترقان.. لكن الأخضر عاد إلى باريس مع افتتاح العام الدراسي فيما خافت جانبيت أن تعود.. كانت تود الذهاب إلى اليونان تتابع دراسة اللغة الإغريقية. النازي يخيفها، الحرب تخيفها، فظلت في الجنوب وكلها حيرة وتردد.. في غضون ذلك تعرف الأخضر إلى فيوليت، بائعة البقالية القريبة، ثم كرت السبحة: صديقات لا يردن منه سوى أن يعشن اللحظة الحاضرة، فالمستقبل في بطن الغيب لا يعرفه أحد ولا يخطط له أحد. كان الأخضر، منذ تجربته الأولى مع جانبيت، قد أدرك أن الناس في الغرب حلوا مشكلة ما تزال

مستعصية في الشرق. الجنس حاجة طبيعية مثله مثل الطعام، الشراب، ولا بد للذكر والأنثى كليهما من الطعام والشراب، فلماذا اللف والدوران؟ لماذا التأزيم والتعقيد؟ كان جان بول سارتر قد خرج بمقولات يقرأها الأخضر هنا وهناك، "عش كما تشتهي"، "افعل ما تحب"، "الحياة جميلة، الوجود رائع فاعمل كل ما يعزز جمال الحياة وروعة الوجود. "وبدت الوجودية تعبيراً عن التوجه الجديد لأجيال جديدة بدت تتذمر من القيود، تأبى الأغلال، ترغب بالحرية، وبالحرية فقط. "أنا حرة إذن أنا موجودة" هكذا قالت له ذات يوم بريجيت الشقراء طالبة الفلسفة وتلميذة كيركجارد وجان بون سارتر.. "الوجود بلا حرية موت والحياة بلا حرية خواء". كان حلمها الذي طالما حدثته عنه: أن تبني عالماً حراً لا قيود فيه ولا أغلال، لا عادات ولا تقاليد.. بل لا أطر ولا نظم تجعل الإنسان حبيس أقفاص ورهين رقباء وحراس. "علاقة بريجيت كانت الأجل، لأنها هي نفسها كانت الأجل، روحاً وجسداً؟ أم لأن أفكارها الجديدة كانت الأجل، مضموناً وسلوكاً؟ الأخضر يتذكرها فلا يملك إلا أن يبتسم.. لطيفة، خفيفة، ظريفة، إلى درجة لم يشعر معها بثقل.. عبئها تتحمله بنفسها، مشاكلها تحلها بنفسها، تأتي إليه كالنسيم، تغادره كالنسيم.. امرأة مترعة حباً للحرية، حباً للفكر، حباً للحياة فتسعى دائماً لأن تصنع أروع صورة للحياة. الخلود، السماء، الجنة، الآخرة، الحساب، العقاب، كلها مفاهيم كانت قد تجاوزتها بريجيت.. "للإنسان ساعته فليعش الإنسان تلك الساعة".. كانت فلسفتها في الحياة. "بيده السعادة وبيده الشقاء، فلماذا لا يفعل كل شيء من أجل تلك السعادة؟ لماذا لا يعمل على إزالة ذلك الشقاء؟" وكانت بريجيت أذكى بكثير من أن تقول ما لا تفعل، فكانت لا تفتأ ليل نهار تسعى كي تصنع لنفسها السعادة وتزيح الشقاء.

"ألم تتعرف إلى أحد؟" كتبت له أمه في آخر رسالة لها، فأدرك الأخضر أنها تقصد بذلك الأحد فتاة.. تخشى أن تتورط معها أو يتزوجها. هو يعلم أنها تكره أن يتزوج بأجنبية.. والده كذلك.. بل لقد أوصاه قبل أن يرحل إلى فرنسا: "حذار أن تتزوج هناك.. أقم علاقات عش حياتك معهن.. لكن لا تتزوج واحدة منهن. "بعدئذ لم تكن رسالة واحدة تخلو من التلميح إلى ذلك والتحذير منه.. هم خائفون عليه.. لكن لم الخوف؟ طوال إقامته في باريس، ورغم الفتيات الكثيرات اللواتي تعرف إليهن لم يشعر مع واحدة منهن بالخوف.. ما من واحدة منهن طرحت عليه فكرة الزواج: "أسوأ مؤسسة أقامها الإنسان". فيوليت، جورجيت، كلهن كن عازفات عن الزواج "وأية حاجة للزواج؟ الجنس؟ ها نحن نعيشه كما نشتهي.. الأولاد؟ ولماذا

الأولاد؟ كانت واحدتهن تحلم بتخفيف أعباء الحياة عن كاهلها لا بزيادتها وكانت المؤسسة الزوجية بما فيها من إنجاب وأولاد تزيد تلك الأعباء "الناس تكاثروا إلى درجة ينبغي عليهم معها أن يتوقفوا عن الإنجاب".

كانت نظرية أنطوانيت طالبة الصيدلة التي عاشت معه ثلاثة أشهر ثم تركته. "لماذا؟" سألتها وهي تودعه معلنة عن نيتها. "ألست سعيدة معي؟" بلى "أجابته أنطوانيت" لكن هذه السعادة جعلتني أنسى نفسي ذات يوم فأحمل.. تصور أنا أحمل وألد، لا.. لا.. لقد أجهضت نفسي ولا أريد أن أنسى نفسي مرة أخرى فأضطر للإجهاض".

بريجيت أنهت علاقتها لسبب آخر. "تعلم؟" قالت له ذات ليلة وقد صالاً وجالاً على سريرهما العالي العريض الطري الوثير. "بدأت تشكل خطراً علي" أي خطر؟" رد وهو يداعب بطنها الأخص الضامر، الأملس الناعم كحرير الصين، "الحب" ماذا تقصدين؟" أخضر أنا خائفة.. تصور.. بدأت أفكر فيك.. بدأت أحبك.. "وماذا في ذلك؟ أحبيني" "لا.. هو ذا الخطر.. جنس؟ نعم.. أما حب فلا" ولم تمض أيام بعد ذلك حتى اختفت من حياته بريجيت.. "أكتب ذلك لأمي؟ أقول لها المرأة هنا تختلف كل الاختلاف عن المرأة هناك.. همها هناك الزواج والأولاد وهمها هنا المتعة والعمل.. لا، ليس باستطاعتي أن أكتب لها ذلك.. ربما لن تستوعب.. ربما لن تصدق ما أقول. ثمة قصة قد تصدقها.. مرة أو مرتين فكر في أن يكتب لها عن "اسعيدة" بنة مؤنس التي تقيم في باريس. كانت اسعيدة تعمل في محل للألبسة، وكان أبوها سرجاناً متقاعداً في الجيش الفرنسي، خدم في مستعمرات فرنسا بدءاً من تشاد وحتى كوبيك. في محل الألبسة تعرف إليها وإلى المسرح والسينما دعاها. ثم إلى منزلها دعت.. وإلى أبيها قدمته عربياً مسلماً يدرس الطب.. الكسكسي أطعمته أمها، وإلى أكثر من عشاء وغداء دعاها أبوها، وبدأت أواصر علاقة حميمة تتعقد وتشد.. ذهباً معاً إلى شقته، تبادلوا العناق، مارسا الجنس، ثم شيئاً فشيئاً بدأت تتكلم عن الحب، المستقبل المشترك، الحياة الواحدة.. فهل يكتب لأمه عن اسعيدة؟ هو يعلم أن أباه وأمه لن يمانعا. اسعيدة من تونس.. عربية.. مسلمة.. "إذن، هي ليست منهن"، سنقول شمس" "هذه منا، عاداتها عاداتنا، تقاليدنا تقاليدنا وهي تؤمن بما نؤمن.. فلم لا؟" سيقول عزيز.. لكن الأخضر لم يكتب عن اسعيدة البتة.. كان ذات يوم قد جاء إلى المحل متأخراً عن عادته بعض الشيء.

وكان المحل قد أغلق لتوه. هناك وبأم عينيه رأى اسعيدة تتأبط ذراع أحدهم

وتلتحم به مقهقهة ضاحكة "لا.. يا أمي.. هي منهن.. عاشت بينهن فصارت منهن، تعيش أفكارهن، مفاهيمهن، نمط حياتهن، فمالي ومالها؟"

وأحرق الأخضر السفن بينه وبين اسعيدة، ثم لم يكتب لشمس غير جملة واحدة "تعرفت إلى الكثيرات لكن دون أن أرتبط بواحدة. "وسرت شمس" سيعود لي الأخضر حراً خالصاً، سفينته تمخر العباب دون مرسة". ولم يكن عزيز أقل سروراً.

-الحمد لله، قال لشمس وقد قرأ الرسالة، الأخضر يفي بوعده..

-ابن أبيه، ردت شمس وعيناها تيرقان اعتزازاً وفخاراً، فهمها جيداً عزيز فأمسك بيديها امتناناً ووجداً، وقد غمرتهما معاً سحابة غبطة وسرور..  
في تلك اللحظة دخل عواد بقامته الطويلة وجسده الممتلئ وشاربيه الأشقرين وقد ارتسما رقم ثمانية على شفثيه.

-الحمد لله.. حظي حسن، عمي، عمتي!! أنتما في هناة وصفاء!!

-نحن دائماً في هناة وصفاء، رد عزيز وهو يتأمل الفتى الذي ظل طويلاً لكنه لم يعد ناحلاً. لقد ملأت الأيام جسده وزادت قامته طولاً..

-خير!! لا بد أن وراءك مطالب!! ردت شمس مازحة، وقد تعودت منه أن يطلب منها كلما ألمت به حاجة ابنا بارا تربطه بهما وشائج ود ربما هي أمتن من وشائج القرى.

-صحيح.. لكنها ليست مطالب.. بل هو مطلب واحد، بدأ عواد بشيء من تعثر وتردد لم يألّفهما عزيز فيه.. فالفتى الناحل الذي درس المحاماة أكثر من ست سنين وعمل في الوقت نفسه أعمالاً شتى، تعرف إلى شخصيات ودخل معترك السياسة، كان يبدو له دائماً واثقاً من نفسه لا يعرف التعثر ولا التردد، وكان ذلك يعجبه فيه.. مثلما يعجبه حبه للعمل، طموحه ودأبه اللذان لا يقفان عند حد. راتبه في التعليم كان يكفيه، مع ذلك لم يكن يدع فرصة عمل تقوته، وكان ذلك كله قد أعطاه ثقة بالنفس وخبرة، امتلاء ومالاً. في محل عزيز، في مكتب هذا المحامي، في مكتب ذلك. كان يعمل.. هو يعلم أن عليه أن يجني المال. أمه العجوز في مسقط رأسها هناك، كانت ما تزال بحاجة إليه. هي وحيدة بلا معين سوى الأرض لكن أرضها تعطي عاماً لتأخذ أعواماً فلماذا لا يبذل المستحيل كي يوفر لنفسه وأمه المال؟ السنة الماضية تخرج وعلى الفور بدأ العمل محامياً يعرف دهاليز قصر العدل ويجوب ساحاته فارساً، سيفه اللسان.



في الأرض، ربما تخشيان مواجهة عيني العم.

بدوره، أطرق العم إلى الأرض، لا خجلاً كعواد بل تفكيراً وتأملاً. "ها أنت ذا تكبر عزيز، ها أنت ذا يطلب الناس يد ابنتك كما طلبت ذات يوم يد شمس من الشيخ نواف." ورغماً عنه شرد عزيز بعيداً.. إلى ذلك العجوز في مضافة الشيخ نواف وهو يرد على طلب علي المر. "إي... نوافق لكن المهر ثلاثمائة ليرة ذهب وثلاثمائة نعجة ومائة ناقة..". كم كانت تلك الأرقام فلكية؟ كم شعر بها خناجر حادة تنغرس في قلبه!! "إن أردت ألا تعطي ابنتك غلّ مهرها" يقول المثل، وقد أدرك عزيز مذ نطق العجوز أرقامه الفلكية تلك، أنهم يغفلون المهر كي لا يعطوه ابنتهم.

-عمي.. عمتي.. عاد عواد للكلام من جديد وقد ثقل عليه الصمت الذي ران، ودبت في أوصاله رعشة من خوف.. أنا آسف.. إن كنت قد تجرأت وطلبت طلبي بنفسي.. لكن عمي أنت تعلم.. لا أب لي ولا عم.. فقلت أنت أبي وعمي.. ولست بحاجة لوسيط لدى أبي وعمي..

-هذا صحيح.. أنت بمثابة ابنا وأقرب الناس إلينا.. قال عزيز وهو يتفحص الشاب الذي استعاد رباطة جأشه، محامياً طيع اللسان حاضر الذهن.  
-والأقربون أولى بالمعروف عمي!! عمتي! عقب للتو وهو ينتقل بناظره من عزيز إلى شمس.

لم تجب شمس، بل نظرت إلى عزيز.. فيما نظر عزيز إلى عواد. "من يصدق؟ ذلك الفتى اليتيم الفقير الناحل الطويل الذي كان يعمل جمالاً لدي، يخطب ابنتي الآن؟" لكن عزيزاً يطرد أفكاره وتساولاته فقد كان مديناً للفتى بحياته وقد اعترف له أكثر من مرة "لولاك لقصيت نحبي. أنت منقذي".  
-لا بأس.. دعنا نسأل الفتاة فقط.

-إي عواد،.. أكدت، بدورها، شمس، لا بد من معرفة رأي بدور.  
بدور موافقة، فقد سبق واعترفت لأمها أنها تحب المحامي الذكي الواعد، تحترم الرجل الشهم الأبوي فيه، معلنة أخيراً أنها لن تجد خيراً منه.. لكن حين سألها والدها الرأي، لاذت بالصمت فأدرك عزيز أن الحياء وحده يمنعها من الكلام، وأن السكوت علامة الرضى..

بعد ثلاثة أيام، مضى عواد ببذور وأمها إلى الصالحية يشترون خاتم الخطبة، لكن سوء الحظ وحده حال دون ذلك.. إذ ما أن وصلوا إلى البوابة حتى

اهتزت الأرض تحت أقدامهم وأصم دوي انفجار هائل أذانهم. لحظة من الزمان تسمرنا في أماكنهم لا يعلمون ما الخبر.. لكن دوي انفجارات أخرى ولعلعة رصاص جديد في منتصف طريقه الصالحية، ثم أمواج الناس وهي تتدفق هاربة، دفعت بهم هم أنفسهم إلى الهرب بعيداً عن قنابل المدفعية التي بدا واضحاً أنها تنصب على مبنى البرلمان، شمالي الصالحية، شرقيها، مشعلة فيها النيران باثة في نفوس الناس الهلع والذعر.

في المنزل فقط، عرفوا السر.

- ألم أقل لك؟ قال الأستاذ لعزيم معقباً على حديث سابق، مؤكداً وجهة نظره.. فرنسا لن تعطينا الاستقلال.. ها هي تكث بوعدا..

- معقول؟ ديغول نفسه وعد بإعطائنا الاستقلال، كاترو أعلن في بيان رسمي ذلك..

- الآن يذهب ديغول وكاترو وتحرر فرنسا من وعودها، فيدك جنرالاتها البرلمان، يقصفون أحياء دمشق ويقتلون سكانها العزل.

- لكن لماذا؟

- الحرب انتهت ورجال البرلمان يطالبون بالاستقلال. الحكومة السورية تطالب بتنفيذ الوعود، لكن فرنسا الآن منتصرة.. قوة أساسية من القوى العظمى في العالم فما الذي يردعها؟ من تراه يرغبها على تنفيذ الوعود؟

لكن الأستاذ نسي في تلك اللحظة أن هيئة للأمم المتحدة كانت قد قامت، وأن قوتين عظميين جدينتين كانتا قد نشأتا وأن ما تريده هيئة الأمم وهاتان القوتان ليس تماماً ما تريده فرنسا.. إذ لم تمض أسابيع حتى عقدت هيئة الأمم اجتماعاً حضره مندوب سوريا مطالباً بحق بلاده في الحرية والاستقلال فلم يكن من العالم الجديد إلا أن اتخذ قراراً بإرغام فرنسا على إعطاء سورية الحرية والاستقلال.

- عمي.. عمي.. هل تسمحان بتحديد موعد العرس؟ سأل عواد، المحامي الذي لم يعد يعرف تلعثما أو تلكوا، وقد جاء اليوم الذي اشترى فيه لبدوره خاتم الخطبة، وألبسها إياه في حفل عائلي بسيط..

- ألسنت مستعجلاً قليلاً؟ أجاب العم وقد ساوره شعور الضن بابنته كأنما لا يتمنى أن يفارقه.

- أربعة أشهر مضت على الخطبة: قال عواد معاتباً محتجاً: الشقة جاهزة، الأثاث جاهز.. تعيينها صدر.. معلمة قد الدنيا.. فلماذا ننتظر؟

-من أجل الأخضر ننتظر.. ردت هذه المرة شمس، وفي ذهنها برقية  
الأخضر ينبئهم فيها أنه على وشك أن يعود.

-هو ذلك.. تتي عزيز على الفكرة.. العرس مع عودة الأخضر.. وقبل عواد  
على مضض. لكن ما كان أشد فرحه حين وصل الأخضر إلى دمشق محملاً  
بشهادة الطب، مكللاً بغار النصر، فقد لبس الحي أزهى حلله ثم خرج بطبوله  
وزموره يستقبل العائد بعد طول غياب ويفرح بعد ذلك ببذور، مقيماً عرسين في  
عرس واحد.. لم يعرفه الميدان منذ أزمان..

إذا كان الفرخ يصنع أجنحة للإنسان فقد صنع لشمس جناحي عقاء حلقت  
بهما إلى الأعالي ملؤها الزهو والكبرياء. عرسان في عرس واحد عاشتهما شمس.  
هي أم عروس حقاً. تذهب، تجيء، فرحة إلى حد النشوة، سعيدة إلى حد  
الطيران. مزيج من المشاعر العجيبة كانت تختلط في نفسها.. ابنتها فرحة  
بعريسها، سعيدة بزفافها إليه فتنقل تلك المشاعر كلها بالعدوى إلى الأم التي ترى  
نفسها في ابنتها ليس امتداداً وحسب بل تجدداً واستعادة. شمس تعود ثلاثين عاماً  
إلى الوراء تعيش لحظات عرسها هناك في أم العيون ومضارب الشيخ نواف.  
سبعة أيام بسبع ليال ظل عرسها لا أحد يأكل أو يشرب إلا من عرس ابنة شيخ  
القبيلة وابن شيخ القرية. يومذاك كانت الفرحة مزدوجة. لقد جمع عزيز وشمس  
مالاً يجتمع: البدو والحضر، عدوين لدودين يفرقهما الصراع الدائم على الحياة  
والبقاء، فجاء عزيز وشمس ليربطا بينهما بروابط الحياة والبقاء. عرس بدور نقلة  
أخرى هو يجمع بين الريف والمدينة، يقيم بينهما الجسور، يشد الروابط.

.. عواد من حوران، بدور من المدينة.. حماة مسقط رأسها، دمشق مرباها،  
في الميدان عاشت، على مرابعه تدرجت، في مدارسها تعلمت وها هي ذي تعود  
من جديد معلمة إليه، ابنة من بناته، تتحدث بلهجته وتتخلق بأخلاقه فكيف لا  
يحتمي بها الميدان؟

في المدينة لا يحبون الإطالة والمطمطة.. سبعة أيام بسبع ليال؟ لماذا؟ ..  
ليلة واحدة دام العرس. رقصت فيها الفتيات، هزج الفتيان، دبكوا وغنوا، لعبوا  
بالسيف والترس، قاموا بالعروضات الفولكلورية البهيجة:

*"شكك ليلة.. شكك ليلة"*

### من ها الليلة صار له عيلة"

ثم مضوا بالعروس إلى عريستها في الشقة الجديدة حيث يمضيان شهر العسل منفردين بعيدين عن كل الناس، تماماً كما ينفرد العروسان في مضارب الخيام فينصبون لهما خيمة بعيدة لا يقربها أحد..

صحيح، شمس فرحت بابنتها، شعرت بنفسها تتجدد، لكن الصحيح أيضاً أنها شعرت عليها بالحزن، بل بكت عليها الدموع الغزار عندما حانت لحظة الفراق. ومثلما بكت الأم على ابنتها بكت الابنة على الأم.. إنه الحزن الذي لا بد سيعتري كلا منهما وهما تطويان مرحلة من العمر لتبدأ مرحلة جديدة، ربما لا ترى فيها الواحدة الأخرى.. لكن إن شعرت شمس بمزيج من الفرح والحزن على بدور وهم يخرجون بها من منزلها، فإن فرحتها بعودة الأخضر كانت خالصة لا يخالطها حزن.. الأخضر يعود إليها فكيف لا تطير فرحاً؟ هو رجل طويل عريض ناضج مزود بسلاح العلم والخبرة.. فكيف لا ترقص نشوة وطرباً؟ الكل جاؤوا لاستقبال الأخضر. كبار القوم جاؤوا يسلمون على الطبيب الجراح الذي صمد وتحمل، سنين من العذابات والمعاناة، سنين من الحرب وأهوال الحرب كيلا يعود بخفي حنين.. "أهلاً بالطبيب الجراح"، قال له صبري وهو يأخذه بالأحضان. "أنا معجب بجلدك وصمودك، بدأك ومثابرتك" ..

الأستاذ، فخري بك، فارس بك، كلهم فرحوا بعودته ظافراً منتصراً. شهراً كاملاً وليس يوماً وليلة ظلوا يستقبلون الناس الذين يريدون المباركة له بشهادته الكبيرة وتهنئتهم هم بعودة الحكيم الفهيم الذي يستطيع القيام بأصعب الأعمال الجراحية. عمه يونس من القرية، أخوه نواف، ليف الأقرباء كلهم جاؤوا مسلمين مهنيين. خاله سلطان من البادية، أولاد أخواله، وجوه القبيلة هم الآخرون أدلوا بدلائهم حتى خيل لشمس أن العالم كله يشاركها فرحتها وهي تطير عالياً بجناحي عقفاء.

فرح الأخضر كفرح أمه كبير أيضاً.. هو فرح بالعودة إلى الوطن، برؤية الأهل، الأصدقاء، مراتب الصبا، لكن شيئاً واحداً عكره.. كان، مذ وطئت قدماه رصيف محطة الحجاز قد افتقد أباه.. بحث بين المستقبلين فلم يجده، سأل عنه فغمغم الجميع وتمتموا بالجواب.. هو مشوق لرؤيته مثلثف لحضنه يضمه، ليد يقبلها لكنه لا يظهر.. "أين أبي؟" ألح على أمه. "ستراه في المنزل". وأغرقتة باللهفة والقبل.. هو يحب أمه صحيح، لكن حبه لأبيه شيء آخر..

تعلقه به شديد حتى ليشعر أن خيال أبيه لا يفارقه أبداً. طوال إقامته في

باريس، كان خيال الأب معه، صورته في عينيه، كلامه في أذنيه... "العمل العمل يا بني، قيمة الإنسان بما يعمل... بالإرادة والتصميم يصنع الإنسان المعجزات". "بالدأب والمثابرة نحقق المطامح. وكان ذلك كله دافعاً يدفعه باستمرار لأن يدأب ويثابر.. حافزاً يحفزه على الصبر والتحمل.. كان الأخضر يشعر أن أباه مثله الأعلى يقتدي به ويحذو حذوه.. ألم يشق طريقه في الصخر؟ ألم يعرض حياته نفسها للخطر عشرات المرات؟ ألم يكن مثال الطموح والدأب؟ الشجاعة والمغامرة؟ إذن، كيف لا يكون الأخضر كذلك؟ "لكن لماذا لم يأت أبي؟" "سأل أمه من جديد وهو في الطريق إلى المنزل. "هو غضبان مني؟ زعلان؟ مريض؟" لكن الأم عادت تغمغم بالجواب، تلف حوله وتدور.

في المنزل فقط، أمسكت أمه بيده وقادته إلى غرفة الأب حيث كان يجلس على سريره وكله حرقاً لرؤية الأخضر. "أبي!!" "ولدي!" تبادل الأب وابنه هتاف اللقاء، ثم ألقى كل منهما بنفسه في حضن الآخر والدموع تتهمر مدرارا على وجنتيه. "أبي، لماذا أنت في الفراش؟ لماذا لا تنهض؟" "سأل الابن أباه وهو يفحصه مكفهر الوجه "أنهض؟" "رد الأب زافرا ملوحاً برأسه" أذفع عمري كله لو أستطيع أن أنهض. "وزعق الأخضر مرعوباً، "ماذا؟ أنت.. عا.. مق.. وتعرش دون أن يستطيع إكمال أي من الكلمتين.. حينذاك روى الأب لابنه القصة كاملة فضرب الأخضر كفاً بكف "ولا تخبروني!!؟ معقول هذا! أبي يصاب!! يقعد في الفراش، ولا أعلم أنا الطبيب الجراح؟" "لم تكن قد صرت جراحاً يا بني!! ولم تكن نريدك أن تقطع دراستك،" أجابت الأم شارحة مفسرة.. لكن الابن لم يرتح للشرح ولم يخف حزنه. "لا، ما كان ينبغي أن تخفوا عني الحقيقة"، ثم جلس على حافة السرير وقد هدت المفاجأة ظهره.. "كسور في الحوض؟ في الفخذ؟ في الكتف!!؟ يا إلهي!! لو أخبرتموني إذن لأخذته إلى باريس نفسها". "في البداية لم يكن باستطاعته أن يظهر.. لو عرف الفرنسيون به، ربما أعدمه" شرحت له الأم من جديد "لكن.. لماذا؟ ماذا فعل للفرنساوي كي يعدمه؟" وتبسم عزيز "لا.. بني.. هذه قصة أخرى.. "كلي أذان صاغية.. احكها لي"، لكن الأب ربت كتف الابن، ثم شده إلى صدره وفمه على خده، ماء عذبا يريد أن يروي عطشه منه. "ماذا أقول له؟" وتتهد عزيز وهو ما يزال يشد ابنه إلى صدره، "أحكي له قصتي مع البطحيش؟ عملياتنا معا عبر السنين الطوال.. طعنات خناجرنا في خاصرته، صدره، ظهره؟ لا.. لا.. ليس الآن، أخضر.. ليس الآن يا بني.. واكتفى عزيز بصب جام غضبه على المستعمر الذي يحسب الآخرين مجرد حشرات أو بهائم

يمكنه أن يذبحها أو يسلخها على هواه.. "حتى على العكازين لا تستطيع السير؟" سأله الأخضر وهو ينظر إلى العكازين المرميين في الزاوية". هو لا يريد أن يسير عليهما، رفض استخدامهما، "تذمرت الأم موجهة الاتهام إلى الأب الذي كان ما يزال يأبى استخدام العكازين. "معقول؟" قاطع الأخضر أمه وهو يتطلع بعبث وملامة إلى أبيه. "لا تريد أن تسير؟ أيعجبك قعودك في الفراش؟" وهز عزيز رأسه انكاراً "بل لقد حاولت.. لكن آلاماً شديدة منعتني.. أشعر أن العظام هنا في حوضي تضرب بعضها بعضاً فتؤلمني ألماً لا أقوى معه على الحراك".

منذ ذلك الحين، صار ديدن الأخضر علاج أبيه. كان عجزه عن الحركة قد انغرس كالخنجر في صدره فبدا قلبه وكأنه ينزف دماً وألماً جعلاه يصمم على إعادته للحركة بأي شكل من الأشكال. "أبي العزيز القوي يقعد كسيحاً أشل؟" وعاد إلى كتبه يبحث فيها، أرسل إلى الأساتذة في باريس يسأل، يستفسر.. وكان ثمة اجماع: "تكلس عظام وتصلبها من جهة وضمور عضلات وضعفها من جهة أخرى. والعلاج؟" دوائى وفيزيائى "... الأخضر يشرف على الدوائى بنفسه وزميل آخر يشرف على الفيزيائى. في الصباح، وقبل أن يذهب إلى عيادته، يعطيه الأخضر الدواء، عند العصر يقف على يد المعالج الفيزيائى، وفي كل حين يحت الرجل الذي لم يعرف القعود من قبل، يرفع من معنوياته. كان يريد أن يعود أبوه كما كان، وكان حانقاً على الفرنسيين الذي فعل ذلك به. يريد الانتقام منه لكن لا يدري كيف.. هو يكرههم. مذ كان في باريس كان يرى تعاليهم وصلفهم.. يعرفونك من مستعمراتهم يعاملونك معاملة الإذلال والمهانة!! مرات عديدة ثار على مثل تلك المعاملة خاصة معاملة السود أولئك الذين جاؤوا من المستعمرات الأفريقية وكل منهم يريد أن يحصل العلم، طبيباً أو مهندساً، فيزيائياً أو كيميائياً، لكن على أشواك التمييز العنصري. هم يرون الابتسامات الساخرة منهم، النظرات الشذراء إلى العبد الأسود الذي يريد أن يتعلم علوم السادة، بل بأذانهم يسمعون نداءاتهم فيما بينهم: "انظر العبد الأسود.. ها هو ذا النيجرو اللعين". بلونه الحنطي وبشرته المائلة للبياض، كان الأخضر غالباً ما يضيع فلا يعرفونه أصلاً ولا فصلاً، لكن كيف ينجو الزنجي أسود اللون؟ ذلك، ربما ما جعله يدرس ليل نهار.. بجد ودأب لا ينقطعان، عله يتخرج بأسرع ما يستطيع، فيخلص من التمييز العنصري والمستعمر كله.. لكن المستعمر كان ما يزال في وطنه. هناك في فرنسا، كانوا يقولون "الانتداب انتهى". "فرنسا تخرج من سوريا ولبنان"، لكن ها هو ذا يجيء فإذا فرنسا ما تزال.. ليس في البلاد وحسب، بل في بيته نفسه، عجزاً أقعد أباه

عن الحراك.

الأخضر لا يعرف اليأس.. بحماسة راح يعالج أباه، يعمل في العيادة، يشرف على المحل. كان يحاول أن يحل محل أبيه.. فيسد الثغرة التي أحس بها تغرر فاها في وجهه، بل لقد ذهب إلى القرية حيث كان يشده الحنين إلى الأهل والأقرباء. كان يريد أن يلقي نظرة على الأرض والأملك، الأخ الذي أثر حياة الطبيعة والريف.. شمس معه.. في ذهنها أشياء وأشياء.. "الأخضر لم يعد صغيراً.. لو تزوج لكان لديه الآن خمسة أولاد،" كانت تفكر خفية "فلماذا لا أسمى لتزويجه؟" ولقد سعت شمس.. لم يكن قد مضى عليه أسبوعان حتى فاتحته. "ها قد عدت إلى الوطن.. إلى الاستقرار.. ولا استقرار للرجل إلا بالزواج." وضحك الأخضر "لا، أمي.. استقراري الآن بشفاء أبي.. بنجاحي في عملي..".

"هذا لا يتعارض مع الزواج." ربما بالنسبة إلى الآخرين.. لكن بالنسبة إلي يتعارض. أنا لا يهمني الآن سوى أن أعمل، أبني قاعدة، أصنع سمعة وشهرة.. يعني.. بصريح العبارة.. ما يزال باكراً علي التفكير بالزواج.. وثى عزيز على فكرة الأخضر "صحيح المهم أن يشق الأخضر طريقه.. أن يعرفه الناس فيشتهر." لكن الأم لم تقنط بسهولة.. بل كانت لا تفناً تناوشه. "ثمة فريدة ابنة عمك صبري.. فتاة حلوة تسألني دائماً عنك." وتغمر الأم بعينها، "ما رأيك أن تلتقي بها؟" ويجد الأخضر حيلة للتخلص فلا يلتقي بفريدة. "هذه هدية ابنة أم روضة، أتذكرها؟" تسأله شمس التي تحولت إلى مجرد أم وهي تقدم له صبية في الرابعة عشرة من عمرها، "أتذكرها وهي بجداول صغيرة، ربما لا تتجاوز الخامسة من العمر." "ما رأيك بها؟" تقترب من أذنه هامسة. "أمي أنا في ضعف عمرها، أيعقل ذلك." ولم لا؟ الأنثى تصلح للذكر أيا كان عمرها. "لكنها طفلة، أمي، وأنا طبيب لي خبرتي ومكانتي.. أريد امرأة كاملة ناضجة لا سعدانة تنط وتلعب." ويسرع الأخضر مبتعداً. لو كانت روضة لكانت معقولة هو يعرفها وهي تعرفه، بل كانا في يوم من الأيام قريبين بينهما جسور وروابط. لكن روضة تزوجت، صار لديها أولاد وكانت قد زارته.. خفية جاءت تعاتبه "أهكذا تركتني؟" وماذا أفعل إن كنت لا أستطيع دراسة الطب إلا في باريس؟ "لكنها خيانة للعهد" أنا لم أعطك عهداً لأخونه" لكنني كنت أحبك.. لساني انعقد حين أرادوا أن يزوجوني سواك" ربما هو حب من طرف واحد، أنا لم أحدثك يوماً عن حب ولا وعدتك بزواج "أنت، ككل الرجال، ليس معكم اطمئنان وليس لكم أمان" مع ذلك كانت روضة تزوره من حين إلى حين. في البيت، في العيادة، بهذه الحجة أو

تلك، مع أمها أو بغير أمها، وكأنها لا تستطيع إلا أن تراه.

كانت أم روضة قد زوجت ثلاثاً من بناتها، وكانت خيرية، الابنة الرابعة، قد خطبت لمناف فلماذا لا يخطب الأخضر الخامسة؟ "طبيب قد الدنيا، فأية ضربة حظ ستكون يا أم روضة، إن أوقعته في شرك هدية!" وبدأت أم روضة استراتيجية متكاملة. هي تعلم أنه ما يزال يكن الود لروضة، فلماذا لا ترسلها له تحذره عن هدية وتمهد لها الطريق؟ شمس أيضاً ذات تأثير كبير عليه.. أم روضة لا تريد مهراً وليس لها شروط، حسب الأخضر أن يتزوج هدية فلا يظل لديها بنات عازيات ولا هم تدبير زيجات.

شمس تضغط على الأخضر.. هي تريده أن يتزوج، وهدية فتاة ساحرة.. غضة بضة كورق الياسمين.. عيناها خضراوان، شعرها كالذهب.. "سيأتي نسلك جميلاً، ثم هي عجيبة يمكنك أن تصنع منها ما تشاء. رغيماً، كماجة، فطيرة.. "ويضحك الأخضر "أمي، الزواج اقتران ندين: ذكر وأنثى، وليس تنوراً تخبزين فيه الخبز، أو مصنع فخار تصنعين فيه الفخارة على هواك".

"حسن، في المدينة لم تجذبه أحد، ربما تجذبه واحدة في القرية". وذهبا معاً إلى القرية.. "مزنة ابنة عمك، نرجس تأخذ العقل"، تقول له فيبتسم "لا أخفيك.. هي جميلة لكن قلت لك.. لا أريد الزواج الآن.. لا أفكر في ذلك" "تدري؟! ابنة عمك خديجة تريدك، حدثتني صراحة عنك"، تقول له في ليلة أخرى فيهز رأسه.. "خديجة ابنة عمي وأنا لا أكره كزواج الأقارب وأبناء العم.. هي مثل أختي ومن المحال أن أفكر فيها". "لكن، أخوك نواف فكر بابنة عمه وتزوجها". "هذا خطأ أمي وهو خطأ فظيع.. زواج الأقارب لا يورث إلا ضعف النسل وسوء الذرية.. فهل تريدين لنسلي أن يكون سيئاً ضعيفاً؟" وبدا الطريق مسدوداً في وجه شمس..

في البادية، وبين قومها، عادت تناوشه من جديد "ما رأيك بصبحة، ابنة خالك سلطان؟" "ما رأيك بندوة ابنة خالتك فوز؟" ويعيد الأخضر الأسطوانة: زواج الأقارب، وفارق السن، اختلاف البيئة ونمط الحياة.. لكن حين رأى "سوحة" بدا وكأنه نسي كل ذلك. كانت سوحة فارعة القامة، هيفاء، دعجاء كتلك التي تتحدث عنها الأشعار وتصفها القصائد.. رآها فخيل إليه أنها صورة طبق الأصل عن أمه.. البشرة البيضاء والشعر الفاحم، القد المشوق والعينان السوداوان.. ثم الذكاء اللامح واللسان الفصيح. "ماذا؟ أعجبتك؟" سألته الأم وقد رأت الانبهار في عينيه "كثيراً" "أخطبها لك؟" "أجل" فضحكت الأم وقد سجلت أول نصر.. "لا تنس.. هي بدوية، لا تقرأ ولا تكتب..". "أعلم ذلك" "عمرك في ضعف عمرها" "أعلم" "بيئتها

مختلفة ونمط حياتها مختلف؟ "تابعت ضاحكة... "أمي؟!... احتج وفي عينيه لوم وعتاب.. "أخطبها لك الليلة" وهز الأخضر رأسه وهو أكثر حماساً واندفاعاً، ثم بدأ يذرع الخيمة جيئةً وذهاباً وقد تركته أمه كي تزور سوحة. "أبي وقع في حب بدوية فيحدث لي الأمر ذاته أهو التاريخ يعيد نفسه أم هي عقدة أوديب يا ترى؟ سوحة تشبه أمي فأحبها.. ألأنني أحب أمي؟ لأنها تشبهها فأجد فيها البديل وال عوض؟" وأحس بنوع من وخز الضمير.. "أنا معقد؟! أعاني من عقدة أوديب ولا أعلم؟ لا.. لا.. يجب أن أتخلص منها.. ينبغي ألا أفكر بسوحة.. عادت الأم فهم الابن بنقل قراره لها، لكنها كانت الأسبق وقد اكتسبت سيماها أسي: "سوحة مخطوبة لابن عمها.. عرسها بعد أيام.. ووجدها الأخضر مناسبة كي يسرع في العودة إلى دمشق .

في دمشق، عاد الأخضر المغناطيس الجاذب لبرادة الحديد.. وغدت شمس أسعد بكثير وهي تستقبل نساء الحي وكلهن يسألن عن الطبيب الجراح الذي لما يتزوج بعد. "متى ستزوجينه؟" "من سيتزوج؟" "ألقيت له عروساً؟"

كانت الأسئلة تنثر عليها.. حتى نساء الرابطة التي ما انقطعت عنها منذ عرفت نازك وعائدة، سألتها عن الطبيب الجراح الذي "تعشقه أخته". وبدا الأخضر حلم كل فتاة.. كلهن يحمن حوله.. بيتها صار محط الأنظار. بحجة مراجعة الطبيب، ظهور علائم مرض، كن جميعاً يأتين "ها هو ذا الأخضر يعيد العز لبيت العز!!" وترتفع معنويات عزيز بعد أن فت في عضده طول القعود وأذبل روحه العجز عن الحراك، فيما كانت شمس تزهو، وقد كثرت زئراتها وطالبات ودها. "صحيح.. يسقط الطير حيث ينتثر الحب، وأي حب أكثر إغراء من الأخضر؟" ثم تشيل برأسها وهي تعود إلى الماضي مستعيدة صورة الحبيب الذي خلب لبها ففتساءل من جديد "ألم يكن عزيز كذلك؟ تتصارع عليه الفتيات ويخططن لنيله؟" هو نفسه كان قد روى لها أشياء وأشياء عن سعدى وبنات الريحانة، عن عليا وسكينة.. فكيف لا يكون الولد سر أبيه؟

-اسمع، البنات أهلكنني.. قالت له ذات ليلة وقد جاءها أكثر من ثلاث منهن، كلهن يردنك.. حسبك تدللا.. اختر واحدة وأرحني..

-لا.. أمي.. لافراغ لدي الآن للزواج،

-لكنك كنت ستزوج سوحة.. كيف؟ ردت مقطبة محتجة.

-تعلمين؟ أنا نفسي لا أعرف كيف.. قال بنبرة المستغرب المتعجب. بعدئذ تأملها قليلاً ثم عقب، ربما لأن التاريخ يعيد نفسه، هي تشبهك أنت، وأنا أشبه

أبي..

-المعنى؟

-المعنى: أتزوج حين ألتقي بالفتاة التي تخلب لبي، كما خلبت شمس لب عزيز، قال مداعباً شادا ذراعه حول كتفها، مقبلاً صفحة خدها، فشددت بدورها ذراعها حول عنقه مقبلة إياه.

-لكن أسراب القطا كثيرة وكلها تريد المنهل.. قالت بلهجتها البديوية اللماحة الملغزة.

-وأنت سعيدة بالطبع!! قبلة الأنظار صرت، مجمع الفتيات بت، فماذا تريدن أكثر من ذلك؟

-أخضر.. الله!! كم أنا فخورة بك.. كم أحبك يا أجمل شبان الدنيا!!

-القرد في عين أمه غزال!! عاود مزاحه وضحكه، فقاطعته وراحة كفها على فمه.

-لا تقل ذلك.. أخضر.. أنت هكذا في عين كل فتاة.. بل أنت حلم كل فتاة.

-إذن.. دعيني أظل حلماً.. حلما أجمل من الواقع..

لكن إن أراد هو أن يظل حلماً، أتريد الفتيات ذلك؟ أترضى الأخريات بأقل من الواقع؟ جانبيت لن تفعل حتى لو طلب إليها ذلك، هي فتاة حرة مستقلة الرأي لا تفعل إلا ما يحلو لها وقد حلا لها، وهي في أثينا، أن ترى الأخضر.

-قلت في نفسي، شرحت له وهو يستقبلها في محطة السكك الحديدية قادمة من بيروت، يا بنت، أنت قريبة من دمشق فلماذا لا تستغلين هذه الفرصة؟

-جئت أهلاً ووطنت سهلاً، قال بالعربية مازحاً ففغرت فاهها.

-ترادوي.. سيل فويلي..

وترجم لها الأخضر كيف يرحب العربي بضيفه وكم يشتهر العربي بحسن الضيافة منفرداً عن خلق الله جميعاً، فمن حق الضيف أن يظل سبعة أيام دون أن يسأله أحد عن سبب مجيئه أو موعد مغادرته..

-فقط سبعة أيام؟! قاطعته جانبيت مداعبة. أنا أطمع بأكثر من ذلك..

-ولك ما تطمعين به: سبعة أشهر.. سبعة أعوام..

-لا.. لا.. أنا أريد فقط أن أتعرف إلى بلادكم.. سورية التي يقولون انها مهد الحضارات وملتقى الحضارات..

-وهو كذلك.. أكون لك دليلاً سياحياً.. يا أجمل السائحات.. وأوفى الصديقات.

لكن لدى شمس لم تكن جانيت سائحة جميلة ولا صديقة وفيّة، بل مصدر ازعاج وتشنّج.. إذ ما إن رأتها حتى تراءى لها الكولونيل رينو بلحمه وشحمه يهددها بحبل المشنقة فانكشمت منقبضة الوجه.

-لا تخافي، طمأنها الأخضر في الحال، جانيت شيء والكولونيل شيء آخر ولا علاقة لواحدهما بالآخر.

-كيف لا علاقة وهما أخت وأخ؟

-وماذا يعني ذلك؟

-يعني الكثير.. بل أنا خائفة أن يكون هو الذي أرسلها كي تتابع مهمته..

-أية مهمة؟ سأل الأخضر ضاحكاً مستغرباً. لكن لم يكن باستطاعة شمس أن تشرح له، هو الذي لا يعلم شيئاً عن الأمر كله...

-لا أدري.. ردت أخيراً يعتمل في نفسها الخوف، لكن ظني أن لمجيئها علاقة بأخيها...

-أمي.. صدقيني.. هما لا يلتقيان إلا إذا التقى الشمس بالقمر.. ولكي يؤكد لها ذلك سأل جانيت عن أخبار الكولونيل..

-لا.. لا أعلم شيئاً! لم أره منذ شهور طويلة بل ربما أكثر من سنة. ردت جانيت ضاحكة، فيما كانت شمس تسمع دون أن تفهم.. ترجم لها الأخضر فطلبت إليه:

-سلها.. ماذا يستلم الآن؟ هل في نيته أن يعود إلى سورية؟

-يستلم؟ يعود؟ ردت جانيت باستغراب!! لا.. هو مذ خرج من سجن حكومة فيشي.. زهد في الجيش والسلطة.. لم يستطع حتى ديجول إقناعه بالعمل معه.. فترك كل شيء وتفرغ للصناعة..

-يعني لم يعد له علاقة بالأمن والاستخبارات، بالحكم والسلطة هنا؟ عاد الأخضر يسألها بناء على سؤال أمه، وهو لا يفهم سر ذلك الاهتمام برينو!!

-جامي.. ردت جانيت مؤكدة على كل حرف.. علاقته بمصنع السيارات فقط، والمصنع يدر عليه الأرباح الطائلة فلماذا يهتم بشيء آخر؟

وتنفست شمس الصعداء، شاعرة ربما لأول مرة، أن الأنشطة انفكت عن

عنقها وأن حبل المشنقة لم يعد يهددها

-لقد طوي ملف جبرار.

-هذه بشرى سارة، قال عزيز وقد نقلت له الخبر.

-لكنني أكاد لا أصدق، عزيز!! انتهت مشكلة جبرار؟ أكاد لا أصدق..

-بل صدقي!! الزمن أنهاها والزمن كفيل بإنهاء كل مشكلة..

غير أن مشكلة جديدة ظهرت.. "من أين جاءتني هذه الجنية، جانيت؟ ماذا تريد من ابني؟ لماذا هو بالذات؟" لقد أحست شمس بالمشكلة مذ أراد الأخضر أن تحل جانيت في غرفة بدور وطوال إقامتها في دمشق.. "ليس من المستحسن أن ننزلها في فندق،" شرح لأمه وأبيه ولم يملكا إلا أن يؤمنا على قوله، لكن العلاقة الحميمة بين جانيت والأخضر جعلت الأم تنكمش وتتحفز، "هما زوج وزوجة.. يسهران معاً، ينامان معاً، فماذا إن كانت قد جاءت لتتزوجه؟" وكانت تعبس وتقطب وهي ترى ابنها وضيافته طيري حمام متغامين يلتف منقارهما غردين.. أفصحت لعزيز عن همها فهز رأسه استنكاراً:

-لا تخافي.. الأجنبية هكذا، تعيش حريتها دون قيد أو شرط.

-وماذا إن حبلت؟ ألا تكون قد ورطته؟ ألا تقرض عليه الزواج فرضاً؟

-أيضاً، لا تخافي.. هي نفسها لا تريد أن تحبل أو تتزوج..

-كيف عرفت؟

-سألت الأخضر..

وكان الأخضر قد شرح له علاقته بجانيت فعل الرجل للرجل. الأخضر مطمئن، سعيد.. فرح بجانيت يريد أن يرد لها الجميل. "ألم تعمل ذات يوم كي تخلصني من خجلي وحزني؟ ألم تأخذ بيدي في باريس؟ ألم تهرب بي وقت الاجتياح إلى الجنوب؟" هي بالنسبة إليه صديقة حميمة لكن صديقة دون التزام، دون ارتباط.. تسبح في فلکها ويسبح في فلکه فإذا ما تقاطع الفلكان النقيان، ناما معاً، مارسا الحب وكأنهما لم ينفصلا قط. كانت جانيت قد تخرجت، صارت دكتورة في الآداب الكلاسيكية، تدرّس في الجامعة، مع ذلك لم تكف يوماً عن البحث.. ظمأها للمعرفة، للتنقيب، للكشف، أكبر من أن يطفئه عمل روتيني، فتتهدد كل فرصة تسافر فيها إلى بلاد الإغريق وإلى بلاد الرومان، تستكشف وتفنن. لكن قبل أن تأتي إلى بلاد الإغريق كانت تعرف الكثير عن حضارة الشرق، عن علاقة الإغريق بالشرق، عن فضله على حضارتهم.. هي التي مدت

جذورها إلى هناك فامتصت منه النسغ وجاءت بالماء والغذاء ليتحولاً إلى فلاسفة وأدباء. أبجديتها، حروفها، علومها، رياضياتها، فلکها، هندستها، کلها جاءت من الشرق ثم تطورت كما هو شأن البشرية وحضاراتها: مشعل يحمله عداء ماراثون إلى أن يوصله إلى عداء آخر يجري به شوطاً جديداً إلى أن يأتي من يستلمه.. وصار لديها دافعان: تلتقي بالأخضر وترى حضارة الشرق. بأمر عينها رأت الآثار العظيمة في دمشق، بصرى، تدمر، أوغاريت، أفاميا، حلب.. رأت المدن الميتة هنا، هناك، ولما يكشف عنها التراب بعد.

- ما بلدكم هذا؟ قالت للأخضر، وهما يمران بإحدى المدن الميتة في الشمال. "سورية کلها متحف كأنها بلد الزمانين: الماضي والحاضر.. يعيشان معاً وعلى سطح واحد.

- الحمد لله ان اعترفت؟

- أتعرف؟ كيف لا، وأنا أرى بأمر عيني؟ حيثما ذهبت، ثمة الماضي إلى جانب الحاضر.. هذا فوق الأرض وذلك تحت الأرض حتى ليخيل إلي أنه لا يوجد شبر في سورية إلا وفيه أثر من حضارة وبقايا من عمران..

- مع ذلك، جاء قومك يستعمروننا وكل زعمهم: ليس لدينا من الوعي الحضاري ما يؤهلنا لإقامة دولة؟

- أي زعم؟! أي باطل!! بل كيف يفكرون كذلك وفي كل مكان أدلة دامغة على أنكم أمة عظيمة، صانعة حضارات؟

- قل لي ذلك لهم، هناك في باريس..

ولم تملك جانبيت وهي ترى الأبجدية الأولى في أوغاريت إلا أن تهتف إعجاباً:

- لا، أمة تخترع الأبجدية هي أعرق أمم التاريخ، أعظمها مدنية وأكثرها حضارة. وكان ذلك يدغدغ مشاعر الأخضر، يجعله يزهو شيئاً فشيئاً، بل بدا وكأنه يداوي الجراح التي تركها الفرنسيون في نفسه طوال ثماني سنين، وهم يعملون فيه نصال غرورهم وسهام صلفهم. شعوره بالدونية، ذاك الذي بدا في وهلة من الزمن يضرب جذوره عميقاً في نفسه، بدأ بالانزياح.. لم يعد هو البدائي "السوفاج"، الذي ينظر إليه أبناء باريس من عل.. بل تنظر إليه جانبيت نفسها من عل.. ها هو ذا يستعيد مكانته مجدداً لحضارة عريقة عراقية التاريخ، منتسباً لأمة عظيمة وضعت أسس الحضارة ثم رفعت دعائمها وأطلقت عجلة التاريخ..

-أخضر.. لا أخفيك، قالت له وقد عادا، إلى دمشق، أنا مأخوذة اللب مسحورة.

-هو ذا سحر الشرق لا ينجو منه أحد.. رد ضاحكاً مداعباً شعرها الأشقر، وقد افترش الوسادة ريش طاووس.

-أنا أعبد هذا الشرق!! أموت في سحره!!

-ماذا تعنين؟ لكأني أرى في عينيك بريق فكرة!!

-أجل.. أخضر.. أفكر أن أبقى هنا، حيث هذا السحر..

-وفرنسا؟ الغرب؟ قال مداعباً دون أن يأخذ كلامها مأخذ الجد..

-أنخلي عن كل شيء لقاء طمأنينة الشرق.. يقين الشرق.. سحر الشرق..

-تخليين؟ كيف؟

-نتزوج؟! نعيش هنا.. ننجب أطفالاً.. قالت وقد جلست بعد استلقاء، ربما

كي تعطي كلامها طابع الجد..

-نتزوج؟ رد الأخضر وهو يتفحصها ربما غير مصدق أذنيه، أنت تتزوجين؟

تابع مشيراً بسبابته، مؤكداً على كل حرف..

-أجل.. أنا أتزوج.. وأتزوجك.. أنت.. أخضر.. أنت رجل رائع.. عظيم لا

تملك المرأة إلا أن تحبه..

-جانيت أتعلمين ما تقولين؟ تحبين..؟ أنت تحبين؟

-أجل.. الحب.. هو ما أشعر به تجاهك.. إني أعترف.. أنا جانيت رينو

التي لم تكن تؤمن بالحب، باتت الآن تؤمن به.. بل تؤكد أن حبك يملك قلبها، فلماذا لا نتزوج؟

-أنت واقعة تحت تأثير الشرق، كلامك نتاج سحره ولا يؤخذ بكلام

المسحور..

-هبني مسحورة بالشرق، مسحورة بك،.. مفتونة حتى اللب فلماذا لا ننتهز

هذه الفرصة؟

-جانيت، مسحورة مفتونة.. ننتهز.. ما الذي تقولينه؟ لا شك أنك لست جادة؟

-بل أنا جادة كل الجد.. وان شئت نذهب الساعة إلى الكنيسة فننكل..

بلغ الاقتراح مسامع شمس، فلعل رصاصها، فاتحة عليها النار.

-لا، لن نتزوج هذه الجنية.. لن نتزوج امرأة لا تعرف هي نفسها عدد الرجال

الذين نامت معهم.

وانكمش شيء في داخل الأخضر.. "صحيح.. امرأة كجانيت عاشت حياتها بالطول والعرض كيف أنسى ماضيها؟ كيف أخذها زوجة تحمل اسمي؟ أما لأطفالي؟" ولم يكن الرصاص قد توقف.. شمس تطلق زخات متصلة لا تعرف انقطاعاً، تنقض وقد تحولت إلى مخالب وأنياب، لبوة تشهد لبوة أخرى تقترب من عربنها.. غيرة؟! كراهية؟! خوف؟! شمس لا تدري أي مزيج من الأحاسيس كان يعتدل في داخلها.. ما تعلمه أن ثمة بركاناً في داخلها كان قد تفجر حمماً لاهباً.

-أرأيت؟ ما كنت أحشاه قد وقع!! قالت لعزير بعد أن روت له القصة.

-مفاجأة.. هي مفاجأة حقاً!! كرر عزير وهو في غاية الاستعراب والدهشة.. تأتي إليه هنا كي تتزوجه.. أية نساء!! أي زمن!؟

-قلت لك ذلك.. مذ وقع عليها ناظري عرفت أنها تريد أن تخطفه.. أن تضع يدها عليه. ولم يجد عزير جواباً فلاذ بالصمت.. كان يعلم أن المرأة تفهم المرأة أكثر مما يفهمها الرجل. هي تملك حدساً لا يملكه الرجل، وبحدسها ذلك تسبق منطق الرجل.. الأخضر فسر الأمر على نحو آخر فبدأ مماًزحاً:

-اظهري الآن!! اظهري على حقيقتك!! حماة تغار من كنة!!

-كنة؟ أجابت شمس غير مازحة، وهل يمكن لهذه الجنية أن تكون كنة؟ لا.. لا.. إن هي إلا نمرة تريد افتراسك أمام عيني فكيف أسكت؟ ولم تسكت شمس..

-اطردها في الحال.. ختمت نقاشها معه.. لا أريدها ساعة واحدة في هذا البيت..

لكن حسن الضيافة، إضافة إلى الشهامة العربية، منعاً الأخضر من أن يطرد جانيت.. عزير ساعده في ذلك، عله يصل إلى حسن التخلص فلا يموت الذئب ولا يفنى الغنم..

-كسكوسي.. شيري؟ سألته جانيت وقد همدا بعد ثورة حب، أنت لم تجنبي على اقتراحي؟ لم تقل لي متى نتزوج؟  
-أخشى أن تكوني قد تسرعت، أن تندمي فيما بعد.. فكري قليلاً، تروي أكثر..

-ماذا تعني؟ ردت وفي صوتها أثر من رعشة..

-أعني.. عودي إلى باريس، راجعي حساباتك بعيداً عن سحر الشرق.. عن

تأثير الشرق.. هناك.. خذي قرارك على مهل..  
-أفهم أن أهلك لم يوافقوا؟ قاطعته بشيء من حدة وحنق..  
-لا، ليس الأمر أمر أهلي، رد الأخضر وصورة واحدة تسكن عينيه: جانيت تعانق هذا الشاب وتتأبط ذراع ذلك..  
-إذن، هو عقل الشرق: يقبلني صديقة لكنه يرفضني زوجة؟ قالت، وكثير من العتب في عينيها.  
-جانيت، أرجو أن تفهميني، رد الأخضر، في صوته تلعثم وفي عينيه خجل وحيرة. لو كنت في باريس لما كانت هناك مشكلة.. لكن أنا هنا في الشرق حيث الماضي والحاضر يعيشان معاً، وعلى سطح واحد.. أنت بنفسك رأيت ذلك. هنا الماضي جزء لا يتجزأ من الحاضر، فكيف لأحدنا أن يتجاوزوه؟ كيف له أن يغفله؟  
-كيف يغفله هناك؟ كيف نتجاوزوه؟  
-لأنكم الغرب ونحن الشرق.. الشرق الذي يضرب جذوره عميقاً في التاريخ فينشد إلى التاريخ، يسحره الماضي أكثر من الحاضر فيعيش الماضي أكثر من الحاضر..  
-وأنت أخضر!؟  
-أنا إنسان والإنسان ابن بيئته..  
-لكن هذه ازدواجية. أخضر.. هذا خطأ..  
-لا.. جانيت.. قاطعها قبل أن تزداد حدة، وبصوت طغى على صوتها، البيئة تفرض نفسها عليك.. والذكي من يتكيف مع بيئته.. أنا ابن الشرق ولا أستطيع إلا أن أكون ابن هذا الشرق حتى نتمكن من تغييره..  
-حسن إذن!! أسافر غداً!! قالت وفي حلقها غصة منعته حتى من الكلام..  
لم يعترض الأخضر ولم يستمهل.. كان قد مضى على ضيافته لها أكثر من سبعة أيام بكثير ومن حق الضيف أن يتخذ القرار الذي يشاء بعد سبعة أيام بقليل..  
برداً وسلاماً نزل القرار على قلب شمس، بل لم تغادر جانيت عتبة البيت حتى صاحت:  
-وضحة، هاتي فخارة فاكسريها..  
وكسرت وضحة الفخارة، فيما كان عزيز يقهقه، ربما للمرة الأولى مذ أصابه رصاص الفرنسيين وشظاياهم. ضحك عزيز أيضاً لكن بغير قهقهة، حين جاءه

مناف باقتراح:

-أبي.. أريد أن أتزوج..

-حسناً تفعل.. أجابه الأب، وهو يتصوركم ستفاجأ الأم التي لم يكن يشغلها غير زواج الأخضر، فيطلع لها زواج مناف..

-لكن بغير عرس، تابع مناف بنبرة الحذر..

-أحسن وأحسن.. رد الأب وقد خالط سروره شيء من إعجاب...

-الناس كلهم يطالبون بالأعراس، كان رأي الأم حين عرض عليها الأمر، فلماذا أنت العكس؟

-بنفقات العرس نذهب إلى يافا.. نقضي شهر عسلنا هناك..

-فكرة بارعة لا يتفقق عنها إلا ذهن تاجر بارع، علق الأب وهو يتفحص الابن الذي كان قد ينس منه ذات يوم وهو يراه يكره الدرس، يهرب من المدرسة، يبتكر أغرب الحجج والمبررات كي يبرر رسوبه في صفه ويعلن المرة تلو المرة أنه لا يريد أن يكون معلماً كبدور، ولا طبيباً كالأخضر بل تاجراً كأبيه. لا يملك الأب ما يدفع به حجتة، فيلتحم به مناف، يساعده في العمل ثم يحل محله ما أن يقع المصاب ويفلح في التجارة حيث أخفق في الدراسة.

بلا عجيج ولا ضجيج، عقد مناف قرانه على خيرية، ثم تأبط ذراعها ترافقها أمها والبقية الباقية من أخواتها إلى محطة السكك الحديدية. ودع الأخضر أخاه وودعت روضة ابنتها إلى يافا، حيث جذورها تمتد هناك أعماماً وأخوالاً ومناف لا يريد من شهر عسله إلا أن يساعده في إقامة جسور مع يافا ومن فيها من تجار فلسطينيين ومتعهدين انكليز يحتاجون لحبوب حوران ويدفعون أثمانها بسخاء.

-يافا؟ تساءل الأستاذ بمزيج من لوم واحتجاج. كيف تسمح له بالذهاب إلى هناك، ويافا غير آمنة؟

-صحيح!! شهقت شمس وقد ساورها الخوف، كيف فاتنا ذلك؟

-لا.. لا أظن أن هناك من خطر!! تدخل عزيز وهو يرشف فنجان قهوته متكناً على وسادته.

-لا تظن.. وفلسطين كلها على حافة بركان قد يثور في أية لحظة!! قال الأستاذ بنبرة تشاؤمه المعتادة وتنبؤاته السوداوية التي ألفوها. هو مذ جاء من اللواء طريداً شريداً لم يهنأ له عيش ولم يعد يرى غير نصف الزجاجاة الفارغ. عزيز

يعرف ذلك لكنه يحبه، يكبر فيه ثقافته.

هو موسوعة المعرفة.. يسأله عزيز عن أي شيء وفي أي شيء فيلقى الجواب الشافي..

الأستاذ، مذ وقع عزيز، لم يتركه. كل يومين أو ثلاثة يمر به، يجالسه، يحدثه، يتغديان، يتعشيان، ويناقدان قضايا الساعة ومسائل السياسة. عواد يحبه هو الآخر.. في غدواته، روحاته، كثير ما يلزمه.. آراء الأستاذ، كتاباته، مقالاته كلها تجذب الاهتمام، تلف حوله المريدين والتلاميذ حتى صار من حوله لفيف من التلاميذ والمريدين.. الأخضر معجب هو الآخر به، مثلما الأستاذ معجب بالأخضر، وهو وحده من يدخل معه بنقاش، يجادله، يأخذ ويعطي معه ويتكشف الأخضر عن ثقافة كبيرة أيضاً وسعة إطلاع. كان الأستاذ لا يفتأ يتحدث عن فلسطين والشر الذي ينتظر فلسطين. "الإنكليز ينفذون وعد بلفور بندا بندا ومرحلة مرحلة." كان قد قال مذ جاء من اللواء ثم شيئاً فشيئاً صار يطلق بوق الانذار "اليهود يقيمون المستوطنات" "اليهود يشترون الأرض" "اليهود يتوسعون" وكان عزيز يعجب دائماً من أين يأتي الأستاذ بمعلوماته وإحصائياته تلك التي كانت الأيام التالية تتكشف عن صحتها. "صار لليهود مؤسساتهم المستقلة وإداراتهم، منظماتهم العسكرية وأسلحتهم،" تل أبيب صارت مدينة كاملة لليهود ستبتلع في يوم من الأيام يافا". وكان ذلك ما بث الرعب في قلب شمس..

-حقاً؟ هناك خطر على مناف؟ سألته وهو ما يزال يشرب قهوته.

-من يدري؟ يكون المكان آمناً، فجأة تأتي عصابة من رجال شتيرن أو الأرغون. ينحرشون بالعرب ويفتعلون معهم مشكلة لها أول وليس لها آخر..  
-ويلي عليك يا مناف!! صاحت الأم وهي تتصور ابنها أمامها قتيلاً أو جريحاً.

-توكلي بالله، شمس، هتف بها عزيز لائماً مشجعاً، من له عمر لا تقتله شدة..

-صحيح.. تدخل الأستاذ بكثير من القهر، لكن اليهود أشرار، يحيلون فلسطين كلها إلى جحيم ونصب أعينهم هدف واحد..  
-أي هدف؟ سألت شمس وكأنها نسيت الغاية الأساسية من وعد بلفور.  
-طرد العرب.. كل العرب.. فتبقى فلسطين كما يزعمون: أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض..

-وهذه هي الطامة!! قال عواد الذي كان قد غدا حوارياً من حواريه.  
-وهل هي الطامة الوحيدة؟! تابع الأستاذ، ثمة طامات.. تركيا سلبت لواء  
اسكندرون، إيران نهبت عريستان، فرنسا تفرنس الجزائر.. والحبل على الجرار!!  
الحبل على الجرار!!

-كم الصورة قاتمة!! علق عزيز وهو يتذكر أحلاماً عاشها هو والبيوزياشي  
صبري في الزرقاء وهوران ثم في الطريق إلى دمشق..

-كيف لا تكون كذلك والوطن كله ما يزال خارطة من الرقع: كل رقعة  
مختلفة عن الأخرى، مضادة لها.. وكلها ترسف بأغلال العبودية والاستعمار؟  
-لا.. أستاذ.. لا تتشاعم كثيراً.. ثمة بلدان استقلت، اعترض عزيز محاولاً  
تحسين الصورة قليلاً..

-صحيح، لكن أكثر البلدان، ماذا؟ بحرقة ولوعة تساءل الأستاذ..  
-الأستاذ على حق، تدخل عواد الذي تشرب أفكار أستاذه جيداً.. ثم بدأ  
يعدد: المغرب، الجزائر، تونس، كلها ما تزال تحت نير الاستعمار الفرنسي..  
السودان، فلسطين، عدن، بلدان الخليج العربي، كلها ما تزال ترزح تحت نير  
الاستعمار البريطاني.

-سيأتي يوم وتستقل.. علق عزيز بنبرة من تفاؤل.. هي تكافح من أجل  
الاستقلال، وكما استقلت مصر والعراق لا بد أن يأتي يوم وتستقل..

-ربما، لكن أي استقلال؟ بل ما الجدوى من مثل هذا الاستقلال؟ عاد  
الأستاذ لأفكاره العويصة، تلك التي بدت لشمس وكأنها لغز.. فارتدت إلى لهجتها  
البدوية تسأل:

-ما تعني أستاذ؟ ما به فائدة من الاستقلال؟

-شمس، يا عزيزتي، أجاب الأستاذ مؤكداً على مخارج ألفاظه.. يكون  
الاستقلال حقيقياً، مفيداً بقدر ما تكون الدولة قوية، لكن إن كانت ضعيفة،  
صغيرة، تفتقر لأدنى مقومات الدولة، ماذا سيكون استقلالها؟

-هشا، ضعيفاً، سارع عواد للإجابة.

-وهذا ما أراده الاستعمار.. هذا ما خطط له منذ البدء.

-كيف أستاذ؟ تابعت شمس تساؤلها وقد ازداد كلام الأستاذ ألغازاً..

-حين حل الاستعمار الغربي محل الاستعمار العثماني وجزأ هذا الوطن

المسكين إلى مستعمرات ومحميات، كان يريد أن يفرض أمراً واقعاً، حتى بعد الاستقلال..

-أجل، هتف عواد متحمساً، يسلم فمك أستاذ.. الأمر الواقع هذا هو المخطط الفظيع..

-بدلاً من أن نكون وطناً واحداً من المحيط إلى الخليج، تابع الأستاذ وكأنه لم يقاطع، يحولنا إلى شرادم يستعمرنا أجزاء، يرسخ حدوداً بينها وحواجز وحين يخرج نجد أنفسنا كما صنعنا مزقاً وشراذم، ضعفاء، فقراء، فماذا نملك إلا أن نظل تابعين له؟ نستمد نسغنا منه، ندور في فلكه، نأتمر بأمره؟.. ويكون استقلالنا أجوف فارغاً أبعد ما يكون عن الاستقلال..

-أنا أخالفك الرأي أستاذ، احتج عزيز وقد ضربت آخر ذرة تفاؤل لديه..

-كيف؟ ماذا ترى؟ سأل الأستاذ بابتسامة من يرغب في أن يرى نفسه على خطأ..

-حين تستقل البلدان العربية كلها ما الذي يمنعها من أن تتحد؟

-ما يمنعها الآن..

-الآن.. هناك استعمار..

-وغداً سيكون استعمار.. وما هو أدهى من الاستعمار، قاطعه الأستاذ ممعناً فيه النظر..

-أدهى من الاستعمار؟ إيش هو أستاذ؟ تدخلت شمس بحب استطلاع جديد..

-الحكام..

-لا، أستاذ، تنطع له عزيز من جديد، لا أعتقد أن هناك حاكماً لا يؤمن بوحدة العرب وضرورة وحدة العرب.

-وأنا أعتقد ذلك أيضاً.. لكن يؤمن بمصالحة أكثر، يريد أن يحافظ على كرسية أكثر، فيرسخ الحدود ويعمق التجزئة حتى ليبدو أكثر تمسكاً بها من الاستعمار..

-والجامعة العربية أستاذ؟ عادت شمس تسأل، وقد سمعت الكثير عن تلك الجامعة من الناس والإذاعات.. سبع دول عربية الآن في الجامعة.. ما هي وحدة، أستاذ؟

-الجامعة؟! رد الأستاذ وهو يلوح برأسه منتهداً، أه من بريطانيا كم تخرع من أشكال وأطر!!

-ما الشكل الصحيح، إذن.. أستاذاً؟ سأل هذه المرة عواد وقد صمت طويلاً.  
-من المحيط إلى الخليج دولة واحدة.. بلا حواجز، بلا حدود.. يرفرف في كل مكان منها علم واحد، فيها جيش واحد ولها رئيس واحد..  
-يا سيدي.. أنا أرضى بولايات عربية متحدة.. مثل أمريكا.. علق عزيز متحسراً

-دولة واحدة، ولايات متحدة.. تدخل عواد.. المشكلة.. كيف؟  
-بالكفاح.. بالتضحية.. اندفع الأستاذ متحمساً يجيب..  
-أيضاً.. كفاح وتضحية!! قاطعته شمس مستغربة..  
-تعلمين شمس؟ انتهينا من الاستعمار يعني انتهينا من الجهاد الأصغر..  
فماذا يكون أماننا؟

-الجهاد الأكبر، أجاب عواد للتو وقد سمع الجواب من قبل..  
-أجل.. ما بعد الاستقلال هو الجهاد الأكبر.. مهمات كثيرة أماننا: نهضة، تطور، لحاق بركب الأمم، صنع حضارة.. لكن قبل ذلك كله التحرير والوحدة!!  
-التحرير!! الوحدة!! الله ما أعظم أن يتحقق هذا الحلم، هتف عواد بحماسة أستاذة وقد تشرب حلمه نفسه!!  
-تعلمون؟ همي الآن أن يتحقق حلم استقلالنا هنا.. أن يجلو الاستعمار عن بلادنا!!

لم يكن ذلك هم الأستاذ وحده.. بل كان هم الناس جميعاً: الجلاء.. الاستقلال. كانت فرنسا قد وعدت أكثر من مرة بإعطاء سورية ولبنان الاستقلال، لكنها كل مرة كانت تكذب وتراوغ، تسوف وتماطل.. حتى قرار هيئة الأمم المتحدة، حاولت الالتفاف عليه، قصفت البرلمان السوري، ضربت دمشق، طرحت مشاريع معاهدات وأفكار اتفاقيات تلغي كلها الاستقلال، لكن كان ثمة رجال سياسة يعرفون كيف يدافعون عن حق بلدهم في الحرية والاستقلال، وكيف يدفعون الاستعمار إلى الجلاء، وكانت هناك قوى جديدة تريد أن تطيح بالقوى القديمة جانباً..

آليات فرنسا بدأت بالانسحاب: طيرانها، مدفعيتها، دباباتها، جيش الشرق كله

ينبغي أن يعود إلى الغرب.. كل في أرضه وكل في موقعه، الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان إلا ندين متكافئين متكاملين.. الكل على نار. ثمة تساؤل ولهفة.. متى تنهي فرنسا انسحابها؟ متى يجلو آخر جندي عن أرض الوطن؟

-الحمد لله!! الجلاء صار وشيكاً، جاءت شمس لعزير بخبر طازج نقلته لها عايدة بيهم للتو.

-أنا لا أصدق حتى أرى بعيني وأسمع بأذني!!

-بل صدق.. خبر يقين لا يأتيه باطل من أمام ولا من خلف..

-إيه!! تأوه عزير وكأنما أقر بصدق الخبر. اللعنة على الاستعمار: عصملي وفرنساوي.. قد ذهبنا بعمرنا..

-العمر كله ما يزال أمامنا.. عزيز!!

-ونحن ندنو من الغروب، شمس!؟ عاد عزير للتهجد حابساً دمعة توشك على الانفلات..

-لا.. لا تقل ذلك، حبيبي!! احتجت شمس وهي تشعر بنوع من القهر بعد

أن رأيت الدمعة في عينه. شمسك لا تزال في الجوزاء!!

-كم أود ذلك حبيبي!! لكن كيف وها نحن نعود وحيدين؟ تساءل وهو ينظر

حوله فلا يرى دوراً ولا منافاً.. أولادنا يطيرون من حولنا لنعود كما بدأنا.. أنا وأنت فقط.

-والأخضر!؟ احتجت بقوة أكثر، أنسيته؟ انه يملأ علينا حياتنا..

-صحيح.. لكن الأخضر لعيادته، لمرضاه، للناس وليس لنا..

-بل هو لنا.. من صنعنا.. وأنا فرحة به، فرحة بما صنعنا..

-وماذا صنعنا؟ يخيل إلي أن العمر مضى دون أن نصنع شيئاً!!

-عزير.. قالت بنبرة كلها لوم، ما الذي نقوله؟ انظر حولك يا رجل!!

الأصدقاء.. المحبون.. الساسة.. الزعماء.. المحل، القرية.. الأولاد.. مال وبنون،

ومازينة الحياة الدنيا؟ مال وبنون.. عزيز.. صدقتي.. لقد صنعنا الكثير، أنجزنا

الكثير وحري بنا أن نرفع رؤوسنا فخاراً، نزهو على الناس جميعاً..

-نرفع رؤوسنا؟ نزهو؟ قال زافراً وهو يشير إلى جسده الممدد على السرير..

كيف، وعزير، الذي كانت ترتج الأرض تحت قدميه، لا يستطيع الوقوف على

قدميه.؟

-ستقف.. أنا واثقة أنك ستقف.. ستمشي..

-أقف؟ أمشي؟ وأنا منذ سنين ما زلت مكاني، طريح الفراش، صريع الألم إن أتيت بأدنى حركة.

لكنك تتحسن.. قاطعته شمس واضعة راحتها على شفثيه.. مذ بدأ الأخضر علاجك، أنت تتحسن.. فقط لو تطيعه فتبدأ بالعكازين.. تتدرب على المشي بلا عكازين..

-لا، صاح عزيز محتجاً، كل شيء إلا العكازين.. اللعنة عليهما، لا أريد أن أقف على عكازين.. أأسمعين؟ أريد أن أمشي برجلي عزيز فقط، لا بعكازين.

-والعجلة؟ لماذا لا تخرج بها؟ تشم الهواء، ترى النور على الأقل..

-ولا عجلة أيضاً.. قلت لك، لا عكازين ولا عجلة..

بعد ثلاثة أيام، أفاقت دمشق على طلقات المدافع ولعلة الرصاص.. فتح عزيز الإذاعة المحلية، فجاءه صوت يرتعش فرحاً وغبطة: هذا يوم الجلاء!! هذا يوم الحرية.. هذا يوم الاستقلال!!

وخرج الأخضر يستطلع.. كان آخر جندي فرنسي قد جلا عن تراب الوطن، وكانت دمشق تخرج عن بكرة أبيها، تنتسم هواء الحرية.. تعب أنسام الاستقلال.. نساء، رجالاً، صغاراً، كباراً، خرجت دمشق.. الكل يهزجون، يرقصون، يعانقون بعضهم بعضاً، يضحكون.. الفرحة غامرة، الزينات في كل مكان.. علم سورية رباعي الألوان: أحمر، أخضر، أبيض، أسود.. هو يرفرف خفاقاً في كل مكان، يكلل هامات الأبنية، يزين الشرفات، الشوارع.. حلقات الدبكة في الساحات، هنا وهناك العراضات، أعراس الوطن تحيي، أفراح الوطن تعيش.. يعود الأخضر يكاد يطير فرحاً.. يكاد عزيز يطير هو الآخر فرحاً.. يمتلئ حماساً وحمية وهو يسمع الزغاريد، الهتافات.. قرع الطبول، عزف المزامير، ثم يشتد حماساً حين ينقل له الأخضر خبر العرض العسكري.

-لنخرج، يصبح بشمس والأخضر.

في العجلة الخاصة التي صنعها له ذات يوم، يضعه الأخضر ثم يدفعه إلى الخارج، عينا شمس ترقبانه.. بعجب ودهشة تتابعانه، ولا تملك إلا أن تبتسم وهي تغمغم.. "لا عكازين ولا عجلة".. كم حاولت معه شمس!! كم ألح عليه الأخضر لكنه كان لا يفتأ يردد "عزيز يركب عجلة مقعد!!"

"لا، لن أخرج إلى النور إلا على قدمي، حرام علي الخروج، إلا واقفاً". لكن ها هو ذا ينسى. فرحه ينسيه حتى نفسه، ويدفع الأخضر بالعجلة عبر أزقة الميدان، شارع الرئيس، باب الجابية، نزولاً إلى الحميدية، فالسراي، حيث الجماهير تحتشد والعرض العسكري يبدأ..

ساحة المرجة تغص بالناس، ضفتا بردى تغصان بالناس، والكل يرقبون أن يظهر الرئيس.. الهتافات مدوية، الأهازيج فرحة، الزغاريد ملء دمشق.. فدمشق كلها تعيش عرس الجلاء..

يظهر الرئيس في الشرفة.. من حوله وزراء وضباط، يمسك بحبل السارية حيث العلم ما زال مطويماً. في طرف الساحة تبيض عجلة عزيز، من هذا الجانب الأخضر، ومن ذلك الجانب شمس. يشد الرئيس الحبل، يبدأ علم الاستقلال بالارتفاع.. "آه لو كنت معنا الآن، كم ستكون فرحتك كبيرة أيها الزعيم الشهبندر!!" وتتحدر دمعة على خد عزيز "بعضهم يزرعون والآخرون يحصدون!؟" ببطء يرتفع العلم، بسرعة تعود إلى ذهن عزيز ذكرى يوم آخر تسلق عزيز فيه سطح السراي.. يرفع بنفسه العلم العربي وقد خرج آخر "عصملي" من أرض الوطن. طبول الجوقة العسكرية تدق، الأبواق تعزف، الصنج يرن.. تملأ الموسيقى أذني عزيز، تملأ الهتافات رأسه، تلهب الزغاريد دمه.. وتفور قدور في داخله، تنور براكين، تضطرم حمم.. ولا يشعر عزيز إلا وهو يرتفع بيديه في الهواء، يرتفع بكتفيه، بعجزه كله ثم لا تعود هناك عجلة.. تندفع الرجلان إلى أمام.. على مهل.. تندفعان.. بحذر تندفعان.. عينا شمس تفتحان دهشة، عينا الأخضر تلمعان فرحاً، يدها تشيران:

-أمي!! ها هو ذا يقف!! ها هو ذا يمشي!!

-حمداً لك يا رب!! تهتف شمس رافعة يديها إلى السماء، لاحقة بالرجل الذي يمشي قدماً، شاقاً بيديه الزحام.

-أبي!! أبي!! مهلاً!! أبي!! يصيح الابن، لكن الأب يمضي قدماً.. يريد أن يصل إلى السارية، أن يرفع العلم بيديه..

-عزيز!! تهتف به شمس وقد أمسكت بذراعه. ها هي ذي المعجزة تتحقق، ها أنت ذا تمشي!! تتابع وهي تتلمسه، كأنها لا تصدق ما ترى، فيما دموع ساخنة تتحدر على خديها شائب مطر صيفي.

-أمشي!!؟ يرد عزيز ناظراً إلى نفسه، ثم إلى شمس، وجهه هالة من

إشراق، عيناه كوكبة من بروق، يفرش ذراعيه جناحي نسر ينضوي تحتها  
الأخضر وشمس، يتطلع إلى الأعلى، حيث العلم والشمس. للتو يشعر أنه نسر..  
جناحاه قويان وهو يطير.. يحلق عالياً في السماء، بل يخيل إليه أنه يكاد يلامس  
الشمس، يكاد يبلغ الجوزاء.



## رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الطريق إلى الشمس: ثلاثية روائية: الجوزاء/ عبد الكريم ناصيف-  
[دمشق]: اتحاد الكتاب العرب، 2000 - 338 ص؛  
25سم.

1- 813.03 ن ا ص ط  
3- العنوان  
2- 813.009561 ن ا ص ط  
4- ناصيف  
ع- 2000/10/1820-  
مكتبة الأسد

□□

## هذا الكتاب

ترصد الرواية تبلور الوعي الفكري في سورية من خلال تأثير الشخصيات بالأحداث وتأثيرها، وصولاً إلى الوعي القومي من خلال إشارات إلى شخوص فاعلة، إضافة إلى عرض تباين في أسلوب التفكير والحياة بين كل من الشرق والغرب..

□□